الدكتور أيمن نور

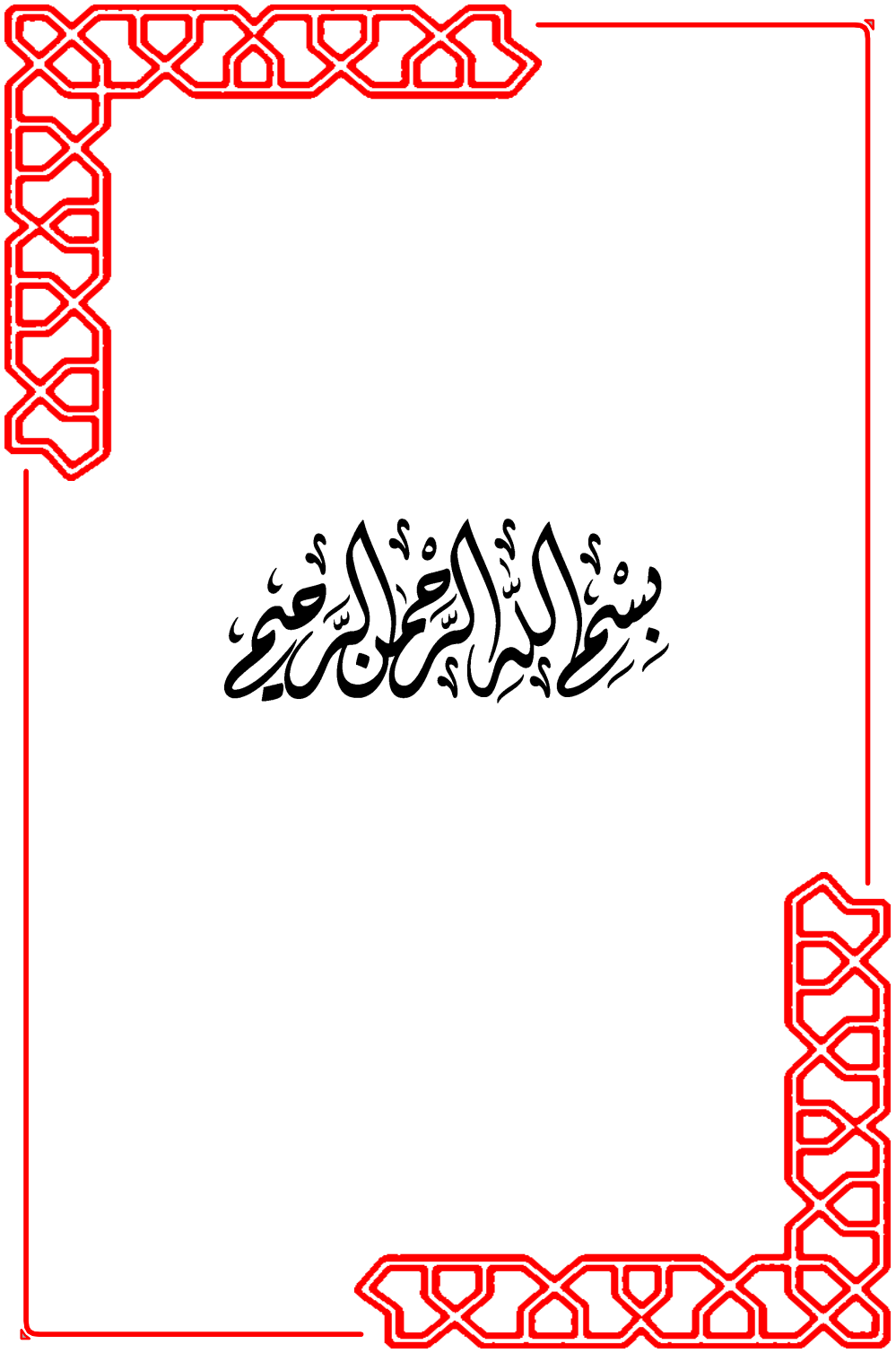
أوراق من مذكراتي



شهادة على مصر في نصف قرن

دار العودة

أوراق من مذكراتي

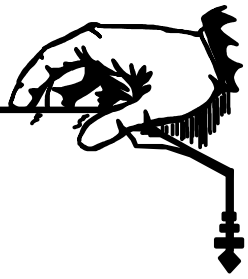

بسم الله الرحمن الرحيم

أوراق من مذكراتي

الدكتور أيمن نور

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م



المقدّمة

۞ .. قبل ان تقرأ

هناك ورقٌ يزهر حين يفيض الصمت،

وهناك كلماتٌ تمشي على الجمر

لتقول:

أنا مازلت هنا....

۞ أحيانا يفيض القلب بما لا يُقال،

وتضيق النفس، عن المكوث في الظل،

لتخرج الرغبة في الكتابة لا كترف وشهوه،

بل كضرورة... كصرخة لا كصدي.

۞ هذا الكتاب، الذي بين يديك

ليس سردا لماضٍ، لا شهود عليه

ولا توثيقًا لزمنٍ فات،

بل محاولة لاستعادة ملامح وطن

من مرايا تكسّرت، ومن ظلّ... اختفى بقرار جمهوريّ من الخريطة.

۞ ما بين دفتي هذه الأوراق،

تنساب الحقيقة بلا تبري، أو تجميل،

ولا زينة، ولا أقنعة.

هي وجهي كما هو،

وصوتي كما أنا،

وخطواتي كما خطوتها

مرات في الضوء،

ومرات في العتمة.

۞ لم أكتب ما يرضي، أحد

بل ما يُشبهني.

لم أطلب التصفيق،

بل الوضوح.

لم أسعَ إلى مجد،

بل إلى لحظة صدق...

تحيا على الورق.

۞ وتتشكل هذه الأوراق في خمسة مسارات تنبض بي وبما مضى مني:

أولًا: أوراق من مذكّراتي ـ حكايات الإنسان، قبل السياسي، قبل السجين، قبل المعارض.

ثانيًا: شخصيات في حياتي ـ وجوه صنعتني أو حاولت أن تكسرني... فازدادت ملامحي وضوحًا.

ثالثًا: أنا وسبتمبر - حيث الكوميديا السوداء والهزل في موقع الجد وذكريات الانتخابات الرئاسية ٢٠٠٥

رابعًا: أوراق من سجني ـ حيث ينقش الألم أعمق الجمل، وحيث تنضج الحرية في العتمة.

خامسًا: أوراق ليبرالية وبرلمانية ـ حيث الحلم يُشرّع، والفكرة تُخاض وسط الأسلاك.

سادسًا: صور ومشاهد من حياتي

ومضاتٌ عابرة تحمل من النبض

ما لا تحتمله المجلدات.

۞ ويبقى فصلٌ لم يكتمل بعد... وهو

أوراق المنفى

ذلك الجزء المؤجل من القلب،

حيث الغربة وطنٌ آخر،

والحنين لغة لا تُترجم.

۞ لست بطل هذه الأوراق،

لكنني الكاتب والشاهد...

وأحيانًا الجرح والجريح.

۞ أضعها بين يديك

لا لتقرأني،

بل لتقرأ ربما تجد في نفسك،

ما يشبهني...

وما يشبهنا جميعا

لم نُولد في الهامش،

بل كُتب علينا الاستبداد

أن نعيش فيه.

❁ د. أيمن نور

إسطنبول ـ في نهاية عامي الستين

حين كتبت لا لأتذكّر، بل لأفتح نافذة علي الماضي، والحاضر، لجيل يستحق مستقبل أفضل..



سلسلة مقالات
أوراق من مذكراتي

أوراق من مذكراتي (١)

اعتذار واجب لسعد زغلول

❁❁❁ ذاكرتي عمل تركيبي بانورامي، كالبناء السيمفوني، مكون من ملايين الأشياء، بدءًا من مكاتيب السجن والحب، ورائحة الكتب، والأوراق القديمة، إلى مصحف أمي، والزمن المحفور على جبين أبي... والجرح الساكن في جبين ابني نور❁❁❁

❁ أمس ذهب الصديق القديم حفيد فؤاد باشا سراج الدين (فؤاد بدراوي) وعدد من قيادات الحزب لقبر سعد باشا للاعتذار له في ذكراه (٢٣ أغسطس) وسبب الاعتذار هو هذا الذي اصاب الوفد من هوان وانحدار!!

هذا الاعتذار الواجب لسعد

ذكرني اني مدين له باعتذار مشابه تأخر سنوات

ستكشف لكم تفاصيله هذه القصة المثيرة

قبل أن يموت دعاني لمنزله في حدائق القبة.

أخرج الرجل الذى تجاوز التسعين عامًا من غرفة نومه عدة صناديق من الكارتون، وقال لي ليس لدى أبناء، ولا زوجة، لذا قررت أن أتبرع بكتبي للكنيسة، أما ثروتي الحقيقية فهي لك!!

حملت الصناديق في سيارتي، والفضول يقتلني لأعرف ما بداخلها بين ركام من التراب والصحف القديمة جدًا، والتي يحمل بعضها إشارات بقلم سعد زغلول ـ دوائر وتعليقات وعلامات استفهام وتعجب ـ على هامش مقالات لطه حسين وهيكل باشا، وجريدة «السياسة الأسبوعية» وغيرها.

بين هذه الصحف التي مر على صدورها وعثوري عليها ثلاثة أرباع قرن وجدت رسائل خطية موجهة لصفية هانم أو «خانم» كما كان يكتب سعد زغلول.

لأول وهلة تصورت أنى عثرت على كنز وثروة تاريخية أهداها لهذا الشيخ القبطي الذى عمل لسنوات ـ ومنذ طفولته ـ فى بيت الأمة وحتى وفاة صفية زغلول!!

للأسف كانت معظم الرسائل على عكس ما تمنيت، أو توقعت، فبعضها بلا تاريخ، وأحيانًا بلا توقيع، وأغلبها بلا مضمون!!

الرسائل شف مضمونها أن سعد زغلول أرسلها من منفاه، حيث إن مضمونها شبه متكرر وبالنص!! مع تغيير فى ترتيب السطور!! وملخصها جميعًا أن سعد يطلب من زوجته أن تستعجل إرسال النقود أو ينتقد تأخرها فى إرسالها، ويطلب منها إرسال فانلات وجوارب ثقيلة لمواجهة البرد!! أو يسأل لماذا لم يتم إرسال الكوفية والكلسون الصوف؟!

عندما لم أجد غير هذا، في الخطابات، ضحكت، وقلت لنفسي لو يعرف سعد باشا، أن هذه الخطابات ستصل يومًا لمثلى لتحمل البرد، وتأخر الفلوس وما خط سطرًا واحدًا منها ؟!

مات عم «نسيم» ومر على هذه الحكاية قرابة ٢٧ عامًا حتى تذكرتها مؤخرًا وأنا أقرأ بعضًا من رسائلي، فقررت أن أتخلص منها بتمزيقها نظرًا لضيق مساحة الذاكرة والتي لا تسمح بالاحتفاظ بأشياء لا يريد غيرى الاحتفاظ بها.

قبل أن أتخلص من هذه الرسائل طالعتها سريعًا، فإذا بي أكتشف فجأة أنها تكاد تكون بالنص ذات الرسائل التي أخذت على سعد زغلول أنه انشغل بتحريرها، رغم تفاهة مضمونها وفقًا لتقديري منذ ٢٠ عامًا..

لم أكن أعرف منذ ٢٧ عامًا أن المسجون أو المُبعد، أو المحروم من أهله، إنسان يأكل ويشرب ويبرد ويمرض!!

بعض الأمور التي قد تبدو في عيون الناس تافهة وثانوية.. عرفت بعد دخولي السجن، وبعد إبعادي خارج مصر أنها تتحول إلى أولوية قصوى في حياة الإنسان مهما كان شأنه وقدره وفهمه، وتتحول بعد السجن لأولويات أكثر قسوة إذا لم تجد من تنتظرها منه!!

الحياة في السجن تضيق، وتضيق، حتى تصبح هذه الأمور الصغيرة مطالب «تاريخية»!! والحياة بعد السجن تتسع، فتضيق أنت.

وربما تخجل من بعض مطالبك «التاريخية»، والأكثر إثارة للألم والضيق من خطابات السجن «الممزقة» ألا تجد أصلًا من توجه له مثل هذه الخطابات!!

⊙ ألم اقل لكم في البداية -:

ذاكرتي عمل تركيبي بانورامي، كالبناء السيمفوني مكون من ملايين الأشياء،

أوراق من مذكراتي (٢)

خواطر سجن ما قبل الغربة

ذاكرتي عمل تركيبي بانورامي، كالبناء السيمفوني، مكون من ملايين الأشياء، بدءًا من مكاتيب السجن والحب، ورائحة الكتب، والأوراق القديمة، إلى مصحف أمي، والزمن المحفور على جبين أبي... والجرح الساكن في جبين ابني نور

الانطلاقة نحو المجهول: من الانتخابات إلى الزنزانة

في أروقة الذكريات، وفي دهاليز النفس التي ترهقها الأسوار وتثقلها القيود، أجد نفسي أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام التي تقاذفتني فيها أمواج السجن العاتية. كانت تلك الأيام كأنها ليل طويل بلا فجر، لكنه ليل مفعم بالأسرار واللحظات الحافلة بالمعاني، تلك التي تشكلت من تجربة شخصية عميقة لا تنسى، تجربة وسمتني ووسمت حياتي، وجعلتني أعي معنى أن تكون أسيرًا للظلم، ومجالدًا لألوان القهر، ولكن معتصمًا بالأمل والعزم، وكأنك تعلن في كل لحظة أن كلمتك، فكرك، وقلمك لن تنكسر، مهما كانت التحديات.

بداية السجن: هدوء ما قبل العاصفة

كانت البداية بعد الانتخابات الرئاسية التي شهدت فيها البلاد عبثًا

سياسيًا طالما أدركناه، ولكنه في تلك اللحظة، لحظة إعلان نتائجها المزورة، تجلى بأبشع صوره، فأضحت العدالة مهزلة أمام عيناي. وسرعان ما وجدت نفسي في مواجهة محاكمة هزلية، محاكمة كانت مجرد صفحة جديدة في كتاب الظلم المفتوح، قضية توكيلات حزب الغد، تلك المسرحية التي أدارها المستشار عادل عبدالسلام جمعة، محاولًا أن يفرض الصمت على صوتي الذي ظل صداحًا بالحق، في ١٧ جلسة بدأت في ٢٨ يونيو ٢٠٠٥ وانتهت بجلسة العاشر من ديسمبر من نفس العام، حيث صدر القرار المباغت بحبسي.

في تلك اللحظة، لم أكن أسيرًا للزمن بقدر ما كنت أسيرًا لفكرة أن الكلمة قد تُحبس، ولكنها لا تُقتل، وأن السجن، رغم قسوته، قد يكون المكان الذي تنمو فيه الأفكار وتترعرع. وهكذا بدأت رحلتي داخل جدران السجن، تلك الرحلة التي استمرت أربع سنوات وسبعة شهور، كانت زاخرة بالمعاني والدروس، أشبه بكتاب مفتوح على مصراعيه، يدعوني كل يوم إلى قراءة فصل جديد، وإلى الغوص في أعماق النفس واكتشاف مكامن القوة فيها.

الأيام الأولى: تأمل واكتشاف

كانت الأيام الأولى في السجن هادئة نسبيًا، بل يمكن أن أقول إنها كانت فترة تأمل واكتشاف. كنت أستفيد من كل لحظة فيها، أقرأ وأكتب وأرتب أفكاري، وكأنني أعد العدة لمعركة طويلة مع الزمان. تلك الأشهر الثلاثة الأولى كانت فترة سماح، فترة لم تكن فيها القيود قد أحكمت بعد، ولم تكن فيها تعليمات المنع قد صدرت. ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال عندما جاءني محمود وجدي، رئيس مصلحة السجون آنذاك، ليخبرني بأنني ممنوع من الكتابة. كانت تلك اللحظة فاصلة في حياتي داخل السجن، إذ تحولت من مرحلة التأمل إلى مرحلة التحدي، التحدي الذي كان يعني لي الحياة أو الموت.

التحدي والكتابة: صوت لا يخبو

في تلك المرحلة، أصبح السجن مدرسة، ولكنها مدرسة قاسية، مدرسة تعلمت فيها أن الكلمة قد تكون أقوى من السيف، وأن الأفكار قد تحلق بعيدًا رغم كل القيود. وبدأت أكتب، رغم كل المنع والتحذيرات، كنت أكتب لأن الكتابة كانت نافذتي الوحيدة إلى العالم، كانت طريقتي في البقاء على قيد الحياة. لم يكن الأمر سهلًا، بل كان أشبه بمعركة يومية مع الزمن، مع الحراس، ومع كل من حاول أن يكسر قلمي.

التحدي الأكبر: تهريب الأفكار بين القضبان

ذات يوم، جاءني شاويش بسيط يُدعى محمد عنتر، رجل بسيط من الفيوم، يعاني من مرض في القلب، ولكنه كان يحمل في قلبه شهامة نادرة. اقترح عليّ أن يساعدني في تهريب مقالاتي إلى الخارج. كان الأمر محفوفًا بالمخاطر، ولكنني قررت أن أجرب. للأسف، تم اكتشاف الأمر، وتمت معاقبة محمد عنتر بالسجن العسكري لمدة ستة أشهر، رغم مرضه. خرج بعدها من السجن وتوفي، ولم أتمكن حتى من شكره على شهامته. كان ذلك درسًا قاسيًا، ولكنه زادني إصرارًا على أن أفكاري لن تُحبس، وأن كلماتي ستصل إلى العالم مهما كانت الظروف.

العزلة التامة: صراع مع الظلام

ثم جاءت المرحلة الثانية، مرحلة العزلة الحقيقية، حيث تم عزلي تمامًا ومنع أي تواصل مع العالم الخارجي. كان التحدي الأكبر في تلك الفترة هو كيف أخرج مقالاتي إلى الخارج. كانت السلطات تبذل قصارى جهدها لمنع أي تسريب لأفكاري، وكانوا يغيرون ضباط السجن بانتظام، يفتشون الزنازين بعناية، ولكنني كنت أجد دائمًا طريقة لإيصال كلماتي إلى العالم. كنت أكتب على الورق المسطر الذي يتم عده يوميًا، وأستخدم ورق الكربون لنسخ المقالات، ثم أهرب النسخ بأساليب مبتكرة، أحيانًا بمساعدة أشخاص من خارج السجن.

لحظات إنسانية: بين الحياة والموت

لكن الحياة في السجن لم تكن فقط كتابة وتحدي. كانت هناك لحظات إنسانية، لحظات قاسية ولكنها علمتني الكثير عن النفس البشرية. أذكر أنني في مرحلة ما بعد العزل الانفرادي، كان يُرسل إليّ سجناء يعانون من أمراض خطيرة، أو يكونون في مراحل متقدمة من المرض. كان الهدف واضحًا: وضع أشخاص من السهل أن يتسبّبوا في قتلي، ولكن النتيجة كانت على العكس تمامًا. كانت تلك التجارب تجعلني أقترب أكثر من النفس البشرية، وتعلمت منها الكثير عن معاناة الآخرين، وعن القدرة على التحمل في أصعب الظروف.

صديق من الخليج: تجربة جديدة

في إحدى المرات، أرسلوا إليّ شابًا خليجيًا كان مصابًا بمرض نفسي خطير. كان انطوائيًا إلى حد كبير، ولكنه كان متعلمًا ومثقفًا، رغم مرضه. تحول هذا الشاب إلى رفيق لي، وكنا نتبادل الحديث ونتعلم من بعضنا البعض. كان يحاول دائمًا أن يساعدني في ترجمة بعض الأمور، وكان يتعامل مع ضباط السجن بطريقة تثير دهشتهم وخوفهم في آن واحد. في يوم من الأيام، قام بضرب ضابط على عنقه، فأدت تلك الضربة إلى إصابته إصابة بالغة، وتم نقل الشاب إلى مستشفى الأمراض العقلية، وحرمت من رفيق كان خير صديق في هذه المرحلة الصعبة.

النهاية: النصر على الجدران

تلك المرحلة من حياتي كانت مليئة بالتجارب التي لا تنسى. كانت هناك لحظات قاسية، ولكنها كانت مليئة بالدروس والعبر. كان السجن بالنسبة لي أكبر وأهم كتاب قرأته في حياتي، كتاب علمتني صفحاته كيف أواجه الظلم وكيف أتحمل القهر، وكيف أجد الأمل في أصعب اللحظات.

ورغم كل تلك المعاناة، لم أفقد الأمل. كنت أعلم أنني سأخرج من

السجن يومًا ما، وأن كلماتي ستظل حية، وأن أفكاري ستبقى شاهدًا على تلك الفترة القاسية من حياتي. وعندما أُطلق سراحي في يوليو ٢٠٠٩، شعرت بأنني قد انتصرت في معركة طويلة، معركة لم تكن فقط مع سجاني، بل مع نفسي أيضًا.

لقد كانت هذه التجربة جزءًا لا يتجزأ من حياتي، تجربة صاغتني وأعادت تشكيل رؤيتي للعالم وللحياة. ورغم قسوة السجن، فقد خرجت منه أقوى، وأكثر إيمانًا بأن الكلمة هي أقوى سلاح في مواجهة الظلم، وأن الأفكار لا تُحبس مهما كانت القيود.

أوراق من مذكراتي (٣)

بيتنا القديم!!

❁✻❁ ذاكرتي عمل تركيبي بانورامي، كالبناء السيمفوني، مكون من ملايين الأشياء، بدءًا من مكاتيب السجن والحب، ورائحة الكتب، والأوراق القديمة، إلى مصحف أمي، والزمن المحفور على جبين أبي... والجرح الساكن في جبين ابني نور ✻❁✻

❁ .. قبل أيام من ذكراها ال ٣٠ أرثي أمي ...وأبي...

وبيتنا القديم!!

✹ ✹كابن وحيد..

كانت أمي وكان ابي

بداية العالم كله بالنسبة لي

. .✹وكان هذا بيتنا ، هو نهاية حدود هذا العالم عندي!!

.. ✹ كان هو حضن الأم والأب، كان هو بوتقة الأفراح، والذكريات،

المشتى

والمصيف.

الربيع

والخريف.

.. أستطيع الآن، أن أغمض عيني،

وأعدَّ مسامير أبوابه،

وأستعيد كل ذكرياته.

.. أستطيع أن أعدَّ

بلاطاته الرخامية

واحدة واحدة،

..ودرجات سلمه

درجة درجة.

. .هذا البيت ترك ملامحه، وبصماته الواضحة علي شخصيتي،

وحياتي،

كان ومازال هو النواة الصلبة، التي تجتمع، وتدور حولها، كل أحلامي وذكرياتي.

.. هذا البيت بأبوابه، وسقوفه، ورخامه، وحوائطه، كان ولازال للان دون غيره، هو مسرح أحلامي في نومي

.فهو الخلفية شبه الوحيدة التي تظهر في كل الأحلام باختلاف شخوصها وأبطالها وأحداثها وزمان وقوعها !!.

.. إلي كل السجون، التي دخلتها،

وإلي كل القصور، وفنادق العالم، التي زرتها،

حملت معي غرفة نومي الأولي في هذا البيت..

كي أتمكن من النوم في سلام.

.. سافرت كثيرًا..

وابتعدت أكثر

عن بيتي القديم،

سكنت في سنوات شبابي الأولي بالقاهرة، القصر العيني، وجاردن ستي

وسكنت المعادي،

ونيل العجوزة،

و سكنت الزمالك، ربع قرن..

إلا أن بيتي بالمنصورة،

ظل وحيدًا يسكنني،

يشكل تقاطيع وجهي،

يحدد طول قامتي،

يؤكدني،

يجددني

يفصح عن فصيلة دمي!!

ربما كانت بيوتي

في القاهرة والإسكندرية

واسطنبول

اكبر حجما

وأحدث أثاثا

لكنها كانت ولا زالت

محض محاولات لاستنساخ هذا البيت الاستثنائي، بمعني كلمة الاستثناء،

كل قطعة اثاث اشتريها

كل كرسي او طاولة اقتنيها

اجمل ما فيها

انها تشبه

أو تطابق احيانا

ركنًا من بيت أمي وأبي

⊙ كان ولا زال هذا البيت

نقطة ضعفي

وقوتي معًا،

أحنُ إليه كثيرًا،

كلما أحنُ لطفولتي،

وتاريخي، فاقتني شيئًا شبيها لي وله

وكأني بهذا أذهب إليه وأنكمش داخله، كما ينكمش الرضيع بثدي أمه!!

⊙ بين الحين والحين، ما أحلي الحنين إلي لقاء الطفولة والطمأنينة، والنوم في سكينة.

.. كالسفينة المتعبة، أعود إليه، لأريح جبيني، علي جبين أبي، وصدر أمي، .

.. ماتت أمي، قبل أيام من دخولي مجلس الشعب ـ لأول مرة عام ١٩٩٥ -

ومات أبي قبل أيام من دخولي السجن ـ للمرة الثانية عام ٢٠٠٥ ـ

ومات بيتنا، بعد خروجي من مصر !!

. . أمي ماتت بالقلب،

وأبي مات بحسرة القلب،

وبيتنا مات بفعل أزمة نظام بلا قلب..،

أوراق من مذكراتي (٤)

٤٠٠٠ يوم غربة

❁❁❁ ذاكرتي عمل تركيبي بانورامي، كالبناء السيمفوني، مكون من ملايين الأشياء، بدءًا من مكاتيب السجن والحب، ورائحة الكتب، والأوراق القديمة، إلى مصحف أمي، والزمن المحفور على جبين أبي... والجرح الساكن في جبين ابني نور ❁❁❁

❁ في اليوم ما قبل الاول من ال٤٠٠٠ يوم

❁ دق جرس التلفون..

قبل منتصف الليل بقليل، كنت أتأهب للسحور في منزلي بالإسكندرية

❁ كانت المكالمة حاره بحرارة أغسطس خانقة برطوبة الإسكندرية

❁ كانت مكالمة «استثنائية»، بكل معاني الكلمة،

من حيث شخص المتصل،

و موعد الاتصال،

وهدف الاتصال

❁ خليط غير متجانس من الشروط، والقيود ، والإغراءات،

❁ لا خيار ثالث،

إما أن تقبل ،

أو ترفض، وترحل!!

❁ لم ينتظر الإجابة،

لم يترك لي اختيار

موعد سفري،

ولا وجهتي،

ولا موعد عودتي،

❁ مقعدي كان على أول طائرة، حملتني لأي فضاء، أتنفس فيه الصعداء، كي أحدد، دون ضغط، قراري، واختياري.. إما أن أكون أنا، أو لا أكون..

✹ وكوني «صاحب سوابق»، في الصدام مع استبداد الحكام، ادركت صعوبة المرحلة، واستحالة التعايش مع لحظة، لا صوت فيها لغيره

ولا همس،

إلا همسه،

ولا إرادة إلا إرادته، ..

✹ كان علي يمين مقعدي في ذات الطائرة رجل الأعمال صلاح دياب

وخلفي الإعلامي اللبناني توني خليفة

ˆسألني الاول-:

اين ستكون في بيروت؟

..فقلت: ـ لا اعرف!!

˜وسألني الثاني -:

متي أنت عائد؟

..فقلت : ـ لا اعرف!!

✹۞ لم يكن لدي تهمة أهرب منها،

ولا غاية،

أهرب إليها،

۞ كانت تهمتي، وكل غايتي، أن أقول كلمتي، فيما يحدث ،

✹ لم أهرب بسفري

من اعتقال،

تعرضت له

خمس مرات

في حياتي،

ولم يسكت صوتي..

✹ ولم أفلت بسفري من عقاب، لأني لم أرتكب جريمة في حياتي،

۞ أحببت لبنان وتحملتني لبنان، عامان، وابهرتني تركيا لتسعة أعوام..

ومازالت تبهرني

۞ إجمالًا عقد ونيف من الشهور عشتها في الغربة، ولم تغب مصر فيها عن خاطري لحظة،

❁ كل يوم أحلم بقراءة سورة يسين على قبر أمي، بالإسكندرية الحبيبة، والبكاء على قبر أبي في المنصورة الجميلة،

❁ كل يوم احلم بالمشي في شوارع وأزقة باب الشعرية، وقراءة الفاتحة في الحسين

❁ كل يوم احلم بزيارة بلانه وبلاد وقرى تهجير النوبة،

❁ احلم بزيارة بورسعيد الباسلة،

والمحلة المناضلة، والسويس الصامدة..

❁ أحلم كل يوم بكل شبر من أرض مصر، تعفرت وتوضأت بترابه

❁ مصر التي نحبها أكبر، وأبقى من كل من حكموها

❁ السذج ـ وحدهم ـ

إذا رأوا الشمس تغرب،

توهموا أن

الظلام سيطول،

وأن الليل سيدوم !!

❁ أعجب لقوم أمامهم الشمس مشرقة،

ويديرون وجوههم عنها،

ليصلوا لآلهة الظلام!!

❁ أدهش لمن يتوهم

أنه يقاوم الظلام،

بإطفاء الأنوار،

وليس بفتح النوافذ !!

❍ الحرية، هى نقطة الوثوب الوحيدة للمستقبل،

فالعالم لا مكان فيه إلا للأحرار

ونهاية كل الديكتاتوريات واحدة،

⊙ لا أعرف لماذا رفضنا أن نتعلم الدرس من تجارب الأخرين!؟

، لماذا نكون نحن الكتاب الذي يدرسه الأخرون!!.

لسنا في حاجة لانتظار تجربة الحكم الديكتاتوري، فهذا الطريق لا يوصل إلا للفقر، والضياع، وهلاك الأمم

⊙ لم نترك بلادنا،

سعيًا لحكم

لم نشارك فيه

أو مغنم لم نسعي إليه،

أو انحيازًا لفريق ضد أخر،

بل خرجنا دفاعًا عن الوطن كله، لنكون من الخارج

صوتًا لمن لا صوت لهم

❍ لا أدعي

أننا انتصرنا

لكل ما نؤمن به،

لكننا لم نخسر

كل ما كنا نرجوه، ،

فيومًا نربح جولة،

ويومًا نخسر جولة،

يومًا نحرر قلعة

من قلاع الحرية،

ويومًا تسقط أخرى

في يد الاستبداد!!

⊙ من حق كل مصري أُبعد عن بلده، أن يحن للحظة العودة

بلا خوف ولا عسف ولا ظلم،

وأرفض أن نهوى بالمطارق

على كل من أنهكته الأيام والسنوات

⊙ وأرفض أيضًا من يتصورون أنه كافيًا طلاء البناء المتهدم، بطلاء ملون، كي ندعي أننا أصلحنا الشقوق والشروخ

⊙ فنصف الحرية

ليست حرية

فالوطن إما حر

أو مسجون،

إما على الطريق الصحيح

أو على الطريق الخطأ..

⊙ ليس هناك عاقل

يرفض الحوار،

فنحن أهل حوار،

لكن مجنون من يقبل

حوار الطرشان *!!!*

* ٤٠٠٠ يوم عشنا

ندور داخل الأبواب الدوارة،

ندلف ونخرج كما دخلنا

فكل الأمور والأحوال

تدور ـ للآن ـ حول

نقطة الصفر



أوراق من مذكراتي (٥)

عمري الآن ألف عام

❁ ذاكرتي عمل تركيبي بانورامي، بناء سيمفوني، مكون من ملايين الأشياء، بدءًا من مكاتيب السجن والحب، والأوراق القديمة، إلى مصحف أمي، والزمن المحفور على جبين أبي، والجرح الساكن في جبين ابني ❁

❁ منذ ٤٣ عاما كنت رئيسا لاتحاد طلاب الجمهورية للمدارس الثانوية والفنية ودور المعلمين والمعلمات

❁ في مطلع سبتمبر ١٩٨١، وقفت مصر شاهدة على واحدة من أعنف حملات الاعتقالات السياسية (بمقاييس هذا الزمن الجميل) والتي اجتاحت البلاد، حيث امتدت يد الاعتقال لتطال قرابة ١٦٠٠ شخصية من مختلف الأطياف، (سياسيين إعلاميين قيادات طلابية وكان هذا اليوم نذير شؤم، ينبئ بنهاية عصر السادات، ويترك في ذاكرة الوطن جرحًا لا يندمل، وألمًا لا ينسى.

❁ ويبدو ان الذين يولدون في العواصف، لا تهزهم الرياح،

❁ ورغم تعاقب موجات الظلم وألألم ، لم أفقد يومًا إيماني بوطني، رغم الخناجر التي تغرس في ظهري كل يوم! في حريتي ومنفاي وسجني !!

منذ ٤٥ عاما ـ أو يزيد ـ دخلت حديقة الحياه العامة وكنت أؤمن ان من يدخل الغابة لا يخشى حفيف الأشجار !!

❁ في اربع عقود، خضت عشرات المرات الانتخابات

طلابية

حزبية

برلمانية

والرئاسية

❁ دخلت المعتقلات خمس مرات

❁ عندما خضت أول انتخابات رئاسية قبل عشرين عامًا، وأنا أعلم علم اليقين، أن الطريق طويل وشاق.

❁ قرابة عقدين من الزمان منذ هذه الانتخابات التي تمت في السابع من مثل هذا الشهر (سبتمبر) ٢٠٠٥

❁ ورغم مرور كل هذه السنوات لكن الله ما زال يمتحن صبري!

❁ ما عشته في هذه الأعوام من الأهوال

ما يكفي لألف عام، من الأحداث التي يمكن لواحدة منها أن تكفي لتجعل الحياة قاسية.

❁ لا أعرف كيف يُحسب عمر الإنسان. هل يُقاس بعدد الأيام التي عاشها في سعادة وهناء؟

أم بحجم الأهوال والخيانات التي واجهها؟ ❁ هل بعدد الأحلام التي حققها، أم بعدد تلك التي تحولت إلى كوابيس؟ ❁ ❁ أشعر أن عمري الآن يقارب ألف عام!!

❁ في سجني الخامس والأخير، والذي استمر خمسة أعوام، كانت

أيامي مظلمة، لكني لم أسمح لليل أن يهزم روحي .۞ قاومت شقاءها ولم أستسلم للحزن أو الألم، بل وجدت في الصبر قوة لم أكن أعلم أني أمتلكها.

۞ حين كان السجن محنتي، كانت منحة الله لي هي أن أجعل من سجاني نفسه أسيرًا ، ورجع

صدي ، لصوتي، الذي لم يخفت يومًا، وقلمي، الذي لم يتوقف ـ لا في سجني الإجباري ولا في سجني الاختياري (منفاي).

۞ لطالما كنت على يقين بأنني أكبر من هؤلاء الذين آذوني، وأقوى من الذين ظلموني.

۞ كل ضربة تلقيتها زادت من صلابتي، وكل طعنة وجهت إليّ عمقت إيماني بقدرتي على الصمود.

۞ عندما تم اعتقالي من البرلمان في ٢٩ يناير ٢٠٠٥، تصوروا ، أنهم كتبوا شهادة وفاتي وأنا حي.

۞ لكن ذلك السجن الطويل كان ميلادي الثاني!

۞ وعندما أسقطوني زورًا في الانتخابات الرئاسية الأولى في تاريخ مصر، ظنوا أنهم انتصروا، ولكنهم كانوا الخاسرين أمام العالم.

۞ خروجي من السجن ٢٠٠٩، ثم من مصر ٢٠١٣

لم يكن إفراجًا عني بقدر ما كان تمديدًا لمعاناتي وحرماني من حقوقي كمواطن وإنسان.

۞ رغم كل القيود التي وضعوها، لم يستطيعوا إطفاء شعلة حريتي أو إسكات صوتي. ولو تم إبعاده أو التشويش عليه ۞ تعرضت لسلسلة فريده من القهر والعسر والعسف تبدا بحرماني من العمل،

و شطبي من النقابة، لإغلاق مكتبي، ومنع نشر أي خبر أو صورة لي في الصحافة إلا للإساءة والتشويه، كلها كانت جزءًا من سلسلة طويلة

من الاضطهاد استمرت ولا زالت مستمرة.

❁ يحاصرونني بالمخبرين والمدسوسين، في سجني وغربتي تجسسوا على تليفوناتي أشعلوا النار في بيتي ومقري ،

❁ لم يتركوا مجالًا إلا وحاولوا أن يلوثوا سمعتي فيه.

❁ لكن كل ذلك لم يزدني إلا قوة وإصرارًا على مقاومة الظلم.

❁ في كل مرة كانوا يظنون أنهم انتصروا عليّ، كنت أجد في أعماقي طاقة جديدة للمقاومة، فالحياة معركة، وقلبي ساحة قتال لا تستسلم للانهزام.

❁ اليوم، بعد ٤٣ عامًا من النضال، لم يتبق لي سوى حلم واحد: أن أرى وطني حرًا، وأن أظل رمزًا للعقل والاصلاح وللمعارضة في وجه نظام يريد أن يمحو كل صوت معارض.

❁ فرمانات الاغتيال التي حاولت أن تسكتني فشلت في القضاء عليّ، رغم أنها نجحت في إيلامي.

❁ ما يحزنني احيانا، ليس ما فعلوه بي، بل تورط ـ البعض ـ في ترويج تلك الفرمانات بدلًا من مقاومتها.

❁ ومع ذلك، يبقى يقيني بأن صمودي سيبقى أقوى من كل محاولاتهم لكسري.

❁ إنهم يراهنون على قوة اعواد مشانقهم،

❍ لكن الأيام تثبت أن رقاب عصافير الحرية أقوى من أن تهزمها بنادق الصيادين

أوراق من مذكراتي (٦)

لعنة ٥ و٧ سبتمبر (تكملة)

سبتمبر، إذًا، لم يكن مجرد شهر عابر في حياتي، بل هو صفحة من كتاب الحياة. علمني أن الحياة ليست مجرد سلسلة من اللحظات العابرة، بل هي نضال طويل، مليء بالتجارب التي تجعلنا أقوى، وتمنحنا القدرة على *النهوض من جديد*، مهما بلغ حجم الخسائر.

كل تجربة مررت بها في سبتمبر، كانت بمثابة اختبار لقدرتي على الصمود. قد أكون قد خسرت معارك هنا وهناك، لكنني خرجت من كل واحدة وأنا أكثر إصرارًا على تحقيق *الحرية*، وأكثر ثقة بأن **النضال* لا يضيع هباءً.

منذ أيام *سبتمبر الأولى، وأنا أحمل بداخلي شعلةً لا تنطفئ. شعلة الأمل في **مستقبل أفضل* لمصر، شعلة الحرية التي يجب أن تُنار في كل قلب مصري. فقد كان *سبتمبر* درسًا في الصبر، الصمود، والأهم من كل ذلك: درسًا في الأمل الذي لا يموت، رغم كل الصعاب.

وفي تلك الأيام من سبتمبر، وحتى مع *الاعتقال، وحتى مع تزوير **الانتخابات، وحتى مع كل محاولات تكميم الأفواه، كانت **الروح المصرية* قادرة على الاستمرار. فكل تجربة قاسية كانت تكسبني شيئًا أكبر: إيمانًا لا يهتز بأن الغد يحمل دائمًا فرصة أخرى.

❁ ربما كانت تلك *اللعنة* التي لاحقتني، لكنها كانت أيضًا هدية. *سبتمبر* علّمني أن كل فشل هو في الحقيقة خطوة نحو النجاح، وأن كل تحدٍّ هو فرصة للنمو والارتقاء.

❁ *سبتمبر* سيبقى دائمًا شاهدًا على تلك اللحظات التي شكلتني، وعلى الحلم الذي سعيت إليه طوال حياتي: حلم *الحرية، **الكرامة، والعدالة*. حلم مصر التي نتطلع إليها جميعًا.

❁ كلما جاء سبتمبر، أتذكر تلك الأيام التي عشتها بشغف، رغم قسوتها. أيام غنية بالتجارب، مليئة بالتحديات، ولكنها أيضًا مشبعة بالآمال. آمال بمصر أفضل، مصر حرة، مصر تستحق كل نضال، وكل قطرة عرق ودم سالت في سبيلها.

❁ واليوم، وأنا أنظر إلى *سبتمبر* بعين الماضي، أدرك أن النضال لم يكن عبثًا. كل خطوة، كل معركة، كل صرخة كانت ضرورية لتصل مصر إلى ما هي عليه الآن، ولنواصل المسير نحو ما نستحق أن نكون.

❁ *سبتمبر* علّمني أن *الحرية* ليست هدية تُعطى، بل حق يُنتزع. وأن النضال المستمر هو السبيل الوحيد للوصول إلى هذا الحق.

❁ ومهما كانت *الظلال الثقيلة* التي يلقيها سبتمبر، سيبقى الأمل متجددًا، وسيبقى درس سبتمبر دائمًا حاضرًا في كل معركة نضال جديدة.



أوراق من مذكراتي (٧)

عرفت في حياتي عمالقة وأقزاما

❁ عجلة الزمن تدور اليوم دوره جديدة، حيث ينطلق ـ اليوم ـ العام العشرون على خوضي غمار الانتخابات الرئاسية (الاولى) في تاريخ مصر.

❁ في هذه اللحظة، أجد نفسي عائدًا إلى ملفات الماضي، متسائلًا عن تلك اللحظات التي شكلت جانبا من مسيره حياتي،

❁ تلك اللحظات التي أحتفظ بها في زوايا ذاكرتي كما تحتفظ الدفاتر القديمة بأوراقها وسطورها ولو بدت باهته.

❁ حاولت أن أفتش في أوراقي وصوري القديمة، في خزائن الذكريات التي تراكمت على مدى ٤٠ عامًا، من العمل العام

لأكتشف أنني أملك ألاف من الصور،

وكل صورة تحمل في طياتها حكاية ورواية تستحق أن تروى.

إذا سمح العمر بذلك

بعضهم علموني

وبعضهم أحبوني

وبعضهم ذبحوني

من الوريد إلى الوريد

❁ في الأيام القليلة الماضية، بدأت أدوّن بعض أوراق متناثرة من مذكراتي،

واليوم تحديدا لن اكتب ولن أروي التفاصيل

❁ اليوم فقط أعيد الكشف عن بعض اللقاءات التي عشتها مع شخصيات بارزة،

❁ منها شخصيات تركت بصماتها على تاريخنا الوطني. وبعضها الاخر شخصيات عربية ودولية تولت ارفع المواقع السياسية والتنفيذية.

❁ عشت لحظات كان بعضها مسجلا بلقطات مصورة، بينما لم تُدوَّن العديد من اللقاءات الأخرى، التي كانت غالبا

غير رسمية، أو تلك التي لم يكن الإعلان عنها مفيدًا في تحقيق أهدافها.

❁ هذه الورقة من ملف مذكراتي ورقة (مصورة)، أكتفي فيها بنشر عشرات الصور التي جمعتني مع رموز عربية ودولية، ومع شخصيات مصرية، ❁ بعضهم رؤساء حاليون أو سابقون، وبعضهم وزراء، وآخرون من أهل العلم والخبرة السياسية .❁ لقد عشت تجارب مع عمالقة تعلمت منهم الكثير،

وبعضهم ظننت أنني سأتعلم منهم،

إلا أن الأيام كشفت لي أن القامات ليست دائمًا كما تبدو. في ظاهر الحياه!

❁ ففي رحلة طويلة عبر الزمن، قد تصادف عمالقة تعتقد أنهم أقزام، بينما ترى أقزامًا، لكنهم في الحقيقة عمالقة بأفعالهم لا بأقوالهم.

❁ يوما ما سأستدعي تلك الذكريات لأروي حكاياتها، ولأترك لها مكانًا في ذاكرة الوطن.



أوراق من مذكراتي (٨)

وصيتي وقبر أمي

كلما أعاود التفكير مرارًا وتكرارًا فيما مضى من سنوات العمر، أعيد دائمًا الكثير من حساباتي الشخصية والعامة،

هذا العام، الذي استقبل في نهايته عامي الـ٦٠ شرعت في إعادة كتابة وصيتي

التي ربما لم يأتي وقت نشرها.

لكن ما أستطيع أن أكشف عنه الآن فقط هو رغبتي أن أُدفن إلى جوار أمي ـ (إذا تيسر هذا) ـ وإن لم يتيسر فأرض الله أوسع أن تضيق بقبري الذي بحثت مؤخرا

عن بديلا له في اسطنبول الي جوار قبر عبدالله النديم وعبدالفتاح كيره

عندما توفيت أمي ـ رحمة الله عليها ـ أثناء جراحة بالقلب في لندن تجمدت دموعي في هذا اليوم.

لكني منذ ذلك اليوم الذي مر عليه ٣٠ عامًا ، لم يمضي يومًا إلا بكيت عليها،

لا أكاد أجلس وحدي إلا وأجد صورتها تملأ قلبي وكثيرًا ما تغرق عيناي بالدموع..

منذ خروجي من سجني، وقبل خروجي من مصر، كان لا يمضي أسبوعا دون أن أذهب إلى قبرها، ولا أعرف سر ارتباطي بهذا المكان، في عمق مدافن منارة الإسكندرية،

أحيانًا أشعر أني عشت فيه وفي كثير من الأحيان أشعر بالحنين لمكان قد تطول إحدى زياراتي له إلى الأبد..

في ذلك الحين، كانت قد بدأت تربطني بالمكان وسكانه علاقات خاصه جدًا، بل أتعمد أحيانًا أن أحسن علاقاتي الشخصية مع المسئولين تحديدا عن عمليات الدفن

إلى حد أني أفطرت معهم يومًا في آخر رمضان لي بمصر.

رحلتي إلى المنارة كانت لها محطات، في الدخول والخروج

كنت أتوجه مباشرة لقبر أمي شوقًا وشغفًا بلقاء دافئ بين أقرب حبيبين، وفي الخروج أزور عددًا من الأصدقاء والأحباء أمثال الأستاذ عادل عيد النائب الراحل العظيم ورجل الشرف والمثل والمبادئ الذي تعلمت منه ولا زلت رغم وفاته وأنا في سجني.

كنت أزور قبر خالد سعيد رغم شعوري برائحة نفاذه تدخل إلى أنفي وصدري في كل زيارة لقبره الصغير ـ ربما لعلمي بإخراج جثة الشهيد خالد بعد أيام من دفنها الأول، وأزور أيضًا قبر جدي لوالدتي محمد محمود حسنين رئيس بلدية المنصورة والأديب والشاعر والمفكر الذي أهمله التاريخ..

رحلتي الأسبوعية إلى منارة الإسكندرية كانت هي الرحلة الوحيدة التي أفضل أن أذهب إليها منفردًا، وكثيرًا ما كنت أفضل أن أقود سيارتي بنفسي ـ خلافًا للمعتاد ـ

أحيانًا ما أتوقف في الطريق، لأن الدموع التي تتراقص في عيني تمنعني من القيادة، وكثيرًا مارآني أصدقائي ومحبين من أهل الإسكندرية

وسألوني إن كنت في حاجة إلى مساعدة فأقول لأ شكرًا فأنا ذاهب إليها ،

فمن يساعدني على نفسي غير نفسي التي أحدث غيابها أكبر فراغ عاطفي في حياتي..

أسأل نفسي ـ أحيانًا ـ لماذا تبكي؟ هل علي الفراق ؟

أم من أثر الفراغ الذي أحدثه غيابها؟ أم تبكي على ذكريات العمر؟ أم تبكي لأنك بحاجة أن تبكي؟ وربما لكل الأسباب السابقة، وغيرها أيضًا ؟!

صحيح كانت أمي تعيش في المنصورة وكنت في أخر ١٢ عامًا قبل وفاتها أعيش بالقاهرة. فلم أكن أراها كل يوم، ربما مره أو مرتين في الشهر لكني كنت أسمع صوتها شبه يوميًا، كانت هي رنة التليفون الأولى تعليقًا على مقالي اليومي.

أكثر لحظة بكيت فيها على أمي لم تكن لحظة فراقها ولا توديعها وهي ترقد في مرقدها الأخير بل كانت بعد ذلك بشهور

حيث كنت أناقش رسالة الدكتوراه في عام ١٩٩٥، وعقب صدور وإعلان النتيجة من لجنة الاختبار وجدت نفسي انطلق خارج معهد الاستشراق متجهًا بسرعه لمنطقة الميدان الأحمر ،

قطعت المسافة التي تستغرق ١٥ دقيقة في أقل من خمسة دقائق، وصعدت للدور الثاني في فندق كبير هو فندق بلجراد حيث دخلت لمركز الاتصالات الدولية بالفندق وأعطتني الموظفة خطًا دوليًا فوجدت نفسي أدير بإصبعي قرص التليفون طالبًا كود مصر ثم كود المنصورة ثم ٣، ثم ٣ ثم، وفجأة توقفت وانهمرت دموعي.

كنت أدير قرص التليفون لأطلب رقم أمي التي رحلت قبل هذا اليوم بشهور طويلة ولم أشعر بوفاتها بشكل حقيقي إلا في هذه اللحظة..

ليس صحيحًا أننا نحتاج من نحب فقط في الضيق بل نحتاجهم أكثر كي نشعر بالفرح بالنصر بالأمل.

أمي هي تاريخ الفرح في حياتي فهي التي تعذبت وضحت بالكثير كي تنجبني رغم مرضها القديم بالقلب الذي كان يمنعها من هذه المخاطرة..

وهي التي عاشت سنوات عمرها بقلب عليل لا يصح وينتظم إلا بالفرح معي أو من أجلي..

كانت أمي تحلم أن أنهي دراسة الدكتوراه التي تأخرت في دخول اختباراتها النهائية عام كامل وكانت تحلم أن أصبح مثل والدي أصغر نائب في البرلمان..

ماتت أمي عام ١٩٩٤ وحققت أحلامها في ١٩٩٥

أحسب أن بكائي عليها لأنها لم تتمكن من أن تشاطرني أفراحي

ولكن لدي أسباب تجفف دموعي وهي أنها لم تشاطرني أيضًا أوجاعي الأخيرة في سجني ثم في منفاي.

لو كان لي أن أتمني شيئًا ماكنت تمنيت أكثر من أن تموت أمي قبل يوم واحد من ذلك اليوم الذي اكون فيه انا وهي علي قيد الحياه ولا نملك ان نلتقي.



أوراق من مذكراتي (٩)

حوار الذات

متى تعرف أنك تفتقد الحد الأدنى من حقوق الانسان وحقوق المواطنة؟

عندما تقف في بلادك، وعيناك ترنوان إلى بلاد أخرى

ومتى يتأكد هذا؟

عندما تقف في بلاد لم تنشأ فيها وأنت على أعتاب عامك ال٦٠ وعيناك ترنوان إلى بلادك

ومتى يتحقق هذا؟

عندما تبقى في بلادك ـ أو خارجها ـ وعيناك على وطن حر الوطن المستحيلً

وما هو المستحيل

عندما تبقى في بلادك، وعيناك على الماض المرير وتتمنى أن يعود

لأن الواقع أكثر مرارة!!!

❶ الورقة الاولى ۞

في سكون الصباح، حيث تتسلل أشعة الشمس كأحلام دافئة، في إسطنبول الجميلة أجد نفسي غارقًا هذا الصباح وكل صباح في *حنينٍ جارف* لماضي سحيق، هو بعض وطني، *مصر

❷ الورقة الثانية

۞ أستعيد ذكريات من شوارع ** باب الشعرية ** و*الموسكي*، مع الابن الحبيب محمود ونبيل النحاس وبرتقاله والأصدقاء يحيى الطلياوي ووحيد وخالد ليلة وسليمان البرنس وعاطف الصوفاني والأخوات ناهد رشاد وانشراح والعزيز أحمد السحرتي

۞ كانت الأحاديث تتقاسمها القلوب، قبّل الألسنه وتدور النقاشات حول أحلام بسيطة في زوايا الحي وفي مجمع نور الثقافي

الذي ارتاده، وتردد عليه كل رموز السياسية والفن والثقافة في مصر

۞ نعم أفتقد حقّي في العودة وفي *وثيقة السفر* التي تحمل اسم بلدي، لكني افتقد بلدي اكثر.. بكثير وأنا المنفى * فقط ثمنًا لإبداء رأيي

❸ الورقة الثالثة

۞ أستحضر في خيالي صورة منزلي ـ الثاني ـ الذي يطل على *بحر الإسكندرية*، الجميلة، حيث كانت الأمواج تتراقص كأرواحنا في ليالي الصيف.

في الاسكندرية، قبر أمي (فردوسي المفقود)، كنت أجد سعادتي وراحتي نهاية كل أسبوع الي جوارها وبين أحضان بحر ستانلي، متدثرا بمشاعر اهل الاسكندرية الدافئة

۞ وفي مقر الغد بلوران أتأمل في كل لقاء أسبوعي مع الزملاء والزميلات الأقرب والأحب لقلبي اخي مؤمن والدكتور محمد محي الدين

وأختي نجلاء وشهيناز ونوال كنت دومًا أحلم معهم بغد أفضل

❹ الورقة الرابعة

❁ وفي *الزمالك*، منزلي الأول ـ المتحفظ عليه ـ، لسبب لا أعرفه !! ربما لأنه هو الشاهد الاول، على لحظات الفرح، والحزن، وربما أنه كان صديقًا وحيدًا، في الشدة، وانيسًا، لي في كل المراحل الحلوة والمُرة

❺ الورقة الخامسة

حنيني يمتد إلى بورسعيد والسويس والبحيرة وبلدي الأول المنصورة حيث رفاق المدرسة وأستاذي الراحل المطربش ـ ـ حتى بعد إلغاء الطربوش ـ الاستاذ محمد عبده الذي ربما لا يذكره أحد إلا زميلي في المدرسة الابتدائية توفيق ابراهيم عطيه عكاشه (حفيد عمدة ميت الغرقا)

والإعلامي المعروف الآن توفيق عكاشه

❷ الورقة السادسة

❁ *حنيني* للمنصورة هو بعضًا من شوقي لبيت العائلة بحي توريل، ولقبر أبي في نبروه ولمدرج البدراوي وأستاذي الحبيب الغالي ومعلمي وصديقي الدكتور الشافعيّ بشير

الذي تعلمت منه الوطنية والشجاعة وقبلها الأدب

حنيني للدكتور الشافعيّ

ممتد لرفاق ورفيقات ـ سنوات الدراسة الجامعيه أجمل ايام العمر

منهم صديق العمر

طارق عبدالعزيز

رئيس الهيئة البرلمانية لحزب الوفد في مجلس الشيوخ حاليًا

والزميل العزيز الكاتب صلاح الإمام وشريف معاطي وثروت أبو سعده

والزميلات الفضليات : ـ نيوفان، وإيزيس محمود، وهانم طوبار، وهويدا مصطفى وآخرين وأخريات تحملهم الذكرى بكل مودة وتقدير رغم انقطاع الصلة لسنوات بعيدة

❼ الورقة السابعة

❁ حنيني الأكبر هو : ـ ل** النوبة **الحبيبة بأرضها التاريخية ـ المسلوبة ـ وثقافتها وقلوب أهلها الذهبية، حيث تُروى القصص وتُنسج الذكريات في ضوء القمر. فكيف أستطيع نسيان الراحل احمد كاجوج

وهاني وعبدالصبور، ومئات الأحباب الأوفياء دائمًا لتلك اللحظات، التي تجمعت فيها الأرواح، حيث كان الحب يتدفق كالنيل، يحمل معه عبق التاريخ وذكريات الأحباب

❽ الورقة الثامنة

& وفي صندوق ذكرياتي وحواراتي مع ذاتي، أستمع يوميًا لصوت الراحلين الذين لم يرحلوا أو يغادروا يومًا قلبي وعقلي ووجداني

واولهم: ـ زعيمي وأستاذي وأبي الروحي فؤاد سراج الدين

وأستاذي مصطفى امين

وحبيبي مصطفي شردي

ورفاق الوفد

حنان البدري

والدكتوروجدي زين الدين

و الراحل عادل القاضي

والعزيز عادل صبري والكاتب الكبير الصديق الصدوق انور الهواري

(وعمنا) محمد عبدالقدوس

والراحل الرائع مجدي مهنا

والزميل المحترم مجدي شندي

❾ الورقة التاسعة

❁ ۞صدى صوت قلبي، يردد أن هذا *الحنين* لكلّ هذه الأماكن والأشخاص،

ليس إلا الجسرٌ الوحيد الذي مازال يربطني بوطني، رغم كل ما يبعدني عنه.

❁ ❁ أقول لنفسي: «يا وطني، سأظل أغنيك في كل صباح، فأنت *نبض لروحي*، ومهما تباعدت المسافات، سيبقى شغفي بك باقيًا.

❿ الورقة العاشرة والأخيرة

في كل زاوية من الذاكرة، أجدك، يا وطني وأعرف أنني لن أتوقف عن البحث عنك، حتى وإن كانت المسافات بعيدة

البعض يسألني متى تعود لمصر؟---

وإجابتي؛-

**أني لم أغادرها ـ أصلًا ـ كي أعود إليها ـ فقط ـ الذي غادرها جسدي، وكم من الأجساد تعيش في مصر، وقلوبها خارجها..وكم من الأجساد تغادرها ومصر تقيم وتعيش داخلها وفي قلبها وعقلها **

أوراق من مذكراتي (١٠)

٦ سنوات من الغياب
حكاية صداقة عمرها ٥٠٠ عام

۞ ذاكرتي بعض حياتي

أدافع عنها.. وكأنها حريتي

۞ ذكرياتي منها المجسم ومنها المسطح

۞ فيها ما يجري، ويسيل الدم، وما يتسلل ببطء إلى العظم والنخاع

۞ تسجنني ذاكرتي في أشخاص عايشتهم وعايشوني، عرفتهم وعرفوني، أحببتهم وأحبوني

۞ في مقدمة هذه القائمة وفي صدارتها، صديقي جمال خاشقجي، *الذي يبدأ اليوم عامه السابع في رحلة الغياب*

✹ بدأت رحلتنا سويًا في الثمانينيات من القرن الماضي،

✹ عندما جمعنا العمل في تأسيس جريدة «الحياة اللندنية»،

✹ تطورت العلاقات الإنسانية بيننا عندما توليت مشروع تطوير جريدة "المدينة" السعودية، التي شهدت في نفس الفترة تولي جمال مهام مدير تحريرها.

✪ افترقنا في العمل في بداية التسعينيات، لكننا لم نفترق شخصيًا قرابة ربع قرن، بعد أن جمعت بيننا روابط أقوى من زمالة المهنة، واتفاق الرؤية في معظم القضايا المشتركة رغم اختلاف زاوية الرؤية أحيانًا.

✪ تعلمت من صديقي مهارة الإصغاء الحنون، والقدرة على البحث الدائم عن المشتركات، الذي يصل أحيانًا إلى الجمع بين ما يبدو ظاهريًا أنه متناقضات

✪ ربما يفسر هذا تناقض تصنيف البعض لجمال ـ ولي بدرجة أقل ـ بين ليبرالي وإسلامي، بين إصلاحي وثوري، بين رومانسي وواقعي..

✹ والحقيقة أن كل منا ابن شرعي للبيئة السياسية والمجتمعية والفكرية التي خرج منها، ولم يقبل بعوراتها ونقائصها، لكن جمال لم يتمرد عليها بالصورة التي تعزله عنها وتمنع قدرته على التأثير فيها.

✹ مرجعية جمال "الإسلامية" لم تمنعه من الإيمان بالحرية، والقبول بالآخر، والتسامح الدائم معه. ومرجعيتي الليبرالية لم تحول دون إيماني بعدم التعارض بين ديني ورؤيتي السياسية، واحترام كل ما هو مقدس.

✪ أكثر ما كان يجمعنا هو القدرة على خلق المساحة المشتركة، والدمج بين رومانسية الرؤية وواقعية الفعل في حدود الممكن والمتاح، وأكثر ما كان يفرقنا هو مساحة الممكن والمتاح، بين المعارضة وبين النصح.

✪ عشت سنوات أنسج خيوط الغد، خيطًا خيطًا، جامعًا بين ما هو فكري ونظري وبين ما هو شعبي وحركي، وعاش جمال يصنع خيوط الغد، ويرشد من ينسجها للصورة والشكل الأمثل للنسيج.

✪ أكثر من ربع قرن لم يتوقف الحوار بيننا، في تقدير مساحات الممكن والمتاح وأولويات اللحظة.

✪ عندما خضت الانتخابات الرئاسية، وأسست قبلها حزب الغد، كان جمال يرى أهمية البحث عن صيغة تعايش بين مشروعي ومشروع جمال مبارك كخلاص من الحكم العسكري، وفق وصفه، عبر تشاركية هي السبيل الأقرب للوصول إلى تنافسية مدنية.

✪ عندما سُجنت عام ٢٠٠٥ عقابًا على خوض الانتخابات الرئاسية وحلولي ثانيًا في المنافسة مع مبارك، لم يختفِ جمال من المشهد كما فعل معظم الأصدقاء، لم يدّعِ أننا التقينا صدفة في قطار الحياة، بل قفز في القطار الذي كنت أستقله (رغم الخلاف في تقدير اللحظة)، كتب ودافع عني، وظل يفعل لسنوات حتى التقينا ثانيًا في فضاء الحرية.

✪ عندما قامت ثورة يناير، وكنت في طليعة الداعين لها والمحرضين عليها، كان جمال في طليعة المروجين والمؤمنين بميلاد جديد لعالم عربي جديد. وأحسب أنه أكثر من تفاعل من الكتاب العرب ـ إيجابيًا ـ مع الثورة، وبذل كل الجهد لتطمين أهل القرار في السعودية أن الثورة المصرية لا تمس بلادهم ولا تهدد وجودهم، إلا أن المخاوف كانت أكبر من قدرة جمال على التأثير.

✪ كان جمال ناقدًا لتصدر جماعة الإخوان المشهد، ومحذرًا من عدم قدرتها على بناء تحالفات واسعة مع كل قوى الثورة. وفي نفس الوقت، كان ناقدًا لمخاوف واسعة إقليمية ودولية من مجرد وجود الإخوان في المشهد.

✪ عندما وقع انقلاب ٢٠١٣/٧/٣، لم يوارب جمال خاشقجي الأبواب ـ كما فعل البعض في أحسن الأحوال ـ بل كان موقفه واضحًا قاطعًا في التعاطي مع انقلاب مكتمل الأركان. ورغم منع العديد من مقالاته لهذا السبب، لم يتوقف جمال عن الكتابة والتغريد، والسباحة عكس تيار أقلام النظام في السعودية والإمارات.

✪ لم يكتفِ جمال بالتغريد، بل كان ناصحًا أمينًا للنظام السعودي

في عهد الملك عبد الله، وفي بدايات عهد الملك سلمان، الذي كان أكثر المتفائلين به، متصورًا أن السعودية أمام عهد جديد ورجال جُدد ومواقف جديدة.

التقيت بجمال عشرات المرات بين بيروت وإسطنبول وغيرها من العواصم في هذه المرحلة الدقيقة، وكان دائمًا يطلب مني فتح جسور تواصل مباشرة مع الإدارة السعودية الجديدة من خلال رسائل واتصالات شخصية. ونصح أيضًا أن يكتب أحد الكتاب المصريين في جريدة الحياة مقالًا يدعو فيه الملك سلمان لموقف أو مبادرة لحل الأزمة المصرية.

وكانت نصيحة جمال أن يكون كاتب هذا المقال د. مصطفى الفقي أو الدكتور وحيد عبدالمجيد، وقد حاولت بالفعل التواصل معهما لهذا الغرض، إلا أن الأمر كان أعقد مما تصور جمال.

وعندما بدأ نجم الأمير محمد بن سلمان في الصعود عام ٢٠١٧/٢٠١٦، التقاه جمال في إطار دعوة لمناقشة الميزانية الجديدة للسعودية ضمت عددًا قليلًا من الكتاب السعوديين. وبادره جمال بعدة أسئلة عن الموقف الإقليمي والعلاقات بين السعودية والإمارات وقطر ـ قبل الأزمة السعودية القطرية.

في نهاية اللقاء، سأل الأمير محمد بن سلمان جمال بصيغة استنكارية عن عدة أمور من بينها أسباب تكرار زيارته لإسطنبول وزيارته لي، وسر هذه العلاقة. فكان رد جمال أنه كتب تدوينة على الإنستغرام قال فيها نصًا: «*أنا وأيمن نور أصدقاء وزملاء عمل منذ ٥٠٠ سنة، وثمة توافق فكري بيننا يجعلني أحرص على لقائه دائمًا*» ووضع جمال صورة تجمعني به في آخر لقاء بيننا وقتها وكان في مطعم نصرت بإسطنبول.

لم تكن مفاجأة لي أن يُمنع جمال من الكتابة أو حتى من التغريد على تويتر، ولم تمض سوى شهور قليلة وخرج جمال عاقدًا العزم ألا يعود في ظل هذه الأوضاع التي ساءت أكثر بعد خروجه.

كان لنا لقاء مختلف ومحفور في ذاكرتي، وكان في نوفمبر ٢٠١٧، عندما زارني في بيتي بإسطنبول قادمًا من واشنطن، وقال لي نصًا: «من الحكمة أن تُعمل عقلك مع الأعداء، ومن رحمة الله أن يكون لك أصدقاء يمكن أن تفتح قلبك لهم».

سألني جمال عن مشاعري وقت انفصالي عن زوجتي الأولى، ولم أفهم ما وراء السؤال إلا بعد أن روى لي ما تعرضت له زوجته السيدة آلاء نصيف من احتجاز وضغوط كي تطلب الطلاق من جمال، وهو ما حدث بالفعل قبل هذا اللقاء بأيام قليلة.

في هذا اللقاء، تبادلنا القليل من الروايات والقليل من الكلمات، والكثير من لحظات الصمت والدموع والألم، الذي يدعم المشترك بيننا.

قلت لجمال: «الأيام تمضي سراعًا، والله الذي يختبر صبرنا وصمودنا في المحنة، لن يتخلى عنا أبدًا، وإيماني بهذا لم يتزعزع يومًا، وثقتي بالله لا حدود لها».

بين آخر لقاء بيننا ـ ٦ سنوات وبضع ساعات ـ وهي أطول مدة فراق بيني وبين صديقي جمال، (وكأنها ٥٠٠ عام).

٦ سنوات لم ولن أتصور خلالها أننا لن نجلس قريبًا لنتبادل الكلمات ـ بلا كلمات ـ فعندما يدق باب منزلي، أتصور أنه هو.

ما زلت أسمع صوته، أرى عينيه، وأستمتع بإصغائه الحنون، أطمئن بإيمانه وثقته في يوم تنتهي فيه الآلام، والدموع والمتاعب، والمخاطر..

تنتهي فيه الغربة، والشعور بالخطر.

da6 يقينًا سيأتي يوم قريب، أو بعيد، يخرج فيه الناس من هذا الظلام.. والشعور بمرارة الظلم.

يومًا أرسل لي جمال رسالة في سجني، رسالة ذكرني بها عندما التقينا أثناء ثورة يناير قال فيها:

"حروف كلمة الظلم هي من حروف كلمة الظلام.. فالظلام هو الذي يأتي بالظالمين.. وسينتهي الليل الطويل».

لا أعرف كيف يمكن أن أذكره بهذه الرسالة الآن.. كل ما أعرفه أنني لم أبكِ كما بكيت جمال، إلا عندما ماتت أمي ورحل أبي.

لن أودع جمال، بعد ٦ سنوات، فهو ما زال حيًا في ذاكرتي.. ولو افترقنا ٥٠٠ عام.

أوراق من مذكراتي (١١)

خريف الطبيعة
وخريف الـ٦٠

❁ يتسلل الخريف للطبيعة، فتذوب أوراق الشجر، ببطء، وتذوب الأحلام مع كل شعاع شمس.

❁ تتراقص تتهاوى الأوراق مع نسائم الرياح كأنها تعزف آخر ألحانها، في وداع صامت للحياة التي كانت.

❁ وهكذا هو "الآخر" خريف العمر، حيث الأيام تنسحب برفق، كأضواء غروب ليس بعده شروق وخريف لا ربيع بعده، ،

تخبو الاشياء شيئًا فشيئًا.

❁ الألوان التي كانت تملأ الروح بالحياة تبهت،

الذكريات تفتر

و الايام كأوراق الشجر،

تتساقط واحدة تلو الأخرى.

❁ في هذه اللحظات

بين الحاضر والماضي،

يشعر الإنسان بقوة وحيده

تنبع من عمق خبراته، كجبل صامد في وجه الرياح العاتية.

۞ لكن في نفس الوقت، هناك ضعف يتسلل إلى الجسد،

مثل شجرة تيبست فروعها

فلم تعد تستجيب لدفء الشمس الساطعة.

۞ الرغبة في تحدي الحياة تخفت تدريجيًا،

كأنها قنديل زيت

يوشك أن ينطفئ.

۞ الأحلام التي كانت تملأ الأفق تصير مجرد أطياف، وظلال.

والاحتياجات التي كانت تبدو ملحة تصبح ثانوية الأهمية.

۞ إنها مرحلة عمرية

تقف فيها النفس

بين ما كان،

وبين ما أصبح.

۞ بين طموحٍ

يحلق في السماء،

وحزنٍ يتمدد ـ بهدوء ـ

على أرض الواقع.

۞ وكأن العمر في هذه اللحظات يعيد كتابة ذاته بأسلوب جديد،

أكثر حكمة،

أكثر واقعية

و هدوءًا.

۞ لنفسي أكتب هذه السطور وأنا على أبواب عامي الستين،

الذي سيحل في الخامس من ديسمبر القادم،

۞ وكأنني اصيغ سطورًا مسبقة من استقالتي المؤجلة التي

أستقبل معها، فصلا خريفيا من حياتي، وأنا أستعد لوداع الصيف الذي مضى.



أوراق من مذكراتي (١٢)

أنا شافعي المذهب والهوى

بقلم ودموع تلميذك أيمن نور

سألني محقق نيابة أمن الدولة

في مقرها القديم بالجبل الأحمر، بداية الثمانينات:

لمن تنتمي؟ فقد احترت فيك!!

ناصري أنت؟

أم شيوعي؟

أم إخواني؟

ضحكت

وقلت له

بشجاعة الواثق من الخروج-:

«أنا كل هذا،

ولست هذا

أو ذاك.

فأنا شافعي»

۞ إجابتي ربما أدهشت المحقق الشاب وقتها، عبدالمجيد محمود، الذي تدرج في المناصب حتى أصبح نائبًا عامًا. ـ كذلك، أدهشت الأستاذ أحمد الخواجة، نقيب المحامين، الذي كان يحضر التحقيق إلى جانبي لصداقته بوالدي، وتزاملهم، الطويل في المهنة والبرلمان.

۞ نعم، كنت ولا زلت على مذهبي،

(شافعي الموقف والهوى).

۞ فرغم انتمائي لقبيلة قانونية، فأنا محام، ابن محام، ابن محام، إلا أن دخولي كلية الحقوق جامعة المنصورة لم يكن لمجرد تحقيق تقليد عائلي، ورغبة اسريه. فالحقيقة هي أنني اخترت كلية حقوق المنصورة لأكون قريبًا من دكتور الشافعي بشير.

۞ تلك الرغبة كانت الدافع الحقيقي لقراري، رغم قدرتي على دخول كليات أخرى مثل الاقتصاد والعلوم السياسية أو الإعلام.

۞ اليوم، وأنا أخط هذه الكلمات بدمع، وقلبي مثقل بالحزن، أسترجع ذكرياتي مع هذا الأستاذ الذي كان أكثر من مجرد معلم. جامعي، بل كان الأب الروحي، والصديق الوفي، والملهم في حياتي.

۞ الشافعي بشير لم يكن ـ فقط ـ علمًا في القانون، بل كان نموذجًا في الإنسانية، حيث غرس في نفوسنا حب الإنسان للإنسان، وعلّمنا أن الشجاعة في الرأي التي لا تتصادم مع الأدب في التعبير.

۞ كانت رحلتي ـ شبه الأسبوعية ـ لمنزله ب طريق الحرية، في الإسكندرية، والقريب من كلية الهندسة، هي نزهتي ووجهتي الثابتة بعد زيارة قبر أمي، في مقابر "المنارة" القريبة من منزله.

۞ كان يستقبلني بحب واهتمام، وكلماته و"ابتسامة الرقيقة" كانت

تعيد لنفسي السكينة. فأعود منها وكأنني عدت طالبا بكلية الحقوق.

❁ رحلتي مع أستاذي الشافعي تعود إلى أواخر السبعينات، حين كنت تلميذًا في المرحلة الثانوية وأترأس اتحاد الجمهورية لطلاب المدارس. وكانت محاضراته هي نافذة نطل منها على عالم مليء بالأفكار الجريئة .❁ كان صوته هو الصوت والصديق، كان صوت مصر الممنوعة من الكلام، يُعبر ببساطه عن آلامنا وآمالنا، ومواقفنا البريئة.

❁ عندما تعرضت للاعتقال عام ١٩٨١، كان خبر إبعاد الدكتور الشافعي بشير عن التدريس صدمة لي ربما أكثر من اعتقالي.

❁ لكن عودته إلى الجامعة في عام ١٩٨٢ كانت بمثابة تجديد للأمل. فكان هو رائدًا لأسرة «الإنسان» التي أسّسناها في الجامعة، مع الزملاء الاعزاء طارق عبدالعزيز وصلاح الامام وبسام عبدالكريم والزميلات إيزيس محمود وهانم طوبار

وانضم للأسرة الاف الاعضاء والعضوات

بل ان الاسره انتشرت في العديد من الجامعات الأخرى

وكان الدكتور الشافعي دائمًا داعمًا لنا في كل مطالبنا ومواقفنا

وصداماتنا مع ادارة الجامعة وخلفها امن الدولة.

❁ لم تنقطع صلتي به بعد تخرجي، بل تعمقت أكثر. من خلال زياراتي شبه الأسبوعية لمنزله في الإسكندرية فكانت لقاءات مليئة بالود والحب.

كان يستقبلني بكلماته التي تفيض أبوة، ويشعرني أنني دائمًا في المكان الذي أنتمي إليه.

❁ ✹اننا نودّع اليوم

علمًا من أعلام القانون،

ورمزًا من رموز الوطنية المصرية.

✹ رحيل الدكتور الشافعي بشير عن عمر يناهز ٩١ عامًا

أشعرني بفقدان قطعة عزيزه من ارض مصر

✹ رحيله افقدني جزءٍ من حياتي وذكرياتي.

عالمًا،

و معلمًا،

وصديقًا،

سطر في قلوبنا قيم الأدب والعلم والشجاعة،

✹ جعلنا نؤمن بأن الطريق إلى الحق لا يتناقض أبدًا مع الإنسانية والخلق. فلن انسي له موقفا عظيما من مئات المواقف

عندما منعتنا ادارة الجامعة من اقامة معرضا للصور عن مذبحه صبرًا وشاتيلا فقرر أن يفتح لنا أبواب نادي اعضاء هيئة التدريس بجامعه المنصورة، الذي أسسه، وكان رئيسا منتخبًا له

❁ وبعيدًا عن السياسية كان من أبرز إنجازاته الأكاديمية كتابه «القانون الدولي العام» و«حقوق الإنسان في القانون الدولي»، التي كانت تُدرّس في كلية الحقوق، وأثرت في جيل كامل.

❁ كان الدكتور الشافعي بشير دائمًا يُعلي من قيمة الكلمة والرأي، ويعلمنا كيف نكون صوتًا للحق في كل مكان. فقد أظهر شجاعة نادرة حين تناول في كتبه ومحاضراته موضوعات حساسة مثل اتفاقيات كامب ديفيد، مشجعًا الطلاب على التفكير النقدي وإبداء آرائهم الشخصية.

❁ إن رحيله ليس فقدانًا لشخص فحسب،

بل هو فقدان لنور أضاء لنا الطريق.

- ستبقى بصماته في قلوبنا،
- سنظل نذكرك يا دكتور

في كل جملة نكتبها،

وفي كل فكرة نحملها،

وفي كل موقف نتبناه.

- إرثك سيبقى حيًا،

وذكراك ستظل نورًا

يهدي دروبنا.

يا أستاذي وصديقي وأبي الروحي، نلتقي قريبًا في جنات النعيم، ان شاء الله، حيث يلتقي الأبرار، وستبقى ذكراك العطرة تُضيء قلوبنا دائمًا.

أوراق من مذكراتي (١٣)

لم يكن بإمكاني القبول

❁ كان بإمكاني أن أكون ضيفًا عزيزًا على كل موائد العشاء

وكل برامج الإعلام الحكومي، ونصف الحكومي، وكل صفحات الصحف، وصاحب حصة في كل "تورتة" سياسية أو برلمانية أو وزارية، حزبية وغير حزبية.

❁ ولكن، لا... لم يكن بإمكاني أن أقبل أن أكون مجرد قطعة ديكور بلاستيكية، أو كتلة من الفِلْ، وبلادي تحترق. كيف أقف على الحياد وأصفق حتى الألم، متجاهلًا أصل الداء وموطنه؟!

❁ لم يكن بوسعي أن أواجه جراح الوطن العميقة بحرق البخور فوق الجروح، ولا بالأدعية والأحجبة، مكتفيًا بالكلام عن فشل المحافظين، وقصور الوزراء، وزيادة الإنجاب، وجشع التجار!

❁ من يحب بلده بصدق، يطهر جراحها بالكحول، وإذا لزم الأمر يكوي بعض المناطق المصابة بالنار، حتى لو طاله بعض لهيبها.

❁ في قاموس الحاكم الفرد، لا توجد كلمة "لا" نقية وعفيفة، مجردة من أي هوى. لا يعرف إلا كلمة «نعم»، ممددة على سرير المدح والإطراء. ومن يقول "لا" فهو إما فاسد، أو حاقد، أو عميل للخارج.

❁ لم يكن سهلًا أن أُطعن في وطنيتي وكرامتي، وأن تلاحقني الاتهامات والافتراءات في جميع وسائل الإعلام تحت إشراف جهاز أمني ضخم بلا حدود، ومع ذلك بقيت في ذاكرة الناس الذين يشمون رائحة الكيد ويعرفون طعم الظلم.

❁ لا أدعي أنني نجحت في تغيير الريح أو قلب الطقس، أو أنني أبطلت سحر السحرة، أو كسرت طبولهم، أو أخرست طنين إعلامهم ومرتزقة صحفهم. لكنني، على الأقل، صمدت ودفعت الثمن وما زلت، دون أن أتراجع قيد أنملة عن موقفي.

❁ كالمصلوب، الذي يعاقب على صبره واحتماله. كالنزيف المستمر الذي يعاقب على سخونة دمائه واحمرارها. كالمظلوم الذي يعاقب لأنه ما زال يؤمن بالعدالة ولم يكره بعد بلده وأهله!

❁ لم أخترع شيئًا، ولم أقل إلا ما قاله غيري سرًا. لم أغضب لحال بلدي أكثر مما يضيق به صدورهم، ولم أخدش السماء بأظافري، بل أشرت بإصبعي نحو الداء وحاولت أن أكون بعض الدواء.

❁ لست نبيًا ولا مهرجًا، ولا بطلًا أسطوريًا، ولا زعيم عصابة. لست رقمًا وحيدًا في المحاولة، لكنني رقم صعب بين حملة المباخر، وصانعي الأحجبة، وقارئي الكف، وأصحاب أحزاب الزوايا والزعامات الوهمية، وأصنام القش، والقادة البلاستيك.

❁ لم أركض يومًا خلف المواقع الرسمية والولائم السياسية. لم أولد ولم أعش في مغارات تتناسل فيها الخفافيش، ولم أكن يومًا من فصائل الدواجن البيضاء التي اعتادت العيش على علف النظام.

❁ لم يرهبني الصلب والرجم والتشهير والسجن، ورجل غضبه يجعل الدنيا ترعد وتمطر في عز الصيف. بقدر ما أوجعني موقف نخبة خائنة لنفسها، تعارض النظام وتساعده، تكذبه وتروج لأكاذيبه، تقاتله وتصفق له وهو يقتل منافسه، ترفض عمر مكرم وتصفق لمحمد علي!

أوراق من مذكراتي (١٤)

دعـــاء

❁ اجعلنا يارب نعيش سلامًا ـ دافئا ـ مع أنفسنا ـ اولا ـ وأهلنا، ومع الآخرين.

✹ قلوبنا كبيرة تتسع لكل الناس، اللهم اجعل صدورنا كذلك لا تضيق

✹ اجعل يارب نفوسنا متطهرة دائما، لا تعرف الحقد، ولا تمتلأ بالغل. حتى علي من أخذنا يوما بأيديهم ويسيرون الان في الحياه علي قدمين من

(الغل والحقد)!!

✹ اجعلنا يارب نحب الخير لكل من نعرفهم،

ولكل من لا نعرفهم.

لكل من نعرف ـ بدايتهم-

ويعلم الله وحده ـ نهايتهم-

✹ اللهم اجعلنا قادرين على مساعدة كل من يحتاج العون، وأن نكون سندًا لكل من يبحث عن المساعدة.

فلا نأخذ بمبدأ اتقي شر من احسنت اليه.

✹ اجعلنا يارب نحيا بروح التسامح والعطاء، اجعلنا نعرف قيمة العفو، ونجعل الحب مرشدنا في كل خطواتنا.

✹ اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا تجعل من الانتقام والكراهية طريقًنا فلا نسلكه، حتى لو اضطررنا اليه.بل اجعلنا نورًا يهدي إلى السمو والتسامي فوق الصغار والصغائر.

❁ اللهم أجعلنا نفزع عندما يقول انسان لإنسان

انت حيوان.

أو يقول بنيّ ادم لآخر مثله

«أنت كلب»

ـ او أنت خائن.

«أنت حقير»،

ـ أو أنت عميل.

«أنت بيادة»

ـ او أنت حذاء.

❁ لا اعرف كيف أصبحت هذه العبارات، والمفردات جزءًا ـ عاديا ـ ومألوفا في حياتنا اليومية؟!

✹ هل اصبح هذا هو قاموسنا اللغوي الجديد؟

✹ هل تسلل التسفل بهذه البساطة لساحاتنا الوظيفية، والاجتماعية، والسياسية، والإعلامية

وعلى شبكات التواصل والسوشيال ميديا؟ ❁ كيف تحولت لغة الحوار إلى ساحة تشبه ساحات الحرب، يعلو فيها صوت الشتائم، على

صوت الحق، ويختفي فيها العرفان بالجميل؟ ماذا حدث لنا؟

❁ وكيف انتشر هذا العفن في وادينا الطيب، كما يتساءل ـ دومًا ـ طارق العوضي على السوشيال مديا؟

✹ مقولة طارق ـ السابقة ـ ومقاله المنشور اليوم هو ـ بحق ـ دعاء، ودعوة للتأمل في التسفل والعنف اللفظي في حياتنا

✹ احسب ان هذا المقال افتح بابًا لشهيتي لنقاش واجب لهذه الظاهرة، التي باتت تسيطر على واقعنا، ونجدها شاخصة في كل مشهد، في عملنا ومكاتبنا وربنا يحمي منها بيوتنا بعد أن تفشت في خندق أنصارنا قبل خصومنا؟

✹ من اشخاص يدعون التدين ـ علنا ـ ويدمنون التدني والافتراء والتسفل

ـ سرا-

❁ ألم يسمعوا او يفهموا يوما قوله تعالى في كتابه الكريم:

﴿...وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البَقَرَة: ٨٣]

وهو ـ دعاء ودعوة ـ بسيطة ولكنها عميقه في معانيها.

✹ القول الحسن في الكلام ليس فقط توجيه، سماوي، بل هو أساس لاي بناء اجتماعي صحيح لاي مجتمع سليم العقل والقلب.

❁ عندما اشاهد بعض البرامج التلفزيونية ،

أو أطالع التعليقات علي بعض المنشورات المحترمة لأشخاص محترمين واقرأ ما بها من تسفل وسباب غير مبرر اسأل نفسي بدهشة وصدق-:

✹ ماذا سيحدث اذا استبدلنا السباب والشتائم، بالنقد، والتحليل والرد، والتفنيد ؟!

✹ لماذا اصف فلان بانه «حمار او كلب»!!

بينما أملك ان اقول له أنت لا تفهم الموضوع، أو تتعمد مخالفة الحقيقة؟!

❁ في حديث نبوي شريف، قال رسول الله ﷺ: «**ليس المؤمن بالطعّان، ولا اللعّان، ولا الفاحش البذيء**»،

✹ ما أحوجنا اليوم إلى هذا التذكير النبوي.

✹ إن الدعاء الذي نرفعه للخير والعدل والإصلاح،

لا يتماشى مع صياغته في اطار لغوي شعبوي، ينحدر للشتائم، والإهانة والتجريح!!!

✹ مصداقيه اي دعوه ودعاء للإصلاح، تبدأ من كلماتنا، والكلمات هي التي تعبر عن نياتنا وبواعثنا الحقيقية.

✹ وكما قال سيدنا علي رضي الله عنه:

«الكلمة إذا خرجت من القلب، وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان».

✹ هذه الحكمة تؤكد أن الكلمات الصادقة، يجب أن تُبنى على صدق النية وسمو الهدف.

✹ فكيف تحولت كلمات بعضنا إلي اسلحة محظورة، تجرح القلوب بدلًا من أن تعمّرها، وتجمعها ؟

❁ ما كتبه طارق العوضي اليوم

هو دعاء مقبول ودعوه مستحقة، للعودة إلى المعني الصحيح للخلاف النبيل، والحوار الحقيقي المحترف والمحترم.

✸ دعوة للنظر في هذا العفن الذي استشرى في وادينا الطيب.

۞ لا اعرف من قال ان ـ عدم الرد ـ علي تسفل وتطفل الصغار هو دعاء ودعوه للتفريط واهدار للحقوق ؟

✸ لعلنا بحاجة ماسة إلى فهم واستذكار وتذكر

ما قاله في هذا الصدد نيلسون مانديلا:

«**إن التسامح لا يعني التفريط في الحقوق

ولا يشي بنسيان الماضي المؤلم**

بل هو تعبير بليغ عن القدرة على علاج أمراضه ومواجهته بشجاعة الطبيب المعالج» ✸ .فالتسامح وسط تراكمات الغضب والعنف اللفظي. هو دعاء ودعوة للإصلاح وللسلام، النفسي الذي لا يتحقق فقط *بشهوة الانتقام*

✸ هو خطوة أولى نحو رأب الصدع الذي تسببت فيه روح الحقد والكراهية.

۞ نشأت في مدرسة فؤاد باشا سراج الدين، الذي كانت كلماته دعاءً مستمرًا للتسامح والتسامي فوق الصغار والصغائر، أستعيد ذكريات حواراته النبيلة✸ .فعلي مدار ١٧ عامًا تشرفت فيها بالقرب منه، لم أسمع منه لفظًا قاسيًا، او جارحا، حتى في مواجهة الهجوم المستمر. الذي يتعرض له ظلما، اسوأ كلمة سمعتها من فؤاد باشا، عندما وصف سمير رجب، بانه رجل (وحش)؟

✸ هذه اخلاق «البشوات»

كان كل حوار معه، دعاءً للأخلاق، دعاءً للارتقاء فوق الإساءة.

✸ وهكذا كان الكبار والعظماء في السياسة، وفي الحياه ،

يرفعون دعاء الكلمة الطيبة في مواجهة سفالات كبار الصغار ،

وصغار الكبار.

ممن ينكرون الفضل ويسيئون لمن احسنوا لهم..

❁ الكاتب الليبرالي الكبير نجيب محفوظ: كان يقول-:

«إن القوة الحقيقية تكمن في التسامح، مع من تملك التنكيل والانتقام منهم»، لأن التسامح هو دعاء وموقف كاشف للقوة الداخلية، وليس ـ ضعفًا ـ كما يتصور البعض.

✹ فالقوة الداخلية، هي التي تستمدها الأمم من قدره كبارها ورموزها على تجاوز الخلافات بالحوار والاحترام.

❍ مرة سألت فؤاد باشا لماذا لا نرد بعنف علي هذا الصحفي الذي تكرر وفاق في تجاوزه حدود الاحتمال ؟!

❍ قال: ـ هو فعلا يستحق الرد عليه بعنف

لكننا ـ نحن ـ لا نستحق أن نرد علي من هو مثله

قصة ذات معني

❁ في السجن سمعت اسم احد السجناء فاستوقفني الاسم بشدة وكان هو-:

عمرو *نجيب محفوظ*؟

❁ سألت عن علاقته بنجيب محفوظ الذي كنت اعرف انه لم ينجب ذكورا!

قالوا لي : عمرو هو الشاب الذي طعن نجيب محفوظ في رقبته طعنه كادت ان تودي بحياته!!

✹ التقيت بهذا السجين عمرو نجيب محفوظ وتساءلت بدهشة:

من اطلق علي < القاتل > اسم < القتيل > ؟!

✸فقال لي : ـ عندما حاولت قتله لم اكن قرأت سطرا واحدًا مما كتبه!!

وفي السجن قرأت كل ما كتب، وأدركت خطأ ما فعلت، فأرسلت له خطابا اعتذر له فيه عما فعلت، والمفاجأة ان نجيب محفوظ رد علي، بخطاب بخط يده، مؤكدا قبول اسفي واعتذاري فقررت ان أنال شرف تغيير اسمي ليحمل اسم الرجل العظيم.

❁ وأظن أن عمرو نال شرف لا يستحقه بان يحمل اسم نجيب محفوظ

✸ وأظن ايضا ان إفلات عمرو من العقاب هو الذي كان سيحرمه من شرف ان يقترن اسمه الصغير باسم كبير مثل

نجيب محفوظ؟

❁ بعد قراءة مقال طارق العوضي اليوم سألت نفسي كيف تركنا للغضب ان يذبحنا (كما حاول عمرو ذبح نجيب محفوظ)

أن يتحكم بجهل (كجهل عمرو)في لغة الحوار بيننا؟ كيف اصبحت الشتائم والخوض في الأعراض، مجرد كلمات عابرة، وهي في الحقيقة أسلحة تهدم جسور التواصل، وتزيد من حالة الاستقطاب.

✸ من الجاني ؟

✸ من المستفيد من هذه الفرقة.

✸ ومن قال ان التسفل والتجاوز في حقّ وأعراض الناس، ثمنا من اثمان الديمقراطية ؟؟

❁ الكاتب الليبرالي المصري الراحل

أحمد لطفي السيد قال: «إن الديمقراطية الحقيقية لا تكمن ـ فقط ـ في صناديق الاقتراع، بل في طريقة حديثنا مع بعضنا البعض وإدارتنا للخلافات فيما بيننا.»

✸ هذا هو آكثر ما نحتاجه الآن؛

دعاء يعيد إلينا الحوار القائم على الاحترام. وخصومه لا فجر فيها وحلول لا تتحول لسلسلة لا تنتهي من الانتقام

❁ في هذا السياق، قال المهاتما غاندي:

«*التسامح زينة القوي*»، هو دعاء ودعوة يجب أن نرفعها في هذه الأوقات الصعبة التي نعيشها.

✸التسامح هو مفتاح الحوار والإصلاح الانساني والسياسي الحقيقي،

✸وهو الدعاء الذي يمكننا من مواجهة التحديات دون الوقوع في مستنقع الفعل ورد الفعل مثلث أضلاعه هي: ـ (الكراهية والإهانة والانتقام)

فحين نفقد بعضا من قدرتنا علي التسامح، نفقد بعضا من إنسانيتنا.

❁ أعود لمقال صديقي وزميلي طارق العوضي، ـ وبلغه المحامين ـ انضم إليه في طلباته واثني علي كل ما ذهب إليه متصلا

بالإعلام، وبدوره، فيجب أن يكون الاعلام وسيلة لإعادة رفع هذا الدعاء✸ .الإعلام ليس مجرد ناقل للأخبار، بل هو صانع ومصلح فاعل للواقع، وعندما يختار أن يبث لغة الشتائم والعداء،

فإنه يسهم في تعميق الفجوة بين الناس. الذي ينبغي ان يسعى لردمها.

❁ يقول جبران خليل جبران: «الكلمة التي لا تمتلئ بالمعاني هي شبح»، فهل نريد أن يكون إعلامنا وكلماتنا، مجرد أشباح خاوية من أي قيم أو معانٍ أو رسالة اكبر من جذب المشاهدات وجني الإسكات؟ !!

✸ الإعلام يجب أن يعود ليكون منبرًا للحوار العاقل، لا ساحة للصراخ.

والصراع المجنون.

۞ ولن ننسى دعاء القادة العظماء في العالم، الذين رفعوا راية التسامح في أحلك اللحظات.

✹ نيلسون مانديلا، على الرغم من كل ما عاناه، دعا شعبه إلى التصالح بعد سنوات من الظلم والعنف.

✹ كان دعاءه للعفو والتسامح هو الدعاء الذي أنقذ أمة بأكملها من الانزلاق إلى هاوية الانتقام.

✹ ✹فهل نحن قادرون على رفع دعاء التسامح في لحظاتنا الصعبة الراهنة؟ أم نترك للغة الكراهية أن تبتلع كل ما تبقي؟

۞ في النهاية، دعاؤنا اليوم ليس مجرد كلمات نرددها.

هو فعل يعكس رغبتنا في بناء مجتمع أفضل، مجتمع يقوم على الاحترام المتبادل والحوار البناء .۞ وكما قال الحكيم: توفيق الحكيم:

«الحوار هو أسمى أشكال الذكاء الإنساني.»

✹ فلنرفع جميعًا دعاءً يعيد إلينا ذكاءنا الإنساني، ذكاءً يدرك أن الحوار هو السبيل الوحيد لبناء وطن متماسك ومتقدم. الحوار هو دعاؤنا الوحيد لإنقاذ ما تبقى من قيمنا الأخلاقية والإنسانية.

واختتم هذه الورقة من مذكراتي ❊❊ دعاء ❊❊

بدعاء احفظه عن استاذي كما احفظ فضله ـ بعد الله ـ الأستاذ مصطفى امين-:

«اللهم اجعل قلوبنا صافية كالماء الرقراق،

لا تعكرها، الشكوك، ولا تملؤها الضغائن.

اللهم امنحنا الحكمة كي نرى الخير في كل الناس، وامنحنا الصبر على المكاره،

واجعلنا نبحث عن الجمال حتى في الوجوه الكالحة وفي أحلك اللحظات.»

اللهم اجعل كل خطوة في حياتنا نحو النور، واجعلنا من أصحاب القلوب الرحيمة، التي تغفر، ولا تحقد.

اللهم اجعل حبنا للآخرين مثل حبنا لأنفسنا،

واجعلنا نجعل من التسامح قاعدة ومن المحبة دستورًا لحياتنا.»

اللهم لا تجعل للكره مكانًا في قلوبنا، ولا للانتقام موطئ قدم في حياتنا. اللهم اجعل نفوسنا طيبة نقية كنسمة صباح، واجعلنا نورًا يهدي التائهين،

«اللهم امنحنا السكينة حين تهتز أرواحنا، والطمأنينة حين تضطرب نفوسنا. اللهم لا تدعنا نجرح أحدًا بكلمة،

ولا ندع أحدًا يرحل عنا وفي قلبه جرح منّا.»

هذا الدعاء ليس مجرد كلمات قالها استاذي بل هي انعكاس لرؤيته للحياة؛ ودعوته الدائمة للتسامح والود والحب، وهي تعكس أخلاقه النبيلة ورغبته في بناء مجتمع يرتكز على الإنسانية والرحمة.

رحم الله كل من علمونا حرفا وفتحوا لنا بابا للحياة والنجاح فلم ولن ننكر لهم فضلًا فبارك الله لنا بواسع فضله وكرمه. . .

أوراق من مذكراتي (١٥)

(من وحي الـ٦٠)

۞ ستون عامًا، تكاد تمر، كما تمر الفصول دون أن تعود.

۞ بعد ستة أسابيع، سأصل إلى تلك العلامة الفارقة التي يُقال عنها إنها اكتمال،

لكنها في حقيقتها ليست سوى مسيرة لا تُكتب نهايتها بالأرقام،

۞ بل بالأثر الذي يتركه الانسان

۞ ستون عامًا مضت وأنا أسير خلف رغبة نبيلة في احترام الناس، في حبهم، ومحبتهم، دون أن يفسد ذلك الألم الذي كان دائمًا رفيق الرحلة.

۞ عقود طويلة لم يستطع فيها الألم، مهما كان قاسيًا، أن يجردني من الأمل.

۞ كان دوما الألم في كل ظلم رأيته، في كل حقدٍ او قسوة شعرت بها في قلب إنسان، وفي كل هزيمة طالت بلدي.

۞ تعلمت في سته عقود أن الأمل هو ذلك الضوء الخافت الذي لا يختفي مهما اشتدت العتمة.

۞ كلما اشتد بي الألم، استدعيت الأمل لأعبر؛

❁ وكلما زارني الأمل، استرجعت آلامي،
حتى لا أغرق في نشوة
الغرور وأغفل المخاطر.

❁ ستون عامًا، أولها كان الحب للوطن
وآخرها حرب لا تزال مستعرة لأجله،

❁ وسط هذا الصراع بين الأمل والألم، تذكرت قول دافنشي عن البراءة في وجه «الموناليزا»،
تلك البراءة التي لا تشيخ مهما مرت بها السنين.

❁ فبرغم ما شاخ من القلب والجسد، ظلت روح البراءة راسخة، لم تنحنِ أمام ثقل الزمن، لأن البراءة في جوهرها أبدية. كما يقول جوته:
«البراءة قلبها لا يعرف الزمن».

❁ يبدوا انه في هذا العمر، يدرك الإنسان أنه يقف على مفترق الطرق بين ما عاشه وما ينتظره. «ففي الستين، تبدأ في أن تصبح ما كنت دائمًا عليه».

❁ بلوغ الستين ليس مجرد عدد سنوات؛ بل هو زمن تكشف فيه الذات عن حقيقتها بعد أن أرهقها البحث وتنازلت عن الأوهام.

❁ هو عمرٌ تلتقي فيه الحكمة بالشجاعة، وتتجلى فيه هشاشة الإنسان وقوته في آنٍ واحد.

❁ «فما أجهل الناس الذين يتوهّمون أن الزمن يُغيّر شيئًا من طيبة قلوبنا، لأن القلب الطيب هو كنز يُنير مسار العمر بأسره».

❁ ستة عقود مضت، ولم تزدني إلا يقينًا بأن البراءة، رغم الألم، هي القوة الحقيقية التي تمنحنا القدرة على العطاء، حتى بعد أن تبهت الأجساد، وتُثقلنا التجارب.

❁ فالستون ليست نهاية، بل بداية جديدة لفهمٍ أعمق للحياة، حيث

يتسع الأفق للرؤية بصفاء، وتتجاوز الروح كل ما أثقلها من تحديات، لتبقى نقيّة، تمامًا كما وُلدت.



أوراق من مذكراتي (١٦)

أنا.. ونفسي.. مدينة

هذّه المواجهة تمّت بيني وبين نفسي، بعد نقاش دار أمس (السبت ٢١ ديسمبر ٢٠٢٤) بيني وبين نفسي او من هو اعز علي من نفسي

- بعد ٦٠ عاما من الزمن...هل تعرفني؟!
- لا اظن...!!.

فقد تعرف واحدًا هو ـ بعضًا ـ مني!!

- فأنا لست فردًا كما يبدو لك يا صغيري وصديقي!!....

**فأنا مدينة ـ **بل ربما ـ كونا كاملا.

- يقطن بداخلي عشرات الأرواح، كل منها يسكن زاوية من قلبي وعقلي. لكل واحد منهم له:

حكايته،

صوته،

وجهه

ميزاته

عيوبه

مخاوفه.

لست وحدي كذلك، لست أنا فقط، هذا الرجل (المدينة)، فاظن ان كل منا، كذلك:

مجتمع صغير يموج بالتناقضات،

- يصرخ داخله الحزن جنبًا إلى جنب الأمل،
- ويسكن فيه الزهد جنبًا إلى جنب الشغف.

أحدهم بداخلي متدين جدا . . .يرفع يديه بالدعاء، وآخر يعشق الحياة، بما فيها، يدور كالنحلة، يلتقط رحيق الحياة.

بداخلي هناك مثلك **الفنان** الذي لا تحده قيود، الواقع، يرسم الحلم بكل الألوان، على كل الحيطان.

- وهناك **المناضل** الذي يحمل راية التحدي، يرفض الانحناء مهما اشتدت العواصف. بجانبهم يقف الإنسان العاقل المسالم الطيب، لحد السذاجة أحيانًا،

ينثر الخير دون أن ينتظر مقابلًا.

- وعلى النقيض، هناك آخر يخطط بدهاء، ويسعى بحذر ليبلغ أهدافه المشروعة التي حددها منذ الطفولة.
- ومنهم من يحمل داخله التفاؤل، يرسم على كل غيمة شمسًا،
- وآخر يائس، ينظر للهاوية وكأنها قدر لا مفر منه. كلهم يتجادلون بداخلي، يصرخون مطالبين بالسيطرة. أحيانًا ينتصر أحدهم، يقودني لبضع خطوات، ثم يتوارى ليترك الفرصة لآخر.

لكن السؤال الذي يطاردني وفجره حواري امس مع من هو اعز علي من نفسي هو:

من أنا حقًا؟

✸ أأنا ذاك المتفائل الذي يزرع الأمل، أم اليائس الذي يرى في كل وردة أشواكها؟

✸ أأنا المناضل الذي لا يتراجع، أم الذكي الذي يعرف متى يتراجع ليعود أقوى؟

✸ يجيبني صدى داخلي، وكأني، أُحاوِلُ أنْ أُصْلِحَ عطبا بداخِلي، لأُعيدُ ترتيبَ روحي كما أُعيدُ ترتيبَ أثاثِ منزلي.»

الذي يطالبني بمحاولة التخلص من نصفه وهو لا يعرف ان كل قطعه منه قطعه مني من تاريخي

لا إرادة لي فيها.

۞ ربما الإرادة الوحيدة لي هي صوت أحد هؤلاء الذين يسكنونني.

إرادة تتلون بحسب من يعتلي المشهد داخلي الان ✸فمن الذي يختارهم؟ هل أنا من دعوتهم إلى صدري، أم أن الحياة والتزامات المجتمع الذي نشأت فيه هي من زوّدني بهم، ووضع في داخلي هؤلاء المتدينين، الفنانين، الحالمين، واليائسين؟

۞ كل ما أفعله هو أن أستمع لهم، أراقب صراعاتهم وأعيش نتائج اختياراتهم.

۞ «فكل منا يحمل بداخله ذرة من طين الأرض والبيئة التي نشأ عليها.»

✸ فنحن في النهاية انعكاس لمجتمعاتنا، لظروفنا، للتجارب التي عبرت فوق أرواحنا مثل الرياح.

۞ يا بنيّ إن تناقضي ـ احيانا ـ ليس ضعفًا، بل هو دليل على أنني حي، أنني إنسان يحمل بداخله كل الأضداد.

✸ أليس الإنسان انعكاسًا للطبيعة ذاتها؟ تلك التي تجمع بين الليل

والنهار، بين الهدوء والعاصفة. وكما قال سارتر يومًا:

«الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يرفض أن يكون ما هو عليه.»

❁ لذلك، حين أنظر إلى نفسي، أجدني أضحك وأبكي في آن واحد، أتقدم وأتراجع، أُحب وأخاف. وأفكر، أيّ قوة تلك التي توحد هذا الشتات فيّ؟

✹ كيف تتناغم كل هذه الأصوات المتضاربة لتشكلني أنا، هذا الكائن العادي وغير العادي؟

❁ يا بني، ربما السر يكمن في تلك اللحظة التي أقف فيها أمام المرآة، وأقول لنفسي بصوت يشبه هدير بحر هادئ:

«أنا، لست أسطورة، ولست ضعيفا.

أنا مجموعة من كل شيء.»

❁ قد يبدو كل هذا تناقضًا، لكنه تناقض جميل.

فليس هناك فرد خالٍ من التناقضات.

«**فالحياة كالمسرح، كلنا نلعب أدوارًا متعددة، لكننا جميعًا نبحث عن ذاتنا الحقيقية خلف الستار**.»

❁ فأنا وأنت، ونحن جميعًا مجتمعات مصغرة، نعيش داخلنا مدنًا من الحلم والخيبة، من القوة والهشاشة. نحن، ببساطة، بشر يحملون الكون كله في قلوبهم الصغيرة

..يا صغيري.

أوراق من مذكراتي (١٧)

أشخاص في الغربة
«أيمن عبدالغني»

بين جدران المعتقلات، وفي غيوم المنافي وظلال الغربة، نلتقي بأشخاص، لا تُشبهنا، إلا في لون جواز السفر، وتصادفنا أيضًا أرواح تُضيء الطريق، في أوقاتٍ مظلمة.

كان لقائي ـ الأول ـ مع المهندس أيمنعبدالغني في سجن طرة عام ٢٠٠٧. ورغم صمت الجدران، المفروض بيني وبين كل المعتقلين السياسيين، كنت اصادف هذا الشاب، ودار بيننا حوار دون أن نتحدث، فكانت نظراته لي عن بعد، تحمل دفئا وطمأنينة، تشعرني بقربٍ لم أكن أعرف سببًا له..

وبعد أعوام من الفراق، التقيته مجددًا. في إسطنبول، فكان أيمن مفاجأة، علي الصعيد السياسي بفعل سعه أفقه، ونموذجًا للإنسانية الصافية، قلبًا نابضًا بالحنان والعطاء. كان ملاكًا بين البشر، يفيض حبًا وصبرًا، ويمنح كل من حوله دفئا واطمئنانا لا ينسى.

في عام ٢٠٢٠، تشاركنا في تأسيس اتحاد القوى الوطنية المصرية

كما ظهر أيمن عبدالغني ـ فجأة ـ كنسمة دافئة، وناعمة في بروده

سجني، ومنفاي، رحل أيضًا ـ فجأة ـ، بسبب جائحة كورونا، لكن ذكراه تبقى كالنجم الهادي، في سماء حالكة السواد.

فهناك أشخاصًا يتركون بصمة لا تمحوها الأيام، فالدفء الحقيقي يكمن في القلوب النبيلة.

❁ أيمن عبدالغني، ستظل ذكراه، محفورة في قلبي، كرمزٍ للخلق الرفيع، للنبل، للتواضع، للتوافق السياسي، وقبلها للإنسانية، التي لا تعرف حدودًا ولا مسافات. بفعل مآثر لا تموت

❁ في الاول من فبراير ٢٠٢٥، حضرت عقد قران ابننا محمود ـ البقري شقيق الابن الحبيب الواعد أحمد ـ البقري

، وفي باحة المسجد، وجدت شبابا، يحمل علي صدره صورا للراحل أيمن عبدالغني دون غيره، تمتعت بالنظر إلي وجهه بابتسامته الخجولة ـ رغم الحزن ـ بقسماته الهادئة ـ رغم ادمان الوجع ـ بنظراته الحنونة رغم الفراق

رحيله في منتصف الخمسينيات، جاء في وقت، كنا في مسيس الحاجة لوجوده، في وقت، كان فيه قد وصل إلى ذروة عطائه ونضجه، بفعل سنوات، النضال والصبر.

نظراته كانت تحمل الأمل والتفاؤل، رغم كل ما مر به من معاناة وظلم، كان يحمل في قلبه فيضًا من الحب والاحترام للجميع.

لا يمكنني أن أنسى تلك اللحظات التي تشاركنا فيها همومنا وآلامنا، وفي كل مرة كنت أراه، كنت أشعر وكأنني أرى شخصًا مختلفًا، يحمل قلبًا طاهرًا، وعقلًا نيرًا، مستعدًا للتضحية ـ دائما ـ في سبيل الآخرين.

❁ لا أعرف علي وجه التحديد موعد ذكراه، فأنا اذكره في كل المواعيد، اذكره كلما أري، وجوه الشباب وابتسامة الاطفال وخلق الكبار اذكره عندما أذكر جائحة كورونا، فلا يظهر أمامي سوى صورة أيمن

عبدالغني. الذي اختطفته منا الجائحة، فتركنا ونحن نعيش وجع فقده.

۞ أيمن كان حقًا، ملاكًا يمشي على الأرض، يعيش لغيره، يغمر الجميع بحب غير مشروط، ومشاعر سخية في العطاء.

لم يكن فقط مناضلًا، في ميدان السياسة، بل كان أسوة في الأدب والكرم والإنسانية، والفهم الحقيقي لمعني العمل الجهوي، ودعم المشتركات بين مكونات الجماعة الوطنية المصرية.

۞ ظل ايمن، حتى آخر لحظة من حياته، حمامه سلام، واطفائي محترف، وداعيه للحكمة، للوحدة الوطنية، يحث الجميع على التعاون من أجل إنقاذ مصر.

في غربته، لاحقته اوجاع الفراق، بفقد كل أشقائه، وحرمانه من اسرته، رغم كل هذا الهم الشخصي، كان يواسي الشباب المهجرين، يساعدهم في مواجهة تحديات الغربة، ويدفعهم نحو الأمل. كان أكثر من مجرد شخص قريب من القلب؛ فقد كان نموذجًا للثبات والصبر، وجسرًا بين القلوب المتباعدة.

رحيله كان مؤلمًا، لكنه ترك خلفه للشباب إرثًا كبيرًا من القيم والمبادئ. سيظل اسمه محفورًا في الذاكرة، ليس فقط لمن عاصروه، بل لكل من تذكره حتى بعد غيابه. فقد كان رمزًا للوفاء، والتضحية، والإنسانية التي لا تفنى، وسيبقى دائمًا في قلبي وقلوبنا.

أوراق من مذكراتي (١٨)

إفطار العُزّاب

أول إفطار رمضاني كل عام في منزل الطفولة كان يحمل طابعًا خاصًا، ليس فقط لأنه أول أيام الشهر الكريم، ولكن لأنه كان يضم أبي وأمي وكل العُزّاب من أفراد العائلة، ومعهم كل من لم يكن له أسرة تقيم معه من تلاميذ أبي من المحامين، سواء بسبب الغربة، أو الانفصال، أو عدم الزواج.

كنا نسميه «إفطار العُزّاب»، وكان الهدف منه دائمًا أن يشعروا ـ وأن نشعر معهم ـ أن أسرتنا الكبيرة تحتوينا جميعًا في أول يوم من رمضان.

كان هذا الإفطار السنوي أشبه بأسطورة عاطفية، يتناقلها الكثيرون وتتجدد كل عام، حيث تتعانق رائحة الطعام الساخن مع دفء القلوب والمشاعر، وتصطف الذكريات مع أطباق الصيني وأطقم الفضية (الليمون) التي لا تغادر مراقدها ـ غالبًا ـ إلا في هذا اليوم، لتتلألأ على المائدة مثل ضيوف لا يغادرون قائمة المدعوين، إلا إذا تغيرت حالتهم الاجتماعية. ولنفس السبب، يتجددون نسبيًا، في كل رمضان، بدخول عُزّاب جدد إلى قائمة الإفطار السنوي، يحملون معهم نفس المشاعر الودودة، ونفس التفاصيل، ونفس الدهشة التي تصيبهم عندما يقول لهم أبي:

«نتمنى ألا نراكم في هذا الإفطار العام القادم!»

❁ في البيت العريق، بمساحة طاولة طعامه الفرنسية الطراز، كان لكل فردٍ مقعده الثابت الذي لا يتغير مع الأعوام. أمي على رأس المائدة تراقب الأطباق التي تكاد أن تفرغ لتعيدها إلى صورتها الأولى، وأبي عن يمينها، وأنا عن يسارها، والضيوف بترتيب أعمارهم من الأكبر إلى الأصغر.

❁ قبل بدء مراسم الإفطار السنوي، كان الضيوف يدلفون تباعًا إلى صالون المنزل «الإيبيسون» نبيتي اللون، الذي صنعته أمي بيديها ـ غرزة غرزة ـ قبل زواجها، وصنعت مثله لوحيدها (كاتب هذه السطور) قبل زواجه.

❁ وعندما يفيض الصالون برواده، كانت الصالة ذات الأرضيات المرمرية من رخام الكرّارة الأبيض تحتضنهم، تزينها سجادات الشينواه العتيقة، بينما تتسلل الشمس ـ قبل المغرب ـ من النوافذ كطفلة خجلى، ترسم خيوطها الذهبية على السجادة التي حفظت خطواتي الأولى، وسجداتي المرتجفة، ودموعي الطفولية التي امتزجت بالسعادة والرهبة.

❁ لحظات الكل فيها ينتظر صوت الشيخ محمد رفعت وهو يرفع الأذان.

❁ لم يكن الصيام في تلك المرحلة مجرد انقطاع عن الطعام، بل كان رحلة بين الجوع والامتلاء بالمشاعر، بين الصبر والمكافأة، بين لهفة الطفولة وصمت التأمل.

❁ كان درسًا مبكرًا في معاني الحرمان، لكنه كان أيضًا درسًا في الامتلاء بالرضا، حيث تتسع الروح كلما ضاقت المعدة، ويصبح للوقت ولقاء الأحباء إيقاعٌ مختلف، تتباطأ فيه الدقائق الأخيرة وكأنها تختبر قدرتنا على التحمّل، وأشواقنا لتلك الحوارات الجانبية ونوادر الزملاء في دهاليز المحاكم.

❁ صوت المذياع القديم، ماركة (الفيليبس)، ببكرته التقليدية ولمباته الداكنة، وجسمه المستطيل، كان يصدح بآيات القرآن بصوت الشيخ رفعت، تتداخل مع همسات أمي وهي تضع لمساتها الأخيرة على طاولة الطعام، التي كنا نراها أعجوبة، أهم مقوماتها:

مشروب قمرالدين

ورق العنب

الشعرية بالزبيب

اللحوم

البط بالبرتقال

شوربة الدجاج

الكنافة القطايف

❁ أبي، بمزاحه الدافئ، كان يحاول أن يسرق منا انتباهنا عن دقائق الجوع الأخيرة، وكأنه أراد أن يجعلنا نكبر دون أن نشعر بثقل الانتظار.

❁ كان كل شيء رائعًا بحب، راقيًا بتواضع، لكن بركة رمضان كانت تجعل القليل كثيرًا، وتجعل الامتلاء لا يحتاج إلى أكثر من قلبٍ محب، ونفسٍ مطمئنة.

❁ لم يكن إفطار العُزّاب مجرد لقمة توضع في الفم، بل كان لحظة يتفتح فيها القلب على نورٍ خفي. وكان دعاء أمي لحظة الإفطار أشبه بوعدٍ سماوي، بأن الخير لا يغيب، وأن الأمان يسكن تلك اللحظات البسيطة التي لا ندرك قيمتها إلا حين تغيب.

❁ مضت السنوات، تبدّلت الأماكن، غاب معظم الوجوه عن طاولة الإفطار، لكن ذلك اليوم الأول ظل يسكنني، كما تسكن الطفولة أعماق الذاكرة، وكما يسكن الحنين أبواب القلب التي لا تُغلق أبدًا.

❁ لذا، حرصت منذ عشرة أعوام في الغربة الموحشة أن أستعيد هذه السنة في اليوم الأول من رمضان كل عام، بإقامة إفطار العُزّاب لزملائي في الشرق، وما أكثرهم، وما أضيق طاولات الغربة ولو اتسعت!

❁ شكرًا لكل من يساعدني في إحياء هذه الذكرى الجميلة في قلبي، وأولهم زوجتي الحبيبة دعاء نور.

اسطنبول ـ شاطلجا

السبت ١ مارس ٢٠٢٥
قبل (إفطار العذاب)

أوراق من مذكراتي (١٩)

مسلسل «النص»
بين المكوث وحيدا والعبور

كم هو غريبٌ هذا الشعور، المزمن، بالوحدة!

ليست مصادفة أن تولد طفلًا بلا إخوة، فتعيش طفولتك بين حنان الصمت، وإصغاء الآخرين لطلباتك دون أن تنطق بها.

تكبر وتصادق ظلالك، تحادث ألعابًا لا تردّ، وتأنس بعالم لا يشاطرك أحد أسراره. تشبُّ شابًا تحمل هموم الرجال، تعيش رجولتك بملامح الشيخوخة، وتقطع دروب العمر محملًا بذكريات لا يشاركك فيها أحد، كأنك شاهدٌ على زمن لم يعُد يُذكر، وتاريخ يتوارى خلف غبار الأيام. وكأنك عداءٌ في سباق المشي البطيء، تصل إلى المحطات قبل الرفاق بعقدين من الزمن!

أصعب أنواع الوحدة أن يحيط بك الماضي كموجٍ يلاطم صخور النسيان، تشعر أنك الناجي الوحيد من حريقٍ لم يلحظه أحد.

تمضي السنوات، فتجد نفسك غارقًا في ذكرياتٍ لا يفهم قيمتها إلا من عاشها، من تشرّب لحظاتها وارتوى من نبعها، لكنها اليوم لا تعدو كونها أوراقًا صفراء تتساقط في رياح العمر، لا تحمل إلا ظلال من كانوا هنا ثم رحلوا.

في زوايا الذاكرة، أغنياتٌ قديمة، بعضها ينتمي إلى زمن أم كلثوم، وأخرى إلى ابداعات حبيبي، وصديقي واستاذي محمد نوح،

وبعضها ينتمي او إلى ذكرياتي مع **الشيخ إمام**، او إلى كلمات وصوت علي الحجار، ومحمد منير،

كلها بعبقها تسكن أركان منزلي في إسطنبول، تعيد إلى القلب نبضه وإلى الروح وطنها القديم.

تسمعها كأنك تفتح نافذةً على أيام كنتَ فيها مفعمًا بالحياة، فترى نفسك ذلك الفتى الذي كان يضحك بلا حذر، يبكي بلا خوف، ويحلم بلا قيود.

لكن سرعان ما تغلق النافذة، فتدرك أن من كانوا يشاركونك تلك الألحان قد مضوا، ولم يبقَ منها إلا صداها الذي يسمعه قلبك وحده. . . وجلباب محمد نوح الأبيض الفضفاض الذي ينتقل معي من بلد إلى بلد، ومن زمن إلى زمن، أشم فيه رائحته كلما استبدّ بي الشوق إليه.

بين هذه الذكريات، تأخذني صورة أخرى من زمن لم أعيش فيه، لكنني عايشته وعرفته من خلال رجل عظيم كان لي أبًا روحيًا وأستاذًا وأيقونةً لنبل السياسة. . . إنه فؤاد سراج الدين.الذي كان يحكي لي عن القاهرة وهي ترتدي ثوبها الأنيق، عن شوارعها التي كانت تليق بالأقدام التي تمشيها، عن أناقة الرجال يوم كان الجاكيت الكروزاون ذو الأزرار الكثيرة، المصطفة علي الجانبين والمنديل في جيب المعطف أكثر بلاغةً من كثير من الكلمات.

هذه التفاصيل التي كنت أسمعها من فؤاد سراج الدين تلح علي بشكل غريب وأنا اشاهد في رمضان، ٢٠٢٥، مسلسل النص للفنان المبدع أحمد أمين،

وكأن الزمن يستعيد شيئًا من بريقه المفقود، وكأن بعض الجمال

يأبى أن يندثر، فيعود إلينا ولو في شكل مسلسل تنتجه المتحدة. أو موضة يسمونها الموضة «الرجعية»، لكنها بالنسبة لي ليست رجعية، بل هي لمحة من زمن جميل تمنيت أن أعيش فيه، أو أن أكون بعضًا منه!

أتذكّر بيتي في الزمالك، وبيت محمد نوح الذي كان لصيقا للبيت الذي يسكنه الرئيس محمد ـ حسني ـ مبارك حيث كان يجمعنا نوح في لقاء فكري أسبوعي نتداول فيه الاخبار والأفكار النكات والضحكات التي كانت تنفجر كشرارات الضوء في عتمة الأيام. كنا نضحك حتى ندمع، نضحك حتى تتقطع أنفاسنا، حتى يصبح الفرح والإبداع لغتنا الوحيدة.

الزمن سرق الضحكات، وحوّلها إلى أصداءٍ بعيدة، لا يسمعها إلا من كان يومًا جزءًا منها.

كنتُ صانع سياسة، أتقن فن الصحافة ونحت الكلمات، والمعاني، أجيد رسم الطريق، لكن ما قيمة أن تكون سياسيًا في وطن لا يعرف معنى السياسة؟

وطنٌ يرى السياسي كندبةٍ قديمة، يتألم كلما لمحها، لكنه لا يملك أن يمحوها.

كانت السياسة والصحافة مهارةً تُقدَّر في زمنٍ مضى، لكنها اليوم تُعدُّ عبئًا، كمهارة الترزي أو صانع الطرابيش، في زمنٍ لا يعترف بالقلم، ولا يقرأ الكلمة.

زمن لا يُعلي من شأن الفكرة، لكنه يعطي الملايين كل شهر لفتاه تتعري وتتمايل في بثمباشر، علي التيكتوك أو اليوتيوب، لتربح في شهر واحد، ما لم يجمعه طه حسين والعقاد ومصطفى أمين والتابعي وفهمي هويدي مجتمعين من مبيعات كتبهم!

اشعر في رمضان ـ٢
٠٢٥ اني أسيرُ على ضفاف النهر، ذاك النهر الذي عبره الكثيرون قبلي،

حاملين أحلامهم وخيباتهم، تاركين وراءهم آثارًا تمحوها الأمواج، إلا أثرًا واحدًا يبقى محفورًا في القلوب.

- ربما في العبور أجد ما لم أجده في المكوث،
- وربما يكون لي نصيبٌ في أن أترك بصمتي، على صفحات التاريخ، أو على الأقل في ذاكرة الذين أحببتهم، في قلوب الذين يعرفون أن هناك من مشى هذا الطريق، حاملًا وحدته كرفيق، وذكرياته كزادٍ للطريق.



أوراق من مذكراتي (٢٠)

حكاية أيمن نوح

ثمة وجوهٌ لا تغيب، وأرواحٌ تسكن فينا، حتى وإن غاب أصحابها خلف ستائر الزمن. قد تفرقنا الأيام، لكن بعض الأسماء تظل محفورةً في القلب، لا تمحوها المسافات، ولا ينال منها النسيان. ومن بين هؤلاء، بل في القلب منهم، يقف محمد نوح، ليس كذكرى عابرة، ولا كصورة في أرشيف الأيام، بل كنبضٍ لا يزال حيًا في وجداني، وكظلٍّ لا يفارق روحي، وكصوتٍ يردد في أعماقي أغنياته، وأفكاره، ووصاياه التي لم تبارحني يومًا.

كان صديقي، وأستاذي، وأبي الروحي، كان أكثر من مجرد فنانٍ أو مفكرٍ أو سياسيٍّ مخضرم، كان روحًا تمشي على الأرض، يعزف على أوتار القلوب، ويخطُّ بألحانه وفكره ووجدانه تاريخًا من النضال والحب والحرية. لم يكن مجرد رئيس لجنة الثقافة في حزب الغد وحزب غد الثورة، بل كان ركنًا أصيلًا في تكوينه، وأحد مفكريه العظام، الذين لم يكتفوا بالتنظير، بل عاشوا مبادئهم وأحلامهم بحسٍّ صادق، ونبضٍ لا يعرف المساومة.

كنتُ أضحك من أعماق قلبي حين كنا نسير معًا في المؤتمرات أو شوارع باب الشعرية والموسكي والأزبكية، فيندفع البعض من محبيني ومناصريّ ليهتفوا لنا معًا بعبارة واحدة:

«عاش أيمن نوح!»

خطأ بسيط، ربما غير مقصود، لكنه كان يسعدني ويضحكني، ويعبر عن حقيقةٍ دفينة في داخلي: أنني كنت أراه جزءًا من روحي، وكان يراني امتدادًا له. كان في مقام الأب الذي منحني من روحه، ومن علمه، ومن فنّه، حتى باتت مشاعري تجاهه أعمق من أن توصف، وأقرب إلى صلة الدم التي لا يفرقها شيء.

لم يغادرني يومًا، لم يغب صوته، ولا أفكاره، ولا ضحكته التي تحمل بين ثناياها حكمة السنين ومرارة التجارب. لا زلت أراه في زوايا الذاكرة، وأسمع صوته في لحظات الصمت، وأستعيد كلماته كلما اشتدت بي الأيام. وفي لحظات الحنين العميقة، ألجأ إلى جلبابه، ذاك الجلباب الذي تركه لي في منزلي منذ أكثر من ربع قرن، وكأنه كان يعلم أنني سأحتاج إليه يومًا، لا لأرتديه فقط، بل لأحتضنه وكأنه جزءٌ منه ما زال حيًا.

حملت هذا الجلباب معي من بيتٍ إلى بيت، ومن بلدٍ إلى بلد، كمن يحمل ذاكرة وطن، أو قطعةً من روحه لا يريد أن يفقدها. كلما لمسته، شعرت أن نوح لا يزال هنا، يبتسم لي بتلك النظرة التي كانت تحمل في أعماقها ألف رسالة، ألف معنى، وألف حكاية.

لم يكن محمد نوح مجرد موسيقي، بل كان ثائرًا يعزف النضال، وفيلسوفًا يكتب الحرية بالنغم والكلمة. كانت أغانيه تتنفس بحب الوطن، كانت موسيقاه صرخةً ضد الظلم، وكانت كلماته نشيدًا لا يموت. لم يكن فنه وسيلةً للكسب، بل كان رسالةً مقدسة، يحملها كما يحمل المجاهد رايته، ويؤمن بها كما يؤمن العاشق بحبه. كان واحدًا من هؤلاء الذين يصنعون التاريخ بصوتهم، بألحانهم، بأفكارهم، وبروحهم التي لا تعرف الخنوع.

لقد رحل محمد نوح، لكنه لم يمت.

إن من يزرع الحب والفكر والنضال لا يموت. من يترك أثرًا في القلوب لا يُنسى. من يعيش حكايةً يرويها الزمن، يظل خالدًا حتى وإن غاب جسده عن هذه الحياة. وأنا، أيمن نوح، كما أطلق عليَّ الناس يومًا، ما زلت أحمل ذكراه، وأردد أغنياته، وأحتضن جلبابه كأنه وطنٌ صغيرٌ يأويني حين تضيق بي الأيام.

رحمك الله يا نوح... كم أشتاق إليك، وكم أفتقدك!

محمد نوح أيمن نور حكايات الذاكرة فن نضال حرية حب أبوة روحية

أوراق من مذكراتي (٢١)

١٦ مارس في ذكرى كمال جنبلاط
«لا تظلموا الدروز ولا تخونوهم»

قبل صيف ٢٠١٣، لم تكن معرفتي بـ الطائفة الدرزية تتجاوز بعض العناوين الباهتة التي لا تعكس عمق هذا المكوّن العربي الأصيل. لم أكن أعلم أنني سأقضي أيامًا في حضن الجبل، هناك حيث تُروى الحكايات وتُسقى الجذور بماء الكرامة، وحيث سأتعرّف على فكرٍ صنعه عقلٌ متقد، وقلبٌ نابض بـ العروبة، وروحٌ محلّقة فوق الطوائف والحدود.

في أغسطس من ذلك العام، هربتُ من قيظ بيروت إلى هواء عاليه العليل، مستأجرًا فيلا تطلّ من قمتها على تاريخ ممتدّ في ذاكرة الجبل، وكان مالكها من إحدى العائلات الدرزية الشهيرة. لم تكن الفيلا مؤثثة فقط بالأثاث الخشبي العتيق، بل زُيّنت بمكتبة عامرة بمؤلفات كمال جنبلاط، وكأنّ القدر شاء أن أجد نفسي أمام إرث رجلٍ لم يكن مجرد زعيم حزبي، بل كان مدرسة فكرية، جمعت بين الفلسفة والإنسانية والسياسة برؤية لم تُكرر.

كنت متردّدًا في البداية، فالعقل أسير ما يجهل، والخوف من الغريب طبيعةٌ بشرية، غير أنّني وجدتُ نفسي مدفوعًا إلى صفحات تحمل فكرًا يسمو فوق الطوائف، ويحتضن القيم الإنسانية في أعمق معانيها.

انتقلتُ بين كتبه، من «أدب الحياة» إلى "الممارسة السياسية" ثم «السلام والمحبة»، وكان كل كتابٍ منها يمحو سحابة الجهل، ويكشف لي عن رجلٍ رأى العالم بعيون الفلاسفة، وحمل القضية الفلسطينية بيد المناضلين، وسار في دروب السياسة بروح الحكيم.

❁ كمال جنبلاط لم يكن مجرد اسمٍ في سجلّ قادة، بل كان عنوانًا لنضالٍ لا يعرف الانحناء، حتى لحظة استشهاده في مثل هذا اليوم ١٦ مارس ١٩٧٧، وفي أوج الحرب الأهلية اللبنانية، حين ارتفعت بندقية الغدر لتغلق صفحة جسده، لكنها فتحت كتاب أسطورته. لم يكن اغتياله جريمةً عابرة، بل كان قرارًا اتُّخذ في تل أبيب، ونُفّذ بأيادٍ تتبع نظام الأسد، عقابًا له على رفضه مشروعًا إسرائيليًا لإقامة دولة درزية تمتدّ من الشوف إلى جبل العرب، مشروعٌ قاومه جنبلاط بكل ما أوتي من عزيمةٍ وعروبةٍ صلبة.

❁ اليوم، وبعد ٤٧ عامًا على استشهاده، يطلّ المشروع ذاته برأسه مستغلًا الفوضى السورية، محاولًا أن يجد له موطئ قدم في دروبٍ لم تعرف يومًا إلا طريق العزة. لكنني على يقينٍ أن أبناء سلطان باشا الأطرش في السويداء، وأحفاد كمال جنبلاط في لبنان، سيقفون سدًا منيعًا أمام هذه المحاولات، حاملين رايةً خطّ عليها جنبلاط بدمه: «فلسطين قضيتنا، والعروبة هويتنا».

❁ إنّ اغتيال كمال جنبلاط كان اغتيالًا لفكرة، لحلم بـ وطن عربي متحرر من الطائفية والاحتلال، ورغم ذلك، فإنّ مدرسته الفكرية لم تسقط بسقوطه، ولم تهزمها تلك المشاهد المؤسفة لبعض مشايخ الدروز في زيارةٍ مشبوهة لإسرائيل.

❁ علينا أن نفهم السياق قبل إطلاق الأحكام، فـ الدروز في سوريا ليست كتلةً صمّاء، بل تتوزّع بين ثلاث مرجعيات متساوية الصلاحيات: (الحناوي ـ الجربوع ـ الهجري). وبينما يقف الحناوي والجربوع إلى جانب

النظام السوري الجديد، خرج الهجري عن هذا الاصطفاف، مستندًا إلى حمايةٍ إسرائيلية وتحريضٍ مكشوف، لكن هذا الموقف لا يمثل إلا ١٪ من ٣٪ هي نسبة الدروز في سوريا.

❁ زيارة بعض أتباع الهجري إلى إسرائيل موقفٌ مشينٌ دون شك، لكنه لا يعبّر عن الدروز عامة، ولا حتى عن دروز سوريا ودروز لبنان، الذين ظلّت غالبيتهم الساحقة على العهد مع أوطانهم، ورفضوا كل مشاريع التقسيم والاستقواء بالعدو.

❁ ويكفي موقف وليد جنبلاط، نجل الزعيم الشهيد، الذي كان أوّل من أيّد السلطة الجديدة في سوريا، رغم أنه لم يكن يومًا، ولا كان والده، حليفًا لإسرائيل أو مستقويًا بها.

❁ في ذكرى استشهاده، يبقى كمال جنبلاط رمزًا للفكر الذي لا يموت، والروح التي لا تُغتال، ويبقى الدروز جزءًا أصيلًا من النسيج العربي، ظلمهم الجهل، وخانهم البعض، لكنهم ظلّوا أوفياء للأرض، رافضين أن يكونوا ورقةً في لعبة الأمم.

❁ رحم الله كمال جنبلاط، المثقف الكبير، الزعيم الذي كان أكبر من طائفته، والقائد الذي كان بحجم أمة ووطن.

✸

أوراق من مذكراتي (٢٢)

دموع لا تجف... وذكريات لا تُنسى

«أمي التي ولدت يوم مولدي»

«وأبي الذي ألقى بي في اليم»

تمرّ الأعوام كأمواجٍ تتلاطم على شواطئ الذاكرة،

تهدأ أحيانًا لكنها لا تنحسر،

تتكسر عند جدران القلب،

فتبعث الحياة في ماضٍ لم يغب،

وحضورٍ لم يَفْنَ.

. . . نهران لا يجفان، جريا في روحي

قبل أن أولد،

يمضيان معي حتى بعد أن غابا،

يتركان أثرهما في ضوء عينيّ،

في نبرة صوتي،

في قلمي حين يكتب،

وفي قلبي حين يخفق.

❁ أمي... كانت لا تطمئن إلا حين أغمض عينيّ، وكأن غفوتي أمانٌ لها، وكأن يقظتي ـ في البعد عنها ـ خطرٌ تخشاه. كانت تخشى أن يجوع قلبي

قبل أن يجوع جسدي،

كانت تغذيني بالحب قبل الطعام،

كانت وهي أستاذة الأدب الفرنسي

تمنحني الدفء وهي تقصّ حكايات من منابع الثقافة الفرنسية، فتفتح لي أبواب الفكر والحياة، فزرعت داخلي بذور المعرفة والجمال والحرية،

هكذا كانت معتصمة محمد حسنين، ليست مجرد أم،

بل مدرسة للفكر والوعي والعمل الاجتماعي والإنساني والتسامح والحياة.

❁ أبي... المحامي البارع والنائب البرلماني قبل أن أولد كان يحرسني بصمت، بحبٍ عميقٍ لم يكن بحاجةٍ إلى كلمات، فقد كان حبه يتجلى في نظرة، في موقف، في حضورٍ لا يغيب، حتى في أطول فترات الغياب.

أبي أورثني السياسة كما تمتد وتسري الدماء في العروق، منحني قوة الكلمة، وبلاغة الحجة، وذكاء الفكرة، كان يرى وحيده امتدادًا لمشروعه، فزرع في داخلي قيمًا لم يلقّنها لي، لكنها تسربت إليّ مع كل خطوة كنت أخطوها خلفه أتابعه بشغف في البرلمان، في المحاكم، في الحياة، وكأنني أواصل ما بدأه، دون أن يطلب مني ذلك، فقد كان عبدالعزيز نور رجلًا يصنع الأثر، لا بالكلمات وحدها، بل بالمواقف والمبادئ التي لا تلين.

❁ أمي... كانت ترى الحياة لوحة،

وأنها تُعاش بالفن والحب والجمال،

تهمس لي دائمًا:

لا تدع العالم يسلبك إنسانيتك،

ولا القيم المادية تطغى على روحانيتك،

كن أنت النور في هذا الظلام...

كلماتها هي رفيقة دربي، لم تبارح عقلي،

تحملني حين يطول الطريق،

وتضيء لي العتمة حين يشتد الظلام.

❁ أبي... كان يؤمن أن العالم ساحة نضال، وأن العقل هو السلاح واليقين باللّه، هو سبيل القوة.

كان يتركني أسقط أحيانًا، لكنه كان هناك دائمًا... ليسندني بعد أن أتعلم كيف أقف وحدي، وكان يقول لي دومًا: الحياة لا تمنح أحدًا شيئًا بالمجان، إن لم تناضل من أجلها، لن تجد لك مكانًا فيها...

❁ عندما نجحت في الشهادة الابتدائية في منتصف سبعينيات القرن الماضي، وضعني في مقصورة الطيار على طائرة متجهة إلى لندن وقال لي وهو يتمالك دموعه:

«ألقيت بك يا وحيدي في اليم»

وبدأت ـ منفردًا ـ رحلتي، ولعدة أشهر، للالتحاق بمدرسة بريطانية صيفية عريقة بمنطقة «ميلفلد»

وفيها تعلمت رياضات مختلفة مثل: الطيران الشراعي، والكاراتيه، والشيش، والفروسية. وقابلت طلابًا أكبر مني سنًا،

كان أبرزهم ولي عهد شاه إيران وشباب من باكستان والهند والبرازيل

وجنوب أفريقيا، وعرفت وقتها أن العالم أكبر من غرفتي، وأن الهدف من الرحلة الأولى الخروج من أسر الطفل الوحيد.

❁ أمي... كنت أعرف حبها بالفطرة،

فهي التي أصيبت في طفولتها بخلل في صمامات القلب،

وعندما تزوجت وهي طالبة في مدرسة «السانت فاميلي»

حذرها الأطباء من فكرة الإنجاب،

لكنها قررت أن تخاطر بحياتها، تمنحني الحياة ولا تحرم أبي من الأبوة.

❁ ولدت في فجر الخامس من ديسمبر عام ١٩٦٤، في مستشفى "الماترنيتيه" الملاصقة لمنزل جدي بالإسكندرية.

❁ وولدت معي أمي، في ذات لحظة ميلادي الصعبة التي مد الله في عمرها بعدها ٣٠ عامًا وبعض شهور،

وظل دمها يسري في دمي، وكأنه ضوء لا ينطفئ، ألمسه في دفء يديها، في حرصها، في كلماتها التي كانت تلملمني حين يبعثرني الزمن، كان حبها لي وحبي لها، أبجدية لا تحتاج إلى تفسير.

❁ وكما ولدت أمي ـ من جديد ـ يوم مولدي في مستشفى "الماترنيتيه" للولادة في الإسكندرية وعاشت بعدها (٣٠ سنة)

❁ متّ أنا يوم موتها، في مستشفى "مجدي يعقوب لجراحة القلب" في لندن، رغم أني عشت ـ وما زلت ـ (٣٠ سنة)

❁ أبي... فهمت حبّه وتعلمت منه، حين صرت أبًا، حين أدركت أن الحب ليس دائمًا كلمة تُقال، ولا مجرد رسالة

أو اتصال، بل مسؤولية تُحمل، وتضحية تُقدّم، وصرامة أحيانًا لكنها تُخفي خلفها بحرًا من العاطفة،

كان يمنحني دروسًا لم أفهمها إلا حين وجدت نفسي في مواقفه، أتخذ ذات القرار، وأردد ذات العبارات، وكأن روحه لا تزال تنبض في داخلي.

عندما استيقظ من نومي، فجرًا، والكل نيام، وأنظر للمرآة، وأنا مندهش من حجم الشبه، الذي بات يجمع بيننا.

- أمي... كنزٌ لا يُقدّر بثمن،
- وأبي... رجل لن يكرره الزمن.

اليوم، وبعد عشرين عامًا من غياب والدي، وثلاثين عامًا على رحيل والدتي، أدرك أن الفقد الحقيقي ليس أن يرحل الأحبة، بل أن يغيبوا عنك وأنت لا تزال تحتاج اليهم وتشتاق لهم



أوراق من مذكراتي (٢٣)

... ٢١ مارس ...
صلّوا للأمهات الراحلات

كما الأم،

هي الحياة...

ليست ما نراه،

بل ما نشعر به،

وما نفتقده حين يغيب.

فالحياة ليست مجرّد أيامٍ تتعاقب،

بل نَبضٌ خفيّ نسمعه

فقط إذا أصغينا لداخلنا.

هي تجربةٌ تنبت في قلبٍ عاش الألم،

ولا تزهر إلا إذا رُويت بالحب.

يوم ٢١ مارس،

يحتفل به، كثيرون من حولنا،

وتنتظره الأمهات بشغفٍ.

أما الحنين المؤلم،

فيتسلل كظلٍّ ناعم

إلى قلوب من فقدوا جنّتهم في الحياة،

ولا يجدون حتى سبيلًا

لوضع وردةٍ على قبرٍ

طال انتظاره لهذا اليوم الأثير.

۞ أحسب أن من أعظم ما أنجزه

أستاذي الراحل مصطفى أمين،

وتوأمه في البنيان والوجدان،

الأستاذ علي أمين،

تلك الدعوة النبيلة

للاحتفاء بالأم في يومٍ يليق بها.

دعوةٌ جعلت من عيد الأم

عيدًا وطنيًّا للحنان،

واعترافًا ـ ولو متأخرًا ـ بالجميل.

۞ حدّثني أستاذي الكبير،

في منتصف الثمانينات،

عن أمٍّ دخلت عليهما

تحمل حكايتها المؤلمة.

أرملة شابة أفنت عمرها

لتربية أبنائها،

ثم تفرّقوا في دروب المجد،

ونسوا من عبدت لهم الطريق.

❁ تأثّر الشقيقان بشدّة،

وكتب علي أمين مقالته الشهيرة: «فكرة»،

فانهمرت الرسائل،

كأن مصر كانت تنتظر

أن يوضع حجر كريم

في جدار نكران الأبناء الصلب.

❁ سألته: ولماذا ٢١ مارس؟

فأجاب ببساطة العارف:

لأنه أول الربيع... عيد الحياة.

الفصل الذي يشبه الأم،

في دفئه، في جماله،

وفي انبعاث المشاعر من أرضٍ كانت ساكنة.

❁ أما أنا،

فلي مع هذا اليوم حكايةٌ أخرى...

قبل ثلاثين عامًا،

رحلت أمي...

❁ تلقيت يومها آلاف برقيات العزاء،

لكن أقصرها كان أبلغها،

وأصدقها ملامسةً لروحي،

برقيةٌ كتبها مفيد فوزي،

قال فيها فقط:

«أعزيك في فقد فردوس الحياة».

❁ نعم... الأم هي الفردوس،

هي الممرّ الآمن، والمرسى الدافئ،

هي المعنى حين تضيع المعاني،

هي الدفء حين يخذلنا العالم،

هي المدرسة التي لا تُغلق أبوابها،

ورمز الحياة الذي لا يُعادله شيء.

❁ فالحياة أعمق مما ندرك،

ليست دائمًا عادلة،

لكنها تترك لنا إشارات،

ودروسًا متناثرة على الطريق،

لنفهم، ونتأمّل،

ونمنحها ـ نحن ـ معناها،

حين نحب، ونتسامح،

ونتذكّر من أحبّونا دون مقابل.

❁ الماضي قد مرّ،

والغد ما زال غائمًا،

أما الحاضر،

فهو كل ما نملك.

فلنحياه بقلبٍ ذاكر،

وروحٍ تُصلّي وتدعو

في العشر الأواخر من رمضان

للأمهات الراحلات

عن أعيننا، لا عن قلوبنا.

❁ الحياة بسيطة في جوهرها،

لكنها لا تكشف وجهها الحقيقي

إلا لمن امتلك شجاعة الحب،

وسلام القلب،

ونقاء الذاكرة.

❁ أكتب اليوم،

لا لأحتفل،

بل لأتذكّر...

لأضمّ طيف أمي

في سطورٍ تشبهها:

حنونة، دافئة، جميلة،

وحقيقية.

❁ رحم الله أمي،

وجعل فردوسه الأعلى

موطنها ومقامها.

أوراق من مذكراتي (٢٤)

أسرار يوم الرحيل

في ليلة الرابع والعشرين من يوليو، عام ٢٠١٣، وقبل موعد السحور بقليل، دق جرس الهاتف. كنت في بيتي السكندري، على شاطئ ستانلي. كانت المدينة تستعد لليلة أخرى من ليالي الصمت.

جرس الهاتف شقّ السكون، كصرخة مولود يُنتزع من رحم أمه. أدركت من توقيت الاتصال، وشخص المتصل، أن الموجة القادمة ليست كسابقاتها...

لم تكن المكالمة حوارًا، بل كان قرارًا (معنا أو ضدنا). لم يُمهلني صوت المتحدّث مساحةً للتفكير، للتفاوض، حتى للدهشة، ولا فرصة لالتقاط النفس: «إما الطاعة... أو الغياب». لا خيار، لا رأي، لا حق حتى في تحديد ساعة الرحيل أو ملامح الطريق. كُتبت لي تذكرة سفر، لا بمداد، بل بإملاء الخوف، ومُذيّلة بختم «الصمت أو الرحيل».

في الطائرة، لم أكن راكبًا كسائر الركاب. كنت مشروع سؤالٍ كبير، تطرحه عيون من صادفتهم على نفس الطائرة ويعرفونني وأعرفهم ـ مثل رجل الأعمال صلاح دياب، والإعلامي توني خليفة ـ الذي كاشفني في لقاء لاحق في بيروت، أنه كان على يقين، ونحن في الطائرة، أن عودتي إلى القاهرة لن تكون قريبة.

❁ غادرت . . .

لا لأني أردت،

بل لأنني أصررت

أن أبقى على قيد الكرامة.

فالرحيل ـ أحيانًا ـ هو الشكل النبيل للبقاء.

❁ رحلتي صباح يوم ٢٥ يوليو ٢٠١٣، كانت المرة الأولى التي أغادر فيها وطني، دون أن أحدد يوم وساعة العودة. لكنها لم تكن المرة الأولى التي أواجه فيها آلة الظلم وأتذوق مرارتها.

❁ عرفت ـ لخمس مرات ـ في حياتي مذاق القيود، ورائحة الزنازين، وصوت القضبان، حين تتكلم نيابة عن القانون. لكني لم أعرف زنازين الغربة عن الوطن من قبل.

❁ في الوطن، حين ترفض السجود، تُتّهم بالهرطقة.

وحين ترفض التهليل، تُوصم بالخيانة.

لكني تعلمت في حياتي، أن الصمت في حضرة الظلم، ليس حيادًا، بل خيانة للحق.

❁ تهمتي الحقيقية والوحيدة، في كل مرات اعتقالي، كانت «الكلام».

نعم، الكلام في أزمان الخرس،

والحلم في زمن الكوابيس.

لم أهرب يومًا من عدالة،

ولو كانت مهزلة.

لم أختبئ من محكمة،

أو حتى مقصلة.

ولم أحمل في حقيبة سفري، غير أوراق حلم بالـ حرية مؤجَّل، وصوت ضمير لم يُفلحوا يومًا في إسكاته.

۞ حين احتضنتني بيروت، لعامين،

ثم إسطنبول، لعشرة أعوام،

لم يكن المنفى مكانًا، بل امتحانًا.

١٢ عامًا ـ حتى الآن ـ لم أغب فيها عن مصر،

بل كنت أقرب إليها من أي وقت.

۞ أراها في عيون أمي، كلما قرأت سورة «يس» على روحها، وفي وجدان أبي، كلما تذكرت دموعه الصامتة وهو ينظر إليّ ـ نظرة الوداع ـ بعد اعتقالي فور إعلان نتائج انتخابات الرئاسة ٢٠٠٥، الأولى في تاريخ مصر، والتي حللت فيها ـ ثانيًا ـ من بين عشرة مرشحين.

۞ لم تكن مصر، يومًا، في عيني مجرد جواز سفر، أو خريطة معلّقة، أو علمًا خلف طاولة مكتب.

۞ مصر رعشة تُصيب القلب إذا ذُكرت.

هي الأم التي ـ وإن قسَت ـ لا تكفّ عن الحضور.

۞ وحدهم الحمقى من يظنون أن الحاكم هو الوطن،

وأن غروب الشمس يُلغي فكرة الشروق.

۞ فالأوطان، لا تموت في قلوب المؤمنين بها،

وتنبت فيها الحياة حتى من جدران الزنازين.

۞ الحرية ليست ترفًا، بل شرط وجود.

والدولة التي تهاب الكلمة، هي دولة بلا ثقة.

وكل الأنظمة، هي مجرد فاصلة في جملة شعب إذا قرر أن يحيا.

۞ لم أخرج نصيرًا لفريق ضد آخر، كما روج البعض،

بل حاملًا لقضية أوسع من الاستقطاب، وأعمق من المعارك الصغيرة.

خرجت لأن من بالداخل لم يُسمح له بالخروج عن صمته.

۞ لم ندّعِ النصر، ولكننا ـ يقينًا ـ لم ننهزم.

فكل نزال من أجل الحرية، يكفي أن تواصل الوقوف فيه

لتُبقي المعركة حيّة.

۞ يكفي أن تُشعل شمعة في زمن الظلمة،

وأن تهمس بكلمة في صمت الموت،

لتُسجَّل في دفتر التاريخ كمَن قاوم،

ومَن حاول ولم يتوقف عن المحاولة.

۞ الذين ذاقوا الغربة، لم ولن يطلبوا يومًا امتيازًا.

بل بحقّ العودة، لوطنه دون خوف أو عقاب.

فهو حق، ليس مضطرًا معه أن يُجمّل القبح، أو يُرمّم الخراب بطلاء الزيف.

۞ فإمّا أن نكون أحرارًا . . .

أو لا نكون.

فـ الوطن ليس أرضًا . . .

بل كرامة تُصان،

وحق يُحترم،

ومستقبل يُبنى على الحقيقة لا الوهم،

وعلى الحرية لا على الخضوع.



أوراق من مذكراتي (٢٥)

الصراع على رئاسة مصر (١)
«منصور حسن.. المدني الذي أرعب الجنرال!»

في ربيع عام ١٩٧٩، حين أعلنت مصر عن أول عيدٍ للفن والثقافة، كنتُ شابًا يافعًا، أتلمّس خطواتي الأولى في عالم الصحافة الطلّابية، أحمل في قلبي شغف الكلمة، وفي عقلي أحلام جيلٍ يتطلّع للغد. لم أكن أعلم آنذاك أن القدر يخبّئ لي لحظةً استثنائية، ستظلّ حيّة في ذاكرتي، حين تم اختياري، بتزكية من أستاذي مصطفى أمين، لنيل جائزةٍ تشجيعية في مجال الصحافة، ضمن مجموعة من الشباب الذين رشّحهم، تعويضًا لغيابه عن تكريم رسمي، إثر خلافه مع الرئيس السادات.

في الحفل الرسمي، الذي رعاه وزير الثقافة والإعلام آنذاك، منصور حسن، سلّمني جائزتي في لقاءٍ أول، لا أنساه، ولا أنسى هيبة الرجل، وهدوءه، وملامحه التي جمعت بين سكينة المفكر وصرامة رجل الدولة. لم يكن يعلم أن هذا الشاب الذي يصافحه اليوم، سيحمل له ذات يوم تقديرًا يتجاوز لحظة التكريم، ليتحوّل إلى اقتناعٍ راسخٍ بفكر رجلٍ كاد أن يغيّر وجه السلطة في مصر.

منذ ذلك اليوم، تابعتُ مسيرة الرجل باهتمامٍ يليق بقيمته. كان مثقفًا مدنيًا في محيطٍ عسكري، يتقدّم بخطى واثقة داخل مؤسساتٍ لم تعتد

أن ترى في المدنية كفاءةً أو شرعية. كان بينه وبين منصب نائب الرئيس خطواتٌ قليلة، لولا أن تحوّلت تلك الخطوات إلى فخّ سياسي، وصدامٍ مكتومٍ مع حسني مبارك، النائب الطامح لكرسيّ الرئاسة.

❁ جيهان السادات، التي رأت فيه وجهًا مدنيًا واعدًا، دفعت بقوة نحو تعيينه نائبًا للرئيس، لكن السادات، رغم حماسه، قرر ـ تحت ضغط المعادلة العسكرية ـ أن يكون نائبًا ثانيًا، بينما يظل مبارك نائبًا أول. تصاعد التوتر، وبلغ ذروته حين أسند السادات لمنصور حسن مهمة الإشراف على البريد الرئاسي، في وقتٍ لم يكن لمبارك من دور سوى هذا الملف تحديدًا.

❁ اعتكف مبارك في منزله، وراوغ بذكاء، واستمال الجيش إلى جانبه، فاضطر السادات إلى تجميد قرار تعيين منصور. وللمفارقة، يُقال إن السادات كان سيعلنه رسميًا نائبًا للرئيس يوم ٧ أكتوبر ١٩٨١، أي قبل يومٍ واحدٍ فقط من اغتياله على منصة العرض العسكري. طُويت صفحة منصور، لا لأنه فشل، بل لأن السلطة في مصر كانت ـ وما تزال ـ أضيق من أن تحتمل مدنيًا حرًا في أعلى قمّتها.

❁ بعد عقود، حين أسّسنا حزب «الغد»، فوجئتُ بتحذير من كمال الشاذلي بعد انضمام محمد، نجل منصور حسن، إلى الهيئة القيادية للحزب، باعتباره "استفزازًا" لمبارك. وكان هذا، في حدّ ذاته، مدعاةً للفخر لا للتراجع، فقد كانت مجرد ظلال الرجل تثير الذعر لدى من تربّعوا على مقاعد السلطة.

❁ وفي عام ٢٠٠٥، حين فُتح باب الترشح لأول انتخابات رئاسية تعددية في تاريخ مصر، لم أُسارع بإعلان ترشّحي، بل قررت ـ بدافعٍ من قناعةٍ سياسيةٍ وأخلاقية ـ أن أعرض الفكرة أولًا على شخصيتين رأيت فيهما كفاءةً ووزنًا وتاريخًا: المشير عبدالحليم أبو غزالة، والوزير منصور حسن.

❁ كانت لحظة مصارحةٍ صعبة، لكن منصور حسن كان صادقًا وواضحًا. قال لي إنه لا يرحّب بفكرة الترشّح، لا تراجعًا، بل لأن إعادة اسمه إلى الواجهة ستجدّد الصراع الذي دفع ثمنه من قبل. كان يخشى أن يتحوّل ترشّحه إلى فتيل أزمةٍ سياسية، لا إلى معركة انتخابية. لكنه وعدني، إن قررتُ خوضها، بأن يساندني. وقد فعل.

❁ في أول انتخابات رئاسية عرفتها مصر، عام ٢٠٠٥، كان منصور حسن، من بعيد، من الظلّ، رجلًا لم يظهر، لكنه لم يغِب. دعم التجربة، وأيّد الخطوة، وفتح لي بابًا من الثقة لم يُغلق حتى اليوم.

❁ لقد ظلّ "الوزير المدني" طوال حياته شاهدًا على خيبة حلم الدولة المدنية، وعلى مقاومة السلطة لكل ما يهدّد ميراثها العسكري. ورغم كل شيء، بقي منصور حسن هو الوجه النبيل لذلك الحلم المؤجل.

❁ بعد ثورة يناير، التقيتُ السيد منصور حسن عدة مرات، برفقة الدكتورة منى مكرم عبيد. كان الاتجاه وقتها أن يترشّح للانتخابات الرئاسية. وبالفعل، تواصل معه أحد قيادات الإخوان لهذا الغرض، لكن التواصل انقطع دون مبررٍ واضح. شعر منصور حسن بخيبة أمل، إذ لم يفهم سبب تجاهل هذا التواصل. ورغم اختلافاتنا في التقديرات بعد الثورة، ظل منصور حسن بالنسبة لي رجلًا جسّد الرجولة في زمنٍ عزّت فيه، ورمزًا للمدنية والليبرالية السياسية، أقدّره في كل الأوقات، سواء اتفقنا أو اختلفنا.

أوراق من مذكراتي (٢٦)

الصراع على رئاسة مصر (٢)
«لقاء أبو غزالة في سيارة ببرقوق»

❁ سيارة متوقفة بشارع جانبي في منطقة "برقوق" القريبة من شارع صلاح سالم، كانت هي موقع اللقاء الذي طلبته مع المشير عبدالحليم أبو غزالة، صيف عام ٢٠٠٥، قبل شهور قليلة من أول انتخابات رئاسية مباشرة في مصر.

❁ كان من المفترض أن يتم اللقاء في مكتب نجله أشرف، بعمارات العبور، لكن المشير قرر التعديل في اللحظة الأخيرة، دون تفسير، مكتفيًا بالانتقال إلى السيارة المتوقفة.

❁ كان الحديث مختصرًا، لكنه حمل من الحكمة ما يستحق التوقف. فعندما عرضت عليه فكرة الترشح للرئاسة، لم يُبدِ دهشة من العرض، لكنه ـ ودون تردد ـ قال لي:

«لماذا تزيح كهنة، لتأتي بكهنة جديدة؟»

❁ كانت الجملة كاشفة، لا تحتمل التأويل، وتختصر موقف رجلٍ اختار الصمت على الصدام، والظل على الصدارة.

❁ في هذه الورقة من مذكراتي، أستعيد هذا اللقاء النادر مع الرقم

الصعب الذي لم ينافس مبارك، لكنه ظل الحاضر الغائب في وجدان الدولة والشعب.

❁ لم يكن حسني مبارك يرى في الحكم مشروعًا أو مسؤولية، بل ميراثًا يخصه، لا يجوز أن يقترب منه أحد، حتى لو كان صامتًا ووقورًا كمثل المشير أبو غزالة.

❁ لم يكن أبو غزالة خصمًا سياسيًا بالمعنى المباشر، لكنه كان حالة من الثقل والقبول العام، كافية لإرباك أي حاكم. لم يُصرّح يومًا برغبة في الرئاسة، ولم يُلمّح، لكنه بقي عنصر قلق دائم لمبارك، خصوصًا بعد أن تصدّر المشهد في أزمة الأمن المركزي عام ١٩٨٦، وأدار الدولة بمفرده تقريبًا لأسبوع كامل، بينما توارى مبارك عن الأنظار.

❁ بعد تلك الحادثة مباشرة، بدأ الهجوم الناعم على الرجل. بدأت الشائعات تُبث حول حياته الشخصية. قيل إنه تورط في علاقة مع سيدة تُدعى «لوسي أرتين»، ثم تتابعت الاتهامات الأخطر.

❁ أبرز هذه الاتهامات كانت تتعلق بمشروع تطوير صاروخي مشترك مع العراق والأرجنتين، عُرف لاحقًا باسم "مشروع الكوندور»، وهو مشروع طموح يهدف إلى تصنيع صواريخ باليستية متوسطة المدى، ذات قدرات استراتيجية، يمكن أن تُغير معادلة التسليح في المنطقة.

❁ تم تسريب معلومات إلى الولايات المتحدة عن دور أبو غزالة في هذا المشروع، وتحديدًا عن محاولات تهريب أجزاء تقنية متقدمة من السوق السوداء، مثل أجهزة التوجيه والمكونات المعدنية الخاصة بالصواريخ، بالتعاون مع وسطاء في أوروبا الشرقية. وتضمنت الاتهامات أيضًا ضلوعه في إنشاء شبكة لوجستية تربط القاهرة ببغداد وبوينس آيرس.

❁ في واشنطن، صُنّف المشروع كتهديد للأمن الإقليمي، وبدأت الضغوط تتزايد على نظام مبارك لتصفية هذه العلاقة. وفي القاهرة،

استُخدمت هذه الاتهامات غطاءً لإقصاء الرجل، مع تغطية إعلامية مركّزة تخلط بين الحقيقة والتلفيق.

❁ لم يُعرض على أبو غزالة التقاعد بكرامة، بل تم نقله إلى موقع «مساعد رئيس الجمهورية»، منصب غير دستوري، بلا صلاحيات، تمامًا كما لا مكان له في الذاكرة الرسمية.

❁ لم يكن هذا القرار إلا عملية اغتيال رمزي لشخصية قادرة على القيادة، دون أن تطلبها.

❁ ومع اقتراب أول انتخابات رئاسية مباشرة، وجدتني أبحث عن نموذج مختلف. شخص لم يتورط في فساد، ولم يتلوّن بمواقف، ولم يُنكر عليه الناس حُسن الأداء أو الوطنية.

❁ رتّبت اللقاء. لم يكن رسميًا، بل خاصًا. لا قصر ولا مكتب، فقط سيارة متوقفة على الرصيف. رجلان، أحدهما في الأربعين، والآخر في الخامسة والسبعين، يتحاوران بهدوء عن بلد يتألم، ويبحث عن من يضمد الجراح، لا من يفتحها من جديد.

❁ استمع إليّ كعادته، بهدوء لا يخلو من تركيز. ثم ابتسم ابتسامة مختصرة وقال:

«لماذا تزيح كهنة، لتأتي بكهنة؟»

❁ لم أحتج مزيدًا من الكلام. كانت هذه الجملة الوجيزة خلاصة لموقفه من فكرة إعادة إنتاج السلطة بمنطق جديد، دون تغيير حقيقي في الأجيال أو المفاهيم.

❁ خرجت من السيارة، أكثر يقينًا أنني التقيت برجل أكبر من المناصب، وأكبر من الصراعات. وقلت بعدها ما أدهش البعض:

«لست الأفضل لحكم مصر، لكني بالتأكيد أفضل من بين العشرة

المطروحين، بمن فيهم مبارك الأب والابن».

❁ لم تجمعني بالمشير علاقة دائمة، لكنها كانت كافية لفهمه. لم يكن رجل سلطة، بل رجل موقف. لم يسعَ إلى الأضواء، ولم يهرب منها. وعندما عرضت عليه فكرة كتابة مذكراته ـ كما فعلت من قبل مع المشير الجمسي ـ رفض. قال لي:

«أفضل الصمت الآن... لا أحب أن أكون موضوعًا لكلام، أو سببًا لتوتر».

❁ كررت المحاولة لاحقًا، بعد أن عاتبني في مكالمة هاتفية على نشر خبر يتصل به في جريدة «الغد»، لكنّه أصر على الرفض.

❁ ظلّ صامتًا، واختار أن يبقى بعيدًا عن المشهد، حتى بعد خروجه. لم يُكرَّم، لم يُسمَّ شارعٌ باسمه، لا مدرسة، لا قاعة، حتى في قريته بالبحيرة.

❁ وعندما علمت أن المرض الذي أصابه كان سرطان الحنجرة، فهمت أن صمته الأخير لم يكن فقط اختيارًا... بل قدرًا.

❁ وإذا كان أبو غزالة قد رفض الدخول في سباق الرئاسة، فإن المشهد لم يتوقف، بل بدأ يزداد تركيبًا وتعقيدًا. وظهرت وجوه جديدة ـ قديمة ـ تحاول الجمع بين رضا الداخل والخارج، دون أن تُظهر نية حقيقية للصدام أو الإصلاح.

❁ أحد أبرز هذه الوجوه كان عمرو موسى... الوجه الذي يعرف أين يقف، ومتى يتكلم، ومتى يبتسم، ومتى يصمت.

في الورقة القادمة... نُكمل الحكاية، ونسأل السؤال الصعب:

هل التغيير ممكن من الداخل؟

أوراق من مذكراتي (٢٧)

الصراع على رئاسة مصر (٣)
«عمرو موسى..حكاية لم تكتمل»

❁ في كل سيرة سياسية، فصل ناقص لم يُكتب، وحكاية تظل مفتوحة رغم اكتمال فصولها على الورق.

❁ وحكاية عمرو موسى، في سياق الصراع الطويل على الرئاسة في مصر، كانت من تلك القصص التي بدأت بملامح لامعة، ثم تراجعت أمام مفترق التوقيت والخذلان، والحصار.

❁ عرفته عن قرب، لا كسياسي فحسب، بل كإنسان يتقن فن التوازن بين الصرامة والأناقة، وبين الحزم والدبلوماسية.

❁ كان أول لقاء لي به، في شتاء عام ١٩٩٥، حين رافقته إلى غزة، لحضور افتتاح أول برلمان فلسطيني على الأرض. كانت رحلة من النوع الذي يُكتب في المذكرات، لا لحدثه فحسب، بل لما يختزله من رمزية.

❁ توقفنا على بوابة معبر رفح، وعُلّق دخولنا، نحن وفدًا صغيرًا مكوّنًا من أربعة رجال. عشرون دقيقة من الانتظار الصامت، قبل أن يتكلم موسى بنبرة حاسمة، قائلًا: «أبلغوا قيادتكم... أن أي مسؤول إسرائيلي

يهبط القاهرة، لن يغادرها قبل عشرين دقيقة».

❁ ظننتها لحظة انفعال، لكنها كانت قرارًا. وبعد أيام، تأكدت حين قرأت في الصحف الإسرائيلية أن نتنياهو أُجبر بالفعل على الانتظار في مطار القاهرة للمدة نفسها.

عرفت يومها أن الرجل لا يقول إلا ما ينوي، ولا ينوي إلا ما يستطيع.

❁ لم تكن تلك الواقعة إلا عنوانًا مبكرًا لحكاية أكبر، بدأت داخل النظام نفسه. كان موسى وزيرًا للخارجية في واحدة من أكثر المراحل اضطرابًا وغموضًا. ومع منتصف التسعينيات، بدأ اسمه يتردد في الشارع، في الصحافة، في مقاهي المثقفين، كبديل مدني، عقلاني، له كاريزما الدولة وخيال الجمهور.

كان حلمًا جميلًا غير مكتملة ملامحه

❁ امتلك الرجل أسلوبًا مختلفًا. لم يتكلم بلغة السلطة، بل بلغة الشارع. لم ينكفئ على البروتوكول، بل خرج به إلى قلب المعركة السياسية، خاصة في مواقفه من إسرائيل، ومن الهيمنةالأمريكية على المنطقة.

وهنا بدأت مشكلته الحقيقية. لم يحتمله النظام، ولا أجهزة الدولة التي كانت تُعد المشهد بهدوء لتوريث الحكم.

❁ كان جمال مبارك مشروعًا هشًا، لا يحتمل منافسين.

وكان موسى منافسًا لا يطلب ذلك، لكنه يخطف الأضواء دون أن يقصد. وهكذا بدأت خطة إقصائه... خطوة بعد خطوة.

❁ تم تقليص صلاحياته، إبعاده عن الاجتماعات، ثم ترحيله السياسي إلى جامعة الدول العربية، التي بدت ـ آنذاك ـ كمقبرة دبلوماسية أُعدت بعناية.

في الظاهر، كانت ترقية.

في العمق، كانت عزلًا.

وفي الواقع، كان قرارًا بدفن الحلم الذي بدأت ملامحه تتشكل في عقل موسى، وفي وعي الناس معًا.

۞ لكنّ عزله لم يقتله سياسيًا.

بل منحه، على نحوٍ غريب، مساحة للتأمل في احتمالات المستقبل.

وبعد سنوات الصمت، انفجرت ثورة يناير، وتبدلت خريطة السياسة.

۞ عاد اسم موسى للواجهة، كأحد الوجوه المدنية الممكنة. اقتربنا أكثر في تلك المرحلة، وتشاورنا، وتوافقنا على كثير من التفاصيل.

۞ عندما تم استبعادي من انتخابات الرئاسة عام ٢٠١٢، كانت الهيئة العليا لحزبي غد الثورة تصوّت على مرشح بديل، فحصل موسى على ٥٠٪ من الأصوات

۞ لكن الحقيقة أن اللحظة لم تكن لحظته، فلم تكن شعبيته كما كانت في التسعينيات.

فقد طالته سهام النقد، بعضها عادل، ومعظمها جائر. اتُهم بأنه امتداد لمبارك، وبأنه من «الفلول»، رغم أن مواقفه ـ في رأيي ـ كانت دومًا أكثر وطنية من كثيرين تزيّوا بلباس الثورة.

۞ في واحدة من محطات هذا التقارب، بعد لقائي بالرئيس محمد مرسي، عرضتُ على موسى فكرة انضمامه لحكومة ائتلافية كنائب أول لرئيس الوزراء مسؤول عن العلاقات الخارجية. لم يتردد. لم يناور كما فعل غيره. بل وافق بصدر مفتوح. لكنّ الرياح جرت كما أرادت أيادٍ أخرى، داخلية وخارجية، لم ترغب في حضوره، لا داخل الحكومة، ولا على بالو مقاعد القرار.

❁ أتذكّر مأدبة غداء جمعتني بالمجلس العسكري، برفقة المشير طنطاوي، والفريق سامي عنان، وسيد البدوي. سأل الأخير عن توقعات الانتخابات، فأجاب عنان مباشرة: «الإعادة بين مرسي وأبو الفتوح». وحين سأل عن موسى وأحمد شفيق، قال عنان: «مستحيل». لم تكن قراءة تحليلية، بل قراءة لخارطة أُعدّت سلفًا، حيث يُقصى من يُقلق، ويُقرّب من يُؤمن له استقرار المصالح.

❁ وكان للموقف الإقليمي كذلك دور في إقصاء موسى. خاصة أبو ظبي، التي احتفظت تجاهه بحالة من الجفاء، بسبب سخريته العلنية من مبادرة الشيخ زايد الخاصة بالعراق، في فترة كان فيها عمرو موسى لا يخشى إعلان الموقف ولو بصيغة السخرية.

❁ وأشهد، بأمانة، أنني أحببت عمرو موسى منذ سنوات، ولم تغادرني تلك المشاعر في يوم من الأيام.

أحببت فيه السياسي الواعي، والإنسان الرقيق، والدبلوماسي الذي يحمل في جعبته تاريخًا من التوازن والاتزان. مدين له بتشجيعه لي في محطات مفصلية، وبثقته الواسعة التي عبّر عنها أكثر من مرة، أمام جمهور متنوع، حتى في حضور من يحملون مشاعر سلبية تجاهي، أو تجاهه هو شخصيًا.

حضرنا معًا عشرات الاجتماعات، وكنا نتوافق، ربما بحكم خلفية فكرية متقاربة، وربما بسبب اعتبارات إنسانية عميقة لم تُكتب.

❁ ربما يرى البعض ـ وربما معهم بعض الحق ـ أن اختياره في ٢٠١٢ لم يكن موفقًا في توقيته، وأن اللحظة كانت تحتاج وجهًا آخر، أو نَفَسًا ثوريًا مختلفًا. وربما لو تم هذا الاختيار قبلها بسنوات، لوجد قدرًا أكبر من التوافق والإجماع. وربما يقول البعض ـ وأنا أوافقهم جزئيًا ـ إن سن عمرو موسى، وقد تجاوز الثمانين في عام ٢٠٢٥، لم يعد يسمح له بخوض انتخابات رئاسية جديدة.

❁ لكنني ما زلت أؤمن أن لموسى دورًا آخر. لا رئيسًا، بل "عرّابًا" ومنقذا لما تبقي من حزب الوفد، ومُحييًا لروحه التي أزهقت.

فضلا أني ما زلت أراه مناسبًا، وربما أكثر من أي وقت مضى، لدور جامع في مرحلة انتقالية، تُحتاج فيها إلى رجل دولة، له من الخبرة ما يكفي، ومن الحضور ما يوازن، ومن العلاقات ما يُطمئن الجميع*.

❁ عمرو موسى... حكاية لم تكتمل. لكنه أيضًا، لم يخرج من المشهد. فالحكمة لا تُقاس بالعمر، بل بالتجربة. والحنكة لا تُحدّها التباينات في بعض الأحيان في المواقف

أمد الله في عمر هذا الرجل...



أوراق من مذكراتي (٢٨)

الصراع على رئاسة مصر (٤)
«لغز عمر سليمان»

❁ ثمة رجالٌ، حين يُغادرون خشبة المسرح، يتركون وراءهم صمتًا أثقل من طبول الحرب... وربما كان عمر سليمان، أحد أولئك الذين اختارهم الغموض، ولم يختاروا شيئًا بأنفسهم.

❁ عُرف عمر محمود سليمان، المولود في محافظة قنا عام ١٩٣٦، كأحد أبرز جنرالات الظل في الدولة المصرية الحديثة. تخرّج في الكلية الحربية عام ١٩٥٤، وانضم بعدها إلى جهاز المخابرات الحربية، قبل أن يُكلّف لاحقًا برئاسة جهاز المخابرات العامة في عهد الرئيس حسني مبارك، عام ١٩٩٣، وهو المنصب الذي احتفظ به لما يقرب من عقدين، ليصبح أكثر شخص تولى رئاسة الجهاز سرية ونفوذًا.

❁ عرفته مصر كظلٍّ خلف ظلّ، لا يظهر إلا حين تغيب الشمس عن القصر الرئاسي، ولا يُحسُّ له صوتٌ إلا في اللحظات التي تهمس فيها الدولة العميقة بما لا يُقال على الملأ. لم يكن وجهه مألوفًا للشارع، ولا اسمه مطروحًا بين طموحات السياسة، لكنه كان الرقم الأصعب في جدول السلطة. لم يتقدّم خطوة نحو الرئاسة، لكن الجميع تحركوا من حوله وكأنهم يخشون اقترابه منها.

❁ التقيتُ الرجل مرةً واحدة، وجهًا لوجه. لم يكن لقاءً سياسيًا بالمعنى المباشر، بل جاء في سياق أزمة نشبت بيني وبين الدكتور كمال الجنزوري، على خلفية ملف مشروع حديد أسوان. احتدت بيننا مكالمة تليفونية، دفعت الدكتور الجنزوري للاتصال بالرئيس مبارك، وللدكتور فتحي سرور في الوقت ذاته، شاكيًا مما اعتبره تجاوزًا. بعدها تلقيت اتصالًا من المهندس محمد إبراهيم سليمان، وزير الإسكان والتعمير آنذاك، أبلغني فيه أن السيد عمر سليمان يرغب في لقائي بمكتبه في مقر المخابرات العامة

دخلت ذلك المبنى للمرة الأولى، وربما الأخيرة.

❁ كان اللقاء هادئًا، مباشرًا، خاليًا من التوتر. جلس الرجل في هدوء، يستمع أكثر مما يتحدث، وكأن له آذانًا متعددة تلتقط المعاني خلف الكلمات. بدا حريصًا على حل الأزمة، وكان وسيطًا بيني وبين الجنزوري بتكليف مباشر من الرئيس مبارك، في محاولة لاحتواء المشكلة. اقترح ٥ترتيب لقاء بيننا في مجلس الوزراء، لتبادل العبارات الودية، وتصفية الأجواء. غير أن اللقاء لم يتم، بهذه الطريقة الودية

ربما لتشدد الجنزوري، وربما لإصراره على أنني أغلقت الهاتف في وجهه، وهو ما لم يحدث.

❁ خرجت من مكتب عمر سليمان بثلاثة انطباعات: الأول، أن الرجل يُجيد الإصغاء والإنصاف أكثر من إجادته للحديث والظهور. الثاني، أن مكتبه حمل فرشًا بلون غريب عن طابع المؤسسة... لون أقرب إلى «البنبي»، لون لا يُستخدم عادة في دهاليز السلطة القاتمة. أما الانطباع الثالث، فكان في ملامحه؛ إذ رأيت فيه شيئًا من وجه الرئيس السادات، وإن لم أُكوِّن بعدُ تصورًا كاملًا عن الرجل.

❁ كان هناك لقاء آخر مقترح بعد ثورة يناير، دعيت إليه ضمن عدد من القوى السياسية، لكنه لم يتم من ناحيتي، بعدما آثرت الاعتذار عن حضوره.

في يناير ٢٠١١، كانت الدولة تتفسخ في عروقها، والثورة تمضغ الهواء في ميادينها، والمستقبل يزحف بقدمين مرتجفتين... وفي خلفية المشهد، وقع أمر لم تُكتب له شهادة ميلاد رسمية: محاولة اغتيال لعمر سليمان. محاولة، أو بالأدق رسالة دامغة، تقول إن أحدًا ما لم يعُد يرغب في وجوده.

لكن من كان هذا "الأحد"؟ أهو جمال مبارك، الذي رأى في عمر سليمان الجدار الذي يفصل بينه وبين التوريث؟ لا أظن... أم هي المخابرات الحربية، التي قررت أن لحظة التحوّل تقتضي التخلص من "الرجل الأمريكي"؟ لا أعرف... أم هو المشير طنطاوي، الذي رأى في سليمان خصمًا محتملًا على مائدة الجيش حين تتناثر أوراق الحكم؟ ربما... لكن الشيء المؤكد أن الرجل كان يعلم، وكانوا يعلمون، أن صمته لم يكن حياديًا. وأنه لن يطول.

لم تكن العلاقة بين جمال مبارك وجهاز المخابرات العامة تحت رئاسة عمر سليمان علاقة مريحة أو متناغمة. كانت هناك رغبة صريحة من دوائر مشروع التوريث، في تقليص دور الجهاز، بل وتهميشه. وفي عام ٢٠٠٩، زار جمال مبارك مقر الجهاز في خطوة قيل إنها استكشافية. طلب أن يرافقه عمر سليمان في هذه الزيارة، لكن الأخير رفض الحضور، في إشارة صامتة إلى رفضه لهذا التسلل الفجّ إلى مجال نفوذه. كان هناك حديث في الكواليس عن نية لتعيين أنس الفقي خلفًا لسليمان، في واحدة من أكثر الخطط ارتباكًا وسذاجة.

كثيرون صدّقوا رواية الوفاة الهادئة، في مستشفى غامض، بمدينة لا نعرفها جيدًا. لكنني ـ وأنا الذي زاملت زمنهم، وشاهدت خيوط اللعبة من كواليسها ـ لم أبتلع تلك الرواية يومًا وللآن. لماذا نُقلت جثته إلى الإمارات أولًا؟ لماذا نُشرت صور لجثمانه لم تُشبهه؟ هل كانت الجثة حقيقية؟ أم أن شيئًا من "فن التمويه السياسي" قد كُتب على آخر صفحات حياته؟

❁ كل ما أستطيع الجزم به، أن عمر سليمان مات مقتولًا، سواء بالرصاص، أو بالسم، أو بالقرار. ربما لم يُكتب له أن يكون الرئيس، لكنه كان عقبة لا يمكن تجاوزها في طريق من أرادوا أن يحكموا مصر كوراثة، لا كاستحقاق. كان سكينًا باردة، مغروسة في خاصرة مشروع جمال مبارك، وكان نفيه من المشهد ـ حيًا أو ميتًا ـ شرطًا من شروط التوريث... ولو مؤجلًا.

❁ ما رأيته بأم عيني، أن النظام حين يشيخ، ينهش أطرافه بنفسه قبل أن يأكله الناس. وما عرفته من دروس السياسة، أن من يملك ملفات الدولة، لا يُسمح له بالمغادرة، إلا إلى القبر أو إلى الصمت الأبدي.

❁ هكذا انتهى عمر سليمان. لكن اللغز لم ينتهِ. فالأسئلة التي خلفها، كانت أكثر من الإجابات التي سبقه بها الموت.



أوراق من مذكراتي (٢٩)

الصراع على رئاسة مصر (٥)
«طنطاوي ظل مبارك الباهت»

❁ ليست كل الفواصل في التاريخ تُكتب بالحبر، فبعضها يُرسم بالتردد...

وليس كل من أمسك زمام السلطة، كان أهلًا لامتطاء جوادها، ولا كل من حمل النياشين، استحق ممارسة الحكم.

❁ محمد حسين طنطاوي، الذي وُلد في أكتوبر ١٩٣٥، وأولاه مبارك وزارة الدفاع عام ١٩٩١، لم يكن طامحًا للرئاسة، ولم تكن شهيته مفتوحة على مائدة السلطة. لكنه، ككثيرين في تاريخ مصر، وجد نفسه فجأة على قمتها ـ لا قائدًا ـ بل منقادًا لمشهد لم يكن مؤهلًا له.

❁ كنت أراه كظلّ الدولة، لا جسدها... كصدى خافت للمشير أبو غزالة، لا امتدادًا لجسارته أو رؤيته. جنديًا مطيعًا في سلاح المشاة، لا يسبق قادته بخطوة، ولا يتأخر عن نداء الواجب.

❁ حين سقط مبارك، وتزلزلت الأرض تحت أقدام الجميع، لم تقدم الثورة بديلًا حاضرًا، ولم يكن في المشهد إلا الجيش... وعلى رأسه طنطاوي.

❁ جلس على مقعد الرجل الأول، لا بوصفه رئيسًا، بل بوصفه «اللا أحد غيره»... كأن سيفًا ثقيلًا وضع في يدٍ ترتجف، تخشى أن تشهره، وتخشى أن تسقطه.

❁ في تاريخ مصر الحديث، ومنذ صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢، لم يكن الجيش لاعبًا ثانويًا في معادلة السلطة، بل كان هو المعادلة ذاتها. أطاح بالملكية، وراوغ الديمقراطية، وتنازع مع الفكرة المدنية كما يتنازع السيف مع القلم.

❁ في مارس ١٩٥٤، انقلب الجيش ـ أو جناحه الغالب ـ على ما زعمه في لحظة صدق: «لن نحكم، فقط نهيئ الطريق لحكم مدني». في تلك اللحظة، دُفنت الديمقراطية تحت بيادات العسكر، وأُقصي محمد نجيب، الذي حاول رد الأمانة إلى الشعب.

❁ منذ ذلك التاريخ، لم يترك الجيش الساحة... لا حارسًا ولا حَكمًا، بل طرفًا مباشرًا في الصراع. وكان طنطاوي ابنًا لجناح الزاهدين في الحكم، لا من أسسه.

❁ لم يكن عبدالناصر، ولا السادات، ولا حتى مبارك... بل ظل باهت وقف عند حافة المسرح، دون أن يدخل تمامًا، ودون أن يغادره.

❁ في الفراغ الذي أعقب تنحي مبارك، بدا المشهد كما لو أن الماضي استدعى نفسه من أرشيف الثورة. المجلس الأعلى للقوات المسلحة، بتركيبته، بدا استنساخًا باهتًا لمجلس قيادة ثورة يوليو.

❁ لم يحكم طنطاوي، بل أدار... أدار الأزمة لا الدولة، والوقت لا القرار. لم تكن لديه شهوة حكم، ولا مشروع، ولا خيال. ترك الساحة السياسية تصرخ بلا أذن تسمع، وظن أن الزمن كفيل بإطفاء النيران، وأن الصمت درع لا يخترقه سهم.

❁ كنت أراه أحيانًا عن قرب، في لقاءات مغلقة أو مفتوحة. رجل

يُجيد الإنصات، لكنه لا يسمع... يُكثر من هز الرأس، ويقلّ من الفهم. صامت وكأنه حكيم الحكماء، صابر كأيوب، لكن إذا تكلم قلت: ليته ظل صامتًا.

❁ كان يخشى أن يُقال عنه إنه طامع، ويخشى أكثر أن يُقال إنه فرّط. فتجمد في المنتصف... بين الرغبة والرهبة.

❁ وحين جاءت لحظة القرار ـ انتخابات، انتقال، دستور ـ بدت كل الاحتمالات ممكنة، ما عدا التوفيق.

❁ لضعف قدراته السياسية، عادت الدولة العميقة، لا لأنها الأقوى من الثورة، بل لأن الساحة تُركت بلا حُكم. عادت لترتب أوراقها، لا بشرعية، بل بفضل تردد الآخرين.

❁ إحدى الوقائع التي عرفته فيها عن قرب كانت استجوابًا في مجلس الشعب في التسعينات، حول وزارة الإسكان. بدا أن النائب كمال أحمد أثار حفيظة طنطاوي، رغم أنه لم يكن طرفًا فيه. فوجئت به يتجه نحو كمال أحمد بنية الاشتباك بالأيدي، في مشهد عبثي كشف عن انفعال غريب.

❁ في واقعة أخرى، عقب اقتحام أمن الدولة بعد الثورة، علمت باحتجاز الزميلة بثينة كامل. توجهت لمكتب اللواء حسن الروينى، وهناك وجدت طنطاوي. وبعد مفاوضة غير مباشرة، تم حل الأمر. لكن في لحظة الوداع، باغتني طنطاوي بعبارة: «لن ننسى لك ما فعلته مع مبارك، أنت والبرادعي وحركة ٦ أبريل.» كانت صادمة، بلا سياق، وتركتني في ذهول.

❁ في لقاء آخر، سألني طنطاوي ثلاث مرات، بفاصل دقائق: «هل أنت خال حازم صلاح أبو إسماعيل؟»، وكررت له في كل مرة أنني لست كذلك، لكنه ظل يعيد السؤال كمن يختبر الذاكرة أو المنطق أو شيء لا يُفهم.

❁ وفي أحد الاجتماعات، وصلت متأخرًا، فبادرني من قبل أن أجلس: «مش أنت بتاع الحلول الوسط؟ طيب قل لي حل الموضوع ده!»... ولم أكن أعلم أصل الموضوع.

❁ وفي اجتماع دام ساعتين ونصف، لم ينطق بكلمة. وفي الدقيقة الأخيرة، قال: «يصدق في هذا الاجتماع قول الشاعر الجاهلي...» وتلا أبياتًا لا صلة لها بشيء!

❁ طنطاوي لم يطمع في الرئاسة، لكنه أدارها بأسوأ ما تُدار به. لم يكن طاغية، لكنه لم يكن رجل انتقال ديمقراطي. مارس الرئاسة لا بطموح، بل بخوف المترددين. لتبقى مصر عالقة بين الثورة والثورة المضادة، بين اليقين والشك.

❁ لم يكن طاغية، بل حارسًا عجوزًا وقف طويلًا أمام بوابة مصر، دون أن يدري لمن يفتح، ولا من يمنع من الدخول..

❁ عرفته عن قرب، لا في الواجهة بل في الأروقة،

رجل قليل الكلام،

كثير التحفظ، لا يُبادر، ولا يحسم، بل يُدير المشهد بأقل قدر من الاحتكاك.

لم يكن يثق في المدنيين، ولا في الإسلاميين، ولا حتى في من حوله من الجنرالات،

كنا في اجتماع مع المجلس لمناقشة اختيار اعضاء الجمعية التأسيسية

وتحدث اللواء ممدوح شاهين ولم يكن موفقا في حديثه من الناحية القانونية او السياسية ودفعني هذا لتفنيد رأيه فهاج المشير علي اللواء شاهين ليس لضعف وتهافت وجهه نظره

بل لأنه لم يحصل على اذن مسبق من المشير بالكلام!!

❁ كانت اللحظة حرجة، والوطن يتقلب بين شوارع غاضبة وميادين لا تهدأ، بينما طنطاوي بدا كأنه يُدير "غرفة انتظار" لا "مرحلة انتقال».

فترك مؤسسات الدولة العميقة تعيد تموضعها، بهدوء الزواحف التي تعرف كيف تعود إلى صخورها حين تهدأ العاصفة.

❁ في عهده، ارتُكبت أخطاء جسيمة:

❁ أحداث ماسبيرو، حين دهست المدرعات أجساد الأقباط، وتركت الدولة تبرر القتل بـ«الأيدي الخفية».

❁ محمد محمود، حيث أُريقت الدماء بلا محاسبة، والعيون بلا عدالة.

❁ مجازر العباسية، وبور سعيد، وغيرها من محطات العجز المزمن.

كلها كانت تؤشر إلى أن رجل العسكر لا يصلح لإدارة مرحلة مدنية. . . .

سُئل طنطاوي مرارًا: هل تنوي الترشح للرئاسة؟

فكان يردّ بابتسامة باهتة، وكلمات رمادية، مرتبكة ككثير من مواقفه مثال ذلك-:

❁ يُقرّ قانون العزل، ثم يتراجع عنه، يفتح الباب أمام شفيق، ويُغلقه في وجه عمر سليمان.

يقر قرار عبدالمجيد محمود بضبط وإحضار

سوزان مبارك ثم يلغيه في نفس اليوم!!

❁ يصدر قرار جمهوري بإسقاط الحكم الصادر ضدي في عهد مبارك وكل ما يترتب عليه من أثار وأخصها خوض الانتخابات الرئاسية القادمة وعندما أتقدم يطلب من لجنة الانتخابات الرئاسية ٢٠١٢

منعي من الترشح بسبب الحكم الذي هو من ألغاه!!

❁ حين صدر قرار إقالته من الرئيس محمد مرسي، في ١٢ أغسطس ٢٠١٢، خرج طنطاوي دون احتجاج، كما دخل دون ترحيب.

غادر المشهد كما جاء إليه... بلا صوت، ولا طعم ولا رائحة.

❁ طنطاوي لم يكن مشروع حاكم، بل مشروع باهت متردد... يُشبه في ذلك "الوصي" على العرش في الممالك القديمة،

الذي يملأ الفراغ مؤقتًا، حتى يقرر الزمن مَن يستحق التاج.

❁ في أوراق الصراع على رئاسة مصر، سيبقى طنطاوي سطرًا بين قوسين...

فاصلًا زمنيًا، لا سياسيًا.

صفحة لم تُطوَ، لأنها لم تُكتب أصلًا!!.

❁ في أوراق الصراع على رئاسة مصر، كان طنطاوي فاصلة لا جملة... مرحلة انتقال بلا إرادة، ورجل أمسك السلطة كما يُمسك جمرة، يخشى أن تُحرقه، ويخشى أكثر أن تسقط من يديه.

⊙ وفي الحلقة التالية:

سامي عنان... اللاعب الذي طرده الحكم قبل المباراة da5



أوراق من مذكراتي (٣٠)

الصراع على الرئاسة (٦)
«الجنرال سامي عنان
ممنوع الاقتراب والتصوير»

❁ بعض الرجال، لا يُهزمون لأنهم فشلوا، بل لأنهم اقتربوا أكثر مما ينبغي من دائرة الضوء.

وسامي عنان كان واحدًا من هؤلاء... ضابط محترف، لا يملك كاريزما الزعامة، لكنه امتلك الطموح...

ومع الطموح، يأتي الخوف من الطامحين. لا من طموحهم في ذاته، بل من احتمال تحققه.

❁ لم يكن عنان رقمًا مجهولًا في دفتر المؤسسة العسكرية، بل الرجل الثاني في قيادة القوات المسلحة إبان لحظة فارقة من تاريخ مصر، لحظة أفول مبارك وسقوطه.

في حضرة المشير طنطاوي، كان هو الأقرب، والأكثر تماسكًا، وربما الأكثر تنظيمًا في التفكير.

لكن القرب من القمة، لم يشفع له حين اقتربت البلاد من أول انتخابات رئاسية بعد ثورة يناير.

❁ في كواليس المجلس الأعلى لـ المجلس العسكري، كانت الأسئلة تشتعل بلا إجابات:

هل نترك الميدان لمرشحي الأحلام المدنية؟ أم نعيد تدوير البدلة العسكرية بلونٍ سياسي؟

وكان سامي عنان ـ كما عرفته عن قرب ـ يُهيّئ نفسه لدور البديل، الجنرال المدني، الذي يجمع شرعية المؤسسة، وبريق الميدان.

❁ لكن المشير طنطاوي كان حاسمًا، صارمًا، وربما مرعوبًا...

رفض دخول عنان مضمار السباق، لا لأنه لا يصلح، بل لأنه قد يفوز.

وكان ذلك، في عُرف طنطاوي، خطرًا يتجاوز الطموح إلى التهديد.

❁ عرفت اسم عنان منذ سنوات، لكنني عرفته كشخص ذات يوم من أيام ٢٠١١.

كنت في بيروت حين رنّ هاتفي من القاهرة، كان المتصل هو الفنان الكبير محمد صبحي.

سألني: أين أنت؟ وهل يمكنك الحضور غدًا للقاء الفريق سامي عنان؟

وفي الغد، عدت إلى القاهرة، وذهبت من المطار مباشرة إلى وزارة الدفاع.

لم يكن صبحي حاضرًا، لكن الفريق عنان استقبلني وحده، وطلب مني كتابة نص قرار العفو المطلوب صدوره عني، والذي كان محور حديث سابق بينه وبين الفنان محمد صبحي وبمبادرة منه.

كان هذا هو اللقاء الأول برجل ينتمي لنفس مدينتي، المنصورة، ومن عائلة عنان العريقة، ذات الحضور العميق في نسيج الطبقة الوسطى.

❁ في عام ٢٠١٢، حين فُتح باب الترشح لـ الانتخابات الرئاسية، كنت قد أنهيت من تجهيز كل أوراقي، وقدّمتها بالفعل.

وقبل ساعات من إغلاق الباب، تلقيت اتصالًا من صديقين عزيزين، كلٌّ منهما كان يرأس حزبًا سياسيًا، وله في قلبي مكانة.

طلبا مني التقدّم بطلب لمد فترة قبول أوراق الترشح أسبوعًا.

رفضت. ليس من المنطق أو القانون أن أطلب تمديدًا وأنا أتممت أوراقي.

وقتها، ظننت ـ وربما غضبت ـ أن القصد هو إتاحة الفرصة لعمر سليمان، الذي ترشّح في اللحظات الأخيرة.

لكن بعد ذلك، تكشّفت الحقيقة.

❁ سامي عنان كان قد التقى الزميلين، ووافق على الترشح باسمهما، لكنه ربط موافقته بموافقة طنطاوي.

وكان طنطاوي ـ آنذاك ـ في فايد، على أن يعود السبت، بعد يوم من غلق باب الترشح.

طلب عنان منهما اللقاء، وطلبا مني الصديقان تمديد الموعد لهذا السبب، دون أن يبوحا.

وحين التقياه، جاء رد المشير حاسمًا: لا.

لا لترشح عنان، ولا لحلم لم يولد بعد.

❁ توارى عنان بعد تلك اللحظة، لا انسحابًا، بل ترقبًا.

انتظر المشهد التالي، والجنرال التالي، والفرصة التي ربما تعود.

لكن حين جاء عبدالفتاح السيسي، لم يعد في المشهد متسع حتى للانتظار.

❁ وفي عام ٢٠١٤، عاد الأمل يلوح من بعيد، حين تواترت أحاديث عن نية الفريق عنان الترشح لـ الانتخابات الرئاسية.

وبالفعل، خطا الخطوة الأولى نحو السباق، لكنه توقف فجأة، تحت وطأة ضغوط هائلة.

ولا أحد ينسى ذلك المشهد الذي وقف فيه يُعلن انسحابه، وخلفه يقف الزميل الصحفي مصطفى بكري، في صورة موحية لا تخلو من دلالة...

كأن الضغوط كانت تُترجم بصمت، وأن الرسائل قد نُقلت، وربما حُسمت، من خلال الظهور المتعمد لبكري في خلفية المشهد.

هكذا انتهت محاولة ٢٠١٤، كما انتهت قبلها محاولة ٢٠١٢، قبل أن تبدأ.

❁ ثم جاءت لحظة ٢٠١٨، حين قرر عنان أخيرًا أن يدخل المعركة.

لكن دخوله لم يكن عسكريًا، بل مدنيًا في اختياراته، رمزيًا في خطابه.

فقد أحاط نفسه برموز مدنية لامعة من خارج المؤسسة، في خطوة جريئة أرعبت الدولة العميقة.

اختار الراحل الكبير أستاذ العلوم السياسية الدكتور حازم حسني متحدثًا باسمه، واختار المستشار هشام جنينة نائبًا له.

وكانت تلك الأسماء، في ذاتها، بيانًا سياسيًا لا يقل خطرًا عن إعلان الترشح ذاته.

دفع الجميع ثمنًا باهظًا: هشام جنينة أُصيب وتعرّض لمحاكمات، وحازم حسني أُوقف عن عمله وحُرم من حريته.

وكانت الرسالة واضحة: حتى المدنيون الذين يقتربون من

«الاحتمال»، لن يُسمح لهم بالبقاء.

❁ لم تتأخر الدولة في الرد.

بيان غاضب من القوات المسلحة، تلاه اعتقال عاجل، ثم محاكمة عسكرية، فسنوات من النفي داخل الوطن.

❁ ما جرى لم يكن مجرد إقصاء سياسي، بل كان إعلانًا صارخًا أن كرسي الرئاسة لم يعد شاغرًا للسباق، بل منطقة محظورة، عليها لافتة: ممنوع الاقتراب أو التصوير.

❁ سامي عنان، لم يكن الحاكم، ولم يكن المعارض، بل كان "احتمالًا".

وفي أنظمة الخوف، يُعدم الاحتمال قبل أن يولد.

❁ الجنرال الذي لم يركض نحو الرئاسة، أقصوه منها قبل أن يتقدّم.

مرّ من أمام بابها، فتحه قليلًا، فاغلقوه في وجهه بعنف...

لا على حلمه فحسب، بل على فكرة المنافسة ذاتها.

أوراق من مذكراتي (٣١)

الصراع على رئاسة مصر (٧)
«الجنزوري: صراع الفرعون والكاهن»

كان صباحًا شتويًا من صباحات برلمان التسعينيات، حيث يسيل الضباب على نوافذ القاعة كأنه ستار رماديّ على مسرح السياسة. جلست هناك، لأول مرة، أمام رجلٍ خُيّل لي أنه خرج توًا من معبد فرعوني كُتب على جدرانه طقس الأرقام، لا معناها...

رجلٌ يتلو الموازنات كما يتلو الكاهن صلواته، لا ينظر في المعنى، بل في النغمة والانضباط وينتظر أن يردد الكل خلفه بعناية كلمة: ـ آمين.

كان ذاك هو الدكتور كمال الجنزوري، المولود في المنوفية، تلك المحافظة التي خصّتها الأقدار بأن تكون مشتلًا لرؤساء مصر، أكثر مما هي مشتل للزراعة. التي تخرّج منها الجنزوري عام ١٩٥٧، متخصّصًا في ما أسموه «الاقتصاد الزراعي»، ذلك التخصص الذي يرى فيه البعض اقتصادًا (للمقعدين)، كأنه مقعد خشبي في قطار الدولة لا يصل أبدًا وحده إلى المحطة.

جاءه المنصب للجنزوري، كما تجيء النبوءات القديمة: بلا ضجيج، بلا سعي، بلا منازلة. فمن محافظ لـ الوادي الجديد في عهد أنور السادات عام ١٩٧٦، إلى وزير للتخطيط عام ١٩٨٢، حتى تبوأ رئاسة

الوزراء في عهد حسني مبارك عام ١٩٩٦، ورفض أن يترك عرشه القديم في وزارة التخطيط.

حتى عندما جاء ب ظافر البشري وزيرًا للتخطيط والتعاون الدولي، أصر الجنزوري أن يبقى هو أيضًا وزيرًا للتخطيط، فدخلنا، كتاب موسوعة جينيس، كأول دولة في الكوكب تملك وزيرين للتخطيط في آنٍ واحد (!!)

❁ أذكر أنني وقفت آنذاك في البرلمان، أقدّم أول استجواب ضد رئيس الحكومة الدكتور الجنزوري الذي جمع في يده وزارة التخطيط ووزارة شؤون الأزهر، دون أن يؤدي القسم الدستوري لأي منهما!

كانت واقعة أشبه بمن يقود سيارتين

دون رخصة قيادة أو تأمين اجباري كان الرجل من الكهنة الذين يرون أنفسهم فوق الدستور، لا بين دفّتيه.

❁ كان داخل الرجل يقين لا يتزحزح بأن النظام الإداري هو الوحي، وأن البيروقراطية هي الطقس، وأن الدستور مجرّد حبر على ورقٍ.

❁ تأملتُه طويلًا... وتأملتُ التاريخ معه. تلك اللحظات التي تتماهى فيها الرموز، وتتبادل الأدوار. فها نحن، مرة أخرى، نعيش صراعًا بين الفرعون والكاهن، بين من يحمل الصولجان، ومن يملك قرار المعبد.

❁ تذكّرتُ أخناتون، حين خرج على كهنة آمون، مُعلنًا التوحيد لـ آتون، فاهتزّت طيبة، وارتجّ العرش. وتذكّرتُ أيضًا حريحور، كاهن آخر الزمان، الذي حكم الجنوب كفرعون غير مُتوّج، بسلطان الكهنوت لا بالدم والنسب الملكي.

❁ وبقياس الزمان على الوجوه، بدا لي كمال الجنزوري، كأنّه ظلّ لحريحور في عهد مبارك... لم يسعَ إلى الرئاسة كسياسي، بل انتظرها كترقية مستحقة هو دون غيره مؤهلًا لها.

❁ لم يتحدث الرجل يومًا عن طموح رئاسي، لكنّه كان يسكنه

اعتقاد ثابت أنه الأجدر بها، الأحق بها، الأكفأ، والأكثر انضباطًا. لم يرَ في أحد من معاصريه من يملأ الكرسي كما يملأ هو جدول المصروفات.

❁ لم يكن يرى السياسة إلا اضطرابًا... والإدارة هي اليقين. ولم يكن يقيس الفكرة بعمقها، بل بعدد سطورها في البيان المالي.

❁ كمال الجنزوري لم يكن سياسيًا، وأظنه كان يحتقر السياسة وأهلها. كان يراها عالمًا من التلوّن، وهو رجل لا يعرف ـ من وجهة نظره ـ إلا الأبيض أو الأسود...

كان بامتياز، موظفٌ في معبد، لا قائدٌ في ساحة.

❁ وكان البرلمان، في عينيه، ظلًّا باهتًا لحكومته، لا رقيبًا عليها.

ولم يعرف من الحكومة إلا من يقف من وزرائها خلفه في الصف،

لا من يقف خلف غيره

كان مستشاره الأقرب، والمحرّك في الظل، رجلًا يُدعى طلعت حماد، الذي أتى به وزيرًا لمجلس الوزراء وهو صاحب مزاج تآمري نادر، خاض مع الجنزوري معارك ضد معظم الوزراء، وضد البرلمان، ثم ضد الابن الطامح، جمال مبارك.

❁ وكنت، حينها، نائبًا معارضًا عن دائرة باب الشعرية، والموسكي (وسط القاهرة) ونائبًا لزعيم المعارضة... وقد وضعتني المقادير مرارًا في مواجهات حادة مع رئيس الحكومة، خاصة داخل لجنة الخطة والموازنة. وبلغ الخلاف بيننا في بعض الأوقات حد القطيعة.

❁ إلا أن أعنف المواجهات بدأت بعد مكالمة هاتفية صباحية. اتصل بي نور فرغل، من مكتب الدكتور الجنزوري، وأحال الخط مباشرة إلى كمال الجنزوري، الذي باغتني في بداية المكالمة، بسؤال جاف: «إنت عايز إيه؟»

❁ دهشتُ، وظننت أن الخط أُحيل لي بالخطأ، فسألته: «حضرتك عارف بتكلم مين؟»

فاعتبر السؤال تحديًا وتجاوزا، واشتعلت حدة الحديث، خاصة حين أشار إلى مقال كتبته في ذات اليوم انتقدت فيه مشروع حديد أسوان...

❁ فجأة... انقطع الاتصال. أثناء حديثه ولا أعلم السبب حتى اليوم، لكن ما أعلمه أنه، وبعد دقائق، كان قد اتصل بالرئيس مبارك، شاكيًا، ومحرفًا للواقعة. بوصفها إهانة لكرامة الكاهن الأكبر بتحريض من كهنة آخرين!!

❁ في ذات الظهيرة تلقيت اتصالًا من الدكتور محمد إبراهيم سليمان، وزير الإسكان، يبلغني فيه أن السيد عمر سليمان يريد لقائي... والتقيته في ذات اليوم في مكتبه، بحدائق القبة، وكان هو اللقاء الأول والأخير، مع عمر سليمان وطلب مني في اللقاء موافقتي على ترتيب جلسة خاصة مع الجنزوري لاحتواء الأزمة. وحدث اللقاء، لكنه كان مشحونًا بكل ما تحمله النفوس من شوائب وظنون وألغام.

❁ بعدها بساعات، اتصل بي سكرتير الرئيس، أبو الوفا رشوان، ثم أعاد الاتصال محيلًا المكالمة للرئيس مبارك. الذي سألني عن تفاصيل اللقاء، وكان صوته ينضح بغضبٍ دفين، لا من أجلي، بل من كاهنه الأكبر رئيس وزرائه.

❁ وقتها، أيقنت أن العلاقة بين مبارك والجنزوري قد بلغت منتهاها من التدهور. خاصة عندما سألني مبارك وهو يعرف الإجابة، هل قال لك أنه فعل في ستة اشهر أكثر مما فعله محمد علي ؟!!! فضحكت بدلًا من الإجابة...

❁ وسرعان ما تفاقم الأمر، خاصة بعد محاولة اغتيال مبارك في بورسعيد، واحتدام الخلاف بين الجنزوري وجمال علنًا في مبنى محافظة

بورسعيد وتجاوز جمال حدود اللياقة في حديثه مع الجنزوري وربما لم تكن الحادثة إلا قمة جبل الثلج بينما كانت هناك أسباب أخرى منها هجوم الجنزوري المتكرر على رجل جمال الأول في الحكومة، وزير المالية يوسف بطرس غالي، الذي كان يراه الجنزوري موظفًا لدى صندوق النقد، لا لدى الدولة. فاستبعده من الاجتماعات، واعتبره خصمًا مدسوسًا، لا شريكًا في المعبد، وكان يصفه علنًا بالعميل. . .

❁ والقنبلة الأكبر، انفجرت حين رفض كمال الجنزوري إدراج اعتمادات مالية جديدة لـ رئاسة الجمهورية دون بيان تفصيلي بالمصروفات السابقة. وهو موقف صحيح فنيًا وإداريًا لكن ليس في زمن الفرعون!!

كما رفض الجنزوري بقاء عدد من الوزراء المحسوبين على السيدة الأولي سوزان مبارك.

مثل فاروق حسني ووزراء. الصحة والسكان والتعليم دكتور حسين بهاء الدين، فضلًا عن صراعه الدائم مع مثلث، كمال الشاذلي، وصفوت الشريف، ويوسف والي.

❁ حين جاء وقت الإقالة أو التكليف الجديد، كنا نحضر خطاب الرئيس أمام الجلسة الافتتاحية المشتركة لمجلسي الشعب والشورى، وكان الكل يتوقع بقاء الجنزوري، وخروج خصومه (إلا أنا)، فكانت المفاجأة للجميع، أنه خرج من السلطة خالي الوفاض. . . بلا تكريم، بلا وداع، كما يخرج الغريب من البيت الذي لم يعد له فيه موضع قدم.

❁ وبرغم كل هذا التاريخ من التوتر والصدام، بقيت في نفسي مساحة احترام حذر لرجلٍ نزيه اليد، دقيق الذاكرة، معتز بنفسه، فخور بذاكرته، يحفظ تفاصيل الموازنة كما يحفظ قصص الطفولة.

❁ ولهذا، حين طلب منا كحزب غد الثورة البحث واقتراح أسماء لرئاسة حكومة إنقاذ، بعد الثورة، طرحنا اسمه، إلى جانب اسماء محمد

البرادعي ومنصور حسن.لاختيار أحد الثلاثة.

❁ وآخر لقاء بيننا ربما كان في مشيخة الأزهر، ضمن جلسات «وثيقة الأزهر»، وكانت كلمته هناك أشبه بمحاضرته الأخيرة... لرجلٌ يُنهي رحلته، لا بمنطق الساسة، بل بلغة الآباء الكهنة.

❁ فكما كانت عادته ـ أفسد المضمون بالوسيلة.

لم يُصغِ يوما لأحد، لم يفتح نافذة على الشارع، بل عاد بمنطق الكاهن إلى المجلس العسكري الذي أعاده للحكم، مؤمنًا أن الدولة تُدار من خلف الأبواب، لا من فوق منابر البرلمان والسياسية.

❁ في ميزان التاريخ، ربما كان كمال الجنزوري أكثر حضورًا من عاطف صدقي، وأنظف يدًا من عبيد وأحمد نظيف، لكنه كان الكاهن الأشد استبدادًا في ثياب مدنية، في تاريخ مصر الحديث.

❁ كاهنٌ في هيئة موظف، يرتدي بدلة رمادية، لكنه يُخفي تحتها كل درجات اللون الكاكي. لا يؤمن بالمخالف، ولا يطيق الناقد. فهو الكاهن الأكبر والخبير الأول والرجل الذي لا يرد له رأيًا...

❁ لزومًا كان يسير باتجاه الاصطدام بـ مبارك، لا لأنه ديمقراطي، بل لأنه ظن أنه كاهن المعبد، ولا يجوز أن يتحول إلى خادمه.

فكان الصدام بين الكاهن والفرعون... صراعًا مكتومًا، لكنه كان، في جوهره، صراعًا سريًا على مقعد الفرعون.



أوراق من مذكراتي (٣٢)

٦ إبريل
الأمل من رحم اليأس

لم أكن في شوارع المحلة يوم ٦ أبريل ٢٠٠٨. كنتُ محبوسًا في زنزانةٍ ضيّقة، بجدرانٍ أكثر قسوة من البرود، في سجن طره. ورغم القضبان، ورغم الغياب، كنت حاضرًا... وبقلبٍ ممتلئ بشيءٍ يشبه النبوءة.

۞ لم يكن ما جرى يومها احتجاجًا عاديًا، بل زلزالًا أخلاقيًا واجتماعيًا وسياسيًا، فجّرته أوجاع الطبقة الكادحة، وتبنّاه شباب آمنوا بأن الوطن لا يُهدى، بل يُنتزع.

كانت المحلة الصناعية هي الشرارة، لكن الوقود كان أكبر من ذلك بكثير: كانت هناك روحٌ تتخلق في رحم القهر، اسمها ٦ أبريل.

۞ حين زارني ضباط أمن الدولة مساء ذلك اليوم إلى زنزانتي، لم يأتوا بجديد سوى تأكيد المؤكد: قالوا إنني "المتهم الأول في القضية"... رغم أني لم أغادر الزنزانة منذ شهور. لكن ما أوجعني لم يكن الاتهام، بل القائمة التي حملوها. أكثر من ثمانين اسمًا... من خيرة شباب حزب الغد.

كنت أقرأ الأسماء بقلبي قبل عينيّ: إسراء عبدالفتاح، الشابة الحالمة التي خطّت أول بيانات الدعوة للإضراب. أحمد ماهر، المهندس الذي صار مع الأيام مهندسًا للوعي. شريف الروبي، الصوت الصادق الذي لم يتردد. شادي العدل، عمرو عز، أحمد بدوي... وغيرهم ممن ولدوا سياسيًا داخل الغد، ثم خرجوا من رحمه ليُصبحوا أيقونة لزمنٍ جديد.

لم تولد حركة ٦ أبريل في غرف الاجتماعات، بل في أقبية الخوف. لم تتشكل من صراع أجنحة أو صفقات، بل من صراعٍ واضح مع دولة لا تعرف معنى أن يحتجّ الناس دون إذن. كانت الحركة ـ في بدايتها ـ منصة لأصواتٍ خرجت من هامش الهامش، لكنها سرعان ما تحوّلت إلى رأس حربة الثورة، وإحدى أهم المحركات الميدانية لانتفاضة يناير ٢٠١١.

أرادت السلطة حينها أن تخنق هذه النبتة قبل أن تُزهر، لكن ٦ أبريل كانت كالأمل: لا تُكسر، بل تتكاثر. لم تكن حركة موحّدة في كل شيء، لكنّها كانت موحّدة في ما هو أهم: الإيمان بأن الحرية حق، وأن الثورة ممكنة، وأن العدالة ليست شعارًا يُكتب على الجدران.

اليوم، بعد ١٧ عامًا على ميلادها، لا يزال بعض رموزها يدفعون الثمن.

محمد عادل، مثال على اللدد في الخصومة. سُجن، ثم خرج، ثم أُعيد اعتقاله، بلا اتهام حقيقي، سوى أنه لم يساوم. ظل ثابتًا على ما آمن به، فكان جزاؤه أن تتآكل سنين عمره خلف الأسوار.

أما شريف الروبي، فحالته الصحية تنذر بالخطر، صامتة ومؤلمة. لم يكن يومًا خصمًا عنيفًا، بل ابنًا لهذا الوطن، يؤمن بأن الكلمة قادرة على هزّ عرش الظلم... لكنها لا تشفع له اليوم.

هؤلاء لم يطلبوا أكثر من وطنٍ عادل، ولم يرتكبوا أكثر من الحلم. ومع ذلك، يُعاملون كخطر على الدولة، لا كمؤسّسيها الفعليين.

❁ في ذكرى ٦ أبريل، لا أكتب تأريخًا لحركة فقط، بل أكتب شهادةً لجيلٍ كامل، جيلٍ اختار أن يخطّ مساره بأظافره، وأن يصعد تاريخه من أعمق الحفر. جيلٌ لم يكن بينه وبين الوطن إلا الحلم، ولا بينه وبين الزنازين إلا خطوات قليلة، مشاها بكرامة وعناد.

❁ أتمنى ـ في هذا اليوم المشهود ـ أن يتسع صدر الدولة لما ضاق صدر الزنازين به: الحرية.

الحرية لشباب ٦ أبريل، لكل معتقلي الرأي، لكل من حلم ولم يخن الحلم.

❁ ستبقى ٦ أبريل ورقة خضراء في شجرة الوطن، مهما حاولوا اقتلاعها، لأنها وُلدت من الألم، ولأن جذورها تمتد في كل من قال "لا" حين كان الصمت هو الأمان.



أوراق من مذكراتي (٣٣)

الصراع داخل قصر الاتحادية (٨)
الغرفة السوداء واللحظة «صفر»

أخطر أشكال الصراع على الحكم في مصر، لم يكن مصدرها تحديًا، أو تهديدًا من خارج محيط القصر الرئاسي.

في العادة، يكمن الخطر في زوايا المؤسسة التي تحمي أسوار القصر، وتملك الانقلاب على الجالس داخله، بسحب الشرعية التي استند إليها في الوصول والبقاء في مقعده.

الرئيس الراحل محمد نجيب، أول رئيس في تاريخ مصر، عاش ومات ضحية تآمر بعض تلاميذه الذين أتوا به إلى السلطة، ثم أقصوه في ١٤ نوفمبر ١٩٥٤، ووضعوه رهن الإقامة الجبرية لمدة ١٨ عامًا، واختفى بعدها عن الحياة، حتى وفاته في ٢٨ أغسطس ١٩٨٤.

التقيته مرة واحدة في مطلع عام ١٩٨٤، في إقامته الجبرية ببيت زينب الوكيل بـ المرج، وتصورت يومها أنني سأخرج من اللقاء بأخطر حوار صحفي في بداية حياتي المهنية... وإذ بي أخرج ببضعة طلبات، كان أبرزها وساطة لأبنه يوسف، «سائق التاكسي الأجرة»، الذي فشل في الحصول على شقة من شقق الإسكان من محافظة القاهرة!!

فضلًا عن عدد من الحكايات المرتبكة عن الوفاة الغامضة لنجله فاروق في ألمانيا، بعد أن أجبره الضباط الأحرار على تغيير اسمه إلى صلاح الدين!! وكذلك حكايات أخرى أكثر غموضًا عن وفاة ابنته سميحة.

❁ في عهد الرئيس الراحل جمال عبدالناصر، الذي أحكم سلطته وقبضته على كل مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مصر، كان الخطر الحقيقي الذي واجهه بشدة وحزم ودم، هو تمرد صديق عمره ورفيق انقلابه على محمد نجيب، المشير عبدالحكيم عامر، قائد الجيش ووزير الدفاع، الذي فقد حياته في هذا الصراع على السلطة، بعد أن تم «استنحاره» بالسم، يوم ١٣ سبتمبر ١٩٦٧، في مقر إقامته الجبرية في أحد منازل المخابرات بمنطقة المريوطية في الجيزة. ليسدل الستار عن أخطر صراع في تلك الحقبة التاريخية الصعبة.

❁ أما صراعات محيط القصر في عهد الرئيس الراحل أنور السادات، فقد تجلّت في أبلغ صورها في أزمته مع رفاق السلاح والدرب، الذين حاولوا خلعه ومحاصرة قصره، وكلفوا الليثي عبدالناصر، قائد الحرس الجمهوري وشقيق جمال عبدالناصر، بالقبض على السادات.

فعاجلهم السادات باستخدام سلاح الحرس الجمهوري الذي كان من المفترض أن يتولى القبض عليه في بيته بالجيزة، فأمر بحملة على بيوت هؤلاء الوزراء والمسؤولين الكبار جميعًا في ذات الليلة، ليلة ١٥ مايو، وهو ما أسماه السادات بـ«ثورة التصحيح».

والغريب أن الليثي عبدالناصر، الذي رفض تنفيذ المؤامرة، مات في ظروف غامضة في نفس المدينة: لندن... التي شهدت وفيات غامضة أخرى لـ سعاد حسني، وأشرف مروان، زوج هدى، ابنة عبدالناصر، وسكرتير السادات!

❁ وليس بمستغرب أن ما فشل فيه الضباط الأحرار في زمن السادات، وخاصة محاولة توظيف الحرس الجمهوري للقبض على الرئيس

في قصره الرئاسي، هو ما لم يفشل فيه قادة الجيش في يوليو عام ٢٠١٣، حيث تولى الحرس الجمهوري القبض على الرئيس المنتخب الراحل محمد مرسي، الذي فقد حياته ـ رحمه الله ـ في سجنه، الذي لم يبارحه منذ لحظة القبض عليه بمعرفة الفريق محمد زكي، قائد الحرس الجمهوري آنذاك، ووزير الدفاع حتى ٢٠٢٤.

في عهد الرئيس الراحل حسني مبارك، شهدت مصر تحديًا من الجيش ووزير الدفاع وقائد الأركان سامي عنان خلال الربع ساعة الأخيرة من وجوده في قصر الاتحادية.

لكن التحدي الأخطر والأكبر، كان التحدي الكامن خلف الستار، من داخل القصر الرئاسي، وليس من محيطه. وهو ما استمر يتصاعد في العقد الأخير من سنوات حكم مبارك الأب.

في سنواته الأخيرة، بدا الرئيس كمجرد ظل لنفسه. تقدّم به العمر، ووهنت صحته، وفضّل الانعزال في شرم الشيخ على البقاء في قصر الاتحادية. بدا الفراغ الرئاسي واقعًا قبل أن يصبح رسميًا، وبدأت ملامح الحكم تنتقل من «الشخص» إلى «الظل».

وكان لهذا الظل ثلاث زوايا: قاعدته سوزان مبارك، الضلع الثاني «الرئيس تحت الإعداد» جمال مبارك، أما الضلع الثالث فكان الكيان الأخطر... «الغرفة السوداء».

هذه الغرفة، غير الرسمية، لم تكن كيانًا دستوريًا، لكنها كانت كيانًا واقعيًا، يحكم من خلف الستار. ضمّت رجال السلطة، والمال، والإعلام، ممن عُرف عنهم الحماس لمشروع التوريث: أحمد عز، مفيد شهاب، عماد الدين أديب، محمد كامل، وآخرين من أصدقاء نجل الرئيس ومريديه.

هذه الغرفة كانت تدير صراعًا مزدوجًا: سيناريو أول لنقل السلطة

من الأب إلى الابن في حياة الرئيس، وسيناريو ثانٍ أكثر خطورة يُفعّل في حال غياب مبارك المفاجئ... اللحظة «صفر».

❁ السيناريو الأول اصطدم برفض المؤسسة العسكرية، وتحفظ النخبة الحزبية، وفتور حماسة مبارك نفسه لفكرة أن يُسلّم كرسيه لابنه.

❁ قال لي يومًا كمال الشاذلي: «جمال بدأ في نهاية التسعينيات يقول لي يا «أنكل كمال»، وبعد سنة أصبح يقول لي يا كمال بيه، وبعد عام آخر بدأ يقول (يا كمال)... وبعدها، طُلب منا أن نقف في طابور لمصافحته أثناء دخوله إلى الاجتماعات!». لقد تغير الصبي، وتحول من ابن الرئيس... إلى من يتصرف كرئيس قبل أن يكون كذلك.

❁ ولتمهيد الطريق دستوريًا، كان لا بد من تعديل المادة ٧٦، لفتح باب الترشح من خارج البرلمان. لكن التجربة أثبتت أن السيطرة على البرلمان صعبة، فقد ترشّحتُ بنفسي لرئاسة المجلس، وحصلت على أكثر من ثلث الأصوات، وهو ما أسقط الرهان على ترشّح جمال مبارك عبر هذا المسار، كما تبنى حبيب العادلي وجود مرشح آخر غير مرشح الدولة، سواء كان مبارك الأب أو الابن.

❁ دفعت عائلة مبارك بالرئيس نفسه لإعلان تعديل الدستور، رغم تصريحه السابق بأن مجرد التفكير في ذلك هو خيانة. وتم تعديل المادة بما يخدم فقط نجل الرئيس، فاشترط أن يكون مرشح الحزب الوطني عضوًا في الأمانة العامة منذ عام على الأقل، وهي أمانة شكّلها جمال نفسه، واستبعد منها الشخصيات المقربة من مبارك الأب مثل عمر سليمان وغيرهم من العسكريين.

❁ هذا الشرط وحده كان كافيًا لاستبعاد كل الأسماء البديلة: عمر سليمان، أحمد شفيق، عمرو موسى، كمال الجنزوري... لم يكن أيٌّ منهم عضوًا في الأمانة العامة، ولم يكن ثمة وقت لإضافتهم لاحقًا بسبب النص على حظر تعديل الدستور في حالة غياب الرئيس.

❁ السيناريو الثاني، سيناريو «اللحظة صفر»، كان أكثر تعقيدًا. وقد حصلت على نسخة مسرّبة من أحد أعضاء لجنة السياسات، وكانت التفاصيل صادمة: عند غياب الرئيس، يُكلّف رئيس مجلس الشعب فتحي سرور بالرئاسة مؤقتًا، وإذا تعذّر، يتولاها ماهر عبدالواحد، رئيس المحكمة الدستورية العليا.

(وهو النص الذي فُعّل في ٢٠١٣ حين تولّى عدلي منصور الرئاسة المؤقتة تَسَنُّدًا عليه(

❁ في عام ٢٠٠٥، كان هذا الاختيار يخلق تضاربًا، لأن ماهر عبدالواحد، كان أيضًا رئيس لجنة الانتخابات الرئاسية، ولا يجوز له الجمع بين المنصبين. فتم اقتراح اسم آخر: عادل أندراوس، المقرّب من سرور، لإدارة الانتخابات بدلًا من ماهر.

❁ وكانت الخطة تقضي بإعلان موعد الانتخابات خلال ٤٨ ساعة، وتحديد أسبوع لجمع التوكيلات، و١٨ يومًا فقط للدعاية، في بلد مترامي الأطراف، فيه آلاف القرى والمراكز. وجميعها شروط أقرب إلى العبث، تمنع فعليًا أي مرشح جديد أو مستقل من الترشح.

❁ السيناريو ذاته أُحكم بإغلاق كل الثغرات القانونية، فقد تم تعديل المادتين ٨٢ و٨٤ في ٢٠٠٧، لتحظر على الرئيس المؤقت تعديل الدستور، حتى لا يُفتح الباب لدخول منافسين أقوياء.

❁ وكان اختيار مرشح الحزب الوطني مُعدًا سلفًا، وفي الغالب هو جمال مبارك، لأن كل من في الأمانة العامة إما مقرب منه أو تابع له: صفوت الشريف، زكريا عزمي، أحمد عز، مفيد شهاب، أنس الفقي، علي الدين هلال، وغيرهم.

❁ أما من خارج الحزب، فلم يكن هناك سوى ثلاثة مرشحين محتملين، تنطبق عليهم شروط المادة ٧٦: مرشح حزب الغد (شخصي

المتواضع)، ومرشح الوفد، ومرشح التجمع. حتى هؤلاء، كانت الأبواب تُغلق أمامهم واحدة تلو الأخرى.

❁ وهكذا كانت الخطة: انتخابات في يوم واحد، بلا رقابة قضائية حقيقية، بلا منافسة فعلية، في مسرحية ديمقراطية بإخراج مشوّه، تنتج رئيسًا ورث السلطة عبر نصوص صيغت على مقاسه.

❁ لقد كانت جريمة سياسية مكتملة الأركان، أُعدّت باسم الدستور، ومورست باسم الشرعية، واكتملت فصولها بما يشبه الخداع القانوني، لكن... غابت عن واضعيها احتمالية واحدة: هي الثورة.

❁ ففي ٢٥ يناير ٢٠١١، لم يفعل الناس سوى أنهم اختاروا... أن يختاروا. بعيدًا عن مخططات الغرفة السوداء ومؤامرات انقلاب الأسرة والقصر.

أوراق من مذكراتي (٣٤)

الصراع على الكرسي المحرم (٩)
أحمد شفيق: عاد ولم يعد
حكاية وفاة الفريق الرقيق شفيق

❁ كانت عطلة عيد الفطر الأخيرة حبلى بأنباءٍ هامسة، تقف على أعتاب التأكيد، لكنها لا تدخل إليه...

أنباءٌ عن وفاة الفريق أحمد شفيق، من مواليد نوفمبر ١٩٤١، عن عمر يناهز الثالثة والثمانين.

كان السؤال الذي راودني فورًا:

هل مات الفريق الرقيق؟

هل غادر الدنيا كما غادر السياسة؟ هل توارى للأبد عن المشهد كما توارى عن الإعلام والذاكرة الرسمية؟

❁ اللافت أن البعض، حين سألتهم عن صحة الخبر، بادروني بالسؤال: «هو لسه في الإمارات؟!»

وكان جوابي:

«الرجل عاد مرحّلًا إلى مصر منذ الثاني من ديسمبر ٢٠١٧!»

عاد. . . لكنه يبدوا أنه لم يعد!!

❁ ربما يكون عاد بجسده فقط، وغاب بصوته وصورته.

عاد كما يريد لنا البعض، مقيدًا، لا بالأغلال، بل بصمتٍ رسمي، ونسيانٍ شعبي، ومنعٍ من الظهور أو التأثير. فطوال ثمانية أعوام، لم يظهر الفريق إلا في ثلاثة عزاءات: عزاء فتحي سرور، عزاء سمير صبري، وعزاء ثالث لا أذكره. كأنما كانت الصفقة أن يعود، بشرط أن لا يُرى. . . أن يبقى اسمه كتمثالٍ منسيّ في ركن معتم من القاعة.

❁ لم يكن هذا النفي الرمزي إلا امتدادًا لما سبق عودته.

ففي نوفمبر ٢٠١٧، وبعد أن أعلن من منفاه في أبوظبي عزمه الترشح لانتخابات الرئاسة المصرية عام ٢٠١٨، انتشرت شائعات منظمة تزعم إصابته بـ الزهايمر و"الخرف السياسي"،

في حملة ممنهجة لإبطال مفعول الرجل سياسيًا.

كانت تلك الحملة استباقًا للعودة، وإغلاقًا للنافذة قبل أن تُفتح.

❁ بلغني حينها من أصدقاء مشتركين، بيني وبينه، أن الرجل كان يتهيأ لمغادرة الإمارات إلى فرنسا، حيث سبقت إحدى بناته لترتيب الإقامة، وأنه كان على وشك ركوب الطائرة المتجهة إلى باريس، حين جرى منعه بشكل مفاجئ في مطار دبي، قبل أن يُرحّل في طائرة خاصة إلى القاهرة.

❁ ومنذ ذلك الحين، لم نره في الحياة العامة، إلا كظلّ يتجوّل في الهامش، لا يهمس ولا يتكلم.

❁ وخلال الأيام الماضية، وبينما تواترت أنباء الوفاة، نشر المستشار هشام ناجل، المتحدث باسم الفريق، نفيًا للخبر عبر حسابه الشخصي، مؤكدًا أن شفيق ما زال حيًّا.

لكن في الوقت نفسه، أكدت مصادر مطلعة أنه تعرض لوعكة صحية خطيرة، استدعت استدعاء سيارة إسعاف، ونقله إلى المستشفى في حالة حرجة.

شائعه وفاته ذكرتني بمقولة له في أحد حواراته التلفزيونية التي أجريت معه عندما قال أنا قتلت وقتلت مرات عديدة

كما ذكرتني شائعه عيد الفطر الأخيرة بشائعه مشابهة تم تسريبها في الاعلام المصري في عيد فطر ٢٠٢٠ عن وفاة أيمن نور بعد أزمة قلبية مفاجئة..

كنت وقتها اقضي أجازه العيد مع زوجتي دعاء وعدد من الاصدقاء بمدينة بورصه!!

وعرفت بعدها أن جهة ما تلقت تقريرًا من شخص مكلف بمراقبتي أفاد تقريره بعدم ظهوري في منزلي أو مكتبي لأيام (!!)

۞ عرفت الفريق أحمد شفيق حين كان وزيرًا للطيران المدني، وأنا نائب معارض في برلمان مصر. اختلفنا مرارًا، لكنني لم أره يومًا متجاوزًا، ولا غليظًا. كان مهذبًا (ابن ناس طيبين) حتى في رده على الاستجوابات والطلبات الرقابية، بخلاف وزراءٍ اعتادوا الصراخ والازدراء. ومن هنا، أطلقت عليه لقب: «الفريق الرقيق».

۞ لم أُسانده في انتخابات ٢٠١٢، لا لموقفٍ شخصي، بل لموقفٍ مبدئي. كان يمثل امتدادًا أنيقًا، لا مباشِرًا، لنظام مبارك الذي قامت الثورة عليه، وهو بشكل شخصي النظام الذي سجنني، وحاصر حزبي، وشوّهني بشكل ممنهج. لكن شفيق شخصيًا ظل رغم ذلك رجلًا يحترم خصومه، لا يهوّن منهم. ولا يتسفل عليهم

۞ نعم... لم يكن سياسيًا فذًا، ولا خطيبًا جماهيريًا، لكنه كان إداريًا محترفًا، بسجل لا يقطر دمًا، ولا يُثير ريبة. وقد يكون هذا هو بالضبط ما لم يُغفر له من مدرسة تؤمن بالمسار الاخر.

❁ وحين أعلن شفيق ترشحه مجددًا

عام ٢٠١٧، من الخارج، رأى فيه النظام تهديدًا صامتًا. ليس لأنه قوي، بل لأنه من النظام نفسه، ويعرف تفاصيله. ولأنهم يعرفونه، قرروا أن يُطفئوا صوته قبل أن يصل.

❁ وهكذا، أُعيد إلى مصر دون رغبة، وحُرم من التعبير، وعاش كغائبٍ حاضر، أو حاضرٍ غائب.

❁ مات شفيق للمرة الثانية. . . مات بعد أن مات سياسيًا، حين قررت الدولة أن تمحو أثره وذكره، دون أن تصدر حكمًا، وأن تسجنه، دون أن تفتح له باب الزنزانة.

❁ والمأساة أن ما حدث مع أحمد شفيق لم يكن استثناءً، بل نمطًا، متكررا بأشكال مختلفة:-

تشويه السمعة

- كما حدث معي في ٢٠٠٥، ومع كل مرشح حقيقي، من حازم صلاح أبو إسماعيل، إلى عبدالمنعم أبو الفتوح، إلى أحمد الطنطاوي في ٢٠٢٤.

الاعتقال:

كما حدث معي ٢٠٠٥

ومع الدكتور محمد مرسي ٢٠١٣

وابو الفتوح وابو اسماعيل

-و كما حدث مع الفريق سامي عنان، والعميد أحمد قنصوه. ٢٠١٨

واحمد الطنطاوي ٢٠٢٤

النفي:-

- كما عشتُه بنفسي منذ ٢٠١٣ وحتى اليوم.

القتل بلا دم-:

- كما جرى مع الرئيس الراحل محمد مرسي.

وأخيرًا: الإلغاء من الحياة

- كما جرى مع شفيق. وعنان وقنصوه وغيرهم، ، ،

❁ الكرسي في مصر لم يعد فقط مغلقًا، ومحرمًا، بل أصبح ملعونًا. لا يقترب منه أحد إلا ودُفع ثمنًا باهظًا من عمره، أو حريته، أو صوته، أو كرامته.

❁ في ميزان الحكاية،

قد لا يكون أحمد شفيق بطلًا، لكنه لم يكن شريرًا.

كان طيّارًا أُجبر على تغيير مسار الرحلة، ثم أُجبر على أن يهبط، دون إذن بالإقلاع من جديد.

❁ شفيق نصف حي، يتنفس بصمتٍ يليق بمن صمت طويلًا... ومات في قلبه الحلم، بأن يكون في هذا الوطن رجلٌ يُمارس العمل العام، دون أن يُقصى أو يُنسى.

❁ أما أنا...

فاليوم وكل يوم تتوافر لي إجابات شافية وجديده علي السؤال المتكرر-:

لماذا لا تعود لمصر ؟!

❁ أقف اليوم ـ وكل يوم ـ على رصيف الذكرى، أنظر إلى مشهد طائرة هبطت... ثم بقيت على المدرج، دون إذن بالتحرك. ليضع لها سلم أمن لهبوط الركاب...

❁ الفريق أحمد شفيق: عاد ولم يعد. فإن لم يمت بجسده، فقد مات ظلّه.

❁ تلك حكاية الموت البطيء... حين لا يُغتال الجسد، بل تُغتال السيرة، ويُمحى الاسم. وحين يكون أقسى أنواع الموت، أن تموت حيًّا...

لأنك فقط، فكّرت يوما، أن تجلس على المقعد المحرّم.



أوراق من مذكراتي (٣٥)

زيزو الذي مات في حضني..
والقاضية المسيحية وخروف المحكمة!

❁ ذاكرتي تختزن مشاهد لا تُمحى، تأبى النسيان، وتعود إليّ كلما فتحتُ دفترًا جديدًا من دفاتر الذاكرة. واحدة من هذه المشاهد تبدأ حين صدر حكم من محكمة القضاء الإداري بإبطال حبسي انفراديًا. لم تهضم الأجهزة الأمنية مضمون الحكم، فأرادت تطبيقه لا بروح القانون بل بروح النكاية. وكان التنفيذ أن جاؤوا برجل، يُجاوز التسعين، وألقوه في زنزانتي. اسمه عبدالعزيز، لكن الكل كان يناديه بـ«زيزو».

❁ لم يكن عبدالعزيز مجرمًا، ولا يعرف معنى الرشوة من الأصل. كل جريمته أن شقيق الدكتور رفعت المحجوب، وكان متهمًا في إحدى قضايا الرشوة والفساد، حاول الهرب من القبض عليه، في الشارع فدخل محل زيزو ـ وهو خياط قديم في وسط القاهرة ـ واختبأ فيه لدقائق. دخلت الشرطة، قبضت على الرجل، واقتادت زيزو أيضًا، وكأن صاحب الدكان شريكًا في الجريمة! وحين وقف زيزو أمام القاضي، لم يحضر محام، وكان الزمن قد أثقل لسانه، فلم يحسن الدفاع عن نفسه، فصدر عليه حكم بالسجن خمسة عشر عامًا!

❁ لم يشفع له شيب رأسه، ولا هزال جسده، ولا عزلته عن العالم.

فقد كان رجلًا هزيلًا، لا يتجاوز وزنه ٤٥ كيلو، متشبثًا بأغاني كتبها لعبدالناصر، ولا يعرف أن عبدالناصر قد مات، وأن السادات جاء بعده، ثم مبارك الذي نافسته على رئاسة الجمهورية. قال لي عندما تحدثنا لأول مرة: «هل أنت اللي اترشحت ضد الرئيس عبدالناصر؟». قلت له: «عبدالناصر مات، واللي نافسته هو مبارك». فبكى زيزو بحرقة عندما سمع أن عبدالناصر مات!

❁ زيزو كانت له معي عادة يومية؛ أن يطلب مني أن أطلب من العسكري المخصص لإحضار طلباتي من كنتين السجن أن يشتري له كيس شبسي على حسابي. كنت مندهشًا من هذا الطلب اليومي، خاصة أن زيزو كان له سنٌ واحدة في منتصف فمه، فكيف له أن يقضم شرائح الشبسي، رغم أنه بلا أسنان.

❁ لم أفهم المغزى، إلى أن جاء آخر أيامه في الحياة. ناداني وقال: «اجلس إلى جواري». جلست. قال لي: «لك عندي ٢٢ جنيه ونصف». وأخرج من كيس المخدة عددًا من الجنيهات الفضية، وأكمل: «أنا ما استلفتش منك، لكن كل كيس شبسي كنت تطلبه لي، كان فيه ربع جنيه فضة تضعه الشركة المنتجة، وكنت بجمعهم علشان أركب تاكسي يوم ما أخرج لأعود لبيتي. بس شكلي حاروح مشوار تاني.. هما اللي هيوصلوني فيه، فخدهم يا ابني، دا حقك».

❁ بعد ساعات قليلة، مات صديقي زيزو. قرأت على رأسه سورة يس، ثم سلّم الروح بهدوء. حملوه في الصباح دون أن يحتاج إلى التاكسي، فقد وصل إلى مستقره الأخير. وكنت أسأل نفسي ـ كل يوم ـ عن ذلك القاضي الذي حكم على رجل في مثل هذا السن وبهذه الحالة بالسجن ١٥ عامًا!

❁ هذه القصة تذكرني بقصة «الخروف»... حين اتُّهِم أحد المحضرين بالرشوة، فقط لأن مواطنًا ربط خروفًا في القضبان الحديدية

خارج مكتبه. ووجده القاضي أثناء دخوله المحكمة، فاعتبره رشوة. كان الخروف قد رُبط دون علم المحضر، إذ أحضره أحد المتقاضين كـ«نُذُر» لقضية عائلية، ووجد أن القضبان خارج مكتب المحضر تصلح للربط. القاضي، وقد صادف الحبل في طريقه، تبعه حتى الخروف، فاعتبر الأمر دليلًا على تلقي المحضر هدية، وصدر الحكم بالسجن عشر سنوات. لكن في الاستئناف، تم إثبات أن الخروف لم يكن للمحضر ولا يعرف عنه شيئًا، فأُسقط الحكم.

❁ القاسم المشترك في القصتين، أن هناك قضاة لا يرون إلا النص، ويتبعون التعليمات ولا يبصرون الروح. ينظرون إلى الوقائع لا إلى الإنسان. لكن هناك قضاة آخرون ـ مثل القاضية اللبنانية المسيحية جوسلين متى ـ ينفذون القانون بروح الفهم لا حرفية العقاب. حين أمرت شبانًا مسلمين متهمين بارتكاب أعمال تهين السيدة مريم في إحدى الكنائس في بيروت، ووسط توقعات بأن القاضية المسيحية ستصدر حكمًا مغلظًا عليهم، أمرتهم بحفظ سورة آل عمران بدلًا من سجنهم. أعادت العدالة إلى نصابها، وربطت العقوبة بالوعي، لا بالأذى.

❁ ما بين زيزو والخروف، تظل العدالة بحاجة إلى فلسفة، لا إلى مجرد قضاة. إلى ضمير يقرأ ما بين السطور، لا فقط ما جاء في لسان المحضر.

❁ هكذا علمني أبي أن القضاء ليس وظيفة.. بل حكمة. وأن القاضي ليس سلطة.. بل ضمير. وأن الرحمة ـ قبل النص ـ هي طريق العدل، إذا كان للعدل طريق

أوراق من مذكراتي (٣٦)

لماذا أكتب الآن مذكراتي؟
«سأقول كل شيء عن كل شيء

➢ بعد نشر أوراق من مذكراتي، يسألني البعض: لماذا الآن؟»

وهل هو ميل للسرد؟ أم مكاشفة، قد تُغضب البعض؟

فقررت اليوم أن أوضح في هذا المقال، كل ما كان ينبغي من البداية أن يُقال.

❁ أحسب أني لا أكتب هذه الصفحات، لأروي فقط ـ بعضًا ـ مما حدث. . .

بل لأقول ما كان ينبغي ـ أصلًا ـ أن يحدث.

وكل ما كان ينبغي أن يُقال.

❁ لا أكتب هذه الأوراق لأنني أهوى الحكي، بل لأن بعض الحكايات ترفض أن تُنسى، وبعض الجراح لا تندمل، إلا إذا تحولت وتطهرت بحبر حي.

❁ هذه ليست مذكرات سياسي هزمته السلطة، ولا اعترافات رجلٍ لم تهزمه الأيام، حتى لو هزمته لحظات. فقد انتصرت له الأيام في كثير من الأوقات.

❁ هي فصول من سيرة وطنٍ مصلوبٍ على أبواب الطغاة، وسيرة رجلٍ قرر أن يقول "لا" حيث تواطأ الجميع على «نعم».

❁ لا أكتب هذه الصفحات لإبراء الذمة فحسب، ولا لأقول ـ في ختام الرحلة ـ إني بلا أخطاء، وأحمد الله أنه لم يحرمني من حق الخطأ، الذي لولاه ما عرفت الصواب، وأشكر فضله أنه عصمني من الخطايا.

❁ أعدكم، أنه في كل سطر من هذه الأوراق، ستهبّ رياحُ صدق وتجرد، قد تُغضب البعض، وقد تُنصف البعض.

سأفتح ثغرات وثقوبًا مظلمة في حياتي شخصيًا، وفي حياة الوطن، قد تهب منها رياح عاتية.

لكنها تبقى، حكايات حقيقية، معفرة بتراب الواقع، منها ما كان بين غياهب الزنازين، وصدى الميكروفونات، ورائحة مقاعد البرلمان، التي فرّ منها الصدق، واستوطنتها الصفقات والمساومات، وتربع عليها أنصاف الرجال وأرباع المؤهلين.

❁ ستعبر بكم هذه الأوراق، بين زحمة الميادين، وصمت المنفى، بين أسرار مؤتمر انتخابي، سقطت منصته في المحلة، وحكاية الوزير الذي قتل أبي، ودهاليز مظلمة في سجن القلعة.

❁ بين قصص حب الطفولة، وأوجاع شخصية لم تُروَ من قبل، وهتاف الشباب في الشوارع، وهمس المؤامرة في صالونٍ رئاسي، مراقب، وضابط شاب من الحرس الجمهوري، أدخل في روعي أنه سيقتل مرسي، وأسرار إجهاض تشكيل حكومة ائتلافية، وأسرار المكالمة التي غادرت بعدها مصر بثماني ساعات.

وزيارة مدير المخابرات العسكرية، التي غادرت بعدها بساعات الأراضي اللبنانية.

❁ مئات من الوقائع المطوية

فهي ليست توثيقًا باردًا لوقائع، بل شهادة حية، ساخنة، كتبت بعضها في ذاكرتي على ضوء شمعة في زنزانة، بسجن طرة، أو على حافة منفى، في مدينة غريبة، أو في لحظة نادرة من صفاء القلب كسرًا لضجيج وأكاذيب ومجاملات السياسة.

❁ كتبتها لأنني أحب هذا الوطن، وأكره ما صار إليه.

فكنت جزءًا من حلمه، وبعضًا من ألمه، كما كنت شاهدًا على كسره.

❁ ما بين «الغد» وغد الثورة و«الشرق» و«أوجاع الغربة»،

ما بين مبارك وأبو غزالة والسيسي،

وسرور، ما بين فؤاد سراج الدين، ونعمان جمعة،

بين براءة الفكرة وخيانة العملاء، وحكايات المندسين، ومؤامرة الخائنين...

نسجت هذه الأوراق لتكون مرآةً للحقيقة، لا لوجه صاحبها، بل لوجه أمةٍ تبحث عن نفسها منذ قرون.

❁ ربما... تكون هذه المذكرات هي كل ما تبقى لي من أدوات المقاومة.

فقلمي الآن هو بندقيتي، وذاكرتي هي درعي، وصدقي هو آخر ما أملك في زمنٍ كَثُر فيه البائعون، وقلّ فيه الصادقون.

➢ أكتب لكم هذه الأوراق طازجة من وراء جدران المنفى، كلمات قد تُغضب وتُربك السلطان، لكنها قد تُلهم الإنسان.

بمزيج من الحنين للمعرفة والحنكة، وتحيل مآسي الأمة إلى نصوصٍ شاهدة.

فكل مقطع منها، طلقة نور في عتمة وطنٍ يئن من عتمة الظلام...

أوراق من مذكراتي (٣٧)

ممتاز نصار، اسم أهمله التاريخ

حين تتحدث المضابط البرلمانية، وقبلها الضمائر الوطنية، تُسطّر أسماءٌ لا تُنسى... في طليعتها ممتاز نصار، القاضي الذي صاغ معاني النزاهة، والنائب الذي وهب حياته لمصر لا لدائرته، والضمير الذي لم يتواطأ يومًا مع الصمت.

يزداد شرفي أنني كنائب ليبرالي عايشت هذا الجيل الذهبي، وتعاونت مع النائب الشجاع علوي حافظ حتى وفاته، وتعلمت من الأستاذ عاد العيد، الذي زاملته في برلمان ١٩٩٥، فكان مدرسة في الخلق والوطنية. وكان لي كذلك فخرٌ لا يُضاهى أن أزامل المستشار ممتاز نصار، في سنواته الأخيرة داخل الوفد، حين كان رئيسًا للهيئة البرلمانية، وصوتًا لكل المصريين، لا لفئة أو حزب.

وإذا كنت أعتز بأنني تتلمذت، قرابة عقدين من الزمان، على يد الزعيم فؤاد سراج الدين، فإنني أعتز أكثر بأنني عايشت من صنعوا مجد الوفد لا بالكلمات، بل بالمواقف.

وُلد ممتاز نصار من رحم العدالة، لكنه لم يهنأ بها طويلًا. تم عزله في مذبحة القضاء الشهيرة، فقط لأنه لم يُطأطئ الرأس، ولم يُبدّل ثوبه الأسود برداء الطاعة. لم ينكسر، بل انتقل إلى ساحة البرلمان، ليصبح

صوتًا حرًّا، لا يُساوم، ولا يُهادن، ولا يتاجر.

لم يكن خطيبًا صاخبًا، بل عقلًا هادئًا يزن الأمور بكفة الوطن، ويصوغ اعتراضه بمنطق القانون. دافع عن حقوق المصريين، وقف في وجه الفساد، وحين نطق، صمت الآخرون، لأن المنطق لا يُقاطع.

لا أنسى مشهدًا لا يغيب عن ذاكرتي: جلسة مواجهة بينه وبين رئيس الوزراء الأسبق كمال حسن علي، وقف فيها نصار وقال بصوتٍ رخيم:

«هذا ليس استجوابًا، بل شهادة للتاريخ، وسأوقع عليها أمام الله والوطن».

لم يقاطعه أحد، لا خوفًا، بل توقيرًا.

كان رجلًا بحجم الدولة... لا بحجم المقعد. من مواليد دائرة البداري في أسيوط، لكنه لم يكن يومًا نائبًا لدائرةٍ، بل للأمة بأكملها. صوتٌ لا يشبه سواه، وظلٌّ لا يُشبه ظلّ أحد.

رحل ممتاز نصار في صمت، ذات صباح من إبريل ١٩٩٨، وكان يوم رحيله جرس إنذار خافت بأن زمن الكبار ينقضي. كتبتُ آنذاك وكنت شابًا صغير السن:

«خسرنا قاضيًا يمشي على قدمين، ووطنيًا لا يخشى الوقوف وحده... لكننا، قبل كل شيء، خسرنا ضميرًا كان يُشبه النور في زمن الظلام.»

مؤسف أن تمر ذكرى رحيله، اليوم، دون سطر واحد في جريدة الوفد التي كان أحد أعمدتها، ودون ذكر في حزبٍ طالما حارب لأجله. فإذا لم تكتب عنه «بوابة الوفد»، فليُكتب عن نسيانها.

لا نلوم الزملاء الصغار الذين لم يعرفوه، بل نعاتب من كان يجب أن يُذكّرهم. من جلس فوق الكرسي، ونسي من صنعه، من ترك القامات وسجد للتعليمات.

حدثني فؤاد باش اسراج الدين ذات مرة قائلًا: «بعض الأسماء تكفي وحدها لتكون تيارًا». وكان يقصد ممتازنصار، لا سواه.

واليوم، حين يُمحى اسمه من سجلات الشكر، نُدرك أننا لم نعد في زمن التيارات... بل في زمن «التعليمات».

رحم الله ممتاز نصار، الذي لم تُغره المناصب، ولم تُرهبه السلطات، ولم يشترِ صمته أحد. رجل لم يُدفن في إبريل ١٩٩٨، بل دُفن يوم قررت ذاكرة الأمة أن تنساه... وذاك هو الموت الحقيقي.

أوراق من مذكراتي (٣٨)

أسوأ ما في الغربة

❁ لا أحد يختار منفاه، كما يختار مكان قضاء عطلته الصيفية... المنفى لا يُستدعى... بل يُفرض.

يأتيك دون استئذان، كضيفٍ ثقيل يحمل في جيبه أشياء حاولت نسيانها.

ليس المنفى جغرافيا، بل هو الشعور العميق بأن وطنك لم يعُد وطنًا...

صار سجنًا عموميًا، وغرفة تحقيقٍ نوافذها الضيقة تطلّ على الأسلاك.

❁ كالبكاء، ينتابني الضحك،

عندما يسألني أحدهم بدهشة ـ تشبه البله ـ : لماذا غادرت مصر؟

❁ لم أغادر وطني... بل وطني هو الذي غادرني،

ترك لي جدرانه المتصدعة، ورایاته المتأرجحة بين البيع والإنكار...

ترك لي فقط نشيده الوطني،

لكنه معلق على مشجب الخذلان، والفشل، والاستبداد...

ورحل، ليستبدل أبناءه بملفات أمنية، وجدرانٍ صمّاء لا ترد السلام.

❁ أحطّ وأحقر إحساس إنساني ينتابك في غربة المنفى،

أن ترسل رسالة إلى شخص، ولا يرد على رسالتك...

ليس لأنه لم يرها، أو لم يفهمها، بل لأنه لا يملك شجاعة الرد ـ ولو سرًا ـ وهو من يمتطي جواد الفروسية والشجاعة علنًا!

فما بالك إذا كان الممتنع عن الرد هو الوطن...

والوطن هو، على الأقل من وجهة نظره هو...

❁ المنفى مسكونٌ بمرارات عديدة ومتمددة،

لا يسكنك وحدك، بل يسكن أسماءنا، لهجتنا، خطواتنا... حتى أوراقنا الثبوتية المحجوبة، وقلوبنا المعطوبة.

فقدنا فيه القدرة على التوقيت، على الحنين، على ممارسة الحب دون استئذان أمني.

❁ يستفزني أيضًا ذلك السؤال البريء إلى حد الهطل:

هل لديك تهمة تحول دون حقك في العودة؟

❁ في وطني، الكلمة جريمة، والنظر خلفك مرتين تهمة.

نعم، في المنفى، الوطن يبدو أجمل، لكنه صورة على الجدار... لا نستطيع لمسها.

وإذا فعلت، ستصعقك أبراج الكهرباء عالية القدرة، التي تسكن خلف الصورة، وتنتظرك خلف الباب.

❁ لم أعُد أحلم بوطنٍ كبير...

فقط أريد رقعةً صغيرة، لا يُلاحَق فيها الحلم، ولا يُعتقل فيها الأمل...

وإن لم يكن ذلك ممكنًا...

سأعيش وطنًا افتراضيًا، أمارس فيه جنسيتي ووطنيتي، دون أن يملك أحدٌ أن يسحبها مني.

❁ أعرف أنني لست وحدي،

فثمة أوطان كثيرة أُقفلت في وجوه أصحابها، واستُبدلت بأجهزة تُراقب أنفاسنا، وتُصنّفنا بين «النافعين» و«الزائدين عن الحاجة».

❁ لكنني ما زلت أؤمن...

أن المنفى قد يُصنع من الحزن فرحٌ... ومن القهر فرجٌ قريب...

فالوطن يُصنع بالإيمان به، بالأصوات التي ترفض أن تصمت، حتى ولو أُسكنت في الصدى سنواتٍ طويلة...



أوراق من مذكراتي (٣٩)

«يوم أن أعلنوا وفاتي...
والعزاء بعد العصر!؟
أعيدوا الرفاه...

❁ لم تكن الغربة في بعدها الجغرافي هي الجرح الأعمق، بل تلك الكلمات التي تُرسل كطعنة باردة من سلطةٍ قرّرت أن تنفيك من الذاكرة قبل أن تنفيك من الجغرافيا. سلطةٌ تُمارس أقصى درجات القسوة، لا بالسجن، بل بالمعنى... لا بالنفي، بل بإشاعة أن لا عودة لك، وأنك ستموت وتُدفن خارج الوطن كعقوبة رمزية نهائية، لمن تجرأ أن يقول: لا.

❁ بين ٢٠١٣ و٢٠٢٢، كنتُ شاهدًا على ذلك الوجه البشع لمنظومةٍ لا تملك أدوات الرد، فتستنجد بالسُخف، وتستنبت الذباب الإلكتروني من حوائط العجز والخراب، ليردد في كل مرة، ذات العبارة الخاوية:

«يكفي أنك ستموت وتُدفن خارج تراب وطنك!»

❁ في البدء، كنت أضحك... لا استهزاءً، بل دهشةً من هذا العجز الفج. وكنت أقول لنفسي:

«وماذا يضير الضحية بعد ذبحها... سلخها؟ أو دفنها؟ كلنا ضيوف في هذه الدنيا، وما على الضيف إلا الرحيل.»

وكنت أردد:

«كُن عابرَ سبيلٍ في الحياة... واترك خلفك كل أثرٍ جميل.»

❁ السخافة في تلك «المعايرة» لم تكن تؤلمني، بل تُدهشني من عمق التفاهة، وسطحيّة الكراهية التي تتحول إلى برنامج إعلامي يومي، يُقدّمه ـ ويا للعجب ـ عمرو أديب، بصوته المُتخم بالأوامر، ولسانه المشغول بالتسعير.

❁ كتبت له يومًا رسالة، لم أرسلها. فقد سبقني بحجبه لي على «واتساب»، بعد أن عجز عن الرد على نقدي لمواقفه المتقلبة، وتجاوزاته التي تُباع على الهواء، كأي سلعة فاقدة الصلاحية.

❁ كنت أود أن أُهديه فيها حكاية حقيقية عشتُ فصولها، تُعرّي من يُراهن على الموت كأداة للطمس السياسي...

]❁ كنت أود أن أُهديه فيها حكاية حقيقية عشتُ فصولها، تُعرّي من يُراهن على الموت كأداة للطمس السياسي.

حين قرر أنور السادات إعادة الحياة الحزبية عام ١٩٧٧، أبدى ـ على استحياء ـ رغبته في عودة حزب الوفد، بل ولمّح إلى تمنيه زعامته.

لكن فؤاد سراج الدين لم يُشجّعه، وواجهه الوفديون بجفاءٍ سياسي محسوب.

غضب السادات، فشنّ حملة ضارية على الحزب، وعندما رأى التفاعل الجماهيري مع فكرة عودته، بدأ في التراجع، حتى اتخذ الحزب ـ بتحدٍ وطني ـ قرارًا بتجميد نشاطه احتجاجًا، في واقعة أحزنت الرئيس... لكنها كانت صائبة.

❁ بعد اغتيال السادات في ٦ أكتوبر ١٩٨١، تقدّمنا بطعنٍ قضائي ضد قرار التجميد، ونجحنا في استعادة شرعية الحزب.

رشّحنا أحمد طه، النائب اليساري، في دائرة الساحل، فرفضت الداخلية أوراقه.

عدنا إلى القضاء، الذي أقر بحق الحزب في الترشّح، وألزم الدولة بقبول أوراق مرشحيه.

❁ أوكل حسني مبارك إلى رئيس وزرائه فؤاد محيي الدين مهمة التشاور مع رفعت المحجوب ووزير الداخلية بشأن التنفيذ، وخلصوا إلى قناعة أمنية باهتة:

«فؤاد باشا عجوز... وسيموت قريبًا، وسيموت معه الوفد.»

❁ ولكن... سخرية القدر لا تخيب!

فؤاد محيي الدين توفي إثر أزمة قلبية بعد إبلاغه بإقالته.

حسن أبو باشا نجا من محاولة اغتيال، لكنه خرج من المشهد.

رفعت المحجوب قُتل بالخطأ في عملية اغتيال بوسط القاهرة.

أما فؤاد سراج الدين، الذي راهنوا على موته، فقد شيّع جنازاتهم جميعًا... وظل حيًّا حتى عام ٢٠٠٠، يُمارس السياسة واقفًا كما تعوّد.

❁ أردت أن أروي لـ عمرو أديب هذه القصة عندما قال باستخفافٍ:

«ستُدفن خارج تراب وطنك.»

كأنّ الموت في الوطن وثيقةُ انتماء، والموت في المنفى خيانةٌ موثقة!

❁ تذكرت حينها نصيحة جمال الدين الأفغاني لـ عبدالله النديم:

«افعل ما تراه صوابًا في غربتك... إلا أن تموت غريبًا.»

فرد عليه النديم:

«أرض الله واسعة... وأوسع من ظلمهم.»

❁ قضيتُ سنواتٍ أبحث عن قبر عبدالله النديم في إسطنبول. . . فلم أجد شاهدًا، ولا حجرًا، ولا نقشًا.

علمت لاحقًا أن عائلةً دفنته في مدفنها المشترك، دون اسم، دون ضوء. . . كأنهم أرادوا أن يموت في الظل كما عاش.

❁ والنديم ـ لمن لا يعرف ـ ليس مجرّد رمزٍ من رموز الصحافة الوطنية والثورة العرابية، بل هو ضمير مصر في القرن التاسع عشر.

توفي في إسطنبول يوم ١٠ أكتوبر ١٨٩٦، عن ٥٤ عامًا، بعد صراع مع داء الرئة. وقد دُفن في مقبرة «يحيى أفندي» في حي بشكتاش، وهي مقبرة عثمانية عريقة تضم بين جنباتها سلاطين ووزراء، لكن دون أن يُميز شاهد قبره أو يُدوَّن اسمه.

رغم أن السلطان عبدالحميد الثاني أمر بأن تُشيّع جنازته بموكب رسمي مهيب، تقدمه فرق من الجيش والشرطة وطلبة المكتب السلطاني، وحضره جمال الدين الأفغاني وعبدالرحمٰن الجازولي. . .

إلا أن قبره اليوم لا يُعرف، ولا يُزار، ولا يُدلُّ عليه، كأنما خُطط أن يظل صوته غائبًا حتى بعد موته.

❁ وقد كتب عنه يحيى حقي لاحقًا، وقال:

«أطالب بعودة رفات عبدالله النديم من إسطنبول إلى مصر، إلى ضريح يليق به، ويليق بنا. . .»

وما زال المطلب معلقًا منذ قرن وربع. . .

نداءٌ منسيّ، ورفاتٌ منفية، وذاكرةٌ تختبر وفاءنا.

❁ مات النديم منفيًّا، كما مات الكواكبي في حلب، والأفغاني في إسطنبول. كلهم لفظهم الوطن حين صرخوا بوجه المستبد.

كلهم دُفنوا غرباء... وعاشوا خالدين.

❁ أما طلعت حرب، فقد مات في أوروبا، مُطارَدًا، محاصرًا، بعدما أغلقوا مصانعه، وضيّقوا عليه حياته.

❁ ألا تستحق رفات هؤلاء أن تعود للوطن؟

ألا يستحق الوطن أن يسترد رموزه... لا ليُكرّمهم فقط، بل ليُداوي جرح نكرانه لهم؟

❁ إنني لا أطالب برد اعتبارٍ لي، بل لنديمٍ صرخ فأسكتوه، ودفنوه فأنكروه.

أطالب بوطن لا يُعادي أبناءه إذا اختاروا طريقًا غير طريق السلطان.

❁ أطالب بعودة مغتربٍ عزيز...

فالأرض ـ كل الأرض ـ بطنها سواء؛ هنا أو هناك. ما الفرق؟ التراب هو هو، طاهرٌ حيث كان، ورعية محمد أمة واحدة، والإسلام يكره قلقلة الميت عن حدّه.

ومع ذلك، لا أخشى أن يكون مطلبي بدعة معانقة للضلالة. ماذا أفعل وأنا وريث حضارةٍ تبدأ بالقبور قبل البيوت؟

القبر أكثر دوامًا، وأغنى أثاثًا، وأعلى مقامًا من البيت. أشقّ الغربة... غربة الرفات لا الأحياء.

أذكر فلاحةً كانت تأتي كل عيد من البساتين على ظهر حمارها، إلى القرافة، تعصب عينيها وتمشي بلا دليل... لكنها كانت تهتدي بأنفها لا بعينها إلى قبر عزيزها، وسط المقابر التي طمرته دون علامة، كأن الرائحة دليل، وكأن الحب هو البوصلة.

❁ وإن كُتب لي أن أُدفن خارج حدود مصر، فليكن هذا الوطن أوفى لمن سبقني...

فلعلّه يتعلّم أن الاختلاف ليس خيانة، وأن الغربة ليست عارًا، بل بعض الكرامة.

۞ قد نموت في منفانا، لكننا نحيا في ذاكرة الأوطان... ما دمنا قد عشنا بكرامة.



أوراق من مذكراتي (٤٠)

١٩ إبريل..
عندما كتب الشعب دستوره

في التاسع عشر من أبريل عام ١٩٢٣، لم تكن القاهرة مجرد مدينة تُقرع فيها الطبول، بل كانت وطنًا يحتفي بنفسه، يحتفل بولادة دستور خرج من رحم الثورة، لا من قصور السلاطين. كانت مصر كلها تقرأ سطورًا كُتبت بمداد الحلم الوطني.

من دواعي الفخر أن شعبنا، منذ ١٠٦ أعوام، رفع شعار "الاستقلال والدستور" في ثورة ١٩١٩. كان يعلم أن التحرر من الاحتلال لا يكتمل دون التحرر من الاستبداد.

بعد ثورة يناير، فوجئتُ في ميدان التحرير بحديث حول العودة إلى دستور ١٩٢٣. كان ذلك الدستور القديم حديثًا حيًا في حلقات الثورة، وكأن التاريخ لم يَمُت، بل يُنادي فينا أن نُكمل رسالته.

لم يكن ذلك اليوم في أبريل البعيد، مجرد إعلانٍ عن وثيقة، بل كان إعلانًا عن يقظة شعب، أراد أن يُلزم من يحكمه، لا أن يُبايع. أراد أن يؤسس دولة لا تدين للحاكم، بل تحتكم للدستور.

جاء دستور ١٩٢٣ في زمنٍ كانت فيه أوروبا تنفض غبار الحرب

العالمية، وتعيد ترتيب خرائطها بالبندقية، لا بالحبر. لكن مصر، بثورتها ووعيها، اختارت أن تبني دولتها بالمادة الدستورية، لا بالمدرعة العسكرية.

❁ أراد هذا الدستور أن يعيد ترتيب موازين السلطة: ملكٌ بلا قداسة، يملك ولا يحكم حكومةٌ تحت الرقابة، برلمانٌ صاحب سيادة، شعب يختار من يمثله ومن يحكمه

❁ ١٩ أبريل ١٩٢٣ يومًا يُشبه الأساطير، لكنه خرج من رحم ثورة ١٩١٩ تحمل جراحها، وأحلامها، وأملها في دولة دستورية تُولد من الناس ولأجلهم. لم يكن ذلك اليوم مجرد مناسبة لإعلان وثيقة، بل لحظة فريدة صنع فيها الشعب أول دستور حديث في تاريخه، دستور لم يُكتب بإملاء القصر أو وصاية الاحتلال، بل بإرادة شعبية نضجت بطعم ودم الثورة.

❁ كتبنا دستورنا بأيدينا، في زمن كانت فيه شعوب كثيرة لا تزال تُحكم بالمراسيم، وتُقاد بالعصا.

❁ سبقت مصر بهذا الدستور عشرات الدول التي كانت تتلمس طريقها نحو دولة القانون والمؤسسات.

سبقنا إسبانيا التي لم تعرف النظام الجمهوري المستقر إلا بعد الحرب الأهلية، وسبقنا ألمانيا النازية، وإيطاليا الفاشية،

بل سبقنا حتى بعض ولايات أمريكا التي لم تكن قد أرست بوضوح الفصل بين السلطات حين كنا نحن نكتب ـ وبالعربية ـ دستورًا يربط السلطة بالرقابة، والحكم بالمحاسبة.

❁ دستور ١٩٢٣ جاء ليرسي معالم دولة مدنية برلمانية حديثة، قوامها الفصل بين السلطات، واستقلال القضاء، وحرية التعبير والصحافة، والمساواة بين المواطنين، والانتخاب الحر، والتمثيل النيابي الحقيقي.

❁ اختار دستور ٢٣ ـ عن وعي سياسي نادر ـ النظام ـ البرلماني لا الرئاسي، ليقيد السلطة التنفيذية بإرادة الأمة، عبر ممثليها في البرلمان،

الذين لا يملكون فقط التشريع، بل مراقبة الحكومة، بل وسحب الثقة منها.

❁ بهذه الروح، نص الدستور في مادته (١٠٩) على أن «الملك يُباشر سلطاته بواسطة وزرائه»، مما كان إعلانًا صريحًا بنهاية الحكم الفردي، حتى وإن أبقى على صورة الملكية الدستورية.

❁ كما نص في المادة (١٠٥) على أن «كل وزير مسؤول عن أعمال وزارته»، وفتح باب المساءلة البرلمانية والرقابة الشعبية، في وقت كانت فيه بريطانيا ذاتها لا تمنح هذا الحق لمستعمراتها .❁ وصفه المفكر القانوني الفرنسي إدمون بونيه بأنه «أكثر الدساتير العربية نضجًا وتقدمًا»، بينما كتب طه حسين يقول: «كان هذا الدستور بداية إدراك المواطن المصري أنه مواطن، له رأي، وله صوت، وله دولة تُحاسب، لا تُعبد».

❁ أما عبدالرازق السنهوري، فقد اعتبره «الدستور الذي وُلد من ضمير الأمة لا من فتاوى الحاكم»، وقال في واحدة من مقالاته الشهيرة عام ١٩٣٦: «هو أول محاولة لتوطين فكرة السيادة الشعبية في وادي النيل، لا بوصفها حيلة قانونية، بل كفلسفة حكم».

❁ أما زعيمنا سعد زغلول، الذي حملت الثورة اسمه، فقد قال كلمته الخالدة بعد صدور الدستور: «لقد كتبنا هذا الدستور في الشوارع قبل أن نكتبه في السطور، ومن لا يرى الشعب سيدًا، فلا يستحق أن يحكمه».

❁ لا يمكن فهم قيمة دستور ١٩٢٣ إلا بمقارنته بالدساتير المصرية الأخرى. فـ دستور ١٩٥٦ كان دستور الانقلاب، ودستور ١٩٧١ جاء في ظل القمع والانفراد، وتم تعديله مرات عديدة لخدمة شخص واحد. أما دستور ٢٠١٤، فقد كُتب في زمن الخوف، وأُقر تحت التهديد، وعُدّل لاحقًا ليُمدد للسلطة ويقيد الحقوق.

❁ وعلى النقيض، كان دستور ٢٣، دستورًا حقيقيًا، لا يُكتب تحت حراب العسكر، ولا يُستولد من رحم الطوارئ. لم يُلغِه إلا الذين خافوا

من نوره، فعُلّق في الثلاثينيات، وأُعيد لاحقًا بفعل ضغط شعبي، ثم طُمست ذكراه بعد انقلاب ١٩٥٢، كما تُطمر الشواهد الحقيقية كي لا تفضح الزيف.

❁ اليوم، وبعد ١٠٢ عامًا من صدوره، لم تعد الفكرة أن نترحّم على الماضي، بل أن نستعيد معناه. لقد كتبنا في ١٩٢٣ دستورًا كان يمكن أن يكون نقطة انطلاق نحو دولة مدنية حديثة، لكننا لم نحسن حمايته، وتركنا المِلْك يعلو فوق الدستور، ثم تركنا العسكر يدفنونه ليصعدوا فوق رماده إلى سلطة لا تُقيدها قوانين.

❁ الوضع الدستوري الراهن في مصر لا يُقارن بأي حقبة سابقة في الرداءة والتفريغ. فالدستور الحالي يُشرّع تغوّل السلطة التنفيذية على التشريعية والقضائية، ويُمكّن رئيس الجمهورية من تعيين رؤساء الهيئات الرقابية، بل ويُفرغ مبدأ الفصل بين السلطات من مضمونه. كل ذلك تم تحت عنوان «الاستقرار»، بينما الحقيقة هي أن السلطة المطلقة لا تجلب إلا الفساد المطلق.

❁ هل آن أوان العودة إلى الدستور لا إلى الدولة الأمنية؟ هل يمكن أن نستعيد روح ١٩٢٣ بدل أن نُعيد إنتاج كابوس ٥٢؟

❁ إن دستور ١٩٢٣ لم يكن مثاليًا، لكنه كان الأكثر اتزانًا وعدالة، لأنه لم يُصَغ في دهاليز الأجهزة، بل خرج من حناجر الناس. وهو لا يزال، حتى اللحظة، الدليل الوحيد على أن المصريين إذا أُتيح لهم أن يكتبوا مصيرهم، فلن يكتبوا الاستبداد أبدًا.

❁ يا سادة.. لا مستقبل بلا مرآة، ولا نهضة بلا دستور عادل. والعدل لا يأتي من النصوص، بل من الإرادة. فكما كتبنا ذات يوم دستورًا بأصابع الحرية، يمكننا اليوم ـ إن شئنا ـ أن نعيد لمصر بوصلة الحق، ونُسكت خُطباء الطغيان، ونُحيي صدى صوت كان يهتف يومًا:

«الشعب هو السيد، والدستور هو الضامن، والوطن هو المآل».

أوراق من مذكراتي (٤١)

يوسف شاهين..
بادلني مصروفي... بحزب

❁ حين طرقتُ باب مكتبه بشارع شامبليون، في مطلع الثمانينات ،

لم أكن أمتلك أكثر من حلم صغير ومصروف طالب في السادسة عشرة .❁ لم يكن يوسف شاهين فقط مخرجًا، بل أسطورةً يصعب الاقتراب منها.

أتيتُه وكنت رئيسًا لاتحاد طلاب جامعة المنصورة، لأطلب أفلامه لإقامة اسبوع لها في جامعة المنصورة.

الدكتور كمال أحمد رئيس الجامعة، وقتها رفض، أن تتحمل ميزانية الاتحاد التكاليف، فقررت أن أموّل المشروع من جيبي.او بالأصح مصروفي.

❁ عندما التقيت "جو" في مكتبه باغتني بالسؤال من سيدفع للشركة قيمه ايجار الافلام، وأجهزة العرض؟

قلت: ـ من مصروفي!

❁ انفجر ضاحكًا ثم صرخ: «مصروفك لربع قرن لن يعوّض ثمن ماكينة عرض لو تحطمت!»

❁ تأهبتُ للانسحاب، فأوقفني بسؤال ساخر: «كم واحد منكم هييجي يشوف أفلامي؟»

أجبته: «آلاف».

ردّ بسخريته المعهودة: «إنت فاكرني كروديا؟!»

قلت له: «لا..فاكرك فنان...

ونحن في أمسّ الحاجة إلى أفلامك، لأنها تحرض على التفكير».

❁ فجأة، صرخ: «يا جابي! يا سيف!» ودخلا فورًا جابي خوري وسيف عبدالرحمٰن، فأمرهما "خدوه من هنا ولا يخرج من المكتب قبل أن تزودوه بكل ما يحتاج ويطلب: أفلام، ماكينات عرض، أفيشات قديمة، وكل شيء.. وبلا مقابل"!.

❁ يوم الافتتاح، وجدت شاهين نفسه يحضر بنفسه وبصحبة رجاء حسين، وسيف عبدالرحمٰن، ومحمد منير، وآخرين من نجوم الافلام التي ستعرض علي مدار الأسبوع.

❁ في يوم الافتتاح، وقف مذهولًا أمام مدرج الدكتور بدراوي الذي غصّ بآلاف الطلبة.

قال لي: «ده جمهور ما شُفتوش في حياتي!» ثم دخل المنصة بعد تردد وسألهم: «أنتم بجد جايين علشان أفلامي؟»

❁ رد التصفيق بعاصفةٍ من التأكيد. قال عندها: «يبقى لازم أسيب السينما وأؤسس بيكم حزب سياسي للشباب!»

❁ بعد العرض، جلسنا على عشاء. وضحك وقال لي: «كنت حاخسر كتير لو خدت مصروفك لربع قرن! الحزب اللي شفته النهارده أغلى كتير».

❁ بعد أربعة وأربعين عامًا، لا يزال دين يوسف شاهين في عنقي.

لم يأخذ مصروفي، لكنه منحني مفاتيح لوعي مختلف، وفهم أعمق لمعنى الفن، وأهمية أن يُفكّك الإنسان قيوده الذاتية. وينقل بعضا من حياته للناس بحلوها ومرها وكما قال لي شاهين يومًا لا احد سيتحدث عني اصدق من لساني.

ولربما تكون هذه الجملة، كانت أحد دوافعي، لكتابة أوراق من مذكراتي وان انشرها يومًا بيوم في حياتي.

❁ علّمني شاهين أن أكبر رأس مال للفنان أو السياسي هو الناس.

علمني معني أن تمتلئ القاعات حبًا لك يعني أنك مدين، بفكرة، بثمن تدفعه. وأنا دفعته، راضيا، سجنًا واعتقالًا، ونفيًا، لمرات في حياتي.

❁ كانت علاقتي به ممتدة. انقطعت فقط عندما اعتقلت عقب انتخابات٢٠٠٥.

مات يوسف شاهين، وأنا خلف القضبان، لم أودّعه، لكني أكتب له الآن رسالة متأخرة.

❁ شاهين لم يكن فقط مخرجًا. كان ثائرًا، وكان مدرسة تمرد لا تخجل من الصدام، ولا تهرب من المواجهة. كان يدرك ان للسينما رسالة، وللحلم ثمن.

❁ لا أظن أن خياله السينمائي، مهما حلق، كان سيتنبأ بأن ثمن ذلك الحزب الذي حرضني عليه، سيكون سنوات من السجن. لكنه علمنا بفنه أن نؤمن بما نفعل، حتى وإن دفعنا العمر كاملًا ثمنًا لفكرة.

أوراق من مذكراتي (٤٢)

آية كريمة جعلتني ليبراليًا يؤمن بحق الاختلاف وقبول الآخر

❁ ثمة لحظات صغيرة، لكنها تغير مجرى العمر كله.

في طفولتي الباكرة، لم تكن الحرية حلمًا بعيدًا، بل كانت تنسج خيوطها الدقيقة بين آيات القرآن التي أحفظها، وبين قصائد الحرية التي كانت أمي تزرعها في روحي كزهور برية.

❁ نشأت في بيت تتلاقى فيه الكلمة مع الإيمان، والحرية مع النص، والعقل مع المحبة.

كانت أمي، أستاذة الأدب الفرنسي، مرآتي الأولى إلى عالم الفكر.

استقيت منها منذ نعومة أظافري حب أمهات الكتب التي تكرس قيم الحرية، تمامًا كما كانت تحرص، بنفس المثابرة، على تحفيزي لحفظ أجزاء من القرآن الكريم، مثل جزء عم، قد سمع، تبارك، الحديد،

وصور متفرقة مثل يس، الرحمٰن، يوسف، الكهف، وأجزاء من البقرة.

لم تكن ترى بين العلم والدين خصومة، بل كانت تدرك أن الحرية الحقة لا تنبت إلا في أرض الإيمان العميق.

❁ ومدينٌ أنا ـ بعد فضل الله تعالى ودور أمي ـ بذلك الفضل أيضًا لرجلٍ فذٍّ، لا تزال صورته تعيش في ذاكرتي كما لو كانت مشهدًا من زمنٍ بعيد.

إنه أستاذي الجليل في المرحلة الابتدائية والإعدادية: الأستاذ محمد عبده،

الذي كان يتردد يوميًا على منزلي، بهمة الأبوة والصبر، ليعينني على حفظ القرآن الكريم، ويعلمني آداب اللغة العربية، وأسرارها، وفنونها.

كان يرتدي الطربوش الأحمر التركي، وربما كان آخر من ظل يرتديه في مصر، يحمله بوقار كما يحمل العالِم مصباح الحكمة.

كان هذا الرجل بالغ الرقة والعذوبة، وكان له من اسمه نصيبٌ عظيم، فلم يشبه الإمام محمد عبده في اسمه فقط، بل في روحه ومنهجه، وفهمه المستنير للدين.

وقد كان لهذه المصادفة، التي جمعت بين الاسم والمعنى، أثر عميق في نفسي، فكان دافعي الأول للاهتمام بفكر الإمام محمد عبده، وكتبه، وأفكاره التي رأيت في أستاذي انعكاسًا حيًّا لها.

وما لا يمكن أن يغيب عن الذاكرة أن أستاذنا محمد عبده، كان يؤدي الدور نفسه مع زميلٍ لي في ذات المدرسة، الإعلامي الشهير توفيق عكاشة،

الذي كان يتلقى مثلي دروس القرآن واللغة العربية على يد هذا الأستاذ النبيل.

رحم الله أستاذنا محمد عبده، وسأظل ما حييت مدينًا له، ممتنًا لجميله، رافعًا له أكف الدعاء بظهر الغيب.

❁ كانت تلك الآيات الكريمة التي تلوتها صغيرًا، وأنا أستمع

لهمس أمي وأستاذي في الأفق، تصنع داخلي يقينًا مبكرًا أن الإسلام، في جوهره، لا يُلغي العقل ولا يُصادر الرأي، بل يحتفي بالاختلاف بوصفه صورة أخرى من صور رحمة الخالق.

❁ ومن بين تلك الآيات، استقرت في قلبي هذه الآية، كأنها صدى خفي لنداء الحرية الإلهي:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزُّمَر: ٤٦].

❁ علمتني هذه الآية أن الله وحده هو من يحكم بين المختلفين، لا سلطان لبشر على ضمير بشر، ولا وصاية لفقيه أو حاكم على عقل إنسان.

❁ أضاءت كلمات سيدنا علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، هذا المعنى حين قال:

«الناس صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق».

وأضاءه قول رسول الله ﷺ:

«**اختلاف أمتي رحمة**».

❁ كنت أسمع هذه الكلمات كأنها دعوة سماوية لرفض الغلو، والجمود، والاستعلاء باسم الدين أو الحقيقة، والتمسك بلين المحبة، وسعة العقل.

❁ وجدت صدى تلك القيم لاحقًا عند عبدالرحمٰن الكواكبي، الذي قال في كتابه العظيم «طبائع الاستبداد»:

«الحرية هي روح الدين، وإن أعظم النكبات أن يتحول الدين إلى أداة للاستبداد».

❁ وسمعت أصداءها عند رفاعة رافع الطهطاوي، الذي كتب في رحلته الشهيرة:

«ما من دين سماوي إلا ويدعو إلى حرية الفكر، ولا حرية للإنسان إلا إذا أطلق له عنان العقل».

❁ وعلى أبواب الأزهر، قرأت لاحقًا كلمات الشيخ حسن العطار، الذي قال:

«العلم في هذا الزمان أوسع منه في سالف الأزمان، فلا يجوز للمسلمين الجمود على كتب الأقدمين».

❁ كما أيقظني فكر الشيخ عبدالحليم محمود حين قال:

«لا جمود في الإسلام، ولا قطيعة بين العقل والدين، بل هما توأمان يولدان معًا ويكبران معًا».

❁ من كل هذا النور، عرفت أن الليبرالية ليست قطيعة مع الدين، بل هي امتداد روحي له، حين يُفهم بمعناه الصحيح: حرية العقل، رحابة الضمير، قبول الاختلاف، وتواضع الاجتهاد أمام علم الله الذي لا تحده حدود.

❁ كان حفظي للقرآن بإلحاح أمي، ومثابرة أستاذي محمد عبده، هو البداية الحقيقية لطريق الحرية.

وكان وعيي بأن الله، لا أحد سواه، هو الحكم بين عباده، هو البداية الحقيقية لطريق القبول بالآخر.

❁ لهذا، لم يكن انحيازي لقيم الحرية خيانة لديني، بل وفاء لجوهره الأول الذي قال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦].

ولا كان إيماني بالحق في الاختلاف، خيانة للوحدة، بل تأكيدًا أن الوحدة لا تقوم على القهر، بل على المحبة والعدل والتنوع.

❁ علمتني تلك الآية الكريمة أن اختلافنا لا ينقض إنسانيتنا،

وخلافنا لا يفسد محبتنا، وأن الخلاف في الرأي فطرة لا بدعة، ونبراس لا وصمة.

❁ لهذا، كلما ادلهمّ ظلام القهر والاستبداد، عدت إلى نور تلك الآية، أرتلها في قلبي، وأجدها أصدق مرآة لعقيدتي، وحريتي، وإنسانيتي.



أوراق من مذكراتي (٤٣)

يوم استقالتي
من رئاسة إتحاد القوى الوطنية
ليلة ٢٢ يناير ٢٠٢٤م

كانت ليلة شتوية مطرزة بالصمت والبرد، أطللتُ من شرفه منزلي في إسطنبول.

فوجدت قنافذ صغيرة تتقافز بين أعشاب الحديقة، تتجمع لا لتتشاجر، ولا لتفرّ، بل لتحتمي من زمهرير البرد، دون أن تُزهق أرواح بعضها البعض بأشواكها .۞ اقترب بعضها من بعض، ثم تراجع قليلًا، ثم وقف في تلك «النقطة الذهبية» التي لا تقتل، ولا تزيد الإحساس بالبرد. ومن هذا المشهد تنبهت.فنصف المسافة. . . هي المسافة المثلى.

۞ القنفذ، ذاك الكائن الذي لم أعرفه من قبل إلا في كتب الأطفال. حتى اني كنت أظنه حيوانًا خرافيًا، مثل طائر العنقاء، أو أسطورةً من أساطير بلاد لم نزرها.

فلم أره يومًا في مصر، لا في حيّ باب الشعرية، ولا في الزمالك ولا في حدائق البرلمان، ولا حتى في ظلال

حديقة حزب الوفد القديم.

❁ التقيته صدفةً، هنا في تركيا، كأنما شاءت الأقدار أن اري وأتعلم في منفاي ما لم اراه وأتعلمه في وطني: ❁ السياسة، كشتاء القنافذ، تحتاج إلى الدفء... دون أن تنسى خطورة الأشواك.

❁ نظرية القنفذ، كما سماها علماء النفس، ترسم مشهدًا أكثر عمقا وواقعية من أي خطاب سياسي: ففي أقسى ليالي الشتاء، يقترب القنفذ من قرينه

، كي يتدفأ،

ثم يتراجع سنتيمترات معدودة،

لأن أشواكه تجرح. وهكذا، يتعلم الجميع كيف يعيشون معًا، دون أن يؤذي بعضهم بالبعض...

❁ نعم اعرف

ليس كل البشر بلا أشواك،

وليست كل الأشواك بلا دفء.

❁ السياسيون في الغربة كثيرًا ما ظنّوا أن الوحدة تعني الذوبان، وأن الشراكة تقتضي التلاصق والتشابه في كل شيء. إيجابي وسلبي

لكن الحقيقة المؤلمة أن كثيرًا من التحالفات انهارت، لا لأن العدو أقوى، بل لأن الأصدقاء اقتربوا أكثر مما ينبغي، فانغرست أشواك بعضهم في خاصرة الفكرة، بفعل قلة الخبرة في السياسة أو ضعف القدرة على تقدير المسافة.

❁ تأمل القنفذ يكشف أن السلوك الغريزي قد يهزم أعقد النظريات السياسية... الفرد لا يملك أن يعيش وحده،

لكنه لا يحتمل أن يعيش ملتصقًا بآخرين لا يحسنون إلا إلا لغة الشك والطعن وهم يدّعون الحضن.

❁ الحبّ، كالسياسة، لا يكتمل إلا إذا احترم مساحتك. وعرف قدرك وقدرتك

❁ الحقيقة الثانية التي حملتني على قرار الاستقالة في هذا اليوم ٢٢ يناير ٢٠٢٤

كانت مستمدة من «نظرية القنفذ والثعلب»، فذاك فصل آخر من فصول الحكاية...

❁ فالثعلب يعرف الكثير من الطرق، أما القنفذ فلا يعرف إلا طريقًا واحدًا، طريق وجودي، لا يملك مهارة التراجع عنه.

يقفز دائما باتجاه الامام

عندما يشعر بالخطر وربما يكون كل الخطر هو أمامه

❁ في شبابي، كنتُ معجبًا ببراعة ثعالب السياسة، وتتلمذت في مدارسهم، وعلى رأسهم أستاذي فؤاد باشا سراج الدين وأستاذي النقيب أحمد الخواجة. وبعد كل ما خضتُه من معارك ومعتقلات ومنافي، بت أُحبّ ذكاء الثعالب وعناد القنفذ...

❁ الوطن، فكرة واحدة لا نناور بها، ولا نبيعها على مفارق الطرق.

❁ الحياة السياسية تحتاج إلى احترام القواعد الجبهوية. فالشراكة الوطنية لا تعني التطابق في كل شيء أو التلاصق المؤذي، ولا تعني أيضًا التنافر المدمر، بل تعني أن نكون قريبين بالقدر الذي يمنحنا الدفء، وبعيدين بالقدر الذي يحمينا من الأشواك. كما قال الإمام علي بن أبي طالب: «لا تكنْ يابسًا فتُكسر، ولا لينًا فتُعصر». هي حكمة القنفذ تتجلى في السياسة كما تتجلى في الحبّ، وفي الوطن كما في الحلم، وفي الحذر كما في الحميمية...

- فنصف المسافة بيننا، قد تكون هي المسافة الوحيدة التي تبقينا معًا دون أن نهلك بعضنا البعض.

- غادرت الشرفة متخذًا بكل الحب قرار الاستقالة من رئاسة الاتحاد، أملًا أن يدرك الشركاء مزيدًا من ذكاء الثعالب وخبرة وفطرة القنافذ.



أوراق من مذكراتي (٤٤)

حكاية رحلتي إلى غزة
ورسالتي للمرشح أوباما

❋ لم تكن مجرد رحلة، بل كانت روايةً مكثّفةً من ثلاث فصول... ضحك، فخر، وهمّ!

هذا ما اختصر يومًا واحدًا قضيته في غزة، ضمن وفد مصري رسمي.

❋ شاركتُ في منتصف تسعينيات القرن الماضي ضمن وفد رباعي، ترأسه عمرو موسى وزير الخارجية آنذاك، وضمّ السفير رئيس إدارة فلسطين بالخارجية، والنائب البدري فرغلي، وكنت أنا رابعهم. أقلّتنا طائرة صغيرة تكاد لا تكفي لسبعة ركاب، من مطار القاهرة إلى مطار العريش، ومن هناك توجهنا بسيارتين إلى معبر رفح، ثم إلى غزة...

❋ الضحك كان أول المراحل. الضحك الذي أشعله البدري فرغلي بتعليقاته المدوية على حجم الطائرة التي وصفها بـ«اللعبة»، وبسخريته من حجمها، واقتراحه أن يسبقنا إلى غزة على "عجلة" زميلنا النائب البورسعيدي الرفاعي حمادة! ثم، اقترح ـ بمكر بورسعيدي لا يخفى ـ أن يعتذر عن الرحلة ليحلّ محله النائب الشهير محمود صبح، والمعروف بضخامة وزنه، وكأن في الأمر تهديدا من البدري، بإسقاط الطائرة، إن اقلت محمود صبح بداخلها فتهوي بنا جميعًا!

❋ أما الجزء الثاني من موجة الضحك، فكان ضحكًا من واقعه قديمة. . . حين استعدت همسا في اذن عمرو موسى والبدري كانت حكاية مريرة تتصل بشخص السفير الذي كان معنا علي ذات الطائرة وتعود إلى عام ١٩٨٦، حين زرتُ صنعاء لحضور العيد الفضي للثورة اليمنية. وكان هذا السفير الذي يرافقنا الرحلة هو سفير مصر في اليمن

آنذاك، اشتكت لنا مجموعة من المدرّسات المصريات مما تعرضن له من السفير المصري ـ الذي كان يرافقنا لغزة. وكان معنا في اليمن الصحفي خفيف الظل الاستاذ يوسف الشريف، واتفقنا أن يلاعب يوسف السفير نفسيًا، متقمصًا شخصية "مسؤول كبير" جاء متخفيًا للتحقيق في تلك الشكاوى.

❋ وخلال مأدبة أقامها السفير للصحفيين الخمسة القادمين من القاهرة، في منزله بصنعاء، بالغ المرحوم، يوسف الشريف في أداء الدور. فتعمد التجهّم، والتلميح، دون تصريح. بوجود شكايات مخجله ضد السفير، فدار السفير على كل واحد منا يسأل: من هو؟ من أرسله؟ ولماذا يهددني؟ فيما كان الجميع يتظاهر بعدم الفهم!

❋ حين رويت هذه الحكاية همسا داخل الطائرة، انفجرت الطائرة الصغيرة ضحكًا، وارتجت كما لو كانت ستسقط. . . بينما كان السفير يُحدّق فينا حائرًا لا يدري سبب الضحك

المتبادل بيني وبين الوزير عمرو موسي والنائب البدري!

❋ أما لحظة الفخر، فجاءت على بوابة رفح. حيث عطلت السلطات الإسرائيلية دخولنا من المعبر لعشرين دقيقة. فغضب عمرو موسى، ورفع صوته، وهدّد بالعودة إلى القاهرة، معلنًا: «أي مسؤول إسرائيلي سيدخل مصر، لن يُغادر منفذ الوصول، إلا بعد عشرين دقيقة من الانتظار."!

ولم يكن هذا مجرد انفعال او تهديد من عمرو موسي، بل قرار نُفّذ،

وطبق علي بنيامين نتنياهو في أول زياره له للقاهرة.

❋ أما الهمّ، فكان عنوان المرحلة الثالثة من الرحلة. رأينا ـ بأعيننا ـ كيف تآكل الحلم الفلسطيني من الداخل. فخلال أولى جلسات البرلمان الفلسطيني، كنا شهودًا على ما يشبه المسرحية الحزينة: صراع داخلي، فساد معلن، وانتصار لأهل الثقة على حساب أهل الخبرة.

❋ كان المرحوم ياسر عرفات قد رشّح أبو علاء (أحمد قريع) لرئاسة المجلس التشريعي، رغم أن قامات كبيرة مثل حيدر عبدالشافي وحنان عشراوي وفيصل الحسيني كانوا الأجدر، والأصدق تعبيرًا عن الضمير الوطني. لكنه ـ كعادته ـ فضّل أن ينتصر لقاعده، الولاء لا الكفاءة.

❋ في غمرة هذا المشهد الرمادي، غادرتُ خلسة من بيت عرفات لحضور لقاء خاص، بدعوة من النائب الفلسطيني حمادة الفراعنة، في النادي الاجتماعي بغزة. وهناك، رأيت فلسطين أخرى. . . فلسطين الغد.

❋ التقيت هناك بقيادات شابة من جيل الانتفاضة، من فتح مثل مروان البرغوثي، ومن حماس مثل عبدالخالق النتشة، ومن غيرهم من المستقلين. ودار بيننا انتقاد لاتفاق أوسلو، واتفاقات تبرّم في غياب الشفافية، ومخاوف من استيراد أسوأ ما في الأنظمة العربية لصياغة السلطة الوليدة.

❋ في هذا اللقاء، سُمّيت الأشياء بأسمائها. إحدى العبارات التي لفتتني كانت من أحد ممثلي حماس الذي وصف أوسلو بـ«سلام الهيمنة»

و بقي هذا التعبير عالقًا في ذهني حتى وجدته لاحقًا في كتاب الفرنسي ريمون أروان "Paix et guerre entre les nations"، والذي قرأته في ٢٠٠٤. أي بعد قرابة عقد من زيارتي لغزة.

❋ أدركت في تلك اللحظة أن الانقسام لم يكن وشيكًا. . . بل كان قائمًا، مترسخًا، يتغذى على اليأس والتعب. إسرائيل كانت تصنع هذا

الانقسام بدقة السجّان، فتمنح بلاطة إضافية لمن يخضع، وتحرمها عن كل من يقاوم.

* تذكرت، وأنا في هذا اللقاء، ما قاله لي مرة رئيس مباحث سجن مصري، إن «أكبر أسباب العنف في الزنازين هو الصراع على موضع القدم! على شبر إضافي... وقبضة من الأرض!»، وأنه كإدارة، لا يتدخل، بل يُترك مثل هذا الصراع دائرا داخل الزنزانة، ليمنع تفجّره خارج الزنزانة.

* أحسب أنه في فلسطين، حدث الشيء ذاته. إسرائيل، السجان، تركت سجناءها من فتح وحماس يتصارعون على الزنزانة، على «الشرعية»، على «التمثيل»، على وهم "السيادة"... فكانت النتيجة: سجنان داخل سجن.

* اذكر اني في عام ٢٠٠٩، كنت في المعتقل، أعيش العزلة الجسدية، لكنني أملك قلمًا وروحًا لا تُعتقل. فكتبت خطابًا مفتوحًا إلى باراك أوباما، الشاب الذي زارني قبلها في بيتي بالقاهرة عام٢٠٠٤، حين كان عضوًا في مجلس الشيوخ، بصحبة رئيس لجنة الموازنة بالكونجرس الأمريكي. وكانوا في توقف لساعات بالقاهرة في طريق عودتهما من زياره للأردن.

* في هذه الرسالة وجهت إلي اوباما النداء بالإفراج عن مروان البرغوثي، لا كمجرد سجين، بل كرمز، كأمل، كجسر بين ما ضاع وما يمكن استرداده. وتولى الراحل جمال خاشقجي ترجمة الخطاب، ونشره المرشح وقتها للرئاسة أوباما على صدر صفحته، بالفيسبوك، فتلقفته صحف أمريكا، عديده.

* قلت في خطابي لأوباما: «إن مروان هو الوريث الافضل لسلطه عرفات... هو تعبير عن جيل لم يُولد ليخضع أو يساوم... جيل يريد سلاما حقيقيا، يحرر، لا يُدجّن الساعين اليه».

* وأنا اكتب خطابي لأوباما، عُدت إلى تلك اللحظة التي التقيت فيها بمروان وعبدالخالق داخل غزة. وأيقنت أن الأمل الوحيد قد يأتي من داخل السجون الإسرائيلية نفسها، من توافقات وطنية، فوق الزنازين، فوق الخلافات.

* في بعض الأوطان... لا يُولد النور إلا من الظلام، ولا تُصاغ الدولة الا

من رحم الأزمة، ولا تتوحّد الأيادي، الا حين يُسقط جدار آخر حيلة للتفرقة.



أوراق من مذكراتي (٤٥)

يوم أن دخل مبارك زنزانتي
الحكم والسجن.. فصولٌ تتكرّر

لا أفرح بسجين، ولو كان هو مَن سَجَنني.

ولا أشمت بضعفٍ، ولو كان صاحبُهُ قد مارس عليَّ جبروت القوّة.

فليس في انتقام الأيام، ما يُشبع القلب النبيل، ولا في سقوط الجبابرة، ما يُغري الأرواح الكبيرة بالشماتة.

ثلاثون عامًا على عرش مصر، لم يكن فيها الرجل شيطانًا محضًا، ولا ملاكًا منزّهًا. أحسنَ في قليل، وأسرف في كثير، ثم أُجبر على الرحيل، ليهبط إلى نفس الموضع الذي كان لي فيه قرارًا، وسجنًا، وأسرًا.

ذات الزنزانة... ذات الجدران الرمادية الكئيبة... ذات السرير الحديدي الذي رقدتُ عليه خمس سنواتٍ تذوب فيها الأيام، ولا تُفرّق الليالي بين حرٍّ خانق، وبردٍ لاذع، ووجعٍ لا يأتيه شفاء، وانتظارٍ بلا أمل.

يوم أن بلغني خبر إيداع مبارك في سجن مزرعة طرة، في الزنزانة المسماة مجازًا «المستشفى»، لم أشعر بشيء...

لم تكن دهشة، ولا سعادة، ولا حتى استغرابًا.

كان ذلك المشهد مألوفًا في رأسي، محفورًا في ذاكرة حلمٍ سكنني، ورويته قبل أن يُصبح واقعًا بشهور.

حلمت أن مبارك ينام على فراشي، مرتديًا ثوبًا رثًا، بلونٍ باهتٍ منسيّ.

وجهه شاحب، ساكن، ثقيل الحضور... حوله أطباءٌ حائرون يُحاولون إنعاش رجلٍ لم يعد فيه شيءٌ للحياة.

وعند باب الزنزانة... كان جمال مبارك وأحمد عز واقفين، بثيابٍ بيضاء، وصمتٍ يتجمّد في الهواء...

كأنهما تمثالان من رخام الندم، أو بقايا حيرةٍ تتجسّد على هيئة بشر.

كنت يومها سجينًا بالفعل، لكن الحلم بدا أكثر واقعية من يقظة سجّاني.

رويت الحلم في حينه لمن حولي، ولرئيس مباحث سجن المزرعة، العقيد المحترم أشرف فرج.

وكتبت عنه مقالًا نشره إبراهيمعيسى في جريدة الدستور.

لم أكن نبيًا، ولا الحلم وحيًا...

لكن الزنازين ـ أحيانًا ـ تعرف ما لا تعرفه الأبراج... وتقول ما لا تقوله المحاكم.

بعد عامين من الحلم، زرت السجن في لجنةٍ حقوقية... اقتربت من المستشفى.

وبينما أخطو نحوه، لمحتهما: جمال، وعز، واقفين حيث رأيتهما في الحلم، بثيابهما البيضاء، في نفس النقطة.

كأن الزمن لم يتحرك، وكأن الرؤيا تحوّلت إلى مشهد ثابت في فيلم متكرّر.

طلبت أن أعود لغرفة المأمور.

لم أشأ أن يراني أحدهما، أو يُفسّر الزيارة بما ليس فيها.

والله يعلم... قلبي لا يسكنه انتقام، وعقلي لا يعرف لذة الشماتة.

لستُ قاضيًا... بل شاهدُ عصرٍ تُوجعني كل الأحكام الجاهزة.

حين كتبت عن هذا الحلم لأول مرة، كنت لا أملك سوى قلمٍ وحلمٍ ويقين.

يقيني أن كل بناءٍ على الظلم، هو بناءٌ على الرمل...

وأن دواليب التاريخ لا تعرف التوقف، حتى وإن تعطّلت عدالة القضاء.

في سجون هذا الوطن، رأيت ما يكفي لأعرف:

الظلم قد يحكم، لكنه لا يحكم التاريخ.

رغم أني محامٍ ـ ابن محامٍ ـ لكنني تيقّنت أن المحاكم، حين تُدار بأوامر، لا قوانين، تتحوّل من معابد للحق، إلى مذابح للعدالة.

كل طاغية يمرّ، يترك وراءه قاعة محكمة، تحكم لا باسم الشعب، بل باسم الخوف.

قال أحد زعماء نهضة الهند:

«المحكمة قد تصنع العدل أو الظلم... حسب يد الحاكم التي تُديرها».

وهذا هو ما نراه اليوم، في مصر وتونس، وغيرهما.

رأيت بعيني المحاكم تغلق أبوابها أمام صوت الحقيقة، وتفتح نوافذها لأوامر الأجهزة.

التاريخ مكتوب بأحكام قضائية لا بعدالة، بل بدمٍ بريء:

من جان دارك إلى سقراط، ومن قضية دريفوس التي فضحها إميل زولا في «إني أتهم»، إلى مأساة "آنا جولدي" التي أعدمت ظلمًا في سويسرا، فاعتذر البرلمان بعد قرنين.

أي مهزلة تلك؟!

أن يُكتب الحكم بالظلم في الحياة، وتُكتب البراءة على شواهد القبور.

- كنت في زنزانتي، أفكّر في كل هؤلاء، وأردّد في داخلي:

الحقائق تُدفن، لكنها لا تموت... العدالة تتأخر، لكنها لا تتخلّف.

- فكّرت في من خرجوا من السجن أقوى، لا أضعف...

في آصف زرداري، زوج بينظير بوتو...

وفيها، وفي موتها الذي لم يمنع انتصارها.

وفي أنور إبراهيم، الصديق الذي دخل السجن بتهمة ملفّقة، وخرج رئيسًا لوزراء ماليزيا.

وفي نيلسون مانديلا، ورجب طيب أردوغان...

- حاولت زيارة أردوغان وقت اعتقاله، ضمن وفد برلماني، فرفضت السلطات أن أُصطحب بمترجم...

لأنهم كانوا يعلمون أن بعض السجناء يخيفون العروش.

- قالها السادات عن الزنزانة ٥٤:

«مكانان لا يهرب فيهما الإنسان من نفسه: الحرب، والسجن».

وربما لذلك، عاد بعد عقود إلى سجن طرة، لا كسجين، بل كهدّام له، كأنما يُسقط ظلّه القديم، في مرآةٍ كانت تخيفه.

- واليوم، أكتب هذه الورقة...

لا فقط لأروي قصة، بل لأترك أثرًا.

أتمنى أن تصل الرسالة لمن حكم، ولمن ظُلم...

أن الزنازين لا تحتفظ فقط بالأجساد، بل بالأسرار.

وأن سرير السجن، قد ينام عليه الظالم والمظلوم... لكن التاريخ وحده، يكتب لمن كان الشرف.

زنزانتي لم تكن سجنًا... بل كانت مرآةً...

وسِفْرًا...

وصفحةً من سفر العدل.

وأنا لم أكن وحدي من قرأها قبل أن تُكتب...

بل رأيتها بقلبٍ مفتوح... وكتبها حلم...

ثم صدّقها الزمان.



أوراق من مذكراتي (٤٦)

أيمن نُحر في الزنزانة ولم ينتحر

❁ لا يكفي أن تظلم وتصمت كي تنجو... في مصر، قد يقتالونك فقط تحسّبًا أن تتكلم!

❁ ما تكشفه هذه الورقة، بالأسماء والتواريخ والتفاصيل، هو الأخطر من الظلم ذاته...

حين تتحوّل المشنقة من أداة للعدالة، إلى وسيلةٍ لإخفاء الحقيقة،

ويصير القاتل هو كاتب المحضر...

والمقتول هو المتهم...

والقضية ملف محفوظ تحت علبة السجائر!

❁ لم أكن أعرف أيمن إسماعيل الرفاعي قبل القضية الملفقة الشهيرة، المسماة زورًا بقضية توكيلات حزب الغد، تلك المسرحية التي رُتّبت على عجل، بليلٍ مظلم، لمنعي من الترشّح لأول انتخابات رئاسية تعددية في مصر.

❁ بطل هذه الورقة ـ أيمن ـ يصلح لمحور فيلم من الكوميديا السوداء، على غرار أبطال فيلم «إحنا بتوع الأوتوبيس»،

لكن نهايته لم تُكتب بالكوميديا... بل بالدم.

❁ لم يكن يعرفني، ولا سمع بالحزب، ولم أسمع باسمه حتى دوّى صوته في دهاليز العدالة المريضة...

ثم خفت.

لا لأنه تعب من البوح، بل لأن أحدهم قرر أن يُخرسه... إلى الأبد.

❁ أيمن... شاب مصري، ٣٧ عامًا، تاجر خردة من حدائق شبرا، شارع جامع أبو الفضل، قسم الساحل.

لا انتماء سياسي له، لا صلة له بالحزب، لا حلم له بغير الخبز.

صار شاهدًا في مشهد ملفق، ثم متهمًا في ملف مغلق، ثم جثةً مشنوقة على باب زنزانة... في ممر يؤدي إلى غرفة الإعدام.

❁ صباح الخميس ٦ سبتمبر ٢٠٠٧... وُجد جثمانه معلقًا على باب بطول ١٧٠ سنتيمترًا، بينما طول جسده يزيد عليه!

كيف انتحر على باب أقصر منه؟

حتى المشنقة ضاقت بالحقيقة، فاختنقت معه!

❁ في يناير ٢٠٠٥، زار صديقه إسماعيل زكريا عبداللطيف، مواليد ١ مايو ١٩٦٨، المحتجز بقضية ٢٩٦ جنح قصر النيل، بمباحث الأموال العامة.

حمل له طعامًا، وأجرى من هاتفه اتصالًا بضابط أمن الدولة عمرو محسن، ليبلّغه بمكان احتجاز صديقه.

وكانت تلك الدقيقة بداية النهاية.

❁ في ١٧ فبراير ٢٠٠٥، اقتيد أيمن من منزله، وأُجبر على الاعتراف بتزوير توكيلات الحزب، بخط يده، وبعلمي.

أنكر، وقال إنه لا يجيد الكتابة... فعُذّب.

ثم جاء الأفظع:

جُلبت الطفلتان نسمة و*ندى* ـ بنتا شقيقته ـ إلى الغرفة المجاورة، وسمع صراخهما...

بكى، ووقّع ما طلبوا... لينقذهن.

❁ في المحكمة حاول تصحيح أقواله... فرفض القاضي الاستماع.

لم تُسجل أقواله، ولم تُثبّت أقسى لحظة في حياته.

❁ في ٢٠ أغسطس ٢٠٠٧، كتب لي يستغيث.

وصلني خطابه يوم ٢١.

حرّرت طلبًا للمستشار هشام بدوي، وقدّمتُه لإدارة السجن في ١ سبتمبر.

بعد يومين، جاءني خطاب جديد منه: الضغوط تتصاعد، الضباط يهددونه.

عرضوا عليه النجاة مقابل الصمت.

رفض.

❁ كتب أن الضابط عادل ياسين مخيمر هدده، وأبلغه أنهم ألقوا القبض على بنتي شقيقته.

❁ صباح ٦ سبتمبر... جاءتني زوجتي خلال زيارتها لي بسجن طره، وقالت بصوت مكسور:

أيمن إسماعيل... مات مشنوقًا.

❁ الرواية الرسمية؟ انتحر.

التقرير؟ من د. وجدي عبدالعال.

لكنني كنت قد التقيته قبلها... يوم ٦ مارس ٢٠٠٧، دخل زنزانتي دون سبب، عرّف نفسه كطبيب نفسي.

سألته: ما الذي أتى بك؟

قال: لا أعلم...

طردته... وأدركت أن السيناريو بدأ... نفس السيناريو الذي سينتهي بجثة على الباب.

❁ بعد الوفاة، طلب اللواء عمر الفرماوي من طبيب مصلحة السجون إعداد تقرير انتحار.

رفض الطبيب.

قال إن الزرقة الرمية في الجثة ظهرت في الظهر والإلية، لا القدمين...

أي أن الجثة كانت مستلقية وقت الوفاة، لا مشنوقة.

❁ رفض اللواء التقرير، واستدعى الطبيب أيمن خليل...

كتب تقريرًا جديدًا.

تقريرًا لا يخجل من الكذب، ولا من الدم، ولا من الله!

❁ أما الباب؟ كان أقصر من جسده.

فكيف انتحر عليه؟

وأين ذهب صوته؟

ثلاثة سجناء كانوا معه، استيقظوا فوجدوه معلقًا... ولم يسمعوا شيئًا!

❁ النيابة لم تحضر.

البلاغات حُفظت.

أقوالي؟ لم تُسجّل حتى الآن.

❁ بعد ١٨ عامًا من موته، أكتب... لا للتاريخ فقط، بل للضمير.

لم يكن شهيد ثورة، ولا نجمًا في نشرة أخبار.

كان إنسانًا بسيطًا...

اقترب من الحقيقة... فقتلوه.

❁ قالوا له:

«النظام لن يهتز لأجلك... اذهب للجحيم».

فذهب!

❁ أيمن لم ينتحر...

أيمن نُحر.

نُحر على مائدة الخوف...

وصمت النيابة...

وتقارير مأجورة...

وقضاة لم يسمعوا.

❁ وسأكتب عنه...

حتى يسمع أحد!

✸ النهاية لا تكون بإغلاق الملف... ولو مرت عقود،

بل تبدأ حين يُحاسَب من أمسك بالحبل، واستنحر المواطن المصري أيمن إسماعيل، لأنه وثق ـ خطأً ـ أنهم لن يقتلوا شاهدًا بالصدفة.

أوراق من مذكراتي (٤٧)

أول حب وأول مواجهة
وأول تحدٍ وأول اعتقال

كانت مدرسة الملك الكامل في المنصورة، لا تشبه سواها من المدارس. لم تكن مجرد مبنى، بل كانت مدخلًا سريًا لعوالم كانت أول جسر ممتدّ بين الطفولة والبلوغ الفكري، بين الصباحات المدرسية والنضوج السياسي المبكّر،

في أروقة هذه المدرسة، تنفّست أول معنى للقيادة. منذ الصف الأول، كنتُ أحمل حقيبة مدرسية، وفيها بيان انتخابي مكتوب بخط فكري غير متماسك، لكنه يحمل نَفَسًا أكبر من عمره.

علي غير المعتاد فزت من الصف الاول برئاسة اتحاد طلاب المدرسة، ثم اتحاد الإدارة، ثم اتحاد المحافظة، ثم اتحاد طلاب الجمهورية.

وفي كل مرة كنت أرتقي سُلّمًا لم أصنعه، بل صنعته خطاي. لم أكن أبحث عن المنصب، بل عن المدى. . .عن الحرية، عن المساحة التي أكون فيها (أنا)، وليس غيري. معبرًا عن نفسي، عن قناعاتي الإنسانية البسيطة، غير المركبة أيديولوجيا، او المتقعرة بعبارات كتب مترجمة، تتحدث عن أوطان أخري لا تشبهنا.

❁ مدرسة الملك الكامل كانت ترقد في منطقة تقع بين حي توريل ـ الراقي ـ وحي جديلة، وكانت هذه المنطقة الوسطي، تشهد ـ وقتها ـ بدايات لامتداد عمراني، لكنها خلت من مسجد قريب يحتضن السكان الجدد وقت الصلوات، وكانت المدرسة أيضًا بلا مصلى للطلاب.

❁ وقتها فكرت في إنشاء مسجد في مساحة خلفية من أرض المدرسة يخدم طلابها وقت الدراسة وأهالي المنطقة في غير أوقات الدرس

و تحمّس زملائي في الاتحاد، ووقف بجواري شباب صادقون: نبيل، علاء، مجدي، وآخرون.

❁ وقف أمام مقترحنا، مدير المدرسة الأستاذ رشدي عبدالباري، كان الرجل يساريًّا عتيدًا، يرى في المسجد مشروعًا اجتماعيًا خارج حدود دور المدرسة.

❁ لم يكن الرفض عنيفًا، لكنه كان مؤلمًا، لأننا كنا تعودنا من الرجل مساحات من الحرية والتسامح حتى في تظاهراتنا وفاعلياتنا المناهضة للتطبيع العلاقات مع إسرائيل.

❁ استعنت بصفتي كرئيس لاتحاد طلاب الجمهورية، وخاطبت الوزير مصطفى كمال حلمي، الذي كان رائد طلاب الجمهورية. وجاءني الرد بالموافقة، على شرط أن نبنيه بالجهود الذاتية.

❁ بدأت رحلة لا تشبه طفولتنا. جمعنا التبرعات في صناديق خشبية من صنع أيدينا، ووقفنا بها على أبواب المساجد بعد صلوات الجمعة، وطرقنا أبواب أهل الخير. وكان من بينهم رجل نبيل هو المهندس محمود عبدالعزيز، عضو مجلس الآباء، بالمدرسة والذي تكفّل بالبناء حين ضاقت أيدينا.

❁ المسجد كان أول وطن نُشيّده بأظافر صغيرة. لم يكن فقط حجرًا ومئذنة، بل كان أول نصر نعيشه بأقدام حافية... وأملٍ لا يرتدي رابطة عنق.

❁ قبل هكذا صدام مبكر، كان لدي تجربة شخصية أقل عنفًا وأكثر ألمًا ورومانسية، وهي تجربة أول حب في حياتي، فلم يأتِ هذا الحب في العاشرة من عمري، كنص في كتاب القراءة. . . بل كدعاءٍ خافت في قلب طفل.

❁ كانت من بورسعيد، من أسرة مهجّرة بعد نكسة ٦٧، وسكنت في شارع مجاور لنا في حي توريل بالمنصورة. كانت العلاقة العائلية وطيدة، وكنا نلتقي كل صيف في مصيف جمصة، نصنع من الرمال قصورًا، ومن الصمت اعترافات. لم نقل شيئًا، لكن كل شيء قيل. في صمت مهيب.

❁ كنت أصغر منها بأيام، لكنها كانت أكبر من أي فتاة عرفتها. لم تكن فقط أول من حرّك بصمت وابتسامه طفوليه قلبي، بل هي أول من عرّفني أن الحب لا يُقال. . . بل يُرتَجف. واستمر هذا الشعور، حتى عامي الثاني عشر وتحديدا حتى لحظة سفري للالتحاق بالمدرسة الصيفية ميلفيلد سكول، وكانت عودة أسرتها في نفس هذا الصيف إلى بورسعيد. . . فكانت النهاية التي لم نكتبها.

❁ وبعد سنوات، وفي ذات المصيف، "جمصه" طرق بابي شعور آخر، أكثر وضوحًا، ونضوجا، فتاة من عائلة برلمانية كبيرة، تسكن أسرتها بجوار فيلتنا رقم ١١،

كنت في السنة الأولى الثانوية، وكنا في ذات السنه الدراسية.

وحين أصبحت رئيسًا لاتحاد طلاب الجمهورية، التحقت هي بالتجربة ذاتها. في العام التالي، ليتم تصعيدها من المدرسة، لاتحاد طلاب محافظة القاهرة، لاتحاد طلاب الجمهورية. كانت بيننا مشاعر، متفتّحة، نبتت في تربة من الثقة والمودّة. تبادلنا الاهتمام والرعاية أثناء تواجدنا معًا بمقر الاتحاد بمركز فتايات الزمالك، ثم تبادلنا الرسائل بخجلٍ منمق، وبدفء يشبه دفء شهور الصيف في جمصة قبل الغروب.

❁ الحكاية نضجت، وكادت أن تُتوّج بموافقة الأهل، لولا أن

جاءت الواقعة التي قلبت الموازين. كتبت بيانًا في اتحاد طلاب الجمهورية، أدانت فيه استقبال السادات لشاه إيران، بعد ثورة شعبه. البيان نُظر إليه كإهانة للضيف، وتم اعتقالي لأيام.

❁ تلك الأيام القليلة كانت كافية لإطفاء كل شيء. كانت أسرة الفتاة تمر بأزمة سياسية بالفعل، بعد اعتقال قريب لهم في أحداث الحرم المكي، فكان وجودي في حياتها وقتها بمثابة "حبٌّ ملحٌ على جرحٍ مفتوح". لا يُنسى، ولا يُحتمل. انسحبت هي بصمت، دون خصام، ودونٍ تفسير..

❁ ووجدت نفسي في الزنزانة، لا أفتقد فقط الحريّة بقدر ما أفتقد ما هو اهم. كتبت يومها في دفتري: «لم يكن القيد هو المؤلم... بل الفقد، حين يأتي ممن كنت أعتقد أنها تحبّك أكثر من حبك لنفسك.

أدركت وقتها أن السجن ليس دائمًا أربعة جدران، بل يمكن أن يكون خذلانًا من الزمن، أو انسحابًا بلا وداع او تفسير مقنع.

مشهد من الدراما الإغريقية القديمة مر علي في ختام فصولًا من مسرحيه الحياة.

❁ بين المسجد الذي شيدناه بإيمان الصبية، والحب الذي عاش ومات في صمت، والاعتقال الذي جاء كمطرٍ فوق جناحين صغيرين... كانت تلك السنوات تنحتني كتمثال يُتشكل، بلا مطرقة، بل بأظافر الوقت.

❁ لم أبدأ رحلتي السياسية كما يتوهم البعض من قاعة البرلمان، بل بدأت من فيلا صغيرة تطل على البحر في جمصه، ومن بيان مطبوع على ماكينة استنسل مكتوب بآلة كتابة قديمة، ومن حب لم يفصح عنه إلا اليوم!

وارتباط لم يكتمل.

ومن أول تحدٍ، وأول خسارة، وأول انتصار... بدأت حكايتي ولم تنتهي بعد، ، وتبقي بعض النهايات مره كالقهوة الساده لكنها تجعلك مستيقظًا..

أوراق من مذكراتي (٤٨)

الحب هو: ... دعاء

⊙ رسمٌ صغير ـ على عمودٍ واحد ـ كان يُنشر يوميًا بجريدة الأخبار منذ بداية السبعينيات وحتى التسعينيات، بريشة الفنان مصطفى حسين وفكرة المبدع أحمد رجب، تحت عنوان:

«الحب هو...»

⊙ لم أكتب هذه الورقة بهذا العنوان، لأني كتبتُ ـ من قبل ـ عن الحب الأول في حياتي،

بل هذه الورقة هي التي كتبتني... في ختام رحلةٍ كانت مفعمة في بداياتها ومنتصفها، وأراد الله لها ختامًا جميلًا.

⊙ ورقة اليوم نبتت من ضلع الروح، أو انبثقت من كهف القلب حين ضاق عليه الوطن، والزمان، والمكان.

وكأنها تلبيةٌ لـ دعاءٍ لم يُقال،

لكنه سكنني منذ البدء...

⊙ دعاءٌ لا يُشبه التراتيل التي تُقال قبل النوم، بقدر ما يُشبه اليد التي تُربّت على كتفك حين تتألّم في فراشك وحدك... حين تنكسر ولا تقول.

⊙ وجهٌ يُكثر الكلام إذا صمتَّ، ويُنصت إليك بألف قلب إذا تحدّثت. . .

يجيد صناعة الابتسام كالحياة حين تُنسيك قسوة الأيام،

وتُعيد ترتيب نبضك، وتلمّلم بقاياك كأنك أعظم لوحة في متحف اللوفر.

⊙ كثيرون يملكون من يرافق أعمارهم،

لكن قليلون من يملكون من يرافق قلوبهم.

من يسكن الوجدان لا الحقيبة،

ويحفظك في غيابك أكثر مما يحفظك في حضورك.

وهذا هو الفرق بين الرفقة. . . ودعاء.

⊙ الرفقة العادية تواسيك حين تبكي. . .

أما دعاء، فتبكي قبل أن تبكي أنت، كي تمنعك من البكاء،

تعتذر ـ أحيانًا ـ دون أن تكون هي المخطئة،

ودون أن تُحرج أو تُجيد التبرير.

معها تسقط دون أن تنكسر،

وتتوه دون أن تخاف. . . ألا تعود،

لأنها هي الطريق. . . والدليل. . . والضوء الذي بدا في آخر النفق.

⊙ دعاءٌ ليست فقط زوجة،

بل وطنٌ صغيرٌ بحجم قلب،

وملجأٌ كبيرٌ بحجم اللهفة، لوطنٍ مفقود،

وسِتْرٌ ناعمٌ يقيك من زمهرير الغُربة.

⊙ الحمد لله...

على كل النِّعم التي لا تُنسى، ولا تُغفل...

لكن أعظمها، هي النعمة التي لا تُكتب على الورق،

بل تُكتب في الصدر،

وتُردَّد سرًا في كل سجدة:

يا رب:

احفظ لي دعائي... ودعاء قلبي... ودعاء عمري... ودعاء دربي.

⊙ كم تمنيتُ رفيقًا لا يُشبه المارة،

كم تمنيتُ من يُمسك يدي إن تعثّرت،

ويُمسك قلبي إن خِفت،

ويُمسك اسمي إن نُسيتُ من أنا...

فأعطاني الله دعاء، لا في الاسم فقط، بل في المعنى،

وفي الصدفة التي لم تكن صدفة،

وفي القدر الذي تنفّسني.

⊙ لم أعد أخاف الطريق،

ولا الوحدة،

ولا الأحزان التي تنام بجانبنا دون استئذان.

ففي قلبي دعاء،

وفي عمري دعاء،

وفي دربي دعاء...

وفي روحي...

الله وحده يعلم،

كم من النِّعم بدأت وانتهت باسمها.

⊙ وإن سألتني يومًا عن الحب،

فلن أقول: «الحب هو...» كما قالها أحمد رجب، ورسمها مصطفى حسين.

ولن أقول: هو الورد، أو الشعر، أو الغروب...

بل سأقول: هو أن يمنحك الله من تُصبح في حضرته

كما يليق بك أن تكون...

لا أقل، ولا أكثر...

وأن يكون هذا الشخص...

اسمه: دعاء



أوراق من مذكراتي (٤٩)

القاضي الذي فعل ما لم يفعله أبي

❁ في خريف عامي الجامعي الثاني، كنت مرشحا كرئيس لاتحاد طلاب كلية الحقوق بجامعة المنصورة

(كما كنت في عامي الجامعي الأول).

لكن نشاطي، الذي لم يكن يروق لجهاز أمن الدولة، دفعهم إلى إصدار تعليمات بشطبي من قوائم الترشيح، فقط لأني كنت أؤمن أن الجامعة وطنٌ صغير، لا يجب أن يُدار بقبضةٍ أمنية.

❁ عدتُ إلى أبي، الأستاذ عبدالعزيز نور، المحامي الكبير، أستنجد به كما يستنجد الغريق بلوح العدالة. طلبت منه أن نرفع دعوى عاجلة أمام القضاء الإداري للطعن على القرار المجحف. سألني والدي سؤالًا لم أنسَه يومًا: «هل تريد أن تُعيَّن معيدًا في الجامعة كما أتمنى أنا وأمك؟ أم أنك اخترت طريقًا آخر؟». قلت له بكل يقين: «أريد أن أُعيَّن لأنني أستحق، لا لأنني أُهادن».

❁ أجابني بنبرة الأب الحكيم: «إذا قاضيت الجامعة، فلن تُعيَّن. وإذا اتهمت الأمن علنًا، فلن تدخل سلك القضاء ولا النيابة العامة». لكنني

لم أستطع أن أُساوم على حقي. فانتظرت خلو المكتب، وجلست إلى مكتبه، فتحت كتب القانون الإداري، وحررت أول صحيفة دعوى في حياتي، بيدي وحدي.

❁ حملت الصحيفة إلى المحكمة دون توقيع محامٍ معتمد. وعندما عُرضت على القاضي، طلب مقابلتي. دخلت على رجلٍ لم أكن أعرفه، لكنني رأيت في عينيه بريقًا يشبه نور العدالة. اسمه كان المستشار أحمد الشاذلي. نظر في الصحيفة، وصحّح بعض العبارات، ثم طلب من محامٍ متواجد أن يُوقع عليها.

❁ وبعد ساعات، صدر حكمه: قبول الدعوى، وعودة اسمي لقوائم المرشحين، وإلزام الجامعة بتنفيذ الحكم بمسودته. يومها لم أُعد فقط إلى قائمة، بل أُعيد إليّ إيماني أن في هذا الوطن قضاة لا يخضعون إلا لضمائرهم.

❁ لم يكن هذا أول حكم عادل في سيرة هذا القاضي الشريف، ولا الأخير. ففي وقتٍ كانت فيه الأحكام تُكتب في مكاتب السياسة، لا على منصات القضاء، وفي أيام أصبح القضاة يُختبرون بولائهم لا بضمائرهم، عرفتُ رجلًا من معدنٍ آخر. رجلًا لا يُجامل، ولا يُهادن، ولا يبيع مواقفه في بورصة السلطة.

❁ بعد سنوات، وأنا خلف القضبان، تلقيت حكمًا جديدًا منه، لا في قضية كنت فيها خصمًا، بل في معركة كانت فيها حريتي على المحك. حكم لي بحقي في الصلاة والكتابة وأنا معتقل، ثم أعاد لي جواز سفري في المنفى. لم يسأله أحد عن رأيه السياسي، لأنه لم يكن يُصدر الأحكام للهوى، بل للحق.

❁ كان المستشار أحمد الشاذلي مدرسة كاملة في العدالة المستنيرة، قاضيًا يُنصف المختلف قبل المتفق، ويُعيد للمظلومين أملهم في سلطة لا تأتمر إلا بالقانون. وقف في وجه السلطة عندما كانت تبيع الأرض، وقال

كلمته في تيران وصنافير: «سيادة مصر عليهما مقطوع بها، ودخولهما ضمن أراضيها ما انفك راجحًا رجحانًا يسمو لليقين».

❁ لم تكن تلك حيثيات قانونية وحسب، بل كانت مرافعة وطنية خالدة، أضاءت شعلة في ضمير أمة، ورددت معها الجماهير هتافها الخالد: «عيش، حرية، الجزر دي مصرية».

❁ لم تكن هذه سابقة وحيدة في سجل هذا الرجل، بل سيرة ممتدة من المواقف الخالدة: رفض إسقاط الجنسية عن الرئيس محمد مرسي،

وعني وعن أيمن عزام

ورفض منع جواز السفر عن وائل غنيم، ورفض منعي أنا أيضًا، من جواز سفري لأن كلًّا منّا كان مواطنًا،

وكان يرى القانون مرآةً للعدالة، لا سوطًا بيد السلطة.

❁ أنصف البهائيين وحقهم في الأوراق الثبوتية، وأعاد حق الزواج الثاني للمسيحيين، ومنع حجب التمويل عن الجمعيات الأهلية، وأعطى القرصاية لأهلها، وأعاد مصانع طنطا للكتان وعمر أفندي لعمالها. كان يُصدر الأحكام وكأنه يُرمم جزءًا من هذا الوطن المتصدع.

❁ في ذروة خصخصة التأمين الصحي، وقف القاضي الشاذلي ليحمي حق الفقراء في العلاج، وليقول لا لمن أرادوا بيع الهواء والماء والدواء.

❁ حين واجه وزارة الداخلية، لم يكتفِ بالحكم، بل كتب: «الأصل في الإنسان البراءة، وعلى الوزارة المواءمة بين الأمن العام وحرية الأفراد واحترام الأحكام القضائية». أي بيان سياسيٍّ هذا الذي يصدر من على منصة القضاء؟ لكنه لم يكن يسعى لإرضاء أحد، بل لإرضاء ضميره وحده.

❁ هو القاضي الذي لم تحركه الأضواء، بل حرّكه الإيمان بأن في العدل خلاص الأمم، وفي إنصاف الضعفاء قوة الأنظمة. وحين يكتب حيثياته، تتسرب منها لغة شعرية مبلّلة بالحكمة والحق.

❁ المستشار أحمد الشاذلي لم يفعل فقط ما لم يفعله أبي، بل فعل ما لم تفعله دولة. كان ضميرًا نابضًا على مقعد العدالة، ومعلمًا بصمت، وصديقًا للمظلومين من بعيد.

❁ اليوم، وأنا أكتب هذه الورقة، لا أرثيه بقدر ما أُحييه. فالرجل قد يرحل بجسده، لكن أحكامه تبقى تُدرّس، وذكراه تظل في قلوبنا مشتعلة، كشمعة في ليل الوطن الطويل.

لروحك النقية، أيها القاضي العظيم، الرحمة والسلام. ولعدلك، كل التقدير. ولذكراك، كل الوفاء.



أوراق من مذكراتي (٥٠)

طفولة.. لم اعيشها

سُئلت يومًا من دعاء، لا باعتبارها زوجتي، بل باعتبارها مرآتي التي تُطالِبني أن أتذكّرني. . .وتشجعني علي كتابة مذكراتي الشخصية أو علي الاقل أوراق منها.

سألتني: «كيف كانت طفولتك مع مجلات اولاد جيلك؟

سمير؟

ميكي؟

تنتان؟

فلاش؟»

كان سؤالًا بسيطًا كابتسامتها،

لكنّ إجابتي ربما ادهشتها. . .

قلتُ لها، بكل ما في النُضج من براءة، وبكل ما في البراءة من نُضج:

«لم ألمس واحدة منها في حياتي!. . .

لم أفتح ميكي يومًا،

ولا كانت تنتان رفيقة وسادتي،

ولا انتظرت فلاش على باب المكتبة بل ربما اسمع اسمها الان لأول مرة!»

❁ كانت أول مجلة عشقتها،

ليست مجلة أطفال، بل مجلة أوطان...

كانت الهلال، تصدر من قلب دار الهلال، وتدخل قلبي دون استئذان.

كنت وقتها اقرض شعرا طفوليا، وكان جدي(والد أمي)

محمد محمود حسنين شعرا عظيما

لكنه لم ينشر قصيده واحده.

في بدايات مرحله المراهقة راسلت مجله الإخاء... وهي مجلّةٌ ناطقة بالعربية من قلب إيران في زمن الشاه، وكانت تحمل على أوراقها وهج المراسلات الخطية قبل زمن الواتس اب.وتسمح للشعراء الهواه بنشر بعضا من ابياتهم، ومن خلالها تعرفت علي الشاعر الراحل الصديق العزيز

احمد زرزور

❁ ثم كانت مجله العربي الكويتية

... تلك التي لم تكن تُقرأ، بل تُرتّل.

وتعرفت من خلالها علي كتابات الاستاذ أحمد بهاء الدين

والدكتور سليمان العسكري

والدكتور قاسم عبده قاسم.

❁ لم أكن ابن الإعلام...

كنت ابن الحُلم الذي اختبأ في صوته،

وابن الرسالة التي حملها . . . لا صورتها.

كنت أبحث عن الفكرة، لا اللعبة،

وعن الحرف، لا الصورة او الرسم.

❁ أنا من جيلٍ استيقظ مبكرا كل صباح علي أم كلثوم، قبل أن تصحو الشمس، تُغنّي لنا كما يُغنّي الوطن حين يكون الوطن أمًّا:

«يا صباح الخير

يا اللي معانا . . .

الكروان غنّى وصحّانا»

ثم يأتي محمد قنديل ليعلن بدء مراسم النهار:

«يا حلو صبح،

يا حلو طل،

يا حلو صبح

نهارنا فل . . .»

❁ نحن الذين كُنّا نعرف أننا تأخرنا على الطابور،

إذا سمعنا فؤاد المهندس يقول: «كلمتين . . . وبس!»

وكان وداعنا

كل صباح بصوت

آيات الحمصاني،

وهي تقول:

«بالسلامة يا حبيبي

. . . بالسلامة»

كأنها ترسلنا إلى حرب لا الي مدرسة.!

❁ كنا ننتظر سينما الأطفال في يوم الإجازة، كمن ينتظر العيد،

وننذهل "بـجولة الكاميرا" كأنها أول سفر، بلا طائرة

ونغتسل في "النادي الدولي" مع سمير صبري، وصحبته المتنوعة من نجوم الفن والثقافة.

ربما لم نكن نفهم كل شيء،

لكننا نشعر بكل شيء.

❁ تعلمنا من "فكره" مصطفى أمين، الحب للحرية والإنسانية المجردة ،

ومن مصطفى محمود تعلمنا أن العلم ليس عكس الدين... بل عكس الجمود والجهل.

ومن الشعراوي أن الدين لا يُقال... بل يُحسّ بقلب مرهف، وبمتعه العقل واللغة.

تنفسنا الحرية من سخرية نصف كلمه لأحمد رجب، وضحكنا مع ريشه مصطفي حسين.

أحببنا نجوى إبراهيم، لا لأنها جميلة، بل لأنها تشبهنا في خجلها.

وانتظرنا فوازير رمضان كأنها مكافأة مساء رمضان،

وتركنا قلوبنا في "ألف ليلة وليلة"،

إخراج الراحل فهمي عبدالحميد،

الذي لم يكن يصنع حلقات... بل أحلامًا.

❁ لم يكن ينقص طفولتي شيء

إلا طفولتي...

فأنا طفل، لم يقرأ ميكي، ولم ينتظر سمير، ولم يسمع عن فلاش الا وقد تجاوز سن الستين.!

طفولتي لم تكن على ورق...

بل كانت على موجات اخرى، في راديو يوقظنا قبل الشمس، وشاشة أبيض وأسود، في وطنٍ، كان وقتها، أقرب لنا من الآن بكثير.



أوراق من مذكراتي (٥١)

لماذا أحب محمد صبحي ولا أحب عادل إمام؟
حكاية الانتخابات الرئاسية الثانية
التي خضتها ولم أخضها!

حكايتي مع عادل إمام ليست سوى مرآة صغيرة لانكسارات كبرى، لأشخاص تبدو لامعة كبيرة عن بعد فقط!

الحكاية يمكن تلخّيصها في ثلاث محطات:

فتور صامت،

صدام علني،

تجاوز جارح.

تعلّقت بفنّه، كما تعلّق جيلي، لكنّي لم أتعرف عليه كإنسان. وما بين الصورة على الشاشة وصورة الواقع... فرق بحجم خيبة الظن.

اللقاء الأول جمعني به عام ١٩٩٩، حين رتّبه الصحفي بجريدة الوفد الصديق الراحل أحمد كمال الدين،

كنت وقتها، نائبًا بمجلس الشعب، ونائب زعيم المعارضة ياسين سراج الدين.

العشاء كان في مطعم "بنت السلطان" الذي يملكه الفنان مصطفى حسين، قرب منزل عادل إمام. كان الحوار باردًا، بلا ملامح أو حرارة،

لقاءٌ جافّ لم تتقاطع فيه الأرواح.

أما اللقاء الثاني، بعد عام تقريبا وكان عاصفًا بكل المعاني.

حين دعوت عادل إمام لإفطار رمضاني في خيمة وزارة البيئة بدار الأوبرا، وكانت المناسبة وطنية خالصة؛ وتحت لافتة إفطار الوحدة الوطنية الذي كنت انظمه شخصيا كل عام

جمعت في هذا العام قرابة ١٥٠٠ شخصية من رموز السياسة والدين والفن. ومن بينهم عادل امام

دخل عادل إمام متأخرًا، مع مدفع الإفطار ملوحا بيده للحضور الذين استقبلوه بتصفيق متواصل حتى وصل إلى طاولته حيث صافح بحرارة كل الجالسين عليها، وتعمّد ـ ببرودٍ لا يليق ـ تجاهل الفنان الكبير محمد صبحي، الجالس إلى جوار سيمون.

همست له بلطف منبها: لم تصافح «محمد صبحي!»

فهزّ رأسه باستهانة. كررت التنبيه، هذه المرة بشيء من الغضب المكتوم. لم يُجب، لكنه وقف وتصورت أنه سيمدّ يده، لمصافحة صبحي، لكنه وقف ثم غادر الخيمة! والإفطار وكأنّ الكِبر يمنحه الحق في الإهانة. كان مشهدًا موجعًا، جرحًا علنيًا لم تداوه السنين في نفسي وربما غيري.

بعدها بعشر سنوات، وفي ٢٠١٠، وفي لقاء مع الإعلامي عمرو الليثي، سأله عن مرشحيه للرئاسة فقال: «سأنتخب أيمن نور... لكن بشرط أن يخبرني لماذا انفصل عن زوجته!» إجابة كانت وقحة، لا تليق لا بفنان ولا بإنسان. كانت طعنة شخصية، لا علاقة لها لا بسياسة ولا فن، وأغلقت باب الإعجاب الذي كنت أحتفظ به له.

حتى هذه اللحظة.

في المقابل، علاقتي بـ محمد صبحي بدأت إنسانيّة، وازدهرت إنسانيّتها، قبل أن تطوق بصداقه حقيقيه.

تعرفت عليه عام ١٩٩٧ في لقاءات مع الفنانة سيمون.

شعرت بدفء في حديثه، بصدقٍ في عينيه، وبحلمٍ يتشكل بوعي وطني.

عندما قرر بيع سيارته الفولفو لاستكمال ثمن قطعة أرض على طريق مصر ـ الإسكندرية الصحراوي، للبدء في مشروع «مدينة سنبل للفنون»، كنت أول من سعى لشرائها، لا من باب الحاجة، بل من باب المساند، دون إحراج.

تابعت معه المشروع من فكرة حالمة إلى واقع تحقّق بصبر وجلد، رغم العثرات. وحين دخل في شراكة مع الزميل والصديق النائب عماد الجلدة، وكنت أنا وكيلا قانونيا لشركه الحصان التي يملكها عماد عبر مكتبي، بذلت جهدًا كبيرًا لحل الخلافات التي أنهت الشراكة بينهما مبكرًا.

لكن صداقتي بـ محمد صبحي لم تنقطع. بل ازدادت ترسخًا حين دعاني لمشروع اجتماعي وطني لخدمة الشباب. كان مشروعًا يستحق أن يولد. . . لكنه أُجهض في زمن مبارك.

بعد خروجي من السجن في ٢٠٠٩، بدأت حملة «طرق الأبواب»، زرت خلالها أكثر من ٣٠٠ مدينة وقرية. وبينما كنت في بيروت، مارس ٢٠١٢، للقاء الجالية المصرية في لبنان، تلقيت اتصالًا من محمد صبحي: «عد فورًا للقاهرة، سنلتقي صباحًا في وزارة الدفاع».

وهناك، التقيت بالفريق سامي عنان، بعد أن طرح محمد صبحي في حوارٍ مع المشير طنطاوي، تساؤلًا عن سبب إسقاط العقوبة عن خيرت

الشاطر وعدم إسقاطها عني. رغم وضوح التلفيق السياسي في حالتي.

تحمّس عنان، وطلب من صبحي حضوري فورا

حضرت مع صبحي لوزارة الدفاع في اليوم التالي وطلب مني الفريق عنان صياغة القرار بنفسي، واستدعي اللواء ممدوح شاهين، فكتبنا القرار الذي نُشر بعد ساعات في الوقائع المصرية.

مشيرا لإسقاط للعقوبات التبعية واخصها واهمها حقوقي السياسية والأدبية خوض الانتخابات الرئاسية

خاصة أن العقوبة الظالمة المقيدة للحرية كانت انتهت بخروجي من الاعتقال منتصف ٢٠٠٩ بعد قضاء أربعة سنوات رهن هذه العقوبة.

تقدّمت بكامل أوراق ترشحي، ولم تمضِ أيام حتى صدر قرار جائر اخر من اللجنة العليا للانتخابات باستبعاد عدة أسماء، كنت أحدهم، مع الشاطر، وحازم أبو إسماعيل، وعمر سليمان.

القرار لم يكن فقط صادمًا، بل متناقضًا تمامًا مع قرار المجلس العسكري الذي أسقط كافة الآثار التبعية للعقوبة، والتي كانت هي وحدها ما يمنع ترشحي.

فأي منطق هذا؟ من يُصدر القرار، هو نفسه من يُلغي أثره الفعلي الوحيد؟ أم أن هناك من أراد القصاص السياسي باسم الدولة؟

ولا أنسى هنا ان المشير محمد حسين طنطاوي عندما التقيته بالصدفة في مكتب اللواء حسن الروينى قائد المنطقة المركزية أبان ايام ثوره الاولى، قال لي لن ننسى ما فعلته أنت والبرادعي في الرئيس مبارك!

عقب قرار الاستبعاد سألت المستشار حاتم بجاتو، وكان نائب رئيس اللجنة، عن سند القرار في ظل وجود قرار جمهوري بإسقاط للعقوبة وآثارها التبعية؟

فقال: «من أصدر القرار بإسقاط العقوبة... هو من طلب استبعادك!»

ذهبت يومها مع محمد صبحي الذي كان منفعلا بما حدث أكثر مني إلى وزارة الدفاع، التقينا الفريق سامي عنان، الذي أبدى دهشته، وسألني: «لمن ستذهب كتلتك التصويتية؟»

أجبته: الشق الليبرالي سيتّجه إلى عمرو موسى،

أما الثوري سيتجه إلى حمدين صباحي، والإسلامي إلى أبو الفتوح. وفعلًا، هكذا حدث.

داخل الحزب، وقعت هزة كبرى. بعد الاجتماع الذي حضره عمرو موسي فاستقالت لجنة البحيرة بقيادة الأستاذ المحامي العزيز أحمد ميلاد، الرجل الذي أكنّ له كل محبة وتقدير، وما زال وقع استقالته يؤلمني حتى اليوم. استقال معه أسماء عزيزة مثل بلال حبيب و«التيتي»، وغيرهم ممن حفروا أسماءهم في قلبي وذاكرتي في سنوات المواجهة مع مبارك.

علي الجانب الاخر انضم حسام علي، المهندس البورسعيدي النابه، إلى حملة عمرو موسى وآخرين من قيادات الحزب بينما انضم أحمد غنيم. والمهندس أحمد بدوي لحمله ابو الفتوح

في سياق حالة من الانشطار الداخلي التي عصفت بالحزب بعد استبعادي من خوض الانتخابات الرئاسية الثانية في تاريخ مصر.

بقي محمد صبحي صديقًا وفيًّا رغم الاختلافات السياسية بعد ٢٠١٣. وربما قبلها، حين عرضت عليه عضوية مجلس الشورى ضمن قائمة تعينات الرئيس محمد مرسي، ووافق صبحي وكان وقتها في أميركا لعلاج زوجته، ثم اعتذر لاحقًا فور عودته للقاهرة لأسباب احترمتها.

نعم كنت ولازلت أحب محمد صبحي، لأنه لم يكن فقط فنانًا،

بل إنسانًا... وموقفًا. أما عادل إمام، فكان تمثالًا جميلًا من الخارج، مجوّفًا من الداخل، تحطّم عند أول ملامسة له.

أعرف أن هذه الحقيقة قد لا تعجب بعض أصدقائي من الفنانين ممن لهم تجارب مختلفة مع محمد صبحي وكثيرًا ما يحدثوني عن شخصيته الطاغية التي يصفها البعض بالاستبداد لكنها تجربتي معه لا أستطيع أن أتجاهل هذه التجربة احتراما لتجارب ومشاعر الآخرين كنت وسأظل أحترم هذا الرجل الفنان والإنسان،،،،



أوراق من مذكراتي (٥٢)

«بيثم» الذي تنبأ لي بالعيش مظلومًا والموت مظلومًا

❁ بعض الوجوه تمرّ في حياتك مرور سحابة صيف، تُلقي ظلّها وتمضي، لا تترك فيك أثرًا سوى ظلالًا خفيفةً تتلاشى في الزحام. لكنَّ هناك وجوهًا تمرّ كالقدر، وتظلّ رغم قصر العهد، كامنة في ذاكرتك، محفورة في وجدانك، تنبض بالحضور رغم الغياب... تمامًا كما فعل معي بيثم.

❁ لم يكن إلا شابًا عاديًا من محافظة الشرقية، خرج من بين الحاضرين في ندوة سياسية أقمتُها إبان جولة الإعادة في انتخابات الرئاسة المصرية عام ٢٠١٢. وقف، وقالها ببساطة تُمزج بين الألم والنبوءة:

«كنت مظلومًا وستظل مظلومًا... عشتَ مظلومًا، وستموت مظلومًا».

ضحكتُ وقتها لأكسر حدّة العبارة، لكن الضحكة ظلت عالقةً في حلقي، وعبارته حفرت مجرى من الأسى لا يُمحى.

❁ منذ خروجي من السجن عام ٢٠٠٩، بعد أربع سنواتٍ من الاعتقال الجائر، شرعتُ في ما أطلقتُ عليه «حملة طرق الأبواب»، أبحث

مع أهل بلدي عن مخرج سياسي من نفق الاستبداد، بعد أن سدّ نظام مبارك كل أبواب التغيير. عرفتُ يقينًا أن الانتخابات في مصر، ما كانت إلا مشهدًا عبثيًا مُعدًّا بإحكام... تمثيلية رديئة، نهايتها مكتوبة مسبقًا، وبطلها الواحد لا يقبل شركاء!

❁ بعد ثورة يناير، بدا الأفق مفتوحًا على أمل التغيير الحقيقي، وصدرت قرارات باسقاط العقوبات السياسية التي كانت ستمنعني من خوض الانتخابات الرئاسية، والتقيتُ بالفريق سامي عنان، بعد تدخل الصديق الحبيب الفنان محمد صبحي.

قال لي عنان بالحرف: «اكتب القرار كما تريد». فكتبته كما حلمت... ونُشر في الوقائع الرسمية.

❁ ثم، فجأة، جاء الاستبعاد... اسمي على رأس قائمة تضم:

أيمن نور، حازم أبو إسماعيل، خيرت الشاطر، عمر سليمان.

سألتُ المستشار حاتم بجاتو عن السبب، فابتسم وقال:

من أصدر القرار... بالعفو، هو من طلب استبعادك!

❁ في تلك المرحلة العصيبة، حاولتُ أن أداوي الجرح الوطني، فطرحتُ مبادرة بين مرشّحي الإعادة: محمد مرسي وأحمد شفيق، طالبتهما بتقديم ضمانات للثورة قبل أن يُنتخبا، لا أن يطلبا تفويضًا على بياض. لكن الزمن كان أسرع من الطرح، وأبطأ من الوعي.

❁ وسط هذا الاضطراب، وفي الشرقية، ظهر ذلك الوجه الغريب: «بيثم»، الاسم الذي لم أسمعه قبله ولا بعده. قال نبوءته، ومضى كأنّه اختُص برسالة من الغيب. وظللتُ بعدها أبحث عن وجهه، عن صوته، عن تلك النبرة التي تشبه يقين القدر. وأنا اليوم، أكتب هذه الورقة، وأدعو كل من يعرف هذا الشاب أن يدلني عليه... لأقول له: صدقت يا بيثم.

❁ فالظلم في بلدي، بات هو الأصل، والعدل صار الاستثناء... وأقسى أنواع الظلم، أن تراه بعينيك ولا تستطيع أن تزيحه عن طريقك أو طريق الناس. أن تُدفن وأنت تمشي. أن تُغتال دون طلقة، وتُحاكم دون جريمة.

❁ أنا المظلوم باختيار، لا مصادفة. فالظلم، في هذا البلد، لا يأتيك من المجهول. الظلم عندنا مؤسَّس، منظّم، له هوية وراية ومذيعون... يبتسمون وهم يُسقطونك من فوق المنصّة إلى قاع المحاكم، ثم إلى العدم!

❁ قيل إن العدل في الأرض حلم، وإن الله يُمهل الظالم ولا يُهمِل، لكن الحقيقة أن بعض الظلم لا يُمحى من الذاكرة، ولا من السجلات، ولا من الوجدان. يظلّ حاضرًا في النبرة، في الدمعة، في الورق...

❁ كم مرة حملتُ ورقة الإفراج في يدٍ، وقرار الاستبعاد في الأخرى؟ كم مرة صافحتُ من تآمر عليّ، وابتسمت لمن دسّ لي السم في العسل؟ كم مرة صمتُّ لأن الصوت لا يسمعه أحد؟

❁ «بيثم»... لو تقرأ هذه الورقة، لو تسمع هذه الحروف، إنك لم تكن عابر طريق، كنتَ مرآةً لمصيري، وصوتًا لصمتي، ونبوءةً لما كان، وما سيكون.

❁ وسأبقى مظلومًا... لأنني اخترتُ أن لا أكون ظالمًا.

❁ «يموت الحق إن سكتَ أصحابه، ويعيش الظلم إذا لم يُقاومه أحد...» ـ تلك ليست حكمة مجهولة، بل جرحٌ مفتوح في ضمير هذا الوطن.

أوراق من مذكراتي (٥٣)

أربعة حروف ومصادفة غيّرت حياتي

❋ ربما لم أكن تجاوزتُ السادسة عشرة من عمري، وكانت بداياتي كقارئ تحمل نَهم الباحث عن معنى، وعن طريق، وعن ذاتٍ تتلمّس صورتها في المرايا المرتبكة. كنت أترصّد كل كلمة يكتبها الأستاذ مصطفى أمين، ذاك الرجل الذي صار في وجداني مزيجًا من الأب والقدوة والفكرة. وكنت أعلم أن لديه كتابًا يحمل عنوانًا غريبًا ومغريًا في آن: «لا».

❋ كنتُ أبحث عن هذا الكتاب كما يبحث طفلٌ عن لعبته الضائعة في أسواق الحواديت، فلا أجده. أفتّش بين أرفف المكتبات القديمة، وعند باعة الصحف المتجولين، وفي خزائن الورق المتهالك. وفي لحظة عابرة، كُتب لها أن تُصبح فاصلة، وقعت عيني على طرف كتابٍ صغير أحمر، قرأت عنوانه بسرعة، فظننته هو: «لا». خطفتُه من بين الكتب، وقبل أن أستوعب أن عنوانه الكامل هو «لابد»، كنت قد انغمست في صفحته الأولى...

❋ وكانت الصفعة الأولى التي صارت يقظة:

لا بد أن نسيرْ!

ونجرفَ الأقدارَ من طريقنا الكبيرْ

ونعصرَ الرياحَ في تلفُّت المصيرْ

ونصعقَ الهشيمَ في احتضاره الأخيرْ. . .

❋ ما قرأته لم يكن شعرًا، بل كان نداءً، كان طَرقًا على جدار قلبي، كان نفيرًا داخليًا يهمس ثم يصرخ: لا وقوف بعد اليوم. . . لا عكوف عن الدرب. . .

تساءلت لحظتها: من هذا الذي يكتب بمطرقة اللهب؟ من هذا الذي يسكب في الشعر معنى الثورة؟

كان اسمه محمود حسن إسماعيل.

وكان اسمي، حينها، طفلًا يوشك أن يُولد من جديد.

❋ «انصهر القيد. . . ذابت غشية الظلام. . . انداحت جموع الزحام. . .»

عبارات ما زالت ترنُّ في أذني، لا كموسيقى، بل كخطة سير. لم أكن أدري أن هذه القصيدة ستُعيد ترتيب دماغي، وأن تلك «المصادفة» ستنبت في داخلي «ضرورة».

❋ ومن يومها تغيّر سؤالي من: «ماذا أقرأ؟» إلى «لماذا أقرأ؟ ومن أجل من؟»

تحوّلت القراءة من نزهةٍ عقلية، إلى مشروع وعي.

ومن لحظة الخطأ في العنوان، بدأت الصواب في الطريق. . .

❋ أربعة حروف: لابد. . . لم تكن عنوان كتاب فقط، بل كانت نداءً وجوديًا:

لابد أن تمشي، حتى لو وحدك.

لابد أن تحلم، حتى لو سخروا من حلمك.

لابد أن تصرخ، حتى لو لم يسمعك أحد.

لابد أن تسير، في دربك الكبير، حتى لو تراكمت الحواجز، وتقنّع الهجير، ونام الجميع.

❋ لم أكن أفهم تمامًا ما هي الثورة. لم أكن قرأت «العقد الاجتماعي»، ولا «الجمهورية»، ولا «ما العمل؟»، ولا خطب سعد زغلول الكاملة. لكنني فهمت شيئًا واحدًا:

أن هنالك شيئًا ما في داخلي، يستيقظ ليكتب، ويصرخ، ويتّخذ موقفًا.

❋ ربما من هنا بدأت أولى خطواتي نحو السياسة...

ليس من لافتة حزبية، ولا من اجتماع تنظيمي، بل من بيتٍ صغير من الشعر، كان كفيلًا بأن يهزّ العمق، ويصنع الزلزال.

❋ تلك المصادفة لم تعرّفني فقط على شاعرٍ بحجم محمود حسن إسماعيل، بل عرّفتني على نفسي.

ومن يومها، لم أعد أنظر إلى الأدب كترف، ولا إلى الشعر كزينة. بل رأيت فيه خندقًا آخر من خنادق النضال.

❋ في تلك السن، كنت قد بدأت أكتب محاولات متواضعة. كنت أرسل خواطري إلى الصحف، وبعضها يُنشر، وأكثرها يُهمَل. لكن شيئًا ما تبدّل بعد تلك القصيدة... صرتُ أكتب بصوت أعلى، وأقرأ بعين أوسع، وأسأل عن العالم لا عن ذاتي فقط.

❋ بعد سنوات، حين التقيت الأستاذ مصطفى أمين لأول مرة، حكى لي عن قصة كتابه «لا»، وسألني مازحًا: «كيف عرفت أنك ستقولها كثيرًا في حياتك؟»

قلت له بصدق:

«كنت أبحث عن لا... فوجدتُ لابد... وكِلتاهما علّمتني أن لا أسكت!

أوراق من مذكراتي (٥٤)

تصفير ديوني المؤجلة

أحمد منصور مجدي خليل

تتراكم ديون الزمن وتتشابك خيوط الذكريات،

وقفتُ أتأمل ما تركه القدر في دفاتر حياتي. الديون، ليست دومًا من ذهب أو فضة، بل هي أحيانًا مواقف نبيلة، كلمات صادقة، وقلوب نقية امتدت عبر المسافات لتضيء دروبًا ظننتها منسية.

إنها ديون الوفاء التي لا تُسدد إلا بالامتنان، ولا تُصفّى إلا بقلب يعرف معنى العرفان.

في صباح هادئ، بينما كنت أجوب فضاءات الإنترنت عبر محرك البحث جوجل، كمن يبحث عن كنز مدفون في رمال الزمن، عثرتُ على مقال كأنه مرآة عكست لي وجوهًا لم أرَ نبلها إلا متأخرًا.

مقال كتبه الدكتور أحمد صبحي منصور، ذلك العالم الأزهري الذي عرفتُه وعرفتُ أسرته الكريمة، لكنني لم أعرف يومًا موقفه الشريف المتضامن معي في أيام الاعتقال القاسية عام ٢٠٠٥.

وفي طيات المقال، برز اسم مجدي خليل، الناشط الحقوقي الذي رفع صوته عاليًا، منظمًا مظاهرات وفعاليات تضامنًا معي، في وقت

كنتُ فيه محتجزًا خلف جدران السجن، بعيدًا عن أنباء العالم.

كأن القدر أراد أن يذكّرني بأن الحياة، في عمقها، ليست سوى دفتر حسابات روحي، حيث الديون الحقيقية هي تلك التي تُكتب بمداد الإنسانية.

كيف لي أن أنسى تلك الأيام التي كنت فيها رهين زنزانة، بينما أرواح حرة كانت تصنع من أجلي جسورًا من الأمل؟

إن الإنسان، في لحظات الضيق، لا يرى إلا ظلمته، لكنه حين يخرج إلى النور، يكتشف أن هناك من كان يحمل له شعلة في الظلام.

هذا المقال، الذي عثرتُ عليه بعد عقدين من الزمان، كان بمثابة رسالة من الماضي، تحمل في طياتها دعوة لتسديد ديون الامتنان لأولئك الذين لم يبخلوا بنبل مواقفهم، رغم اختلاف الرأي أو تباعد الدروب.

إن تصفير الديون ليس مجرد فعل مادي، بل هو رحلة روحية عميقة، تتطلب قلبًا سليمًا يعرف كيف يرد الجميل، وروحًا واعية تدرك أن الوفاء هو أعلى مراتب الإنسانية. اللهم، كما ألهمتني أن أعرف ديوني المؤجلة، أعنّي على سدادها، واجعلني ممن يلقونك بقلب نقي، خالٍ من أثقال التقصير.

هذه الورقة من مذكراتي ليست سوى محاولة متواضعة لتسجيل لحظة اكتشاف،

لحظة أدركتُ فيها أن الحياة، بكل قسوتها، لا تزال تحتفظ بوميض من النبل يستحق الاحتفاء.

نص مقال الدكتور أحمد صبحي منصور كما هو-:

أيمن نور وغزو العراق؟أحمد صبحي منصور في ٢٠٠٦ ـ ٨

١ ـ كنت في زيارة لصديق يملك مكتبًا ضخمًا للنشر في واشنطن. لقيني منفعلًا وهو يقدمني لفتاة ذات ملامح عربية قائلًا: هذه «أنّا».. ناشطة في حقوق الإنسان» كانت أنّا منشغلة بإعداد لافتات كثيرة مكتوب عليها شعارات لإطلاق سراح أيمن نور. صديقي الأمريكي المتعاطف مع إصلاح الشرق الأوسط ورعاية حقوق الإنسان، أوسع مكتبه الأنيق للفتاة التونسية أنّا لكي تعد ما يلزم من لافتات للمناداة بإصلاح مصر.

تذكرت أن الصديق مجدي خليل الناشط القبطي في واشنطن قد دعاني والعائلة لأتحدث في مظاهرة تقام أمام البيت الأبيض للمطالبة بالإفراج عن أيمن نور، وقال إنه أوكل لشركة متخصصة للدعاية إلى المظاهرة، وستحضرها أجهزة الإعلام الصحفية والتلفزيونية. تحدثت مع أنّا والصديق الأمريكي عن المظاهرة وأملنا أن تحظى بحضور واسع وآثار طيبة يتم على أساسها الإفراج عن أيمن نور وكل المعتقلين بقانون الطوارئ. ضحك صديقي الأمريكي مشيدًا بدور الفتاة التونسية في الدفاع عن أيمن نور، وقال: لو كانت موجودة وقت أن كان صديقك سعد الدين ابراهيم في السجن لربما ساعدت بنشاطها في إخراجه سريعًا.

٢ ـ في يوم السبت ٢٥ مارس (٢٠٠٦) ذهبنا مبكرًا للساحة المفتوحة أمام البيت الأبيض للمشاركة في المظاهرة الموعودة، كان معي زوجتي وأبنائي. كانت الساحة مزدحمة بالناس، معظمهم أمريكيون من ولايات أخرى معهم أجهزة تصوير، لكن لا يوجد بينهم مصري واحد. بحثت أعيننا عن المظاهر المألوفة لأجهزة الإعلام والصحفيين فلم نجد أحدًا. في النهاية وجدنا مجدي خليل مع أنّا وأربعة آخرين من الرجال والنساء. إذن لم يعد هناك جمهور ولا صحافة ولا إعلام، مجرد حوالي دستة «أشراف» من المصريين عددهم أقل من اللافتات المكتوبة، ونصفهم تقريبًا هم أنا وزوجتي وأولادي. حملنا اللافتات وأخذنا نهتف ونحن نسير ذهابًا وإيابًا أمام البيت الأبيض بينما كاميرات الأمريكيين السياح تتابعنا تسجل بالصوت

والصورة. أثناء المظاهرة التحق بنا بعض المصريين، أحدهم جاء خصيصًا من نيويورك، فأصبح بإمكاننا أن نؤلف صفين من المتظاهرين، وهذا نصر ـ لو تعلمون ـ عظيم.

٣ ـ أخيرًا رأيت صحفية أمريكية جاءت لتستعلم الأمر. وجدتها فرصة للراحة من المشي والهتاف فانفردت بها بعيدًا عن المظاهرة آملًا أن تكتب عنها فنحقق شيئًا ما. سررت أن الصحفية تعمل في مجلة (weekly standard) التي تعبر عن المحافظين الجدد الذين يحكمون البيت الأبيض الآن، ومعروف أن هذه المجلة الأسبوعية شديدة التأثير على صانعي السياسة الأمريكية، وتوجد منها نسخة أسبوعية على مكتب الرئيس بوش. ذكرت للصحفية الشابة بعض أصدقائي من الكتّاب الدائمين في (weekly standard) فازداد اهتمامها بالحديث معي والتعرف إلي. تحدثنا كثيرًا عن أحوال مصر، وقد كانت طالبة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة ولها خلفية بما يحدث.

قلت لها: إن غزو أمريكا للعراق هو السبب في تعطيل الإفراج عن أيمن نور لأن أمريكا الآن في ورطتها في العراق أصبحت محتاجة لعون من الأنظمة الحاكمة الديكتاتورية، وبالتالي فقد تأجّل موضوع الإصلاح ليفسح الطريق أمام نجدة أمريكا من المستنقع العراقي. أي تعيّن على المناضل أيمن نور أن يدفع الثمن من حريته وصحته». قالت: ولكن أمريكا قد ذهبت لإقامة الديمقراطية في العراق؟» قلت: قبل إقامة الديمقراطية كنظام حكم لا بد من إقامة ثقافة الديمقراطية بطريقة سلمية بين طوائف الشعب، وهذا ممكن أن يتحقق في مصر بإرساء حرية الفكر والتعبير والعقيدة والدين، وتطهير النظام القانوني من كل القوانين سيئة السمعة حتى يشعر المثقفون بالأمن، والإفراج عن كل المعتقلين السياسيين. أي لا بد من الإفراج عن أيمن نور وكل العشرين ألف معتقل من كل الاتجاهات كي نقيم إصلاحًا حقيقيًا سلميًا في مصر. قالت: ولكن معظم المعتقلين من

الإخوان المسلمين والإرهابيين؟ قلت: أنا أكبر خصم لهم ولكن لا أرضى بوضعهم في السجون لمجرد العمل السياسي السلمي. وقلت: أمريكا أخطأت بغزو العراق وهي الآن تدفع الثمن، وقد أعلنت هذا هنا في واشنطن في مؤتمرات أمريكية عديدة قبل الغزو وبعده، وتنبأت بالفشل الذي يحدث الآن، وقلت إن العراق سيكون أفظع من فيتنام بالنسبة لأمريكا. قالت: كيف؟ قلت: في فيتنام غابات تقلل عدد الخسائر البشرية بينما العراق مناطق مكشوفة مفتوحة وتجمعات بشرية ضخمة تغري بالعمليات الانتحارية. فيتنام شعب واحد لهم دين واحد، أما العراق فينقسم إلى عناصر مختلفة عنصريًا ودينيًا ومذهبيًا وثقافيًا، وبينهم جميعًا ميراث تاريخي من الاقتتال الطائفي، وقد أفلح بطش صدام حسين في إرهاب الجميع، ثم أدى الغزو الأمريكي إلى رفع الغطاء عن كل هذه الدمامل فانفجرت ووضعت البلاد على شفا حرب أهلية. هذا عن السكان والتاريخ ولكن الجغرافيا العراقية أيضًا تحتم فشل الغزو الأمريكي لأن حدود العراق الطويلة تجعل من العسير ضبطها حتى في الأوقات العادية، ومعظم هذه الحدود تتلامس مع شعوب تكره أمريكا، من إيران وسورية إلى الأردن والوهابيين في السعودية. ومن السهل تسلل المقاتلين عبر تلك الحدود ليطيلوا أمد الحرب وليزيدوا غرق أمريكا في المستنقع العراقي. قالت: ولكن توجد في العراق الآن بداية نظام ديمقراطي. قلت: هي ناحية إيجابية أخاف عليها من الطائفية والتشاحن بين أرباب الطوائف. أما المشكلة الكبرى فهي قيام أمريكا بتسريح الجيش العراقي فاختفت الأسلحة بعض الوقت ثم ظهرت الآن في أيدي الفرقاء المتصارعين يقتلون أنفسهم بأيديهم في الشوارع والمساجد والمقاهي والأسواق. وقلت: من المضحك أن تذهب أمريكا إلى العراقيين بجيش يحتل بلادهم ليعلمهم الديمقراطية. ساعدوهم أولًا على فهم الديمقراطية من خلال دينهم الإسلامي، وبعدها سيرحبون بكم كأصدقاء. أما أن تحتلوا بلادهم وتهينوا كرامتهم باسم الديمقراطية فهذا لا ينبت إلا الحرب طويلة الأمد. إن الحرب هي أعتى

مشكلة ولا يمكن للحرب أن تكون حلًّا. وفي الإسلام فإن الحرب هي ضرورة استثنائية للدفاع عن النفس حين تتعذر كل الطرق السلمية. قالت: وكيف كان يمكن طرد صدام حسين بدون حرب؟ قلت: كان يمكن ذلك بالضغط عليه وتخويفه والوصول إلى حل وسط معه بأن يترك العراق مع أسرته وأمواله، ثم تقوم حكومة مدنية تؤسس للإصلاح تحت حماية الجيش. لو فعلت أمريكا ذلك لأنقذت سمعتها وآلاف الضحايا من الأمريكيين والعرب، وهذا ما قلته قبل الغزو الأمريكي ولم يلتفت له أحد. وقلت لها أخيرًا: لا أريد لبلدي مصر أن تكون عراقًا آخر. لا يزال في جعبة أمريكا الكثير من أوراق الضغط على مبارك، منها أرصدته في أمريكا والغرب. لا بد من الضغط على مبارك ليقيم إصلاحًا سلميًا، ويترك الحكم ويعيش بأسرته في مكان آمن فيما تبقى له من عمر. وبذلك نقيم إصلاحًا بدون دماء.

٤ ـ توقعت أن تكتب الصحفية Abby Levin كل ما قلته عن العراق ومصر وأسس الإصلاح، ولكنها لم تفعل، بعثت لي بالإيميل بما كتبته، وهذه هي ترجمة مقالها في :(weekly standard) (الديمقراطية في وادي النيل) مجموعة صغيرة من المتظاهرين تجمعوا أمام البيت الأبيض يوم السبت الماضي لمناصرة الإفراج عن السجين السياسي المصري أيمن نور. حملوا لافتات ورددوا (أوقفوا دعم مبارك، أوقفوا دعم الديكتاتوريين، أفرجوا عن أيمن نور). المجموعة المتظاهرة كانت من ضمنها الدكتور أحمد صبحي منصور وأفراد عائلته. منصور هو مفكر مصري وزميل أيمن نور، وكان قد تعرض للسجن في مصر قبل سفره للولايات المتحدة وحصوله على اللجوء السياسي في سنة ٢٠٠٢، منصور ضمن مجموعة كبيرة تضم سياسيين وباحثين وصحفيين تعرضوا للسجن بسبب انتقاد النظام والدعوة إلى الإصلاح. من هو أيمن نور؟. الحكومة المصرية سوف تقول إنه مجرم قام بتزوير مئات من التوقيعات حتى يحصل على الموافقة الرسمية لحزبه الليبرالي العلماني (الغد). مناصرو أيمن نور يقولون إنه سياسي ذو

كاريزما وضع في الحبس خلال سنة الانتخابات التعددية حتى يستمر الرئيس مبارك في حكمه. في أكتوبر ٢٠٠٤ قبل أي اتهامات ضد نور، كان نور عضوًا في البرلمان المصري وانتخب رئيسًا لحزب الغد الذي حصل قريبًا على الاعتراف الرسمي. الحزب يدعو إلى حقوق المرأة والسوق الحرة وإصلاح الدستور. ودعا نور ـ بوصفه رئيسًا لحزب الغد ـ إلى تقليل صلاحيات الرئيس المصري.

كان هذا بمثابة تحدٍ لـمبارك الذي ما زال رئيسًا لـمصر منذ ٢٥ عامًا، ظل خلالها في موقع القوة، وتعلق جميلة اسماعيل زوجة أيمن نور بقولها على نظام مبارك «ديمقراطية الزهايمر». وعلى الرغم من أن نور قد حكم عليه بالحبس خمس سنوات في ديسمبر ٢٠٠٥، فإن معاركه القانونية قد بدأت بعام قبلها. في صباح السبت من يناير ٢٠٠٥ قرر البرلمانيون المصريون حرمان أيمن نور من حصانته. علم نور بالاجتماع قبل نصف ساعة من بدايته وهم بالتوجه إلى البرلمان ليجد الاجتماع قارب على النهاية والبوليس في انتظاره للقبض عليه بتهمة التزوير، وظل في الحبس لمدة ٤٥ يومًا، وخلالها أعلن مبارك قيام أول انتخابات ديمقراطية رئاسية في الخريف. وعقب الإفراج عنه قام بالترشيح مع ٩ مرشحين غيره للرئاسة. وحصل نور على المركز الثاني بنسبة ٧٪، بينما قالت المصادر المستقلة إنه حصل على ١٣٪. الانتخابات لم تكن نموذجية حيث قتل ١٠ أفراد في أعمال عنف متعلقة بالانتخابات، وتشير المصادر إلى قيام قوات أمن الدولة بمنع البعض من الإدلاء بأصواتهم، إلى جانب القبض على نور. القبض على نور جاء في لحظة مناسبة لـمبارك، وقد علّق عليه المتحدث باسم الولايات المتحدة بقوله إن التوقيت لم يكن ملائمًا، فقد خسر جميع مرشحي حزب الغد، ويؤكد نور إنها حركة متعمدة من الحزب الوطني برئاسة مبارك فقد صدرت التعليمات من أعلى المستويات بعدم فوز حزب الغد بأية مقاعد.

في الشهور السابقة للانتخابات كان على نور مهمة مضاعفة تضم الترشيح والمحاكمة، ويقول نور إنه لم يعرف المتهمين معه الذين ادعوا أنهم ساعدوه في تزوير التوقيعات في تأييد حزب الغد. وعقدت الجلسات الأولى في قاعة محكمة صغيرة مليئة بقوات الأمن حتى يمنعوا الصحفيين من الحضور. القاضي عادل عبدالسلام جمعة رئيس المحكمة يطلق عليه نشطاء حقوق الإنسان لقب قاضي النظام، وقد رفض جمعة طلبات الدفاع بالحصول على الوثائق التي يدعون تزويرها أو حتى نسخة منها. أحد المتهمين (أيمن اسماعيل حسن) سحب اعترافه خلال المحاكمة قائلًا إن أمن الدولة هي التي أجبرته على الاعتراف، ورفض رئيس المحكمة تدوين سحب الاعتراف في محضر الجلسة، وبعد عدة طلبات سمح بإضافته أخيرًا، ولكن رفض طلب حسن بالحماية قائلًا إن أي شيء يحدث خارج المحكمة ليس من مسؤوليته.

وقد علق جوزيف ستورك نائب رئيس هيومان رايتس واتش في الشرق الأوسط على المحكمة قائلًا (إنها أسوأ دعاية لأجندة مبارك الإصلاحية المزعومة، وأسوأ دعاية للقضاء المصري). إن الحكومة المصرية لا تسمح أن يتم انتقادها. الشخصيات التي تمثل تهديدًا للنظام مثل نور يتم إسكاتهم بحدة. متظاهرو نور أمام البيت الأبيض دعوا إدارة بوش إلى الضغط على الحكومة المصرية من أجل إطلاق سراحه، لم يكفهم قيام الولايات المتحدة بشجب حبس نور. ويشجع المتظاهرون قيام الولايات المتحدة باتخاذ إجراءات ضد الحكومة المصرية، ويعلق على هذا مجدي خليل المساعد في تنظيم المظاهرة بقوله «إن أمريكا لها ورقة ضغط قوية على مصر: هي المعونة الأمريكية» ومن غير المرجح أن تقوم أمريكا بذلك، على الرغم من أن حبس نور قد أجل مفاوضات التجارة بين مصر وأمريكا لأربعة أشهر، حيث إن إدارة بوش قد تراخت في موقفها من قضية أيمن نور في الشهور الأخيرة حيث وصفت كوندوليزا رايس موقف نور أنه «عائق». وفي الشهور القادمة يتعين على الإدارة الأمريكية تقييم كيفية

مخاطبة موقف أيمن نور بطريقة تساير أجندتها الديمقراطية وحقوق الإنسان في الشرق الأوسط بغض النظر إن كان يعني الصمت أو غيره.) انتهى المقال، وهذا هو الرابط لمن يريد قراءة النصّ الإنجليزي:

http://www.weeklystandard.com/Content/Public/Articles/000/000/012/034kggwf.asp?pg=1

٥ ـ نعود إلى مظاهرة السبت العجيبة. فبعد حوالي ثلاث ساعات من السعي ذهابًا وإيابًا وهتافًا في طقس شديد البرودة انفض الجمع الضئيل وبقيت مع أسرتي في الحديقة المجاورة. جلست متعبًا مرهقًا مع زوجتي وابني الأكبر محمد بينما أخذ بقية أولادي يلعبون الكرة. أخذت أفكر فيما فعلته بنفسي؛ شيخ أزهري مثلي يلزم بيته معظم الوقت يكتب ويقرأ ويبحث ويجتهد، ولكن يتحامل على نفسه ـ وهو يقترب من الستين ـ ليسير في مظاهرة ضئيلة في الصقيع القارص في واشنطن يهتف مطالبًا بالإفراج عن المعتقلين ظلمًا في وطنه، بينما آلاف الشيوخ في دفء القاهرة ينعمون بعطايا السلطان ويهتفون باسمه في غرف أجهزة الإعلام المكيفة لا يؤرقهم صرخات المظلومين ولا آهات ذويهم المنكوبين. وددت لو كنت في مظاهرة حافلة حاشدة تستحق حضوري، أو على الأقل تحضرها أجهزة الإعلام من صحافة وتلفزيون. إن صديقي الأمريكي الفلسطيني الأصل كمال نعواش رئيس منظمة «تحالف المسلمين الأحرار ضد الإرهاب» أقام مسيرة في واشنطن في الصيف الماضي، كان عدد الحاضرين من الصحفيين والمصورين أكبر من عدد الحاضرين من المسلمين، بل كان معظم الحاضرين من المتحدثين أصلًا، وكنت من بينهم.

وقد نشرت أجهزة الإعلام الأمريكية ما قلناه فوصل إلى مئات الملايين من المتحدثين بالإنجليزية، وظل كمال نعواش ضيفًا على الإعلام الأمريكي بعدها مدة أسبوعين. أي إن الإعلام الأمريكي بحضوره قد عوّض نقص الحاضرين من المسلمين الأمريكيين. بل إننا جعلنا هذه النقطة في صالحنا حين كررنا أنه لو كانت هذه مظاهرة تنظمها مؤسسة (كير) المؤيدة

للوهابية في أمريكا لحشدت لها آلاف المسلمين الأمريكيين من المساجد الأمريكية، وهذا دليل لنا يؤيد وجهة نظرنا في ضرورة إصلاح فكر المسلمين الأمريكيين من داخل الإسلام. نجحت مظاهرة كمال نعواش برغم قلة من حضر من المسلمين لأنه استجلب الصحافة والإعلام بينما فشلنا في استجلاب الإعلام والناس.

وبقي السؤال حائرًا: لماذا نفشل ـ نحن المصريين ـ دائمًا، حتى في الإعداد لمظاهرة في عاصمة المظاهرات في العالم؟ أثناء التفكير لمحت اثنين من الشباب بملامح مصرية يأتون نحونا بسرعة كما لو كانوا يريدون اللحاق بأتوبيس العتبة. تعرفهم بسيماهم حتى لو كانوا وسط مليون شخص، نظراتهم الزائغة ولفتاتهم المريبة تؤكد أنهم من المخابرات المصرية. فاتهم حضور المظاهرة وجاءوها متأخرين على العادة المصرية الخالدة في التأخر عن كل موعد. انهالوا علينا مباشرة بأسئلة عن المظاهرة ومن شارك فيها وماذا كانوا يقولون وهل شارك فيها حزب الغد. تلاعب بهم ابني محمد بالكلام بينما ظللت أحدق فيهم وفي خيبتهم الثقيلة. فطنوا إلى أننا كشفنا حقيقتهم فتلعثمت عيونهم تتنقل بيني وبين ابني. جاء دور محمد فأخذ يستجوبهم: من أنتم ومتى جئتم من مصر ولماذا هذا الاهتمام بالمظاهرة. لملموا بقايا الحرج والكسوف وانصرفوا. عدت للتساؤل: لماذا تلاحقنا الخيبة ـ نحن المصريين ـ من دون باقي البشر؟ خيبة في الإعداد للمظاهرة، وخيبة حتى في مراقبتها؟ هل لأننا منذ خمسين عامًا نعيش في خيبات لا تنقطع؟ هل لأن الخيبة تأصلت في رأس السمكة ثم انتقلت للجميع من الحكومة إلى المعارضة؟ والى متى يظل المعتقلون المظلومون أمثال أيمن نور يدفعون ثمن خيبتنا وسكوتنا؟ هل لا بد أن يكون أيمن نور لاعبًا شهيرًا في الأهلي أو أن يكون نجم غناء مثل شعبولا أو نجم تمثيل مثل أحمد زكي أو سعاد حسني حتى تقوم من أجله المظاهرات؟ إن القاهرة تمتلئ بمئات الألوف من المتظاهرين إذا فاز الأهلي على الزمالك، وامتلأت بآلاف المتظاهرين في جنازة أحمد زكي وجنازة سعاد حسني،

والقاهرة على استعداد للتظاهر إذا ماتت فيفي عبده أو حتى نجوى فؤاد، بل إن القاهرة على استعداد للتظاهر إذا تكرمت الأخت الفاضلة نانسي عجرم بعقد مؤتمر صحفي في ميدان التحرير. لكن القاهرة ـ قاسية القلب ـ لا تسيل لها دمعة على أيمن نور وضحايا السجون والمعتقلات!!.

٦ ـ والعاقبة عندكم في.. المظاهرات!!..

✹ وأخيرًا

أقول للدكتور أحمد منصور

ᘓ وفاء للنبلاء

كأن الزمن، في غفلة منا، يرسم لنا خرائط جديدة للعودة إلى أنفسنا، إلى تلك اللحظات التي كنا فيها غائبين عن وعي النبل الذي أحاط بنا. هذا المقال، الذي عثرتُ عليه كما يعثر المسافر على رسالة في زجاجة على شاطئ الزمن، لم يكن مجرد كلمات، بل كان جسرًا عبر السنين، يربطني بأرواح لم تتردد في رفع صوتها حين كان صوتي محبوسًا خلف القضبان. أحمد صبحي منصور، مجدي خليل، أنّا، وكل من سار في تلك المظاهرة المتواضعة أمام البيت الأبيض، كانوا كالنجوم في سماء ليل دامس، لا ترى عيناك ضوءها إلا حين تتأمل بعمق. إن الوفاء لهم ليس مجرد كلمات شكر، بل هو دعوة لنا جميعًا لنستيقظ من غفلتنا، لنعيد النظر في ديوننا المؤجلة، تلك التي تتراكم في دفاتر ضمائرنا دون أن ندرك.

إن القاهرة، بقلبها القاسي كما وصفها منصور، ليست مجرد مدينة، بل هي رمز لأمة تحتاج إلى استفاقة. أمة تحتاج إلى أن تتذكر أن دموعها يجب أن تسيل للمظلومين، لا لنجوم الملاعب أو أضواء المسارح. إن الحرية ليست مجرد شعار، بل هي مسؤولية، واجب يقع على كل قلب ينبض بالإنسانية. فلنكن ممن يسددون ديونهم الروحية، ولنكن ممن يحملون

شعلة الأمل لمن هم خلف القضبان، ولنكن ممن يصنعون التاريخ لا بصمتهم، بل بصوتهم. اللهم، اجعلنا من الشاكرين، ومن الموفين، ومن الذين يلقونك بقلب سليم، نقي من أدران التقصير، ممتلئ بنور الوفاء.



أوراق من مذكراتي (٥٥)

الكلب.. وإبراهيم عيسى.. وحريّتي

سألتني زوجتي **دعاء حسن**:

لماذا أنت مقل علي غير المعتاد في كتاباتك في الأيام الأخيرة؟.

لم أجيب على السؤال، لكني قررت أن أكتب هذا المقال: ـ

✸ لم أكتب يومًا لأملأ فراغًا، ولا لأنني أحترف الحروف كما يحترف صديقي "جمال" نجار الشرق المسمار والخشب...

بل كتبتُ ـ دوما ـ لأنني بحاجة أن أتنفّس. ولأن الورق كان دائما رئتي حين تضيق أنفاسي، فالحبر هو دمي حين تجفّ عروقي.

الكتابة بالنسبة لي ليست هواية... بل حياة أخرى... أكثر صدقًا، أكثر وجعًا، لكنها الوحيدة التي عشتها واعيشها بكامل حريتي.

✸ أكتب أحيانًا أكثر مما ينبغي، كمن يفرغ قلبه لا محبرة، وكأن الحروف تنزلق من أطراف أناملي دون أن أستأذنها. أتنفّس عبر سطور لا ترى، وأصرخ في فراغ لا يسمع، ولكنني أعرف يقينًا أن الكلمات تصل... تصل لمن يختنقون دون أن يملكوا حق أن يقولوا: «أشعر بالألم».

✸ وأحيانًا... يُؤخذ مني حق الكتابة قسرًا، كما يُؤخذ النور من العين المجهده.

ما أقسى أن تُنتزع حريتك لا من جسدك...

بل من قلمك!

ما أقسى أن تملك ما تقول، لكنك ممنوع من القول... وأن تملك ما تكتب، لكنك محروم من الورق. عشت في حياتي هذه التجربة مرات عديدة

✸ لا أنسى ذلك اليوم الرمادي من ربيع عام ٢٠٠٠...

ثلاثة اتصالات في ساعات قليلة، من ثلاث صحف كنت أكتب فيها بانتظام: «أكتوبر»، «الأحرار»، و«الميدان».

اتصالات تختنق بالأسى وتتنصّل من المقال.

وكان آخرهم الدكتور صلاح قبضايا، رئيس تحرير "الأحرار" رحمه الله، الذي قال لي بصوت صريح كصفعة:

«هل اتصل بك رئيس تحرير مجلة أكتوبر؟»

قلت: «نعم، واعتذر عن نشر مقالي هذا الأسبوع».

فقال قبضايا: «وللأسابيع القادمة أيضًا...»

صمتُّ للحظة.

قال: «أفهمك ما حاولوا أن يهمسوا به: هناك قرار من فوق... أعلى من كل مقاومه».

✸ فهمت... كما يُفهم الوجع دون أن يُقال.

فقد كنت لتوي قد ترشحت لوكالة مجلس الشعب، وحقّقت نتيجة أربكت معادلة السلطة، وقلقت مضجع الرئيس.

فما كان منه إلا أن اختار الردّ على طريقته:

لا قلم، لا مقال، لا ظهور.

وتحوّل القرار إلى صمتٍ قاتل... لا يُدوَّن... لكن يُنفَّذ بدقّة مشرط.

✸ ورغم الحصار، لم أُسكت. كتبت...

ولكن في صحف لا تُطبع في مصر،

وفي منابر لا تُشرف عليها الرقابة،

وفي أرواح لم تكن بحاجة إلى تأشيرة عبور.

✸ ثم جاءت الضربة الثانية... أقسى، وأشد مرارة.

بعد أيام من أول انتخابات رئاسية تُوصف بـ«التعددية»، وجدت نفسي خلف القضبان.

في البداية، لم يُزعجهم قلمي... حتى زارني في السجن اللواء محمود وجدي، رئيس مصلحة السجون آنذاك، وقال لي بصراحة لا أعرف إن كنت أكرهها أم أقدّرها:

«الرئيس مبارك قرر منعك من الكتابة من داخل السجن».

✸ شعرتُ حينها أنني أُخنق لا داخل الزنزانة... بل داخل رأسي.

هل يُسجن القلب مرتين؟

مرة خلف القضبان، ومرة خلف صمتٍ مفروض؟

لكنني قاومت...

وكتبت...

وهرّبت كلماتي كما يُهرّب الحنين...

بأوراقٍ مطويّة،

بأنفاسٍ خافتة،

بعيونٍ تفهم أن الصمت... ليس دائمًا طاعة.

✹ حتى جاءت لحظة عدل مضيئة... لحظة كرامة وقعها حبر قضائي شريف.

حكمت محكمة القضاء الإداري، برئاسة المستشار النبيل أحمد الشاذلي، بحقي في الكتابة داخل السجن، وألزمت مصلحة السجون بتسليمي أوراقًا وأقلامًا وأوراق كربون شهرية.

✹ نفّذت السجون الحكم... ولكن بطريقتها.

سلّموني الأوراق، والكربون، والأقلام،

ثم جاءوني كل صباح للتفتيش،

يعدّون الورق ورقةً ورقة،

كأنهم يعدّون أنفاسي... خشية أن تخرج ورقة واحدة إلى النور.

✹ قالوا لي:

«الحكم أعطاك الحق في أن تكتب... لكنه لم يمنحك الحق في أن تخرج ما كتبت من السجن».

فصار الورق الممنوح لعقلي... مسجونًا معي في الزنزانة.

✹ لكن الله يلقي كيده حيث لا يُحتسب.

الحكم منحني أيضًا "دفتر كربون". لم أفهم الحكمة منه في البداية، إلى أن اكتشفت أن الشركات المصنعة لأوراق الكربون تضع بين كل ورقة وأخرى... ورقة زبدة رقيقة، تكاد لا تُرى.

✹ لم يكن أحدهم يعلم أن هذه الأوراق الشفّافة ستكون هي طوق نجاتي... كانت السجون تعدّ الأوراق فقط... لكنها لم تنتبه إلى مائة ورقة «خارج العد»، كانت تصلني رسميا، شهريًا بين الكربون. فصارت

تلك الأوراق الرقيقة، هي نوافذي اليومية للحرية.

✹ ثم حدث ما لم يكن في الحسبان. . .

في أحد أيام السكون الرهيب، دخل كلب من كلاب الحراسة زنزانتي بالخطأ.

دخل كأنه مُرسل من السماء،

فأصاب جميع الحراس الذهول، وعمّت حالة من الارتباك.

كانوا يخشون حتى الاقتراب من الكلب.

✹ تقرر استدعاء ضابط وحدة الكلاب البوليسية، ذاك الذي لم يكن من طاقم السجن، بل يأتي فقط لإطعام الكلاب، وفكّ قيودها مساء، وربطها مجددًا في الصباح.

✹ دخل الضابط زنزانتي. نظر إلى عينيّ، ثم إلى الكلب، وقال بهدوءٍ نادر كيف وردت هذا الكلب الشرس، هل أنت ساحر ام فيك شيء للّه

قلت: ربما الاثنين معا!

قال لي:

«هل يمكنني أن أقدّم لك شيئًا؟»

فقلت له، وكأنني كنت مستعدًا لهذا السؤال منذ سنوات:

«كل يوم، حين تطعم الكلب، ستجد بجواره لفافة صغيرة جدًا من الورق. . . فقط ضعها في جيبك واذهب بها إلى بيتك، وسيأتيك مكوجي من الجوار يحمل ملابسك للكي، ويجد تلك الورقة داخلها. . . هو يعرف تمامًا ما عليه فعله».

✹ هزّ الضابط رأسه. . . وفعل.

وبهذا، بدأت أعظم مغامرة حبر عرفتها حياتي.

كان المكوجي يحمل الورقة مطويّة بين الملابس المكويّة،

ويوصلها إلى منزلي،

فتأخذها زوجتي، وتُرسلها إلى الصديق العزيز إبراهيم عيسى،

لينشرها في "الدستور" كما هي:

طازجة... ساخنة... تحمل حرارة الزنزانة، وشجاعة ابراهيم عيسي، الذي لم يخضع لضغوط كثيره، لمنع نشر مقالي اليومي. او الكشف عن طريقه وصول كتاباتي يوميا اليه

✹ ظلّت تلك العملية تمضي في صمت...

والسجن يغيّر الضباط، ويستبدل الحراس، بل وينقل السجناء أنفسهم،

علّهم يجدون طريقة تمنعني من الكتابة،

لكنهم نسوا أن "الكلب" كان أكثر إنسانية من كثير من البشر...

وأن الكتابة لا تُمنع... لأنها لا تأتي من اليد، بل من الأعماق.

✹ كلما حاولوا سجن قلمي، وجدت نافذة في جدار المستحيل...

وكلما ضاقت الزنزانة، كتب الحبر طريقه نحو الضوء.

أوراق من مذكراتي (٥٦)

حين يعترف الجلاد في بكين .. ويصمت في مصر وفلسطين

○ قلبي يخفق في هذا اليوم من كل عام. . .(٢٦ يوليو)

فهذا اليوم ليس ككل الأيام، بل يحمل وجعًا خاصًا اسمه: اليوم العالمي لمناهضة التعذيب. إنه اليوم الذي تتعرّى فيه الدول أمام مرايا ضمائرها، وتواجه أبشع ما اقترفه الإنسان بحق الإنسان.

منذ نعومة أظافري، شغلتني هذه القضية حدّ الوجع، وكنت شاهدًا عليها منذ اعتقالي في بدايات الثمانينات، حين اصطدمت لأول مرة بوجه السلطة القبيح، وبجدران لا تسكنها العدالة، بل يُقيم فيها الرعب. ما رأيته وسمعته، ظل محفورًا في قلبي وعقلي. ولأنني صحفي قبل أن أكون سياسيًا، بدأت ـ وأنا نائب رئيس تحرير جريدة الوفد ـ حملة صحفية عام ١٩٨٧ تحت عنوان : «الداخل مفقود. . . والخارج مولود». لم تكن مجرد عناوين صحف، بل كانت صرخات أرواحٍ أُزهقت تحت سياط التعذيب المنهجي في سجوننا.

ثم شاءت الأقدار، وبعد أكثر من عقد، وفي أعقاب مشاركتي في أول انتخابات رئاسية تعددية في تاريخ مصر، أن أتحول من شاهد على جرائم التعذيب، في الثمانينات إلى ضحية له.

من سجن مزرعة طره، كتبت مقالًا بعنوان: «ماذا لو مات مبارك؟»،

نُشر حينها على صفحة كاملة بجريدة «الغد».

وفي اليوم التالي مباشرة، في ١٧ مايو ٢٠٠٧، تم اقتيادي إلى خارج السجن لمدة عشرين دقيقة فقط، وعدت بعدها بـ ١١ إصابة موثقة بالصور والتقارير، أبرزها تقرير الطب الشرعي الموقع من الدكتور سباعي أحمد السباعي. رئيس مصلحه الطب الشرعي.

لكن النيابة العامة ـ وعلى عادة القضاء في مصر ـ تجاهلت كل شيء، بل أهدرت التقرير والصور والبلاغات الحقوقية. لم يُفتح تحقيق واحد، ولم يُسأل أحد، رغم مرور أكثر من ١٨ عامًا. بل المُدهش ـ والموجع ـ أن من قاد هذه الجريمة تم ترقيته لاحقًا إلى مدير أمن محافظة المنيا، بينما أصبح اللواء عماد شحاتة، الذي أشرف على المهمة، محافظًا لسوهاج.

واليوم ونحن في رحاب الذكري الـ٢٨ لتوقيع اتفاقية مناهضة التعذيب وفي لحظة عجيبة من مفارقات التاريخ...

تخرج علينا الصين ـ بكل ما تمثله من انغلاق وقمع سياسي ـ باعتراف رسمي غير مسبوق. النيابة العامة الشعبية العليا في بكين أعلنت أنها ستُنشئ إدارة تحقيق خاصة لملاحقة عناصر القضاء والأمن الذين تورطوا في احتجازات غير قانونية، وتعذيب، ومداهمات تعسفية، وانتزاع اعترافات بالقوة.

هذا ليس خطاب علاقات عامة، بل هو اعتراف مكتوب بأن النظام القضائي الصيني مارس التعذيب، وبأن بعض القضايا ـ التي سُمح للرأي العام أن يعرفها ـ كانت نماذج فاضحة. منها مثلًا: محاكمة عدد من ضباط الشرطة في أبريل الماضي بتهمة قتل أحد المحتجزين تحت

التعذيب، وسجن آخرين في ٢٠١٩ لتجويعهم، وحرمانه من النوم حتى فارق الحياة.

وكان تقرير الأمم المتحدة أشار إلى ممارسات ممنهجة في الصين، وعلى رأسها:

استخدام "كرسي النمر" الذي يُقيَّد فيه المعتقل لساعات مؤلمة.

الصدمات الكهربائية المتكررة.

الحرمان القاسي من النوم.

الحبس الانفرادي الطويل.

التنكيل النفسي بالمعارضين.

هذه الممارسات استهدفت على وجه الخصوص الأقليات العرقية مثل الأويغور والتبتيين، فضلًا عن النشطاء والمحامين والمدافعين عن حقوق الإنسان.

أما مصر، فما زالت تفضل الصمت...عن جرائم تعذيب ممنهج ترتكبها في حق عشرات الآلاف من المعتقلين السياسيين

صمت بحجم الجريمة. لم تعترف النيابة، ولم يتحرك القضاء، ولم يُشكَّل أي جهاز للمحاسبة، وكأن أرواح الضحايا الذين يموتون يوميا لا تساوي شيئًا.

في هذا اليوم عام٢٠٢٥.

الذي اعترفت فيه الصين ورفضت القاهرة للان.. النُطق بالحقيقة...أشارك بكل فخر في ورشة تنظمها المؤسسة الدولية للتضامن مع الأسرى الفلسطينيين "تضامن»، بالشراكة مع المجلس العربي، في مدينة إسطنبول، تحت عنوان:

«الأسرى الفلسطينيون في سجون الاحتلال: مأساة التعذيب وغياب المساءلة الدولية».

ورشة تشرفني المشاركة فيها إلى جانب الرئيس التونسي الأسبق د. المنصف المرزوقي، ونخبة من الحقوقيين وأسرى محررين، في محاولة لإعادة تسليط الضوء على جريمة مستمرة منذ عقود.

الاحتلال الصهيوني لا يُمارس التعذيب كاستثناء، بل يعتمده كأداة إدارة وتصفية وترويض، وأحيانًا كوسيلة إبادة معنوية وجسدية.

في سجون الاحتلال، يُسجن الطفل والشيخ، المرأة والمقاتل، القلم والبندقية. في كل زنزانة حكاية قهر، وفي كل غرفة تحقيق سيرة صمود.

تحية إلى كل الأسرى الفلسطينيين...

إلى الصديق مروان البرغوثي الذي كتب الحرية من عزلته، ، وسائر الأبطال الذين صنعوا من القيود أعمدة كرامة.

إلى الأطفال الذين وُلدوا بين القضبان، والنساء اللواتي أُهينت إنسانيتهن، والرجال الذين يموتون كل يوم ولا ينكسرون.

وتحية لأحرار مصر خلف الأسوار...

لمن لا يزالون يدفعون ثمن كلمة، أو قصيدة، أو حلم بدولة عادلة.

إلى

الابن علاء عبدالفتاح

والصديق عصام سلطان

والاخ العزيز محمد البلتاجي

الي رئيس البرلمان الدكتور سعد الكتاتني ورفاقه من نواب البرلمان المعتقلين مع سائر الشرفاء،

الذين يكتبون الفصل النقي من حكاية هذا الوطن.

أيها القضاة. . .في مصر

الي سدنت العدالة الغائبة

سبقتنا الصين، واعترفت بجريمتها. أما أنتم، فقد حان وقت القول:

كفى صمتًا. . .

كفى تواطؤًا. . .

كفى طمسًا للحقائق.

افتحوا دفاتر جريمة الجرائم،

اقرؤوا سطور العار، التي سيكتبها التاريخ

وابدأوا من أبسط البدايات:

الاعتراف بأن في مصر تعذيبًا. . .

وأن من يستحق المحاكمة ليس الضحية، بل الجلاد!

أوراق من مذكراتي (٥٧)

حين يُصاب الحاكم بداء الأبدية... ويتحوّل الكرسي إلى إدمان

❁ لستُ أكتب من خلف الزجاج المعتم للتاريخ، بل من ضوء التجربة، ومن حبر السجون والبرلمانات والميادين.

أنا شاهدٌ على الذين جلسوا على العرش ولم يعرفوا كيف ينهضون، وعلى الكراسي التي نَحَتَتْ ملامحها في أرواح أصحابها حتى لم يعودوا يفرقون بين الذات والمقام.

❁ لم أكن شاهدًا على صعود جمال عبدالناصر، لكنني كنت وريثًا لجيله، وأسيرًا في ظل صوته المعلّق على جدران الذاكرة، بين حنينٍ شعبي ومرارة يونيو.

رأيتُ من بعده صعود أنور السادات واغتياله من مَن حسبهم أنصاره، ثم عشت حسني مبارك بكل ما فيه من غيابٍ حاضر، ومن سلطة بلا صوت، ومن دولةٍ تدير نفسها نيابةً عن زعيم لا يغادر مقعده حتى في الخيال.

❁ لا أسرد ما كُتب في الكتب، بل ما كُتب على جلدي.

رأيت السلطة حين تتحوّل إلى إدمان، والحاكم حين يصبح مريضًا لا يعلم أنه مريض.

فالكرسي، كما أخبرنا الراحل الدكتور أحمد عكاشة، ليس قطعة أثاث... بل حالة عصبية.

هو محفّز قوي للدوبامين، المادة التي يفرزها المخ حين يشعر بالانتصار، فيدمن الحاكم صوت التصفيق، ووهج الإحاطة، وعبارات الولاء.

۞ يفقد تدريجيًا قدرته على التمييز بين رأيه والحقيقة، بين نفسه والدولة، بين منصبه ووجوده.

يُصاب بما سماه علماء النفس السياسي «متلازمة الأنا العليا»:

حالة يرى فيها الحاكم أنه مركز الزمن، وموزّع الأقدار، وأن أي محاولة لنقده هي خيانة، وأي انسحاب له هو نهاية للعالم.

۞ كل من جلست معهم من أصحاب السلطة كانوا يظنون أنهم فوق الزمن، وأن التاريخ منحهم تصريحًا أبديًا بالإقامة في الكرسي.

لكن الكرسي لم يمنح أحدًا أبديته إلا ليبتلعه في النهاية.

من تشاوشيسكو إلى صدام حسين، من القذافي إلى كل من توهّم أن الشوارع لا تمشي إلا إذا قرر.

۞ في النهاية، لا يسقط الحاكم من الكرسي، بل من الذاكرة.

يسقط حين يتحوّل من مسؤولٍ إلى متسلّط، ومن زعيمٍ إلى ظلّ، ومن صورةٍ إلى لافتة ممزقة فوق حائط.

۞ هناك لحظة نفسية دقيقة تحدث في حياة كل ديكتاتور، لحظة يسقط فيها الحاكم من داخل نفسه، دون أن يدرك.

هي لحظة يفقد فيها القدرة على الاستماع، على التراجع، على الرؤية من خارج رأسه.

يُصبح كمن يجلس في غرفة بلا نوافذ، يكلمه الجميع، لكنه لا يسمع إلا رجع صدى صوته.

❁ رأيت هذا التجلّي في وجوهٍ كثيرة، بعضها في السلطة، وبعضها في المعارضة حين اقترب من الكرسي.

فالكرسي لا يميّز، بل يكشف...

ولا يُغيّر فقط من يجلس عليه، بل يفضحنا جميعًا، حكّامًا ومحكومين، حين نسمح له أن يتحوّل إلى وثن.

❁ كل ما كتبته ليس تأريخًا، بل اعترافًا...

اعتراف شاهد، لا يحمل سيفًا، بل ذاكرة...

ولا يطلب حكمًا، بل وعيًا.

❁ وفي نهاية هذه الورقة، أوجّه رسالة لا لجيلٍ واحد، بل لكل مَن غُرّر به بأن الحكم شرف لا يُرد، وامتياز لا يُحاسب.

أقولها لكل حاكمٍ أغمض عينيه عن الحقيقة، وظنّ أن الشعب أصم، وأن الكرسي صُنع على مقاس ظهره.

❁ إلى كل مستبدٍ، أقول:

الكرسي لا يحميك من الناس، بل يحمي الناس منك...

إن حافظت عليه في حدوده، وتركته حين يحين موعد الرحيل.

أما إن تمسّكت به، وجعلته امتدادًا لذاتك، فسيكون أول ما ينقلب عليك، وأول ما تشهد به عليك الأرض.

❁ أنا الشاهد...

وربما الناجي،

وربما المنفي من جنة الكراسي التي لم أسعَ إليها،

لكنني كنت قريبًا بما يكفي لأحذر...

ولأقول:

إن الحاكم الذي لا يعرف كيف يقوم عن الكرسي،
سيسقط عنه كما يسقط الحجر من على قمة الجبل،
بلا صوتٍ...
إلا صوت الندم



أوراق من مذكراتي (٥٨)

القرين والآخر. . .

نعم، قرأت هذه الرواية لذلك الكاتب العظيم ـ دوستويفسكي ـ ربما بعد مائة عام من كتابتها، لكن ما أدهشني حقًا أنني قرأتها مرتين، دون أن أدري! مرة بعنوان «القرين» وأخرى بعنوان «الآخر». . .

آخر ما كان يمكن أن يخطر في بالي أن الكتاب ذاته يتخفّى بعنوان مختلف. فالقرين ـ بحسب قراءتي الأولى ـ كان شبيهك الذي يلاحقك حتى في ظلّك، في حين أن «الآخر»، هو المختلف، الغريب، النقيض! ومع ذلك، حين عثرت على النسخة الجديدة بعنوان «الآخر»، لم أتردد لحظة في قراءتها مجددًا، رغم انكشاف خدعه الغلاف من اللحظة الأولى.

ما تغيّر، لم يكن العنوان فقط

ولا النص، بل حالتي النفسية بين المرتين. الأولى قرأته بعيون فتى غرير، والثانية بعيون امتلأت بتجاعيد الحياة وتجاربها، وفي كليهما وجدت نفسي في مأزق «ياكوف جولياديكين»، البيروقراطي الروسي الذي تطارده صورته الأخرى حتى الجنون.

في حياتي، لم أقرأ فقط عن القرين، بل عشت حالات منه، متكررة ومركّبة. . . في بعض الفترات شعرت أنني أعيش حالة اقتران نفسي

وفكري بل وسياسي أحيانًا مع رفاق درب، وأصدقاء العمر، مثل إيهاب الخولي، أو زملاء النضال السياسي مثل وائل نوارَه، والصديق الحبيب

هشام قاسم وكلاهما لم يكن فقط قيادي في حزب الغد، بل جزءًا من ضميري السياسي... بل إن حالات الاقتران تلك تجاوزت الأحياء، إلى الراحلين...

۞ كنت أشعر باقتران روحي مع ابي الروحي فؤاد سراج الدين باشا، ومع استاذي الدكتور الشافعي بشير أستاذ القانون الدولي، اللذين لم أشاركهُما عصرًا واحدًا بالمعنى الكامل، لكن قراءتي لهما ومواقفي المتقاربة مع إرثهما جعلتني أرتدي وجوههما حينًا... بل أرتجف تحت ثيابهما أحيانًا.

۞ أما أغرب تلك الحالات، فكانت مع رجل لم أعرفه يومًا قبل أن تجمعنا زنزانة واحدة في المعنى، لا المكان... إنه رئيس وزراء ماليزيا الحالي، دكتور أنور إبراهيم.

لم نتلاقَ قبل اعتقالي واعتقاله، ومع ذلك تشابهت بيننا أقدارٌ غريبة: نفس زمن القيد، تقارب في أسماء الأبناء، وتماثل في الظرف النفسي... التقينا للمرة الأولى بعد سنوات، في القاهرة، حين جاء مهنئًا بخروجي من الاعتقال، وقد لفتني ـ بل أذهلني ـ أنه هو من نبهني لهذا الاقتران...

۞ قريني الآخر، كان ـ وما زال ـ الكاتب والصحفي العظيم مصطفى أمين، الذي لا أخجل أن أقول إنه زرع فيَّ جينات الصحافة، رغم قِصر مدّة لقائي به. في سنواته الأخيرة هو من دافع عني ذات يوم، عام ٨٣، حين اعتُقلت دون تهمة، فكتب دفاعًا عني فكان أحد أسباب الإفراج

۞ . لم أنسه في السجن... بل طلبت كتبه في اليوم الأول. قرأت سلسلة «سنة أولى سجن» حتى «سنة عاشرة» كأنني أقرأ نبوءاتٍ كتبت لي، لا عنه.

❁ أحيانًا، كنت أبكي بين سطور مصطفى أمين... وأقول: كم كنت أحتاجك الآن يا أستاذي! كما احتاج دريفوس لـ إميل زولا في فرنسا... كنت أفتّش عن زولا الخاص بي، وكنت لا أجد سواه.

❁ قريني في حب مصطفى أمين، كان ولا يزال الصحفي الراحل وأستاذي الحبيب مصطفى شردي، الذي تعلّمت منه أن الصحافة مهنة، نعم، لكنها صنعة، وحرفة، وأمانة. وكان شردي أحد أكثر من فهم هذه الصنعة...

❁ أما المصطفى الثالث، الذي شعرت أنني قرين له ـ رغم الفارق الهائل في المقام والقامة ـ فهو زعيم الوطنية المصرية مصطفى النحاس، الذي أحسست دائمًا أنني أحمل من شراييه قليلًا... أحاول أن أتشبّه بحكمته، بصبره، بموقفه، لا بصورته.

❁ ولم يعوضني عن حرماني من أن أعايش النحاس إلا شرف معرفتي ومعايشتي لملاك الوطنية العربية رجل المثل والمبادئ الدكتور المنصف المرزوقي الرئيس التونسي الأسبق

❁ كثيرة هي الحكايات التي عبرت ذاكرتي وأنا أقرأ دوستويفسكي، لم أقرأه كروائي، بل كطبيب نفسي، كحكيم سياسي، كمؤرخ للروح. ولأنني درست علم النفس السياسي، وأدركت كيف تتحوّل الهوية إلى لعنة، والظلّ إلى تهديد، والمرايا إلى سجون، فقد أيقنت أن رواية «القرين» ليست مجرد قصة، بل مرآةٌ لكل حاكمٍ يرتعب من صورته، أو يُطارد ذاته التي خانها.

❁ «ياكوف» ليس مجرد موظف تافه، بل نموذج للإنسان حين يتهدده الآخر بداخله، لا خارجه... حين يُفتّت التشابه نفسه الذات، فيصير الشبه مرضًا، والاختلاف نجاة.

❁ لذلك، أقول إنني لا أنزعج ممن يقول إن فلانًا يقلدني، أو

يحذو حذوي، بل يسعدني... فقط أخشى عليهم من لحظة يتخلون فيها عن المعنى، ويحتفظون بالشكل. ففي هذه اللحظة، لا يكونون قرينًا... بل يكونون «آخر» لا يُشبهني، ولا يشبههم.

❁ فالقرين لا يُقلدك، بل يُكملك... أما الآخر، فلا بأس أن يختلف عنك، ما دام يحترم اختلافه، ويحترمك...

❁ وبين القرين والآخر، عشت حياتي، وكتبت أوراقي، وسجنت في زنزانات تشبه أفكاري، وحلمت بأن أجدني في من حولي، لا ضدي.

❁ وفي النهاية... لا أرجو إلا أن أكون مرآةً لمن جاء بعدي، لا شبحًا يطارده، ولا ظلًا يخنقه... فقط مرآة، صادقة، لها بريقها الخاص بها مهما مرت عليها العقود.

أوراق من مذكراتي (٥٩)

عمري الآن قرابة ألف عام...
ولا زلت أُولد عندما يطفئوني

لا ذاكرتي ولا مذكّراتي أرشيفٌ زمنيٌّ بارد، ولا مجرّد صندوق خشبيّ يعلوه غبار الأيام...

بل هي تركيب بانورامي هائل، سيمفونية مكتظة بالنوتات الموسيقية، تبدأ بمكاتيب كُتبت على أوراق الحب الأول، وتنتهي بمصحف أمي الذي لا تزال صفحاته تعبق برائحة السكينة.

في زوايا هذه الذاكرة، زمنٌ محفور على جبين أبي، وجرحٌ مقيم على جبين ابني، وأملٌ وُلِد من رحم اليأس، فعاند الهزيمة، وظلّ يمشي على ساق واحدة: اسمها «الكرامة».

كنتُ يومًا، في مطلع خريفٍ مصريٍّ قديم، رئيسًا لاتحاد طلاب الجمهورية، للمدارس الثانوية ومعاهد المعلمين والمعلمات، وكان وطني حينها يشبه قصيدةً مكسورة في دفتر حُكمٍ يتداعى.

كان سبتمبر يطلّ علينا كما لو أنه سيُعلن انقراض الأمل، وفي صباحٍ من تلك الصباحات المشحونة بالتوجس، اجتاحت البلاد واحدة من أعنف حملات الاعتقال السياسي... بمقاييس ذلك الزمن.

نحو ألف وستمئة اسم، بينهم شيوخ وكُتّاب وطلاب... اقتيدوا إلى حيث الصمت الإجباري، وبقيت مصر شاهدةً على هذا الجُرح المفتوح.

لم تكن تلك المرة الأولى ولا الأخيرة التي تمتدّ فيها أيدي الظلم إلى كتفي.

فأنا من أولئك الذين وُلدوا في ديسمبر، في حضرة العواصف، فلا تهزّهم الرياح، بل تُولد في صدورهم صلابة وحنين.

رغم الخناجر التي زُرعت في ظهري، من أقربهم وأبعدهم، لم أفقد إيماني بهذا الوطن الذي أحببته حتى وهو يطردني منه، ويُنكرني كما لو أنني لم أكن يومًا شيئًا فيه.

على مدار خمسة وأربعين عامًا أو يزيد، مشيتُ وسط الحريق، لا ألتفت إلا لضميري. رافعًا شعاري:

«من يدخل الغابة لا يخشى حفيف الأشجار»

خضت عشرات المعارك، من اتحادات الطلبة إلى الانتخابات البرلمانية، ثم الرئاسية... ولم أكن أجهل طريق الأشواك، بل عرفته وأحببته... لأنه وحده الطريق الذي لا تُبنى عليه قصور الزيف.

قبل عشرين عامًا خضتُ أول انتخابات رئاسية في تاريخ هذا البلد المتعب.

كنت أعلم أن الطريق طويل، وأن العتمة كثيفة، وأن التزوير أكثر تنظيمًا من الحقيقة...

لكنني كنت أراهن على الضوء، لا على الظلم والظلام.

واليوم، وبعد مرور ما يقارب عقدين على انتخابات ٢٠٠٥، لا تزال يد الله تمتحن صبري، ولا تزال هذه الذاكرة تنزف، كما لو أن كل عامٍ يساوي قرنًا من الجراح.

لا أدري كيف يُقاس عمر الإنسان...

أبعقارب الساعة؟ أم بعدد الخيانات؟

أم بكوابيس السجون؟

حين أنظر في مرآتي، لا أرى رجلًا في مطلع الستين...

بل أرى رجلًا يُشبه ألف عام من الغربة، والمنفى، والاعتقال، والعزلة، والمقاومة.

في سجني الخامس ـ وكان الأطول ـ لم أسمح لليل أن ينتصر عليّ.

أعوام طويلة كانت كافية ليجفّ القلب... لكن قلبي لم يجف.

كنت أكتب كل ليلة على جدران الزنزانة:

«قد يكون السجن محنة،

لكنه ـ في حضرة الإرادة ـ منحة.

فقد يُقيّدون معصمي،

لكنهم لن يُقيّدوا قلمي».

لم أخرج من السجن في ٢٠٠٩ منتصرًا، ولا مهزومًا... فقط، خرجتُ مُثخنًا بالخذلان، من غدر الخِلّان.

ثم خرجت ثانيةً بعد ثلاثة أعوام، لكن ليس من سجون مصر، بل من مصر نفسها... في ذكرى هذا الرحيل المر من عام ٢٠١٣، وكأنني أُودّع ظلّي وذكرياتي وبيتي ومكتبي دفعة واحدة.

لم يكن خروجًا... بل امتدادًا للألم.

بعد سنواتٍ منعوني فيها من كل شيء: عملي، نقابتي، حزبي، مكتبي، اسمي... حتى صورتي في الصحف لم تكن تُنشر إلا مشفوعة بالتشويه.

أحاطوني بالوشاة، سكبوا النار في بيتي، وعلى مقرّي، وأحرقوا ـ معهما ـ ما تبقى من الشعور بالأمان في الأوطان.

لكنهم لم يعلموا أنني لا أُهزم حين أُطعن... بل أُولد.

في كل مرة ظنّوا أنني انتهيت،

كنت أفتح في داخلي نافذة جديدة...

وأتنفّس من خُرم إبرة.

الحياة كانت ـ ولا تزال ـ معركة،

وقلبي لم يكن يومًا ملعبًا...

بل ساحة قتال، لا تعرف الانكسار.

واليوم، بعد أكثر من أربعة عقود من النضال، لم يتبقَّ لي سوى حلمٍ واحد:

أن أعود إلى وطني حرًّا،

أن أكون الصوت الذي لم يُصادر،

والرمز الذي لم يُكسر،

والوجه الذي لم يُغيَّب في ألبوم صور المعارضين المنسيين.

فرمانات الاغتيال التي استهدفتني لم تقتلني... لكنها أوجعتني.

وما يُؤلم أكثر من الظالم، هو من تواطأ معه صمتًا.

ومع ذلك، لا أُعاتب، ولا أُبالي.

لأن اليقين في داخلي أقوى من بنادقهم،

وأكثر صبرًا من عسسهم ومخبريهم.

هم يراهنون على أعواد المشانق،

وأُراهن أنا على رقاب عصافير تطير وتحلم بالحريّة...

الحرية التي لا تموت بالبندقية،

ولا تُهزم بقوائم إرهابية،

ولا تُخرسها جراح الغربة،

ولا تُصادرها الحدود.

وإن كان عمري يُقاس بعدد السجون والمنفى والخذلان،

فإن ميلادي الحقيقي...

كان في كل مرة قلت فيها:

«لا».

أوراق من مذكراتي (٦٠)

رسالة حبٍ لـــ بلال الحبيب
وعوض... والطنطاوي... وقرطام...
ونبيل شرف الدين

✹ صباح السابع من يوليو ٢٠٢٥، وصلتني رسالةٌ لا تشبه سواها... كُتبت لا بالحبر، بل بالدمع والشرف. خطّها ابني في السياسة والذاكرة، الحقوقي والسياسي النبيل بلال حبيب، ذاك الذي لم يطلب شيئًا مني قط، لكنه أعطاني اليوم كل شيء.

✹ أعطاني اليقين أن في زمن الخذلان هناك من لا يزال يؤمن أن الكلمة موقف، والوفاء عقيدة، والسكوت ليس من شيم الأحرار. بلال الحبيب لم يكتب لي فقط، بل كتب عني وعنا جميعًا، عن زمنٍ صار فيه الصمت شرفًا زائفًا، والوفاء جريمة، والذكريات تُباع في أسواق الخوف.

✹ لا أنكر أنني شعرت بالألم وأنا أقرأ، لكني شعرت أيضًا بفخرٍ يكفي لعُمرين. فابني الذي تخرّج من مدرسة حزب الغد، لم ينسَ معلّمه، ولم يتبرأ من تاريخه، ولم يُخفِ صورة جمعتنا... كما نصحه البعض.

✹ تذكّرت في تلك اللحظة كل من صمت عن ذكر اسمي، وكل من هرب من واجب الكلمة، وكل من خشيني في العلن وأحبني في السر.

هؤلاء لم يكونوا يومًا أبناءً، ولا أصدقاء... بل كانوا «أرقامًا» في دفاتر الحذر.

✸ بعضهم ـ من كبار القامات والعناوين ـ إذا راسلتهم على واتساب برسالة «صباح الخير»، ردوا بإيموجي صامت أو بوردة بلا عطر... لكنهم حين يغادرون البلاد يتذكّرون فجأة أن لي في قلوبهم حنينًا مؤجلًا.

✸ لم أُعاتب أحدًا، ولا أُدين أحدًا... لكني لا أملك أن أمنع قلبي من أن يتألم. فكيف لي أن أفهم هذا الصمت ممن عاشوا معي سنوات الحرية، وتعلّموا كيف يكون الموقف؟ كيف صاروا يخافون من اسم، ومن ظل، ومن صورة؟

✸ في رسالة سابقة كتب لي العزيز نبيل شرف الدين يسأل وبحق:

«أما آن لك أن تشتاق لوطنك وأولادك وبيتك؟»...

فأجبته في نفسي وهو العزيز عليها:

نعم، يا صديقي...

لكن ماذا أفعل إن عدت غدًا؟

كيف أفتح باب بيتي ـ المغلق منذ سنوات بالشمع الأحمر ـ وأقول لأبنائي: «لم أبع صوتي... لم أبدّل جلدي... لم أتلوّن»؟

✸ نعم يا صديقي، لقد اخترت منفى القلب، ولم أهرب من وطن الذكرى... فأنا لم أغادره، بل بقي في صدري وفي قلمي وفي كل ما أكتب.

✸ ما فعلته لم يكن تمردًا على النعم، بل وفاءً لها. وما اخترته لم يكن انسحابًا من الوطن، بل تقدمًا في الصفوف الأولى لمواجهته عندما تحول من حضنٍ إلى قفص.

✸ كم أشعر بالامتنان لكل من لم ينسَ... ومنهم النبيل أحمد

الطنطاوي، الذي سُئل في لقاء على شاشة الـBBC: «هل التقيت بـ أيمن نور في لبنان؟»... فأجاب بكل صدق: «نعم»، دون أن يتلعثم أو يتحسّب.

✸ وكم أنا ممتنٌ للصديق المحامي الشريف محمد عوض، رئيس حزب الخضر، الذي لا تفوته فرصة لذكر اسمي بمحبة وتقدير، رغم أننا لم نلتقِ منذ أكثر من عشر سنوات.

✸ وممتنٌ أيضًا للمهندس النبيل أكمل قرطام، الذي كتب بالامس على صفحته كلمات من نور... كلمات تُشبه ما نُحاول أن نُبقيه حيًا في هذا الزمن الرمادي.

✸ لا أنسى عشرات بل مئات من الأسماء التي تستحق أن تُكتب في سجل الوفاء... لكن حرصي على سلامتهم يمنعني الآن من ذكرهم. سيأتي يومٌ أُقبّل فيه جباههم، وأقول لكلٍّ منهم: «شكرًا لأنك لم تخف».

✸ شكرًا لك يا بلال حبيب... لقد فتحت ثقبًا في جدار الصمت، تسللت منه نسائم الذكرى، وحروف الشرف، وبوح الأبناء الذين لا يُنكرون آباءهم.

✸ هذا الثقب هو ما جعلني أكتب، وأبكي، وأفتخر... لا لأنني قويّ، بل لأنني ضعيف بقوة من أحبوني دون خوف، وكتبوا عني دون تردد.

✸ شكري أيضًا يمتد لكل من رفض تزوير التاريخ... لكل من آمن أنني لم أكن مشروع فتنة، ولا خصمًا للدولة، بل كنت ـ وما زلت ـ رجلًا من رجال الوطن، وإن نُفِي في صمتٍ، وإن مُنِع من الظهور والذكر.

✸ البعض يريد طمس وجهي من الصور... ومسح اسمي من السجلات... وإنكار حقي في أن أُحَب أو يُقال لي «شكرًا». هؤلاء لن ينتصروا، لأن في هذا الوطن من لا يبيعون الذاكرة، ولا يتاجرون بالخوف.

✸ نعم، أنا أيمن نور، لم أُخفِ يومًا لفكري وتياري السياسي وقبلها انتمائي لبلدٍ صنعني وصنعت له.

لم أُنشئ جماعة محظورة، ولم أحمل سلاحًا... كل ما حملته هو كلمة، وموقف، وذكرى.

ربما أكون وقعت في اخطاء لكني لم ارتكب جريمه واحده في حياتي إلا حب مصر

فسجنت بسببه خمسة مرات ونفيت

✸ وها أنا اليوم أكتب من منفى القلب، وأسكن في وطن الذكرى... لأن الأوطان التي تُحبك في السر وتخشى اسمك في العلن، لا تُسكن... بل تُحمل في القلب، وتُكتب على الورق، وتُصان في ضمير الأبناء.

✸ شكرًا يا بلال، لأنك كتبت، وصدّقت، وأحببت... شكرًا لأنك لم تمسح صورك، ولم تُنكر ذكرياتك، ولم تخفِ اسمًا كان يومًا طريقك الأول

أوراق من مذكراتي (٦١)

رسالة ★للكاب والعمامة★
إطفاء الحرائق بالحرية

O ما أقساه من شعور... أن تقترب من خط النهاية، وليس في جيبك سوى مسودة حلم لم يكتمل، ونُسخ من ندمٍ مؤرّق، وبعض من صدى أغنيات قديمة صدّقتها، عن وطن سيكبر ... ويكبر.

O كم تمنّيت أن أكون مجرّد انسان، يُؤمن بأن القيمة في العطاء، لا في الضجيج... أن أقدّم نموذجًا يُشبه الإنسان أكثر مما يُشبه القائد او الزعيم...

O رجلٌ يتقن الإصغاء قبل الإلقاء، ويجيد الاعتذار قبل الإقناع، ويمنح الآخرين حقّ الاختلاف دون أن يشهر في وجوههم سيف اليقين.

O لم أطمح يومًا إلى التقديس، بل فقط، إلى التقدير... ولم أرَ نفسي إلا ساعي بريدٍ بين ما أؤمن به، وما أستطيع أن أحقّقه،

..بين المعنى، والحقيقة، بين ما هو واجب، وما هو ممكن.

O لكنني، في لحظات مكاشفتي مع ذاتي، لا أملك إلا أن أقرّ أنني احيانا خذلت نفسي والزمن...

خذلت ما أُتيح لي من عُمر، دون أن أُخرج منه ما يكفي من نور.

..كانت الخيبة أحيانًا منّي، وأحيانًا من الدنيا... ومرّاتٍ من هذا الوطن، الذي لا يكافئ أبناءه المخلصين له ،

إلا بالخذلان.

- ٦٠ عاما، حاولت أن أسبق المتعة بالفكرة...

والراحة ببذل الجهد،

لكنني وقعتُ، مثل كثيرين، في شَرَك التأجيل، وفي فخ التوازن، وفي تناقضٍ قاتلٍ بين الإنسانية. والضرورات العملية

..كنت أُبشّر بالعقل،

وأحتكم أحيانًا إلى العاطفة،

..أُقدّس الجدية، ثم ألتمس الأعذار... أُتألم من الجرح، ولا أهرب منه.

- أحزنني كثيرًا أنني لم أُكرّس وقتي بما يكفي لاكتشاف المعنى الأعمق للحياة: المعرفة.

..ذهبت ساعاتٌ وسنواتٌ خلف المعارك، ولم أُعطِ التأملَ في أسبابها ما يستحق

..لم أُمنح التأملُ فرصته كي يشفيني من ضجيج السياسة، ويعلّمني أن أكون تلميذًا في محراب المعرفة، لا خطيبًا على منبرها.

- لم أرفض أحدًا،

إلا من تعمّد أن يُقلّل من إنسانيتي... سامحت كثيرًا من أساؤوا بقصد، او بغير قصد، ومن طعنوا بدافع المصلحة،

كان ينبغي ألا أجد في قلبي تلك الرحابة التي تغفر لمن طعن عن سبق إصرار وترصّد..

- لم أتأخر يومًا عن طالب علم، او راي، او خدمه، ولم أرفض سؤالًا من باحثٍ عن حق. . . كنت دائمًا أرى في الآخر صورةً أفضل مني، أو مرآةً أرى فيها عيوبي. كنت وما زلت، أؤمن أن التواضع لا يُنقص من قامتي، بل يرفعني فوق منابر لا تراها العيون.

- حزني الحقيقي، الذي ينهشني احيانا، بلا رحمة، هو:

أن نهاية الطريق تلوح، والديمقراطية في بلدي لا تزال خارج الطريق. . .

. .كلما اقتربنا منها، هربت أكثر، كأنها سرابٌ صنعته الثورة، وأطفأه الاستبداد.

- أتساءل أحيانًا: هل علينا أن ننتظر عقود أخرى، كي نعيش، يومًا يُشبه ٢٥ يناير، دون أن يخطفه كاب او عمامة؟ هل سنرى وطنًا يُؤمن بأن السلطة خدمة، لا حكمًا؟

..وأن الحرية والكرامة الإنسانية

ليست رفاهية، بل ضرورة وطنية؟

- أُذكّركم ـ لا لأنني أعلم منكم،

بل لأنني عشتُ تجارب تؤكد ـ أن الديمقراطية ليست صندوقًا وصوتًا، بل روحًا وفهمًا، ويقينا، وسلوكًا،

. .وأنها تبدأ من تداول السلطة، لا توريثها، او تمديدها وتأبيدها. . .

..من حرية المعرفة لا احتكارها،

من الحق في الاختلاف، لا من قمع التنوع. . . من الشفافية، والصدق، والمساءلة، لا من التجميل والكتمان والتصفيق.

- كل ما نحن فيه، من كوارث وحرائق، وكل ما نخشى أن نكون فيه، لا يُعالَج إلا بالديمقراطية. . .

فلا إصلاح بلا حرية،

ولا حرية بلا عدالة،

ولا عدالة بلا كرامة تُحترم،

وعقل يُحتكم إليه.

- لن أزعم أنني كنت دومًا المثال، والقدوة، لكنني حاولت...

وإن فشلت احيانا..

فليكن فشلي درسًا لغيري، لا وصمة في وجهي...

وليكن هذا الاعتراف شهادة أُعلّقها في عنق كل من يأتي بعدي:

- لا تتركوا الحلم يتقادم،

- ولا تسمحوا للأمل أن يُستبدل بالاعتياد.

- فلعلّ في هذه الكلمات... بعض مما تمنّيت أن أفعله، وقد لا يمتد بي العمر كي أستطع فعله.

أوراق من مذكراتي (٦٢)

أسطورة هيكل

قرأتُ كثيرًا للكاتب الكبير الراحل جلال كشك، وقرأتُ أيضًا للصديق العزيز د. محمد مورو، مؤلفاتهما في نقد محمد حسنين هيكل.

وسمعتُ أيضًا من أستاذي الكبير مصطفى أمين، رحمه الله، روايات وحكايات لم تُنشر عن هيكل، وعن علاقته بما تعرّض له مصطفى وعلي أمين من تنكيل وتلفيق وقهر، كان نتيجته أن قضى مصطفى امين ما يقارب عقدًا من الزمان بين جدران السجن، بينما كان هيكل نفسه يومًا ما يعمل تحت إمرتهما في «أخبار اليوم».

ربما اكون رأيت الاستاذ هيكل لمرة واحدة فقط، كانت أثناء قرارات سبتمبر ١٩٨١. لم يكن لقائي به أكثر من نظرة عابرة، ولا كانت لدي يومًا أسباب كافية للانبهار أو حتى الإعجاب.

نعم كان اسمه كبيرًا، لكن أثره في وجداني كان باهتا، كظلٍّ يعبر الحائط دون أن يترك حرارة أو صدى.

ومع هذا، عندما قررتُ خوض الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٥، لم أستطع مقاومة إلحاح بعض الأصدقاء والزملاء في زيارته. لم تكن لدي رغبة أصيلة، ولم تكن لديه اي رغبه. ربما

- عن حكمة أو حذر ـ آثر أن لا يجر على رأسه متاعب من زيارة

مرشح لا ترضى عنه السلطة. وهكذا، أُغلق باب اللقاء قبل أن يُفتح، بدعوي ترتيبات المواعيد.

ومنذ سنوات، طالعت كتابًا بالغ الأهمية بعنوان «تفكيك هيكل»، للمؤرخ العراقي د. سيار الجميل. وقد أعدت قراءته مؤخرًا أثناء وجودي في بيروت، فأعادني الكتاب إلى صميم الأسئلة التي ما فتئت تؤرقني عن هيكل: مَن يكتب التاريخ؟ ولِمَن؟ وبأي ضمير؟

الكتاب لا يهاجم هيكل كصحفي، بل يُحاكمه كمؤرخٍ يتساند علي وثائق لم تُنشر، وسرديات لم تُراجع، وروايات قُدّمت بلهجةٍ المتفرِّج وهو في الحقيقة جزء من المشهد، بل من صانعيه. الجريمة ـ كما يراها الجميل ـ ليست في القلم، بل في نَسَبِ الحقائق إلى الذات، وفي استخدام الوثيقة كأداة للزينة السياسية، لا كأداة للبحث والصدق.

ينقض الجميل أبرز مزاعم هيكل، ومنها ادّعاؤه أنه حاور ألبرت أينشتاين، حوارًا لم يجد له الجميل أثرًا في أي سجل، ولا في أية وثيقة. ويتهمه باستخدام مصادر صهيونية وأميركية دون تمحيص، رغم ترويج هيكل الدائم لفكرة القومية والتحرر.

ينتقده كذلك لامتلاكه وثائق لم يسلمها لدار الوثائق المصرية، ولعدم ذكر مصادره أو توثيقها، وهي أبجديات أي كتابة جادة. بل يرى الجميل أن هيكل صاغ صورةً مثالية عن نفسه، وعن الحقبة الناصرية، مستخدمًا نفوذه لا كراوٍ للوقائع، بل كمُخرِج لرواية كاملة بعنوان: «أنا كنت هناك».

كتاب "تفكيك هيكل" ليس ترفًا أكاديميًا، بل محاولة جريئة لإعادة الاعتبار للعقل النقدي في مواجهة أسطرة الإعلامي الذي تحوّل إلى مرآة السلطة. وهو كتاب يَكشف لا عن سيرة رجل، بل عن هشاشة زمنٍ كاملٍ آثر فيه الناس التصفيق على التساؤل.

ولعل صمت هيكل عن هذا الكتاب كان أبلغ ردٍّ منه، أو ربما كان هروبًا ممن لم يُجِد التعامل مع النقد، حين يأتيه لا من خصم سياسي، بل من مؤرخ يدق جدران صمته بالمطرقة لا بالقلم.

هكذا قرأتُ "تفكيك هيكل" لا كقضية ضد رجل، بل كمرافعة ضد نمطٍ من الكتابة والسياسة والتاريخ... ضد أن نُصدّق كل من يكتب، فقط لأنه كتب. وضد أن نُسلّم لمن روى، فقط لأنه اقترب من النار، وعاد بشيء من الدخان.

قد يكون هيكل عبقريًّا في إدارة الكلمة، لكنه كان شريكًا في إدارة مشهدٍ يحتاج منا ـ بعد كل هذه السنين ـ إلى مراجعة لا مجاملة، وإلى نقد لا تقديس.

فالتاريخ، لا يُكتَب بالحب وحده، ولا بالهيبة، بل بالحقيقة، والحقيقة وحدها هي التي لا تموت.

أوراق من مذكراتي (٦٣)

١٠٠ شخصية تاريخية ومعاصرة في المركز الثقافي المصري بإسطنبول
لماذا نستحضر الهوية في زمن تغييب الانتماء والقوة الناعمة؟

قبل ثلاثين عامًا، وتحديدًا سنة ١٩٩٥، كنت ألقي محاضرة في كلية البنات بمصر الجديدة، وحين أنهيت حديثي، سألت الطالبات إن كانت بينهن من تسكن دائرتي الانتخابية في باب الشعرية. لم يرفع أحدٌ يده. خرجتُ من المدرج، وتقدّمت مني بعض الطالبات خلسة، وهمسن: «نحن من باب الشعرية...». سألت إحداهن: «ولِمَ لم تُجبن علنًا؟»

جاءت الإجابة كصفعة مؤلمة: «نخجل أن نقول إننا من باب الشعرية... ندّعي أننا من مصر الجديدة أو الظاهر. تلك المناطق على الأقل فيها قاعات أفراح ونوادٍ. في باب الشعرية، لا شيء إلا الفقر. نقيم أعراسنا فوق الأسطح، ونستقبل الخطّاب في المقاهي، لا في البيوت، لأن منازلنا لا تتسع حتى لأهلها.»

في ذلك اليوم، قررت أن أعيد تشكيل الميدان نفسه. قررت أن أبحث عن رمزٍ يحمل على كتفيه كرامة الحيّ. لم أجد أصدق من محمد

عبدالوهاب، موسيقار الأجيال، الذي وُلد هناك، وعاش وترعرع بين أزقته. لم يكن المشروع تمثالًا له فقط، بل إعادة الاعتبار لمنطقة بأكملها، ولبناتها اللواتي ظنّنَ أن لا رموز لهن.

❁ ذهبتُ لمحافظة القاهرة، وقابلت المحافظ آنذاك، المرحوم عمر عبدالآخر، وطلبت تخصيص قطعة أرض كانت تُستخدم لتجارة الخراف، وتفوح منها روائح تنكّر لها الميدان. حصلت على الأرض، ثم تواصلت مع وزير الإسكان د. محمد إبراهيم سليمان، الذي كلّف «المقاولون العرب» ـ وكان يرأسها حينها إبراهيم محلب ـ ببدء البناء.

❁ أطلقنا عليه اسم «مجمع نور الثقافي»، ووافق الوزير على أن أسدد التكاليف بأقساط ربع سنوية قيمتها ٧٥ ألف جنيه. أذكر أن المهندس محلب كان يحضر بنفسه لاستلام الشيكات.

❁ افتتحنا الميدان، وكشفنا الستار عن تمثال عبدالوهاب، بحضور زوجته السيدة نهلة القدسي، ولفيف من الوزراء، من بينهم فاروق حسني، وعلي الدين هلال، وعبدالرحيم شحاتة. وافتتحنا مجددًا مجمع نور الثقافي، بمكتبته العامة، وقاعاته المجانية للأفراح، وورش الثقافة والفن. صار المجمع ملتقى أسبوعيًا للفنانين والمثقفين والساسة.

❁ باب الشعرية لم تعد حيًّا منسيًّا. صارت تفتخر بأبنائها، وتعرف رموزها. صارت تلك الطالبات يرفعن رؤوسهن قائلات: «نحن من هناك.»

❁ ثلاثون سنة مرّت. التجربة غادرت مكانها، لكن روحها لم تغادرني. في إسطنبول اليوم، أرى جيلًا منفيًا، في العشرينات من عمره، لا يعرف عن مصر إلا ما يحكيه الآباء. لا ذاكرة، لا صور، لا لغة حقيقية، لا صِلة. فقط حنين خام، وارتباك في الانتماء.

❁ من هنا ولدت فكرة المركز الثقافي المصري بإسطنبول. ليست استعراضًا للتراث، بل مواجهة واعية مع النسيان، وتمسّكًا بالوطن الذي

يسكننا وإن غادرناه. لم نؤسّسه بتمويل رسمي، ولا بإذن من جهة، بل بوعي جماعي من أفراد آمنوا أن مصر تستحق أن تُروى... وتُستعاد.

❁ لا يحتمي المركز براية حزب، ولا يرفع لافتة معارضة أو سلطة. يحتمي فقط بتاريخ مصر، وبوجدانها، وبرموزها الذين لم يُسمح لنا أن نُحبهم علنًا في زمن الكراهية الرسمية.

❁ لا نكتفي فيه بصور الفراعنة وجداريات التاريخ، بل نقدّم مصر كما هي: مصر النبي يوسف، والعذراء مريم، وموسى الذي سمع صوت الله على أرضها. مصر الأزهر والكنيسة، عبدالناصر والسادات، أم كلثوم ونجيب محفوظ، المبدع والمنفي، الثائر والمصلح.

❁ لم تُولد مصر من رحم اتفاقيات سايكس ـ بيكو، بل خرجت من رحم التاريخ، أول دولة عرفها الإنسان. أول حرفٍ كُتب، أول قانون، أول هندسة، أول حضارة نُقشت على جدران المعابد. حتى اسمها ليس صدفة: «مصر» من «مصرايم» ابن نوح، أول ما كُتب بعد الطوفان، وأول ما عُرف بعد الفقد.

❁ ليس صدفة أن يُنسب المال إلى «المصارى»، ولا أن تُذكر في كل كتاب سماوي. لم يمر نبيّ إلا ومرّ بمصر، لا كعابر طريق، بل كمُستقرّ وملاذ. يوسف جاءها عبدًا فصار عزيزًا. موسى خرج منها بحرًا منقسمًا إلى طريقين. عيسى مكث بها سبع سنوات. كل هذا ليس دينًا فحسب، بل جغرافيا وقدرًا وتاريخًا.

❁ هذه ليست مقولات فخرٍ موروثة، بل مسؤولية معاصرة. نحن لا نعيش في ظل التاريخ، بل نحاول أن نصنع ظلًّا يشبهه... فهل ننجح؟

❁ المركز بدأ العمل علي تجسيد لمئة شخصية مصرية، تاريخية ومعاصرة، عبر تماثيل ومجسمات لرجالٍ ونساءٍ صنعوا معنى لمصر لا يختزل في السلطة، بل في الوعي. والفن والدين والفكر والسياسة منهم من

مات منسيًا، أو منفيا من سعد زغلول إلى الاب الذي خطب علي منبر الأزهر في ثوره ١٩١٩ منهم مفكرين ومنهم من طورد، ومنهم من لا يزال يصنع معنى الوطن يومًا بيوم.

❁ نُطلق قريبًا معرضًا بعنوان «مصر التي لن تغيب»، نعرض فيه ما خفي من صور ووثائق، وما طُمِس من وجوه. نبدأ أيضًا سلسلة «من النيل إلى البوسفور»؛ أمسيات حوارية يلتقي فيها مثقفون من مصر والعالم العربي في قلب إسطنبول.

❁ نؤسس مدرسة للغة للمقامات والهوية، لأبناء الجالية. ندرّس العربية، ونُعيد الحروف إلى أفواهٍ غابت عنها الأبجدية والانتماء والهوية». ندعم النحاتين، والرسامين، والكتّاب، والفنانين. وسنصدر موقعا باسم «رواق مصر»، تعرف العالم بنا كما نحن، لا كما يُراد لنا أن نبدو.

❁ جمعية الشرق للثقافة والفنون والإعلام ليست مجرد اسم أو رخصة أو مبنى، بل منصة للمقاومة الثقافية.

هذا ليس مشروعًا، بل عهد جديد مع مصر التي لا نريد لها أن تكون ذاكرة، بل وعدًا.

❁ مصر ليست جغرافيا تُرسم، بل ذاكرة تُستعاد. ومَن نسي مصر... نسي نفسه.

❁ المركز الثقافي المصري بإسطنبول هو أوّل حجر في مشروع أكبر، عنوانه: «مصر التي نُحبها... لا مصر التي نُخاف منها.»

وهدفه: استعادة الوطن من يد النسيان، وإعادته إلى قلوب أبنائه، حُرًّا كما كان.

أوراق من مذكراتي (٦٤)

الصمت خيانة....

❁ ٤٥ عاما أمارس فيها السياسة **كمضاد حيوي**، أحافظ به على انسانيتي...

فلم يكن ما اخترتُه في حياتي ترفًا نضاليًا، ولا نزوة معارضة على رصيف الوجاهة، ولا بحثًا عن كاميرا تلتقطني وأنا أصرخ في عتمة الصمت. كان قرارًا... خيار حياةٍ لا قسط فيه ولا مهلة سداد، خيارًا مكلّفًا، باكرًا، قاسيًا، لكن لا رجعة فيه.

❁ كان بوسعي أن أكون ضيفًا دائمًا على موائد القرار، أرتدي ربطة عنق من نوع «نعم»، وأتزيّن بابتسامات التواطؤ في حضرة السلطان. أن أكون صورة مطبوعة في أوراق الولاء، وصوتًا مجمّلًا في برامج «الاعتدال»، وأنال نصيبي من تورتة السياسة، التي تُقسَّم بميزان الخنوع، لا ميزان الدستور.

❁ لكن كيف؟! كيف أرتدي بذلة من البلاستيك الوطني، وأمثّل دورًا في مسرحية رديئة، بينما الوطن يختنق في غرفة العناية المركزة؟! كيف أشاركهم الزينة على تابوت البلاد، وأغني لقصص الإنجاز، بينما الذي يُنجز فعلًا هو اغتيال الكرامة وتآكل الوعي وتجريف الأرض؟!

❁ لم أملك في يدي سوى الحقيقة، وفي صوتي سوى الكلمة. لم

أكن راقِصًا في سيرك سياسي، أوزّع الأحجبة وأحرق البخور، وألقي خطبًا عن «فشل المحافظ» و«جشع التجار» و«زيادة الإنجاب»، بينما جثة الوطن لا تزال ساخنة.

❁ الحقيقة لا تُقال بماء الورد. الحقيقة مرّة. جارحة. تُقال بالكحول حين تعفن الجرح. وبالنار حين تستدعي الكي. ومن يحب بلده لا يربّت على جروحه، بل يواجهها، يطهرها، ولو احترق معها.

❁ قلت «لا»، بينما كان البساط الأحمر مفروشًا لكل «نعم». قلتها وأنا أعلم أنني لن أُمنح وسام شجاعة، بل سأُمنح تهمة خيانة. في جمهورية الصدى، كل «لا» تُعامل كفيروس، وكل «نعم» تُكرم كشهيد.

❁ قلت «لا»... فاتهموني بأنني خائن، وعميل، وعدو للأرض التي أمشي عليها، والسماء التي أتنفس منها. لكنني كنت أعرف، ويعرف الناس، من الخائن فعلًا، ومن العاشق الموجوع.

❁ لم يكن سهلًا أن تنهشهم سمعتي، وتُصاغ ضدي بلاغاتهم الأمنية، وأن يتم استباحة اسمي كل صباح ومساء... لكنني ظللت واقفًا. لا أنهار، لا أُبايع، لا أساوم. والناس... نعم الناس، لم تُخطئ الشمّ. تشمّ رائحة الكيد، وتعرف مذاق الظلم حين يُطبخ في مطابخ الدعاية السوداء.

❁ لم أدّع يومًا أنني أسقطت النظام، ولا أنني وحدي على الميدان، لكنني رفضت أن أكون طبالًا في موكب الطغيان، أو بائعًا للمواقف بالتقسيط، أو مروضًا للحقيقة على خشبة الإعلام المأجور.

❁ وقفت... كالمصلوب في ميدان الخذلان. لا من يسمع صراخي، ولا من يُوقف نزيفي. لكنني وقفت. ولم أتراجع، ولم أختبئ، ولم أتلطّ خلف قناع الوطنية المعلّبة.

❁ لا يعاقَب المظلوم في هذا الزمن لأنه ظُلم، بل لأنه لم يتحوّل

إلى جلاد. لا يُلام الجريح لأنه نازف، بل لأنه ما زال يؤمن بالعدالة، ولم يكره ظله بعد. وأنا... كنت هذا الرجل.

❁ لم أصرخ إلا بما همس به غيري خلف الأبواب. لم أشر إلى الداء، إلا لأنّ في قلبي مرارة، وفي عيني دمعة، وفي روحي صدق. لم أكن من المُبشّرين، ولا من المُدّعين، كنت فقط... إنسانًا يعرف أن «السكوت عن النار لا يطفئها».

❁ لم أصنع من نفسي نبيًا ولا مخلّصًا. لم أطلب الزعامة، ولا النجومية. لكنني كنت رقمًا عصيًّا في جدول الطاعة، صوتًا نشازًا في كورال المديح، ريشة مقاومة في لوحة استسلام معلّقة في قصر الحكم.

❁ لم أقترب من موائدهم، لم أتناول من أعلافهم، لم أنم في أكفان خفافيشهم. كنت طائرًا منفردًا... لا يُغريه قفص ولو كان من ذهب. لا يُغنيه تصفيق ولو صعدت له الجماهير على المنابر.

❁ السجن لم يُرهبني، ولا المقصلة أخافتني. ما جرحني حقًّا هو صمت النخبة، وانحناء من كانوا يومًا في الجبهة، وانقلاب المعارضات الموسمية إلى تصفيق موسيقي للنظام... حين تنطفئ الكاميرا.

❁ لا ألوم السلطة على قسوتها، بقدر ما ألوم من عاونها في الخفاء، من رفض عمر مكرم وصفق لمحمد علي، من هتف ضد الظلم وهو يكتبه ويُروّجه. هؤلاء ليسوا ضحايا... بل صُنّاع الظلال.

❁ وما زالت المسرحية تُعرض، وأدوار البطولة تُوزّع، والستار يُسدل على مشهدٍ وراء مشهد... لكن الجمهور سئم، والتصفيق انقطع... وأنا معه، لا أصفق بعد الآن.

❁ لا أزعم أنني غيرتُ مجرى النهر، لكنني قاومت أن أُجرّ معه. لا أزعم أنني قهرت الطغيان، لكنني قاومت أن أكون عباءة تُلبس له. رفرف قلبي بالحقيقة... فليُكتب هذا في دفاتر العناد.

ومن لا يملك شجاعة «لا»، فليبتلع صوته، وليتوقّف عن التغني بحب الوطن. فالوطن لا تُحبّه بالصمت، ولا تُنقذه بالسكوت، ولا تحميه بموالاة الجلاد. الوطن لا يحترق بورقة خريف... بل بخيانة الصمت.

أوراق من مذكراتي (٦٥)

في ذكري محمد نوح...
حين يصبح الجلباب وطنًا

بعض الأرواح لا تودّعنا، حتى حين تغيب، بل تُقيم فينا، تسكن زوايا القلب، وتتمدد في الذاكرة كعطرٍ قديم لا يبهت ولا ينطفئ. تمرّ السنون، وتتعاقب المواسم، لكن ثمة وجوهًا تظل مشرقة على جدار الروح، لا تفصلنا عنها المسافات، ولا تطمرها طبقات الغياب. وكنت كلما ذُكِر اسم محمد نوح، شعرت أنه لم يغب يومًا، ولم يسكن في الماضي كما يسكن الآخرون، بل ظلّ حيًّا في وجداني، يهمس لي بين حينٍ وآخر بلحنٍ، أو حكمة، أو ضحكة، أو جُلبابٍ لا يزال معلقًا في بيتي، وفي قلبي، منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا.

كان أستاذي... وصديقي... وأبي الروحي. لم يكن مجرد فنانٍ يشدو، أو مفكّرٍ يحلّل، أو سياسيٍّ يُنظّر. كان حالةً إنسانية تمشي على الأرض، تفيض دفئًا وصدقًا ودهشة. لم يتعامل مع الفن كترفٍ، ولا مع النضال كمهنة، بل كان كائنًا يحمل رسالته على كتفه، وضميره في جيبه، وابتسامته في قلبه، لا يُراوغ، ولا يُساوم، ولا يُخاتل. كان أحد أركان حزب الغد، ثم غد الثورة، لا بصفته فحسب، بل بروحه التي منحت الحزب نكهةً ثقافيةً ووطنيةً وفنيةً نادرة.

➢ ما زلت أذكر تلك المؤتمرات التي كنا نمضي فيها معًا، ونتجوّل بين الناس في الأزهر، أو الأزبكية، أو الموسكي، فيتدافع علينا المحبّون بهتافٍ واحدٍ: «عاش أيمن نوح!». كنت أبتسم، لا لأجل الخطأ، بل لأجل الحقيقة الخفية خلفه: كنا نُشبه بعضنا أكثر من الأب وابنه، أكثر من الرفيق ورفيقه. كنت أراه جزءًا مني، وكان يراني امتدادًا له. هو الذي منحني من فكره، من عاطفته، ومن حنانه الهادئ الذي يشبه لحنًا ناعمًا يفيض من عودٍ قديم في ليلة صيفية هادئة.

➢ ترك لي جُلبابه في منزلي ذات يوم، ولم يسترده. وكأنه كان يعلم أنني سأحتاجه في ليالٍ لا تُحتمل، وأيام يتراكم فيها الصمت والبرد والغربة. حملت هذا الجلباب معي من بلدٍ إلى بلد، كأنني أحمل جزءًا من روحه، من مصره، من ثورته، من حنانه. كنت ألمسه، فأسمعه. كنت أضمه، فأشعر وكأنني أعود طفلًا بين يديه.

➢ لم يكن محمد نوح صوتًا فنيًا فقط، بل كان صرخةً في وجه الظلم، ولحنًا للحرية، وأناشيد حبٍ لا تموت. كان صادقًا مع وطنه كما لم يكن غيره، غاضبًا على الجوع والفساد والانكسار، لكنه حنونٌ على الناس، يرى في الفقراء نبلًا، وفي البسطاء بطولة، وفي الأغاني رسالة لا تعرف المساومة.

➢ لقد علّمني أن النضال ليس خطابات، بل وجدان. أن الفن ليس استعراضًا، بل صدقٌ. أن السياسة ليست دهاءً، بل ضمير. وفي كل مرة كنت أضعف فيها، كنت أستدعيه ـ بصوته، بجُلبابه، بضحكته، بكلماته ـ فأتماسك، وأتذكّر أن هناك رجالًا لا يرحلون، لأنهم لم يأتوا إلى الحياة ليموتوا، بل جاؤوا ليبقوا فينا، وحولنا، وبيننا.

➢ في الذكرى السنوية لرحيله، لا أملك إلا أن أهمس لنفسي، ولمن أحبّه:

رحل نوح... لكنه لم يمت.

لا يموت من عزف لقلوبنا معنى الحياة.

لا يغيب من وضع على وجوهنا ضوءًا، وعلى أكتافنا جُلبابًا، وعلى قلوبنا وطنًا صغيرًا يؤوينا من وحشة هذا الزمن.

➢ رحمك الله يا محمد نوح...

ويا ليتك كنت هنا، نضحك كما كنا،

ونسير معًا... ليهتف الناس مرة أخرى:

«عاش أيمن نوح!»

ولعلهم كانوا على صواب...

فما زلتُ أنا... أيمن نوح.

أوراق من مذكراتي (٦٦)

الباشا
رجلٌ علّمني أن النبل حياةٌ
تُعاش قبل أن تُروى

هناك وجوهٌ

لا تكتفي أن تمر في حياتك،

بل تقيم فيك...

تسكب ملامحها في ملامحك،

وأفكارها في عقلك،

وقيمها في ضميرك،

ثم ترحل...

لكنها تترك في روحك جذورًا

لا تجفّ،

وفي قلبك نارًا لا تنطفئ،

وفي ذاكرتك ظلًّا لا يغيب.

❁ اليوم يمر

?5?2 عامًا

)ربع قرن(

على رحيل الفارس النبيل،

أبي الروحي،

أستاذي الجليل،

فؤاد سراج الدين.

❁ ربما أكون

قد تعوّدت بعده الفراق،

وبات الوداع شيئًا عاديًا،

لكن الفقد

لا يصير يومًا عادة.

❁ كل الذين رافقونا،

أو رافقناهم،

في نقطة ما،

تركونا . . .

ارتقوا . . .

وغابوا عن عالمنا.

❁ هكذا الحياة،

لا أحد يدوم،

ولا شيء يستمر،

لكن رحيل الكبار
يرحل معه جزءٌ منا،
ينطفئ شيءٌ فينا،
حتى الكلمات
تبدو مكرورة،
والمشاعر مستهلكة.

❁ بتّ أخاف مؤخرًا
التعلّق بأحد،
كي لا يؤلمني رحيله،
ولا يتبقى لي منه
إلا ذكرى
تطلّ عليّ كل عام
لتقول:
كان هنا عزيز...
رفقًا بنا،
فبعضكم بعضٌ منا،
ولحظة الفراق
لا تعرف تاريخًا،
لكن هناك من
لا يملك التاريخ
أن يهملهم.

1? تعلمت من فؤاد سراج الدين باشا:

أن أفعل ما يمليه ضميري الوطني،

دون افتعال أو اقتتال لحصد النتائج،

ولو نسبها البعض لنفسه.

في ذكرى رحيله الخامسة والعشرين

أذكر للتاريخ:

أنه كان وزير داخلية مصر

الذي صنع معركة الإسماعيلية،

التي أصبحت عيد الشرطة،

ولم يُكرَّم يومًا بهذه الصفة،

ولم يكترث بذلك...

ومن هنا تعلمت

ألا أحزن أو أبتئس

من محاولات بعض «الصغار»

سرقة دوري،

أو غش الناس بتقليدي شكليًا،

فالأصل يبقى،

والصورة تزول.

2? تعلمت من فؤاد سراج الدين:

أن كلمة "باشا" ليست مجرد لقب،

بل سلوك وقيم وأخلاق.

العسكر الذين ألغوا اللقب،

هم من توهّموا لاحقًا عليه.

مثلًا:

مبارك كان لقبه الوحيد بين رجاله هو "الباشا!"

❁ أذكر يومًا،

كنت خارجًا من قاعة البرلمان على عجل،

فسألني الدكتور زكريا عزمي:

إلى أين أنت ذاهب؟

قلت: «للباشا».

فقال بدهشة: «هو في شرم"!،

إذ خطر بباله أنني أقصد الرئيس مبارك.

3? تعلمت من فؤاد سراج الدين:

الكبرياء في المحن،

دون مزايدة أو مكايدة،

وبغير ادعاء أو بكاء.

صادروا أمواله وممتلكاته،

وأجبروه على العمل

في تجارة الانتيكات

ليأكل من عرق يده.

❁ شوّهوا سمعته وصورته،

وسجنوه مرارًا،

ثلاثين عامًا

اغتالوه فيها يوميًا،

لكنه عاد بشموخ وكبرياء،

ليعيد بناء الوفد،

ويضيف صفحات

في سجله الوطني،

متحديًا كل من

راهن على موته

قبل أن يموت.

* اذا كان طه حسين هو عميد الأدب العربي

فوائد سراج الدين يستحق بجدارة لقب عميد الأدب السياسي.

تعلمت من فؤاد سراج الدين:

الأدب في الخلاف قبل الاتفاق.

حين انتُخبت سكرتيرًا عامًا للوفد بالقاهرة،

قرأت لأول مرة «الكتاب الأسود»

الذي هاجم فيه مكرم عبيد

النحاس وسراج الدين.

سألته: لماذا فعل هذا مكرم؟

فقال:

«كان قريبًا من قلوبنا،

وأراد أن يختبر صبر وحب النحاس له».

هكذا كان. . .

رفيقًا حتى في العتاب،

مهذبًا حتى مع من طعنوه من الخلف.

⊙ تعلمت من فؤاد سراج الدين:

التواضع والإنصاف وذكاء الرد.

في ذكرى وفاة مكرم عبيد، سألته:

لماذا لا يُطلق اسمك على شارع كبير

أسوةً بمكرم باشا؟

فقال:

«اسم مكرم عبيد على شارع

يضيف لقيمة الشارع،

أما الشارع فلا يضيف شيئًا

لقيمة مكرم!».

❍ أهم..درس ❍

((. . . .للبعض أهدي هذا الدرس الهام

لعلهم يفهمون..ومن غيهم يفيقون))

❁ لم يكن فؤاد باشا يعيش في بحبوحة مالية دائمة،

لكنه كان أنيقًا في ملبسه ومظهره وسلوكه.

لا تهديه شيئًا إلا ويصلك فورًا أفخم منه.

كان البعض يراه "حريصًا"،

لكنه كان كريمًا في بيته،

لا تخلو مائدته من الضيوف،

فكل من مرّ بـ جاردن سيتي

ودخل قصره،

وجد طعامًا وشرابًا يكفي قبيلة.

❁ كان يحافظ على صورته في عيون الناس،

حتى أنه، بعد تأميم ممتلكاته وأمواله،

أحرق عودًا من خشب البامبو

ليبدو كسيجار مطفأ

يحمله بين أصابعه في الأماكن العامة!

أتذكر هذه الواقعة،

وأحمد الله كثيرًا

كلما سمعت إشاعات عني

يطلقها بعض النفوس المريضة،

القريبة أو البعيدة،

التي ترى في كل لمسة حضارية،

أو مسحة جمالية،

«سيجارًا كوبيًا» باهظ الثمن!

وهم لا يعرفون

أن قيمة خشبة البامبو الحقيقية

كانت فقط أنها بين أصابع فؤاد سراج الدين.

❁ رحل فؤاد باشا،

لكن دروسه باقية،

تتجاوز حدود السياسة،

وتسكن ضمير الأجيال.

علّمتني سيرته

أن الكبرياء لا يُقاس بالسلطة،

ولا القيم تُقاس بالمال،

وأن أجمل إرث يتركه الكبار

هو أن يجعلوا من حياتهم

مرآةً يرى فيها الآخرون

ممكنات النبل والوفاء

وسط عالم يزداد قسوة.

أوراق من مذكراتي (٦٧)

القهوة... والديمقراطية والشارع المصري

أول امس، وفي عزّ أغسطس، والحر ينساب من جدران إسطنبول

كما ينساب العرق من جبين النهار،

جلست إلى مكتبي أحتسي قهوتي التي تُشبهني:

مُرّة، ساخنة،

وموغلة في الصدق.

كان أمامي شاشة تبثُّ لقاء الرئيس مع ثُلّة من القيادات الإعلامية، التي لا اعرف منها إلا أحمد المسلماني، الذي عمل باحثًا معي في ثمانينات القرن الماضي بمركز الوفد للدراسات السياسية الذي كنت مديرًا له.

اللقاء الهام، الذي ترأسه الرئيس السيسي شرحه وحلله، الزميلان أحمد سميح والدكتور أحمد عطوان، وظلا لمده يقرآن ويحللان بعمق لغة الجسد كما يقرأ العرّاف خطوط الكف.

❁ لكنني ـ وسط سطور التحليل ورشفات القهوة ـ انتبهت لاكتشاف ربما تأخرت فيه أكثر مما ينبغي وهو:

هناك شيئان لا نُنتجهما في مصر... للان هما-:

القهوة، والديمقراطية.

❁ القهوة لا تنبت في مصر ،

فالتربة لا تعرفها،

والماء لا يعانقها،

والمناخ لا يغازلها.

ربما تركناها لشعوب تجيد احتضان بذورها.

❁ أما الديمقراطية، فنحرث الأرض بأنوفنا منذ قرن ونيف، وننثر البذور، ونصلي لسقيا الغيم، لكنها لا تُزهر لدينا!.

❁ بعد ثورة ١٩١٩، يوم تزاوج مطلب الاستقلال مع الدستور، غرسنا شجرة الديمقراطية في أرضنا. ومنذ ذلك الحين ونحن نسقيها بالعرق، والدم، ونحرسها بالآمال، لكنها لم تُثمر إلا بقايا سوداء، كتفل قهوة في قاع فنجان مقلوب.

❁ ربما لو أن الجهد الذي أضعناه في استزراع الديمقراطية أنفقناه على زراعة القهوة،

لكانت مصر اليوم غابة ممتدة من البنّ، تعطر الصباح وتسكب النكهة في فم النهار.

❁ الفارق بين القهوة والديمقراطية أن القهوة تُطهى في دقائق، وتفضح غشها رائحتها،

❁ أمّا الديمقراطية فتغشّها السلطات دون أن تشمَّ رائحة الخديعة إلا

متأخرًا، وحينها يكون قد فات أوان الإصلاح.

۞ القهوة تحتاج مالًا لتشتريها، أما الديمقراطية فلا تُشترى بعملة صعبة، لكنها تُباع في أسواق السياسة بعملة الصمت والرضوخ.

۞ نحن خبراء في القهوة: نميز الرديء من الجيد، والطازج من البائت، والنقي من المغشوش.

۞ جربوا خداعنا بالقهوة المصنوعة من الشعير، أو الحمص، أو الفاصولياء... فشلوا. لكننا، ويا للمفارقة، قبلنا ديمقراطية منزوعة النكهة، مشبعة بنشارة الخشب السياسية، وابتلعناها بلا مقاومة.

۞ لو أننا نفهم في الديمقراطية كما نفهم في القهوة، لما كانت مصر تُدار من فنجان واحد،

ولما كان مقعدها على مائدة العالم في آخر الصف.

۞ ربما القهوة ـ بكل مرارتها ـ أصدق من الديمقراطية التي تُقدَّم لنا.

۞ فالقهوة لا تكذب،

تُصارحك منذ الرشفة الأولى بطعمها،

لا تتجمّل، ولا تضع مساحيق النكهة.

۞ أما ديمقراطيتنا، فتُشبه فناجين مزخرفة تخفي في جوفها ماءً باردًا

بلا لون ولا رائحة، لكنها تُباع لنا على أنها شراب الحرية.!

۞ القهوة تعلّمك أن المرارة قد تكون لذيذة

إن كانت حقيقية،

۞ والديمقراطية المزيّفة تعلّمك أن الحلاوة قد تكون سُمًّا إن كانت مصطنعة.

۞ بين مرارة صادقة وحلاوة كاذبة، يظل الفارق مسافةَ وعيٍ لا تقطعها إلا أمة قررت أن تحرّر ذائقتها قبل أن تحرّر أرضها.

۞ «كما نختار قهوتنا...

يجب أن نختار حريتنا:

بنكهة صادقة،

بلا سكر سياسي، وبلا ماء كسراب الواهم.»



أوراق من مذكراتي (٦٨)

أحمد بهاء الدين في ٢٠٢٥
دينٌ في عنقي إلى يوم الدين

في مارس ١٩٨٣، كنتُ أعيش لحظة من تلك اللحظات التي تُشكِّل وعي الإنسان وتحدد ملامح مساره. كنتُ وقتها رئيسًا لاتحاد طلاب كلية الحقوق بجامعة المنصورة، أؤمن أن الجامعة منبر للحرية، وأن الطلاب شركاء في صناعة الوعي، لا مجرد متلقّين. دعوتُ أستاذنا الكبير أحمد بهاء الدين إلى ندوة طلابية، إيمانًا بأن الفكر هو السلاح الأقوى في مواجهة الجمود. غير أن الأجهزة الأمنية رأت غير ذلك، فألغت الندوة، وقررت اعتقالي، وكان وزير الداخلية آنذاك اللواء حسن أبو باشا.

لم أدرِ يومها أن القدر سيرسل إليّ ضوءًا من قلمين كبيرين في سماء الصحافة المصرية. كتب أحمد بهاء الدين في مقاله اليومي بجريدة الأهرام، الذي كان يحتل الصفحة الأخيرة تحت عنوان يوميات، كلمة حق يطالب فيها بالإفراج عني. وفي اليوم نفسه، كتب أستاذي الحبيب مصطفى أمين في مقاله الشهير فكرة، الذي كان يزين الصفحة الأخيرة من جريدة الأخبار، المعنى ذاته، بروحه الإنسانية المشرقة. كان موقفهما بالنسبة لي ليس مجرد تضامن، بل شهادة ميلاد جديدة لليقين بأن الكلمة أقوى من القيد، وأن الصحافة ليست مجرد مهنة، بل ضمير وطن.

❁ تلك المقالات، التي خطها بهاء الدين ومصطفى أمين في يوم واحد، صنعت دينًا في رقبتي، دينًا لا يسقط بالتقادم، بل يزداد رسوخًا مع الزمن. وكلما استعدتُ تلك اللحظة، أدركت معنى أن الصحافة، حين تكون صاحبة الجلالة بحق، تُصبح قادرة على رد الظلم وإنقاذ الأرواح.

❁ بعد أربعة أعوام، وفي صيف ١٩٨٧، كنت قد انتقلت إلى إقامة مؤقتة في لندن، بعد معركة طويلة مع وزير الداخلية زكي بدر. هناك، جمعتني الأقدار بلقاء استثنائي. كان الدكتور خالد جمال عبدالناصر، الذي عرفتُه أول مرة قبلها في بلجراد، حين زرتُه في بيته، وهناك التقيتُ بالصديق العزيز حمدين صباحي، وبالراحل الكبير سليمان الحكيم، وقت أن كان خالد متهمًا في قضية ثورة مصر الشهيرة، مضطرًا للهجرة المؤقتة عن وطنه. ظلّت تلك الذكرى محفورة في وجداني كأول خيطٍ يربطني بخالد الإنسان، المثقف، الوطني، والابن الذي حمل أثقال اسم أبيه ومحنة عصره.

❁ وفي لندن أيضًا، شاءت الأقدار أن يكون لقاؤنا الثاني مختلفًا. كنت في شهر العسل بعد زواجي، في مثل هذا الشهر من عام ١٩٨٧، حين دعانا خالد عبدالناصر وزوجته الكريمة إلى غداء سياسي ـ ودي على شرف أحمد بهاء الدين وزوجته. امتد اللقاء في مطعم قريب من السفارة المصرية قرابة ثلاث ساعات، لكنه كان في جوهره "وليمة فكرية" كاملة. خلاله، أهداني بهاء الدين نسخة من كراسة صغيرة بعنوان الذاكرة، أعدها نجلهزياد بهاء الدين، وكانت تحمل بين دفتيها مزيجًا من الحقائق والأوجاع المرتبطة بالقضية الفلسطينية. تلك الكراسة الصغيرة كانت بالنسبة لي بوابة لفهم أعمق للقضية، وكيف تتشابك الخيوط بين التاريخ والسياسة والإنسان.

❁ لكن ما بقي في قلبي من تفاصيل تلك الأيام لم يكن فقط الحوار أو الكراسة، بل لمسة إنسانية خالصة من خالد عبدالناصر. فقد كان، من فرط لطفه وكرمه ورقة شخصيته، يأتي كل صباح إلى الفندق الذي كنت

أقيم فيه في قلب لندن، ويضع أمام باب غرفتي باقة ورد جديدة، ثم ينصرف بصمتٍ نبيل، ليعود في اليوم التالي ويكرر المشهد ذاته. كانت تلك الباقات رسالة صامتة تقول: إن الصداقة موقف، وإن النبل صفة لا تُكتسب بل تُولد مع أصحابها.

❁ أذكر أن أحمد بهاء الدين، في حديثه على مائدة ذلك الغداء، قال عبارته الشهيرة: «السياسة ليست أن تقول للناس ما يحبون أن يسمعوه، بل أن تقول لهم ما يجب أن يعرفوه». هذه العبارة وحدها كانت درسًا في معنى الشجاعة الفكرية.

❁ تذكرت هذه الجملة الخالدة في ذاكرتي في الايام القليلة الماضية من شهر اغسطس عام ٢٥ ٢٠

تذكرت اننا احيانا نخضع الابتزاز عاطفي وارهاب فكري حتى ممن هم خارج السلطة، خاصة هؤلاء الذين يمتطون منصات على السوشيال ميديا ويتوهمون انهم يحتكرون الحقيقة وأنك ان قلت كلاما مغايرا لما يرددونه فقد صبأت او خرجت عن المله بعض الذين تربوا في مدارس لا تعترف بالأخر لا تريد ان تسمع الا صدى لأصواتها احيانا اجد نفسي اخوض معارك لا املك ادواتها من التسفل والتدني والافتراء والاجتزاء والغش والدعاء البطولة الزائفة والتدني في مستوى النقاش،

❁ بفعل هذه الأجواء المرضية افكر

مليا في الانسحاب من هذه المعارك ترفعا. . .لكن صوت الاستاذ أحمد بهاء الدين وهو يقول، هذه الجملة الخالدة يدفعني ان اقول كلمتي واطرح رأي وأنا أعرف مسبقا، ثمن الراي والصوت المختلف.

❁ عظمة بهاء الدين لا تقف عند مواقفه الأخلاقية والإنسانية فقط،

بل تمتد إلى إرثه الصحفي والفكري. فقد كتب مقاله الشهير السداح مداح ناقدًا سياسات الانفتاح الاقتصادي، فأغضب الرئيس أنور السادات، لكنه لم

يتراجع، بل حكى لي يومًا أن السادات اتصل به شخصيًا وناقشه في محتوى مقاله. هكذا كان الكبار يتعاملون مع الكلمة: يحترمونها، حتى وإن جرحتهم.

❁ لم يكن أحمد بهاء الدين صحفيًا عابرًا، بل كان مدرسة قائمة بذاتها. مدرسة علمتني أن الصحافة ليست فقط ما يُكتب على الورق، بل ما يُترك في ضمير القارئ من أثر. علمني أن الحقيقة لا تُجزأ، وأن الأمانة في الكلمة أثقل من كل مناصب الدنيا.

❁ اليوم، في ذكرى رحيله، أستعيد كل تلك الملامح: بهاء الدين الإنسان، والصحفي، والمفكر، والضمير. وأستعيد معه جيلًا من الصحفيين الكبار؛ من أمثال مصطفى أمين، الذين كانت أقلامهم تُكتب بالمداد والدمع، لا بالحبر وحده. جيل لم يساوم على شرف الكلمة، ولم يفرط في قدسية صاحبة الجلالة.

❁ وإذا قارنا جيلهم بجيلنا أو بجيل اليوم، نجد أن الفارق ليس فقط في الظروف، بل في المواقف أيضًا. جيلهم كتب في وجه الرؤساء وانتقد سياساتهم دون خوف أو مساومة، فاحترمهم الحكام رغم الغضب. أما جيل اليوم، فإما أن يختبئ خلف الصمت، أو أن يسوّغ للباطل بمداد التزييف. بين من حملوا أقلامهم كالسيوف دفاعًا عن الحقيقة، ومن حملوا الأقلام كريشة تزين عرش السلطان، تقف المسافة الفاصلة بين جيل الصحافة الحرة وجيل الصحافة المأسورة.

❁ رحم الله أحمد بهاء الدين، الذي عاش كبيرًا ومات كبيرًا، كريمًا، محتفظًا بضميره وقيمه. رحم الله أساتذتي، الذين تركوا لنا إرثًا من المواقف أعظم من أي مقالات.

أوراق من مذكراتي (٦٩)

سهام الشائعات والأكاذيب
الإصرار ـ واللاعنف ـ طريق التغيير

❁ أكتب هذه الورقة، لا كمن يبرّئ نفسه، ولا كمن يطلب صكّ غفران.

❁ بل كمن يُلقي حجرًا صغيرًا ـ يوميا ـ في بحيرة راكدة، مدركًا أن الدوائر ستتسع يوما.

❁ وأن الصدى سيصل بعيدًا،

وربما يلامس شاطئًا لم يُقدّر له الله أن يراه.

❁ أكتب لأن السكوت جريمة، ولأن الكلمة ـ حتى لو وُلدت يتيمة ـ قد تشعل دربًا في وجه العدم.

❁ «ويلٌ لأمة تكثر فيها المزايدات، ويقل فيها العمل».

❁ جرّبت الصمت طويلًا، فاكتشفت أنه يريح الآخرين أكثر مما يريحني.

❁ فالذين يتقنون صناعة الأكاذيب، لا يعيشون إلا في فراغك.

❁ وإن انسحبت، منحتهم الهواء الذي يتنفسون به.

❁ لذلك اخترت أن أبقى حاضرًا، ولو كان حضوري شوكةً في حلقهم، أو نورًا يفضح عتمتهم.

❁ «من يملك سببًا يعيش من أجله، يمكنه أن يتحمل أي شيء».

❁ تعلّمت مبكرًا أن الصمت أحيانًا أبلغ من البيان.

❁ منذ تلك اللحظة التي أدركت فيها أن الردّ على كل تهمة لا يطفئها، بل يمد في عمرها.

❁ كنتُ في السجن عام ٢٠٠٥، ممنوعًا من الكتابة، ومع ذلك كانت الأكاذيب تطاردني خارج الأسوار أكثر مما تطاردني القيود داخلها.

❁ هناك فهمت أنني مكلّف بالعمل، لا بالنتيجة، وأن التاريخ، لا السجّان، هو الذي يملك الكلمة الأخيرة.

❁ «الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة».

❁ مع كل فكرة تُولد، أو خطوة تُخطى لكسر الجمود، تنهض الشائعات كأسراب غربان.

❁ تملأ السماء نعيقًا، وتصبغ المشهد سوادًا.

❁ كل محاولة لفتح نافذة، تُقابل بجدار من الافتراء.

❁ كأن المبادرة جريمة، وكأن النية الصافية تهمة.

❁ «إذا ارتفعت الأصوات بالباطل، فاعلم أن الحق قد أوجعهم».

❁ بعضهم قليل التجربة، يرى أن الخبرة خصومة.

❁ وبعضهم قليل الضمير، يعيش على فتات الافتراءات.

❁ وبعضهم ـ وهم الأخطر ـ عُميان القلوب، لا يرون إلا عتمتهم.

❁ ولا يعرفون من النور إلا ما يؤلم أعينهم.

❁ «من صبر على أذى الناس، زاده الله رفعة، ومن قابل السيئة بالحسنى، ملك قلوبهم».

❁ الاتهام عندهم قناع، يخفون خلفه عجزهم.

❁ كمن يُطفئ المصباح، لا ليغرقك في الظلام، بل ليحجب عن نفسه رؤية ظلّه.

❁ وكما قال الكتاب العزيز: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

❁ فالحق لا يحتاج إلى صخب، بل إلى صمت يضيء كالشمس.

❁ «لن يضرك كلامهم ما دمتَ مؤمنًا بفعلك، فالزمن كفيل بكشف الأقنعة».

❁ في السجن، لم يكن غريبًا أن يبتكروا شائعة تقول إنني أمريكي الصنع والهوى.

❁ بل زعموا أنني تطوعت في الجيش الأمريكي في حرب فيتنام!

❁ فيتنام التي انتهت وأنا لم أبلغ الثانية من عمري، إذ وُلدت عام ١٩٦٤!

❁ ولم أزر أمريكا يومًا، ومع ذلك لم يخجلوا من هذا العبث.

❁ زادوا سخريةً حين ألصقوا بي علاقة عاطفية مع «كوندوليزا رايس».

❁ وزعموا أن لي منها «طفل خطيئة»!

❁ كتب ذلك رئيس تحرير صحيفة "الجمهورية" في افتتاحية على صدر الصفحة الأولى.

❁ ورغم فضيحة الكذبة، لم يجرؤ أحد على الاعتذار.

❁ ولأن الكذب عندهم وجهان، خرج مذيع شهير ليقول إنني إيراني الجنسية!

❁ إيران التي لم تطأها قدماي قط.

❁ وحين سألت عن سر الشائعة، قالوا: إنها ردٌّ على شائعة أخرى عن زيارة مزعومة للسعودية.

❁ زيارة لم أقترحها، ولم تتم، ولم أسمع عنها إلا في تفسير الكاذب للكاذب.

❁ في مدينة بورصه، كنت أقضي عطلة العيد.

❁ قرأت على هاتفي عشرات المواقع التي تنعي وفاتي!

❁ كنت حيًّا أتنفس، بينما هم يتسابقون لنشر خبر موتي.

❁ ولا أعرف: أين حمرة الخجل في وجوه من يصنع شائعة يعلم أنها ستكذب بعد ساعات؟

❁ ومنذ أن جئت تركيا قبل أكثر من عشر سنوات، قيل كل يوم إن عودتي إلى مصر وشيكة.

❁ تمضي الأعوام، وتتهاوى الأكاذيب، ومع ذلك تتكرر ذات العبارة البالية.

❁ كأنهم أفلسوا في صناعة كذب جديد.

❁ حتى قناتي الشرق لم تسلم، يتهموننا بالتفريط والخيانة، بينما لا يسألون أنفسهم يومًا: ماذا حققوا هم؟ وبأي بطولة كاذبة يزايدون؟

❁ ومؤخرًا، طرحت رأيًا يتصل بالعلاقات المصرية السعودية.

❁ البعض سمّاه «مبادرة»، وآخرون أطلقوا عليه "مؤامرة».

❁ لم يكن هذا ولا ذاك... بل مجرد محاولة لمدّ جسور ثقة انقطعت.

❁ بينما الوطن يدفع ثمن انكسارها.

❁ لكن هناك دائمًا من يهوى التسفّل...

❁ من يهوى "الإعجابات" الرخيصة والتعليقات الفارغة.

❁ يريدون أن يهبطوا بالحوار السياسي والفكري إلى حضيض السباب.

❁ لن يرهبني هذا الإرهاب المعنوي، ولن يمنعني من قول ما أراه حقًا لوطني.

❁ الحقيقة أن دوري أن أبذل الجهد، أما النتيجة فليست لي.

❁ والرد على من لا يبذل جهدًا إلا في تعطيل الآخرين، ليس سوى مضاعفة جهد لإفشال جهده في التعويق.

❁ فذلك يكشف جهله بالواقع، وقلة خبرته في التعامل مع القضايا الكبرى.

❁ «السياسة فن الصبر على ما لا يُحتمل».

❁ وأكتب اليوم أيضًا لأنني مؤمن أن الأبواب المغلقة لا تُفتح بالصدفة.

❁ بل تُفتح بالطرق، ثم الطرق، ثم الطرق... حتى تنكسر الضبة وينكسر المفتاح.

❁ نطرق الأبواب... بإيمان... بإصرار... بثقة أن الإصرار وحده طريق إلى التغيير.

❁ وأستحضر في هذا السياق صورة صديقي العزيز، المفكر التركي المستشرق د. ياسين أقطاي.

❁ رأيته يتلقى السهام في صدره، فلا يغيّر ذلك من سماحته، ولا من تواضعه الجم.

❁ ظلّ ثابتًا كالجبل، متدفقًا كالنهر، متسامحًا كالأرض التي تحتمل كل ما يُلقى فوقها.

❁ علّمني بابتسامته أن التسامح ليس ضعفًا، بل ذروة القوة.

❁ وأن الاعتدال ليس موقعًا وسطًا بين تطرفين، بل هو موقف أعلى وأسمى من كليهما.

❁ «قد يطول ليل القهر، لكن فجر الحرية لا يتأخر».

❁ وأتذكر والدي ـ رحمه الله ـ حين وضع يده على كتفي طفلًا، وقال:

❁ «يا بُني، لا تجعل صوت الباطل يسرق منك يقينك، فالباطل صاخب، والحق هادئ».

❁ وأتذكر سجني حين كتبت على قصاصات أوراق مهترئة، أخفيها في جيبي كمن يُخبّئ قلبًا نابضًا.

❁ لم يكن معي يومها إلا الكلمة، ولم يكن لي عزاء سوى أن الكلمة الصادقة لا تموت.

❁ السجن كان مدرستي الكبرى. علّمني الصبر، وأعاد تعريف الحرية لي.

❁ هناك، في الزنازين الباردة، اكتشفت أن الحديد لا يكسر الإرادة.

❁ وأن الأبواب المغلقة لا تُفتح بالقوة وحدها، بل بالطرق المتواصل.

❁ وأن الإنسان قد يُسلب جسده، لكن لا يُسلب إيمانه، ولا يُسجن ضوءه.

❁ واليوم، وأنا أكتب هذه الورقة... أستعيد كل الأصوات والوجوه واللحظات.

❁ كلها صنعت يقيني بأن النور ـ ولو حاصرته العواصف ـ لا ينطفئ.

❁ وأن من يطرق الأبواب، سيُفتح له، مهما طال الليل.

❁ وأن من صبر في سجنه، خرج أكثر حرية من سجّانه.

⊙ هذه ليست محاولة لتبرئة نفسي من الأكاذيب.

❁ ولا ردًّا على الشائعات، بل يقينٌ أكتبه للتاريخ.

❁ أن النور، مهما حاصرته الدخان، سيبقى نورًا.

❁ وأن من أصرّ على الطرق، فتحت له الأبواب.

❁ وأن الحق يبقى، وأن مصلحة الوطن فوق كل خصومة.

❁ وأن الكلمة الصادقة لا تموت، ولو خذلها الجميع.



أوراق من مذكراتي (٧٠)

ومسابقة الشهر؟
الردح ومحاكم التفتيش

❁ لا أعرف لماذا وكيف يتلاقى إعلام السلطة ـ ولجانه الإلكترونية ـ مع بعض من يدّعون أنهم خصوم السلطة ومعارضيها، وكيف يلتقون على هدفٍ واحد هو: التهام كل اجتهاد يستند إلى العقل وإلى الحكمة وإلى دروس التاريخ. مشهدٌ يبعث على الأسى والسخرية معًا.

❁ خصمان يتنازعان كل شيء، ثم يتعانقان على ركام الحقيقة في مسابقةٍ بائسة من العنف و**المزايدة الرخيصة** و**الإرهاب الفكري** وطقوس التسفّل والاختلاق والافتراء. فريقان يرتدون أقنعة مختلفة لكنهم يصوبون تجاه شبكة واحدة!

❁ هذا المشترك الفجّ بين الفريقين لا يغويني إلى الردّ على هؤلاء أو هؤلاء. لأن الردّ عندي قيمةٌ لا ردّة فعل. معيارٌ لا عاطفة. ميزانٌ لا انفعال. حوارٌ لا ردح. احترامٌ لا ابتذال. مشروعٌ لا معارك صبيان.

❁ أدمنت ضوابط لا أحيد عنها، واشتراطات لا أقبل بدونها، في الدخول في حوار أو الرد على الأكاذيب والافتراءات. علّمتني بعضها الحياة، ولقّنني معظمها أبي الروحي فؤاد سراج الدين. وهذه الضوابط هي:

أولًا

- أن يكون الحوار حوارًا يستحق اسمَه؛ لا سبابًا، لا قذفًا، لا ادّعاءً بلا بينة، لا توحّمًا على لحم الآخر، ولا مجرد مزايدةً رخيصة لإرضاء راعٍ، أو لاسترضاء غرور مفتون بنفسه.

ثانيًا

- أن يكون الحوار بين أنداد يتكافؤون وزنًا ومعنى؛ لا غلمان يجرّونك إلى حاراتٍ ضيقة، في دهاليز وتعليقات السوشيال ميديا، ولا صبيان يفتعلون «معارك فرعية» للشهرة أو لتأجيل المعركة الأمّ، معركة الحرية.

ثالثًا

- أن يكون هناك موضوع يرقى إلى مقام الحوار؛ لا ضوضاء إلكترونية تُسفّه المعاني وتستبيح الكرامة الإنسانية، وتنقل ساحة المعركة من الأصول إلى الفروع.

❁ لدي هنا تجربة قديمة قد تُضيء للقارئ مبررات هذا الشرط. فمنذ عشرين عامًا، وجّهت دعوة علنية لمناظرةٍ رئاسية مع الرئيس مبارك في انتخابات ٢٠٠٥، الرجل لم يرد، لكن الرد جاءني متدحرجًا من أفواه السبّابين وكتّاب الهوامش من رجالاته وأذرعه الإعلامية.

❁ اتخذت قرارًا واعيًا وقتها ـ وللآن ـ هو عدم الانزلاق إلى لعبة الأحجار الصغيرة. فكنت وما زلت أؤمن أن مشروع الإصلاح أكبر من ملاكمة الظلال أو الصغار. اسم واحد كان وقتها العنوان لي: مبارك الأب وربما الابن. فلم تجرّني لغة الشتيمة إلى تخومها وهوامشها الضيقة.

❁ تعلمت من فؤاد سراج الدين درس الارتفاع لا السقوط: انفعال واحد في غير محله كفيل بتحويل النسر إلى دجاجة تنقر ريشها. فبطولة زائفة أن تردَّ على كل صفير، وحكمة حقيقية أن تحافظ على علوك.

❁ الردّ الذي يُنقصك قيمة ليس ردًّا؛ الردّ الذي يرفع المعنى هو وحده الجدير أن يُكتب ويُشعر ويُشهد عليه.

❁ مثلًا... فؤاد باشا سراج الدين، ظل يرتدي ثوب الحكمة والعقل، لم يغيّر قناعاته، لم يبدّل منهجه الذي تعلمه من أستاذه مصطفى النحاس. ظل الرجل صامدًا قرابة ثلاثين عامًا أو يزيد، حتى عاد للحياة السياسية شامخًا بقيمته ومنهجه.

❁ ثلاثون عامًا تعرّض خلالها لكل صنوف التنكيل والاعتقال والتأميم والتشويه. لكن عزيمته لم تلن، وإيمانه بقيمه لم يتغير.

❁ تعلمت من أربعين عامًا في الحياة السياسية أن الصبر لا يعني السكون، فهو انتظارٌ مدروس. حتى يظنّ الخصم أن الصمت موت، فيُخرج أسوأ ما عنده؛ ثم يجيء الردّ بأفضل ما لدي.

❁ وهكذا تعلمت من القرآن الكريم حيث تتجلّى الحكمة الإلهية ميزانًا لا شعارًا: «ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرًا» (الكهف/٧٨). فالصبر هنا نصر مؤجَّل، وبلاغة تؤثر توقيتها على فورتها.

❁ علّمتني الحياة العامة طوال أربعين عامًا أن تناقض "المصلحية" لا يُربكني. فقد صادفت من مدحني مدحًا يلامس النجوم (حين تصطف المصالح) ثم ذمّني ذمًّا لا تقبله الكلاب حين تتبدّل الموازين. كلا الصوتين من معدن واحد؛ زيف يتكفأ ويتهاوى. والزمن كفيل بتعرية الأقنعة الزائفة، والتاريخ أصدق شاهد على سقوط المرايا المخادعة.

❁ تعلمت أيضًا من أمي وأبي أن: حدود الأخلاق لا تُلغى عند الخصومة. فضح الأسرار ليس شجاعة، والتشهير ليس بيانًا، وسرد العثرات ليس عدلًا أو إنصافًا.

❁ المعارضة وفقًا لمدرستي السياسية وقناعاتي الشخصية لا علاقة لها بكراهية من تعارض. بل هي اشتباكٌ أخلاقيٌّ أعمق يفرضه ضمير لا

يزايد، ولا يتزيد، ولا يساوم في الثوابت، لكنه دائمًا يحافظ على حرمة الكرامة الإنسانية، ويغلّب المشتركات على شهوة الانتقام وتصفية الحسابات.

❁ تعلمت من أستاذي مصطفى أمين درسًا عمليًا استفدت منه عندما تم منعي من الكتابة منذ مطالع الألفية ـ عام ٢٠٠٠ ـ وكان عنوان الدرس هو التحدي.

❁ سجني بعد انتخابات الرئاسة الأولى ٢٠٠٥، أسماه البعض قيدًا وسميته مدرسة. زنزانة ضيقة علّمتني سعة المعنى، وصمت ثقيل درّبني على موسيقى الكلمة حين تُكتب بدم القلب لا بحبر الغضب.

❁ تصوّر البعض أن اعتقالي الخامس، ولمدة خمس سنوات، سيغيّر في خطابي ليكون أكثر ميلًا للانتقام أو العنف اللفظي. لكن كان يصدمهم أن كل مخطوط خفيّ يولد خلف القضبان ويُهرّب خارجها، يكون عقلانيًا بامتياز؛ لا يركض خلف الصدى، ولا يتنازل عن نغمة العقلانية والوسطية والموضوعية والاعتدال.

❁ أقول لكل من يزايد اليوم على من لا يمكن المزايدة عليه: ميزان التاريخ لا يخطئ. إفساح المسار وتطهيره مسألتان مختلفتان. فالاستمرار في إصلاح ما يمكن إصلاحه أولى، ما دام العبور للتغيير السلمي الآمن ممكنًا. فإذا صار العائق سدًّا كاملًا، تقدّم التطهير إلى صدارة الواجب.

❁ التطهير لا يعني أن الدم يطهر بدم، أو أن العنف يُقاوم بعنف، أو أن الجريمة تُقاوم بجرم، أو أن الخطأ يقوم بخطيئة.

➢ رسالتي لهم: إلى ردّاحي إعلام النظام ولجانه، أو لمدّعي البطولات الزائفة ومروّجي المخدرات والأكاذيب والأوهام والأحلام المغشوشة: لن يوقعني غلوّكم وتجاوزاتكم في خطيئة الردّ عليكم.

❁ قرار الرد أو الإمساك جزءٌ من هندسة الطريق، لا من غرائز

الثأر. وأنا لا أجيد من علوم الهندسة إلا هذا الفرع!

❁ والانتقام طبق لا يُؤكل إلا باردًا. وأنا لا أستطيع هذا الطبق، ولا أشتهيه باردًا أو ساخنًا.

❁ فغباءٌ ولددٌ البعض يفضح أصحابَه أكثر مما يفضحهم أي رد. وأشفق أحيانًا على بعضهم من فراغ سيقتلهم بعد موتي، فلن يجدوا غالبًا اسمًا يحمّلونه فشلهم بعدي.

❁ حقيقة لا تتبدّل: من قرأ التاريخ ـ وفهمه ـ أدرك دوران الفلك، وتبادل الكراسي، وتعاقب المغانم بالمغارم: أغنياء الأمس فقراء اليوم، وحكّام الأمس مشرّدو الغد، وقضاة الأمس متّهمو زمن مقبل. لا حزن يدوم، لا فرح يُخلّد، لا كرسي يُؤبَّد.

❁ لهذا يقين الإصلاح لدي لا ينكسر: فهو مشروع طويل النفس لا يُختزل في ترند، ولا يُقاس بمنسوب الصراخ. فالعدل يُبنى لبنة لبنة، والحرية تُغرس غرسًا، وكلمة تُنفخ فيها الروح حتى تصير جسرًا. الإصلاح خيار الشجعان الذين يعرفون أثمانه ويدفعونها، لا مقامرو لحظات يطلبون التصفيق.

❁ افهموا... استعارة الدفء الكاذب لا تُغوي عاقل. لذّة إحباط الآخرين تشبه دفء من يشعل النار في ثيابه؛ هي لحظة دافئة يعقبها احتراق.

❁ لم ولن أمنح شرف الرد لأسماء من هنا أو هناك ليس فقط لأنها لا تستحق الرد، بل لأن الردّ الذي يُطفئ الحريق أولى من الردّ الذي يضيف حطبًا.

❁ فضلًا أني لم ولن أتنازل يومًا عن معيار الندية لا محاباة فيه. فالأسماء تُحترم، والخبرات يُعتد بها، والمنطق لا يُراجَع إلا بمنطق. أمّا الحسابات الوهمية والوجوه المستعارة، فمجرد ضوضاء.

❁ رغم الإرهاب والتخوين يبقى الحوار بين كل مكونات الدولة بداية الحل، على أن يصاحبه مراجعات لا تنقطع، وأخطاء يُعترف بها، وصوابات تُستكمل.

❁ كلمة الحق قبل الحلفاء، وبوجه الذات أولًا، ثم بوجه الخصوم. فنزاهة المقصد شرط نزاهة الخطاب.

❁ التاريخ يكتب الرد الأبقى، والزمن يسقط الأقنعة، والشعوب تحفظ الذاكرة أطول من حافظات الأجهزة. اختيار الصمت ـ حين يكون موقفًا ـ ليس انسحابًا من المعنى، بل تقدمًا إلى منطقة أعلى من المعنى. فهناك، تتكلم الوقائع أبلغ مما تتكلم البيانات، وتُسمع الحقيقة وإن اختلطت بأبواق الزيف.

❁ قرار أخير لا تردّد فيه: المضي في الطريق الذي اخترته لسنوات طويلة ـ طريق العقل والحرية والعدل وبهاء الكلمة ـ أولى من كل مناكفات تُغرق المقاصد في وحل الوسائل. الردّ المؤجَّل يجيء حين يتكامل ميزانه: حوار يليق، وندّ يستحق، وموضوع يرقّي بالمعنى. وما عداه، ضجيج يذروه الريح.

❁ من هو؟

✹✹✹✹❁✹ ✹✹✹✹

❁ ..تلميذ لم ينجح إلا في الفشل

❁ ..صحفي يكتب كمن يعتذر عن ميراث ابيه

❁ ..إنسان لا يُتقن سوى خسارة إنسانيته وكل من حوله

❁ ..إعلامي كومبارس على مسرح الرداءة والردح

❁ ..نائب بلا قضية ولا ظل ولا صوت ولا ذكر.

❁ ..مقدم برنامج يُقدِّم الفشل أكثر مما يُقدِّم نفسه

❁ شريك دائم في شركة الإفلاس ولم يفسخ العقد يومًا

رحم الله ابيه

هل تعرف من هو؟

✸ ✸ ✸ ✸ ✸ ✸ ✸ ✸ ✸ ✸ ✸ ✸ ✸

❍ جائزه لمن يعرفه ❍



أوراق من مذكراتي (٧١)

حين يفقد الأدب تسقط الأخلاق فتنهار الحياة

➢ علمتني الحياه والتجارب، أن هناك علاقة لا تنفصل أبدا

ما بين الأدب و**الأخلاق** والحياة

فهناك خيط رفيع خيط لا يري للبعض، لكنه أصلب من أن يُقطع بسهولة. ومن لا يراه قد يشنق به نفسه فيفقد حياته.

➢ الأدب ليس مسحوقا للزينة، ولا غشاء في الكلام هو لياقة في التعامل، هو ظل الأخلاق على الأرض، وملامحها في وجوه الناس، ورحمتها في القلوب. فحين يغيب الأدب يغيب معه الرفق، وتذبل الرحمة، ويبهت لون القيم، ويصبح الاحترام عملة نادرة لا تُتداول إلا في الذكريات.

➢ الأدب هو الضمانة الأولى للرحمة، للحب، فمن لا يُحسن مخاطبة الآخر، ولا يعرف حدود صوته

أو لسانه، كيف له أن يُدرك أن كل كلمة متجاوزه جارحة، وقد تكون طعنة، وكل صوت مرتفع قد يكون شرارة، تبدأ في إشعال النار في

ثوبه قبل أن تمتد لتحرق كل ما حوله.

➢ ومن يحترم ذاته، يحترم الآخرين بالضرورة، فاحترام النفس والآخر، ليس كبرياءً فارغًا، بل هو وعي بأن الكلمة مرآة، وأن النبرة موقف، وأن كل فعل يُقاس بميزان العقل قبل أن يُقاس بميزان الضمير.

➢ الأسرة هي الميدان الأول للأدب والأخلاق. في دفء البيت تُزرع بذور الرحمة، ومنها يخرج الإنسان إلى المجتمع. والأسرة ليست إلا مجموع أفرادها، والمجتمع ليس إلا حاصل جمع أسر صغيرة متجاورة. فإذا غاب الأدب داخل البيت، خرج المجتمع بأكمله أعرج الروح، أجوف القلب.

➢ الرحمة تبدأ من كلمة حانية بين زوجين، من صوت منخفض بين أب وابنه، من لمسة حنان بين أم وبنتها، ثم تمتد إلى الشارع، والمدرسة، والعمل، والوطن. وإذا غابت هذه الشرارة الصغيرة من الرحمة، عمَّ الصقيع في كل مكان.

➢ الأخطر من غياب الأدب أن يراهن البعض على أدب الآخرين. أن يظن أن صمتهم ضعف، أو حلمهم استسلام، أو تجاوزهم حق مكتسب يتيح له أن يخطئ ويكرر. كل رصيد مهما عَظُم ينفذ بالاستنزاف، وكل صبر مهما طال ينكسر عند حدّه. كما قيل: «للصبر حدود»، وأنا أقول: للرهان على أخلاق الآخرين أيضًا حدود.

➢ النزيف الأخلاقي يبدأ بقطرة: كلمة صغيرة تجرح، تصرّف عابر يُهين، إهمال يجرح قلبًا صامتًا. لكنه إن استمر، قد يتحول إلى سيلٍ يجرف كل شيء، وقد ينتهي عند آخر قطرة تُسقط إنسانًا أو علاقة أو مجتمعًا بأسره.

➢ الأدب ليس مظهرًا اجتماعيًا، بل جوهر إنساني. إنه الطريقة التي نُثبت بها أننا بشر، لا مجرد كائنات تسعى خلف مصالحها. وحين نُفقد

هذه اللغة الخفية التي تُترجمها الرحمة، نفقد معها إنسانيتنا.

➢ المجتمعات تنهض حين ينهض فيها الأدب. تنهض حين يتذكر الناس أن الاحترام للآخر لا ينفصل عن الاحترام للذات. تنهض حين يُدرك كل فرد أن كلمة رقيقة قد تقي قلبًا من الانكسار، وأن كلمة فظة قد تهدم بيتًا أو علاقة أو وطنًا.

➢ الأخلاق بلا أدب جسد بلا روح. والرحمة بلا أدب نغمة بلا لحن. فإذا انهار الأدب، تساقطت الأخلاق كأوراق يابسة، وذبلت الرحمة في القلوب، ومعها ينهار الإنسان نفسه، ويهوي المجتمع كله في فراغٍ لا قاع له.

➢ ليست المأساة أن نخطئ، فكلنا نخطئ. المأساة أن نتعود على الخطأ، وأن نُرهق من حولنا بالرهان على قدرتهم على التجاوز. كل تسامح بلا حد يتحول إلى نزيف، وكل نزيف بلا علاج ينتهي بالموت.

➢ لذلك، لا ترفع صوتك، ولا تُسرف في جرح الآخرين. فصوتك أول ما يحرق هو ثوبك، وجُرحك أول ما يفتك هو ذاتك. وإن كان لا بد من رهان، فارهن على نفسك أن تبقى مؤدبًا رحيمًا، لأنك بهذا وحده تحفظ كرامتك، وتحمي بيتك، وتبني مجتمعك.

➢ في النهاية، حين ينهار الأدب، تنهار الأخلاق، ومعها تنهار الحياة. فلا تبنوا على وهمٍ أن الرحمة خالدة بلا أدب، أو أن الأخلاق قائمة بلا احترام. فكل شيءٍ يبدأ من كلمة مؤدبة، تنقذ حياة، وتُبقي الأمل حيًا في قلب الإنسان.

أوراق من مذكراتي (٧٢)

زواجي من أم كلثوم

۞ الحياة سلسلة من الحروب.

حروب مع الآخرين،

وحروب أكثر مع ذواتنا.

حروب لا نستأذنها ولا تستأذننا،

نُزَفّ إليها كما يُزفّ العريس إلى ليلةٍ لا يعرفها.

نخرج منها أحيانًا بجرحٍ صغير،

وأحيانًا بأثقالٍ من أسئلة

لا يملك العقل شجاعة أن يجاوبها،

فتظلّ معلّقة بين السماء والأرض،

كأمنية لم تكتمل.

۞ أسئلة العمر تتزاحم كالأطفال في زحام المدارس:

ماذا بعد؟

هل اخترنا الطريق حقًا؟

أم أن الطريق هو الذي اختارنا؟

نؤجّل الإجابة كما نؤجّل أحلامنا،

نضعها على رفّ الغد،

ثم نكتشف أنّ الغد ليس أكثر رحمةً من الأمس،

وأن الإجابة كانت قريبة

لكننا لم نرها إلا في عتمة الطريق.

۞ الحياة لا تُخلو من المنغصات،

لكن المشكلة أننا نتقن الهروب.

نهرب إلى صمتٍ ملوّن،

إلى صبرٍ ثقيل،

إلى ترفّعٍ يظنّه الآخرون تخليًا.

فنصبح قافلة من وجعٍ فرديّ،

يمشي كل واحدٍ فيها بلا رفيق،

وكأن المعنى اختبأ خلف الركام.

۞ نمضي بالجاذبية الأرضية،

نهرٌ يسيل نحو المصبّ.

نحمل أحلامنا في حقائب مثقوبة،

نكتشف عند كل محطة

أن الأثقال أشدّ مما تحتمل ظهورنا،

وأن الطريق يزداد وعورة،

كأنّ القدر يتلذذ برؤيتنا نتعثّر.

نعيش بين خيبات تتكاثر كالأمطار،
وأشواقٍ للوطن تنكسر كالأغنية
قبل أن تبلغ آخر بيت.

۞ حياتي قصيدة ناقصة.
بداياتها رائحة خبز أمي،
وصوت أبي،
وسكينة بيتٍ صغير في صباح الوطن.
أما نهاياتها، فمخاوف غربة،
وجوه غابت،
وأحلام انطفأت قبل أن تضيء.
نغنّي للحياة،
ونعلم أنها أسرع من خطواتنا،
كما نعلم أن الوطن
يمضي نحو الانهيار أسرع من أحلامنا المؤجّلة.

۞ صار الوطن، والبيت، والحب،
طيفًا يراودني في المنام،
وجرحًا أسكنه قبل أن يسكنني.
يشيخ مثلي،
ويجرح مثلي،
لكنه يبقى حاضرًا،
كالأم التي وإن غابت

لا تغيب.

۞ أحيانًا نمشي في دروب العمر

مثل عشاق قدامى،

نجرّ أسئلتنا الثقيلة

كما نجرّ ذاكرة مثقوبة.

نسمع صدى أصواتنا في الفراغ،

فنظنّه جوابًا،

فإذا به سؤال جديد

يتولّد من رماد أسئلة قديمة.

وكأننا محكومون أن نظلّ في البحث،

لا لنصل إلى الحقيقة،

بل لنظلّ أحياءً بمجرد السعي إليها.

۞ مشكلتي الكبرى،

أنني أحبّ الاستماع لأسطوانات «الستّ»

ذات الوجه الواحد،

الأغنية الواحدة،

التجربة الكاملة المكتفية بذاتها.

بينما شركاء العمر

يرون الحياة قرصًا مدمجًا،

مليئًا بالمقاطع المتناقضة،

أصوات تصعد كنشيد،

وأخرى تهبط كأنين،
لكنها تكتسب عندهم جمالها من نقصانها،
ومن جنونها،
ومن غموض الآتي بعدها.

۞ لو عرفت أم كلثوم
كم المتاعب التي سبّبتها لي في حياتي،
لطلبت يدي لتُرضيني،
أو لأصدرت "سي دي" مشتركًا
مع عمرو دياب وكاظم الساهر،
وربما مع شاكوش أيضًا!
علّها تعيد لقصيدتي الناقصة بيتها المفقود،
ولحياتي معناها الغائب،
ولأسئلتي بعض الجواب.

۞ وهكذا بدا زواجي من أم كلثوم،
زواجًا بلا مأذون، وبلا شهود،
لكنه طويل مثل ليل أغانيها،
وحقيقي مثل وجعي حين أفتقدها.
كنت أظنه نزوةً عابرة،
فإذا به رفيق دربٍ ممتد،
يمتحن صبري، ويغذّي وحدتي،
ويملأ فراغ القلب بأغنية واحدة

أعيدها ألف مرة،

وكأنها صلاة لا تملّها الروح.

۞ ومعها، لا أحتاج إلى اعترافٍ آخر،

يكفيني أن تبوح هي عني بما لم أستطع قوله:

أعطني حريتي أطلق يديّا

إنني أعطيتُ ما استبقيتُ شيّا»

فكروني تاني في حبك

ونسيت إني نسيت زمان»

هذه ليلتي وحلم حياتي

بين ماضٍ من الزمان وآتِ»

۞ لعلها ليلتي فعلًا،

ليلة زفاف مؤجلة،

لم تُكتب على ورق رسمي،

لكنها وُقّعت بالحبر السرّي للأغاني،

وزُففت فيها لا إلى عروسٍ من لحمٍ ودم،

بل إلى أغنية واحدة،

امرأة واحدة،

وطن واحد.

أوراق من مذكراتي (٧٣)

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:
من زنزانةٍ ضيِّقةٍ إلى أفقٍ لا يضيق

لا تبدأ الحكاية من جدران السجن، بل من لحظةٍ قاسيةٍ بعد انتخابات الرئاسة ٢٠٠٥ حين اكتشفت أن الطريق إلى الحرية قد فُرِش بالأغلال. لم يكن دخولي الزنزانة سوى بداية فصل جديد من دفتر قديم، فصلٍ كُتب بمداد الألم، لكنه وُشِّحَ دائمًا ببشارةٍ لم تفارق شفتي: «وبشِّر الصابرين».

السجن لم يكن مكانًا فحسب، بل كان زمنًا أثقل من الرصاص. أربع سنوات (٢٠٠٥ ـ ٢٠٠٩) مضت وكأنها ربع قرن كامل، امتحنت فيها روحي كل يوم، وأُجبرت على أن أتعلم فنّ الصبر كما يتعلم الغريق فنّ التنفس تحت الماء.

في تلك السنوات كتبت أكثر مما كتبت في أربعين عامًا سبقتها. بلاغاتي ودعاواي تجاوزت ٢٠٠٥ ورقة رسمية، لكن كل ورقة لم تكن مجرد نصٍ قانوني، بل كانت مرثيةً وطنية، وشهادةً للتاريخ أن الظلم لم يكن وهمًا، بل حقيقةً موثّقة بالحبر والدمع.

كنت أعلم أن لا قاضٍ سينصفني، ولا نيابة ستُصغي، ولا صحيفة ستتجرأ على النشر، ومع ذلك كتبت. كتبت كما يكتب الغريق

رسالة في زجاجة، يلقيها في بحرٍ لا يعرف شواطئه، لعلّ الله يوصّلها إلى من يفهم معناها.

في مقدمة كل ورقة كانت تسبقني الآية نفسها: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. لم تكن زينة افتتاحية، بل كانت عزاءً ومفتاحًا، وعدًا ربانيًا يضيء ليل السجن الطويل.

السجن لم يكن زنزانة، بل كان دهورًا متكدّسة في غرفة ضيّقة. الليل فيه أطول من العُمر، والنهار أعجز من أن يوقظ الأمل. ومع ذلك، كان قلمي يواصل الطريق كأنه يمشي وحده في ممرّ مظلم يبحث عن الضوء.

استحضرت دومًا قصة الخضر وموسى: سفينة تُخرق لتنجو، وغلام يُقبض ليُعصم أبواه من مصير. أيقنت أن الله لا يشرح دائمًا، وأن أعظم الامتحانات أن تصبر على ما لا تفهم حكمته.

في الداخل، حوصرت كتاباتي. وأُغلقت في وجهي، كل السبل، لكن صوتي خرج من جدا آخر-:

العفو الدولية أصدرت تقريرها عام ٢٠٠٦ لتقول: «إن اعتقال أيمن نور يمثل انتهاكًا صارخًا لحرية التعبير، ويكشف عن استخدام القضاء كأداة سياسية». وصلني هذا النص كأنه وردة ألقيت عبر أسلاكٍ شائكة.

هيومن رايتس ووتش كتبت في تقريرها السنوي: «ظروف احتجاز أيمن نور تُثير قلقًا بالغًا، والإفراج عنه ضرورة عاجلة». كانت تلك العبارة كفًّا حانيةً تُربت على كتفي، لتقول إن صرختي لم تُدفن هنا، بل وصلت هناك.

البرلمان الأوروبي في ١٧ يناير ٢٠٠٨ تبنّى قراره الشهير، وسمّاني فيه «سجين رأي»، وطالب بالإفراج الفوري عني. لم يفتح القرار باب الزنزانة، لكنه فتح ثغرةً في جدار العزلة، ليقول للعالم إن القضية لم

تعد همسًا داخليًا، بل صارت صرخةً دولية.

۞ الصحافة العالمية لم تلتزم الصمت. نيويورك تايمز كتبت: «اعتقال أبرز منافس لمبارك يُظهر هشاشة الإصلاح المزعوم». لوموند الفرنسية وصفت محنتي بأنها "اختبار لمصداقية الديمقراطية في بلد يختنق بالاستبداد". واشنطن بوست تساءلت: «أي إصلاح يبدأ بسجن أبرز معارضيه؟».

۞ حين نقل لي المحامون نصوص هذه المقالات، شعرت أن الجدران لم تعد بنفس الصلابة. لم تسقط، لكنها ارتجفت قليلًا، كأنها تعترف أني لست وحدي.

۞ لم تكن المؤسسات وحدها، بل أصوات النواب أيضًا. في البرلمان الأوروبي قال نائب من الخضر: «لا يمكن أن نعقد صفقات مع نظام يسجن خصومه السياسيين». وفي الكونغرس الأميركي صرّح أحد أعضاء لجنة العلاقات الخارجية: «اعتقال أيمن نور لطخة سوداء في سجل حليفنا المصري». هذه الكلمات كانت رسائل حرية مكتوبة بلغة السياسة.

۞ هذه الأصوات لم تُحررني، لكنها حررتني من شعور العزلة. جعلتني أؤمن أنني حاضر في ذاكرة العالم، حتى لو غبت خلف الجدران.

۞ السجّان كان يظن أنه يحرس جسدًا، لكنه لم يفهم أنه يحرس قصةً ستُروى. وأنا كنت أحرس نفسي من الانكسار بحبرٍ يسيل كل ليلة على الورق.

۞ البلاغات التي لم يُستجب لها، والمقالات التي لم تُنشر، لم تضِع. صارت لاحقًا وثائق تعتمدها المنظمات الدولية، وشهادات تُقرأ في البرلمانات الغربية. ما كُتب في الظل صار نورًا في قاعات مشرعة على العالم.

۞ الصبر لم يكن استسلامًا، بل كان مقاومة بلا سلاح. مقاومة تقاوم بالسطر والورقة، لا بالرصاص.

الألم الذي أرادوا أن يخمدوني به، علّمني أن أكتب بصوتٍ أعلى، وأن أستحيل مرآةً يرى الناس في وجهي وجعهم.

السجن ضيّق الأفق، لكنه وسّع الرؤية. جعلني أرى من خلال الجدران أكثر مما كنت أرى من الشوارع الواسعة.

تعلمت أن الغاية من الصبر ليست الإفلات من المحنة، بل أن تُصبح أنت أكبر من المحنة.

تعلمت أن الحرية لا تُمنح، بل تُنتزع، وأول معاركها يبدأ بورقةٍ تُكتب في زنزانة، قد تُصادر اليوم، لكنها ستُقرأ غدًا.

تعلمت أن الصحافة الأجنبية، والتقارير الحقوقية، وشهادات البرلمانيين، لم تكن أوراقًا خارجية، بل كانت صدىً لما أكتبه، امتدادًا لصوتي في العالم.

الظلم قد يُكمّم الأفواه، لكنه لا يستطيع أن يُخمد الصدى.

واليوم، وأنا أكتب هذه الورقة، أستعيد تلك الأصوات: صوت القرآن في صدري، صوت المنظمات في بياناتها، صوت الصحافة في افتتاحياتها، صوت النواب في قاعاتهم. كلها تنادي باسمي، لكنها تعني وطنًا كاملًا.

في النهاية، لا أجد عزاءً أصدق من البداية. تلك الآية التي كانت مفتاحي في كل ورقة، وخاتمتي اليوم: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

ليست كلمة عزاء فحسب، بل وعدٌ أبدي بأن الصبر لا يضيع، وأن الحق مهما حُجب عن محاكم الأرض، يظل محفوظًا في سجلّ السماء.

أوراق من مذكراتي (٧٤)

نوستالجيا الـــBBC والجزيرة..
ورسالة إلى أديب والجلاد وحسين

في ليالي الطفولة، لم يكن الليل ينام معي في ذات الغرفة، بل كان يترك لي رفيقًا صغيرًا يهمس من راديو خشبي قديم. كان الصوت يأتي من لندن، ليشقّ جدار الصمت في بيتنا، ويفتح نافذة على عالم لم يكن يشبه عالمنا. كانت BBC بالنسبة لطفل لم يتجاوز العاشرة بابًا سريًا إلى الحرية، درسًا مبكرًا أن الكلمة تستطيع أن تشعل وعيًا، وأن الصوت قد يعلو فوق صوت السلطة.

بين شاشتين باهتتين ـ الأولى والثانية ـ لم أرَ سوى وجه الحاكم وصداه. أما إذاعة لندن، فقد علّمتني أن الحقيقة لا لون لها، وأن للرأي المخالف مكانًا، وأن الإنسان لا يُختزل في نشرة تُملَى من فوق.

من هناك بدأت ملامح وعيي الليبرالي، وتفتحت عيوني على مدرسة إعلامية كان شعارها الحقيقة... والرأي والرأي الآخر. في زمن لم يعترف فيه أحد بوجود «آخر»، جاءت الـBBC لتقول لي: هناك آخر يجب أن تسمعه، حتى لو لم ترضَ عنه.

ظل صوت محمد الأزرق محفورًا في أذني بتميزه ودفئه، ومعه أصوات جيزيل خوري، زينب بدوي، مي شدياق، ندى عبدالصمد...

أصوات صارت جزءًا من إيقاع يومي، تذكّرني أن للعالم ساعة غير ساعة القاهرة، وأن للعقول حقًا في أن تسمع وتُسمع.

❁ في الزنزانة بعد انتخابات ٢٠٠٥، لم تكن «البي بي سي» مجرد إذاعة، بل كانت ساعتي الحائط. كنت أعرف الزمن من مواعيد نشراتها، وأحسّ بالحياة من وقع برامجها. كان بلا قيود يحطّم بعض قيود السجن، وكان حديث الساعة يضع يدي على قلب العالم، وكان العالم هذا المساء يذكّرني أن الليل ليس واحدًا في كل مكان.

❁ من وراء القضبان، تابعت انتفاضة المحلة يوم ٦ أبريل ٢٠٠٨، حين دوّى صوت العمال فوق القيود. لم يكن عندي سوى راديو صغير، لكنه كان يكفيني لأشعر أن مصر لم تمت، وأن هناك نافذة واحدة لم تُغلق بعد.

❁ لم تكن الجزيرة حين انطلقت في ١٩٩٦ إلا الامتداد الطبيعي لمدرسة الـBBC، الابنة الشرعية لتجربة بُنيت في لندن. خرجت لتصير الحدث الأبرز في ربع القرن الأخير، تحمل بذورًا غُرست هناك وتثمر هنا. أصوات جميل عازر ومحمد كريشان بدت كأنها تكملة لدرس بدأ قبلها بعقود.

❁ حين أطلقت الـBBC قناتها العربية عام ٢٠٠٨، بدا المشهد كامل الدائرة: إذاعة ربتنا على الاستماع، وتلفزيون يوسّع مساحة الرؤية، وقناة عربية تعيد للأمة حقها في أن ترى وتسمع ذاتها.

❁ قررت وقتها أن أترك الصحافة الورقية إلى الصحافة الجديدة. كنت قد رفعت دعوى أمام القضاء الإداري ضد رفض تأسيس أول إذاعة خاصة على موجات الـFM بعد أن مُنحت لزميلنا عماد أديب. تلك الدعوى بقيت عالقة في دهاليز المحاكم: لا تُرفض ولا تُقبل. لكن البوصلة لم تتغير، كانت دائمًا تشير إلى «لندن».

❁ حين تقدمت في ٢٠١٢ بطلب لتأسيس قناة «الغد»، كانت أحلامي أكبر من أن تُختصر في أوراق رسمية. لم تُكتب للقناة حياة في بلدي، لكن الطريق بقي مفتوحًا حتى تحقق الحلم بقيام قناة الشرق، التي تكمل اليوم اثنا عشر عامًا كأول قناة معارضة مصرية.

❁ «البي بي سي» لم تكن مجرد إذاعة أجنبية؛ كانت مدرسة، كانت ذاكرة، كانت رفيقًا في طفولة محاصرة، وصوتًا حاضرًا في زنزانة باردة، ومنارةً في رحلة إعلامية طويلة.

❁ والجزيرة لم تكن إلا استكمالًا لتلك المدرسة، وتجسيدًا لجرس قديم تعلمناه من لندن: أن الحقيقة لا تُختصر في نشرة رسمية، وأن الرأي الآخر ليس ترفًا، بل شرط حياة.

❁ اليوم، ونحن نرى إعلامنا يعود إلى الخلف كسيارة بلا مرآة ولا بوصلة، نتذكر أن الصوت الواحد لا يصنع وطنًا، وأن الصدى لا يغني عن الصوت.

❁ المدهش أن يطلب رأس الدولة هامشًا من التنوع، فإذا بالمؤسسات تبتلع من يرونه «آخرًا»، وتُعيد إنتاجه على هواها، كأنه مجرد نسخة باهتة في ماكينة رسمية.

❁ لكن «الآخر» لا يُصنع في أقبية الأمن، ولا في مطابخ التعليمات. الآخر الحقيقي هو الذي يجد مكانًا بين أحزاب حرة، ونقابات مستقلة، ومجتمع مدني نابض، وقضاء عادل، وصحافة غير مرتهنة.

❁ النوستالجيا إذن ليست حنينًا فارغًا، بل مقاومة للزمن الرديء. هي اعتراف بدَين شخصي لجيل كامل، يظل صدى أصواته يذكرنا أن الحرية ليست ذكرى، بل وعد لا يجوز التنازل عنه.

❁ لذلك، حين أكتب هذه الورقة من مذكراتي، أشعر أنني أكتب سيرة وطن لا سيرة شخص، ومرآة شعب لا مرآة فرد.

❁ من طفولة السبعينات، إلى زنزانة الألفية، إلى معارك الإعلام الجديد، يظل شعاري واحدًا: الحقيقة... والرأي... والرأي الآخر.

❁ واليوم، وأنا أرى حال إعلام بلادي وقد صار مرآة مشروخة لصوت واحد، أستعيد قول أحمد لطفي السيد، رائد الحرية والعقلانية في مصر: «الحرية أثمن ما يملكه الإنسان، وإذا فقدها صار كل شيء آخر بلا قيمة.»

❁ تلك هي وصية BBC والجزيرة معًا، وتلك هي بوصلة الوعي التي لن أتخلى عنها: أن الحرية ليست خيارًا، بل قدرٌ لا يجوز لأمة أن تفرّط فيه.

رسالتي إلى أديب والجلاد وحسين:

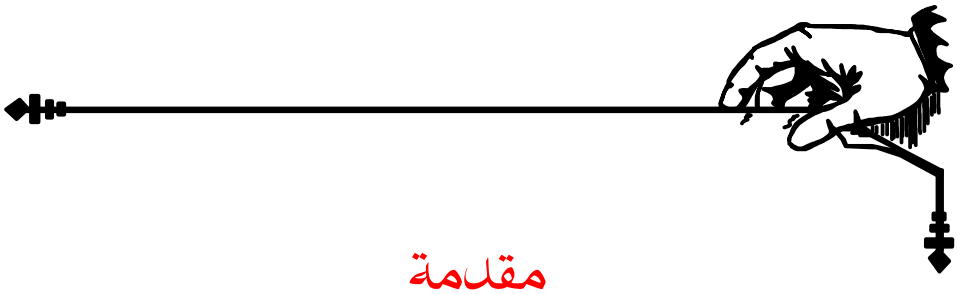
❁ أقول لثلاثتهم يا زملاء المهنة وأصدقاء زمن مضى، إذا كان للإصلاح السياسي روشتة، فإنكم تعرفونها جيدًا. قد يكون من بين سطورها، واستحقاقاتها، عودة هذا الصوت الإعلامي أو ذاك.

❁ لكن اختزال الإصلاح السياسي في هضم الدولة داخل ماكيناتها الإعلامية لصوتٍ واحد اختزال مخلّ ومخجل أن يصدر عن ثلاثتكم، وأنتم من أنتم. لكم وعليكم، كما لنا وعلينا.

❁ أقول لكم إن الخلط بين الإعلامي والسياسي خطأ ـ ولو كان شائعًا. وأقول لكم أيضًا إن الأجهزة تتغير بتغير المراحل، لكنكم عايشتم كل المراحل. وكما تعرفون روشتة الإصلاح السياسي الحقيقي الواجب والمستحق، فإنكم تعرفون أيضًا أن الاعتدال له عنوان لا يمحوه شهادة، ولا ينفيه تلميح لا يملك شجاعة ذكر الاسم.

❁ قد تختلف الطرق، وقد تتبدل المواقع، لكن الحقيقة لا تموت، والرأي الآخر لن يُختزل في صدى باهت. ويبقى الاحترام والتقدير واجبًا للجميع.

سلسلة مقالات
شخصيات في حياتي



مقدمة

❁ لماذا أكتب عنهم الآن؟ ❁

❁ يسألونني: لماذا أكتب عنهم الآن؟ هل تكتب لأن الحكاية انتهت؟ أم لأن الذاكرة بدأت تفقد بعضا من تفاصيلها؟ هل هي دعاية مجانية؟ ام كما توهم البعض عكسية؟ ام تكتب كوصيّة، أم كنجاة انسان يخاف أن يبتلعه الصمت؟

❁ لا عرف أيّ الإجابات أصدق، لكنني أعلم أن كل الحكايات لم تنتهِ بعد، ما دام في صدري نفسٌ، وفي أصابعي قلم لم يجفّ، وفي قلبي ظلّ وجوهٍ تمشي أينما ذهبت، فلا موت للحكاية، ولا سكوت للكلمة التي تعلّمت أن تنهض من رمادها كلّما احترقت.

❁ لم أكتب عنهم لأنهم مرّوا في حياتي، فحسب

بل لأنهم تركوا في روحي عطرًا لا يغيب، وجرحًا لا يؤلم، لكنه لا يلتئم.

مرّ بعضهم كالنسيم، وبعضهم كالعاصفة، لكنهم جميعًا غيّروا تضاريس قلبي كما تغيّر الأمطار وجه الأرض حين تمسّها أول مرة.

❁ أكتب عنهم لأن الحكايات التي لا تُروى تموت، ولأن النسيان لصٌّ خفيّ،

يتسلّل إلينا على أطراف الذاكرة، فيسرق أسماءنا الصغيرة، وملامح الذين أحببناهم، وصوت الذين أنقذونا ذات يوم من الغرق.

❁ الذاكرة هي وطني الأخير، الوطن الذي لم يجرّده أحد مني، ولم ينتزع بوصلته من يدي.

كل سطرٍ أكتبه هو عودةٌ إلى بيتٍ هُدم، ومحاولة لترميم جدارٍ من ماضٍ يصرّ أن يبقى واقفًا رغم العواصف.

❁ في كل وجهٍ منهم مرآة صغيرة، أرى فيها ملامحي كما لو كنت أنظر إلى نفسي من زاوية أخرى في الزمان.

وفي كل مرآةٍ ظلّ وجهي طفلًا يبتسم في وجه المعلمين الأوائل، وصحفيًا يكتب عن أصدقائه الراحلين، وإنسانًا يفتّش في الوجوه عن وجهه الأول.

❁ هؤلاء الذين أكتب عنهم ليسوا تماثيل منسية على جدران الذاكرة،

بل أنفاسٌ تمشي في النصوص، تضيء حين أذكرها، وتحزن حين أنساها.

هم نبض الكلمات حين تخفت، وهم صدى القلب حين يلوذ بالعزلة.

❁ هذه الأوراق ليست قائمة شرفٍ، ولا دفتر مديح، بل دفتر عمر طويل.

كتبتها بالحبر والدمع معًا، وفيها من الوفاء أكثر مما فيها من العتب،

ومن الاعتراف أكثر مما فيها من التحليل،

وفيها محاولتي الأخيرة لأن أجعل من الذاكرة وطنًا يصلح للسكنى،

ومن الماضي جسرًا نعبره لا حفرةً نسقط فيها.

۞ أكتب لأن الكتابة، حين تكون صادقة، تصبح فعلًا من أفعال المقاومة، مقاومة السلطة المتبرع المرض ضعف البصر، مقاومة الصمت الذي يخنقنا، والزيف الذي يحاصرنا، والنسيان الذي يسرق ملامحنا منا.

۞ أكتب عنهم لأبقى وفيًّا لهم، وأكتب عن نفسي لأبقى وفيًّا لما كنت أؤمن به معهم:

أن الحرية لا تموت ما دام هناك من يكتب عنها،

ولا يُدفن الأمل ما دام هناك من يحرسه بالكلمة.

۞ لذلك أكتب عنهم الآن،

لأن الحكاية لم تقل كلمتها الأخيرة بعد،

ولأن كل سطرٍ منهم هو نبضٌ في صدري،

وكل اسمٍ أكتبه هو محاولة أخرى للنجاة من النسيان.

۞ أكتب عنهم كما يكتب عاشقٌ إلى من رحلوا وبقوا معًا،

كما يكتب من نجا من الغرق عن الذين أنقذوه،

كما يكتب من يخاف أن يموت صامتًا،

فيترك للكلمة وصيّتها الأخيرة:

أن لا أحد يموت حقًّا... طالما هناك من يكتب عنه.

--- هذه ليست مقدّمة فصلٍ فحسب، بل صلاة على أرواح الذاكرة، واعترافٌ طويلٌ بالجميل، لمن جعلوا الحبر طريقًا للخلود، والكتابة وطنًا لا يشيخ.

شخصيات في حياتي (١)

عماد الدائمي الصديق العذب، رفيق الدرب

➢ في حياتي، وجوه لا تُنسى، وشخصيات أضاءت طريقي في عتمة السجن وعتمة الوطن، أو في عتمة الغربة. أكتب عنهم لأنهم يستحقون أن يُكتَب عنهم، وأكتب لهم لأن الوفاء أبسط ديون القلب.

➢ أكتب اليوم عن عماد الدائمي، الرجل الذي ظلّ حاضرًا في وجداني مهما ابتعدت المسافات. كان في الغربة وطنًا، وفي السياسة أخًا، وفي الصحبة عطرًا لا يزول.

➢ لم يكن مجرد نائب تونسي أو قيادي سياسي، بل كان روحًا تمشي بين الناس برفق، تترك أثرها في كل قلب، وتزرع حولها الدفء حيث يبرد المنفى.

➢ قبل ثورة تونس كان مناضلًا مطاردًا، عاش مرارة النفي لكنه لم ينكسر. حمل وطنه في حقيبة صغيرة، لكنه حمل كرامته في قلبٍ كبير.

➢ وعندما انتصرت الثورة، لم يهرع ليقطف ثمارها، بل انحاز إلى قيمها، والتحق بقصر قرطاج إلى جوار الرئيس الجليل المنصف المرزوقي، يخدم الثورة لا نفسه، ويحرس الحلم لا المقعد.

➢ في سنوات الانقلاب على الديمقراطية، لم يتراجع، بل أسس مؤسسة جريئة لمحاربة الفساد، كاشفًا وجوهه وأسماؤه، متحمّلًا الأذى كمن وُلد ليقف في وجه العاصفة.

➢ وواصل مسيرته في المجلس العربي للديمقراطية، الدينامو الذي لا يهدأ، يمدّ المجلس بطاقة لا تنضب، كأن قلبه بطارية من أمل.

➢ لكن ما يميّزه أكثر من كل شيء لم يكن السياسة ولا المواقع، بل إنسانيته العذبة. كان يضحك في وجه الألم، ويربّت على أكتاف الآخرين قبل أن يشعر بثقل الأعباء على كتفه.

➢ عرفته رجلًا يجمع بين الحزم في الموقف والحنان في المعشر، بين شجاعة الميدان ورقّة الصديق. قلبه خُلق من ماء ونار معًا.

➢ عندما قرر الترشح للرئاسة، كان طبيعيًا أن يخطو هذه الخطوة، لكنه حُرم منها قسرًا بقرارات لا تعكس إلا خوف السلطة من نقاء يديه ونظافة تاريخه.

➢ في حسابات الغربة، مكاسبي قليلة، لكن عماد يتصدّرها. هو مع المنصف المرزوقي و**توكل كرمان** وطن آخر صنعته الصداقة، وطن لا تحده جغرافيا ولا يضيّقه طغيان.

➢ عماد الدائمي هو الرجل العذب، السياسي النقي، الإنسان الذي علّمني أن السياسة يمكن أن تظل طاهرة، وأن النضال يمكن أن يبقى جميلًا، وأن الصداقة قد تكون أثمن من الأوطان.

➢ وغدًا، أغادر الحديث عن العذب الرفيق، لأفتح الصفحة على النهر الكبير الذي شربنا منه معنى الحرية، على الأب والقدوة والرمز الذي ظلّ مناضلًا حتى وهو رئيس: محمد المنصف المرزوقي.

أكتب عنهم ليبقى أثرهم، وأكتب عن نفسي لأبقى وفيًا لهم.

شخصيات في حياتي (٢)

المنصف المرزوقي...
حين تحقق الحلم المستحيل

الرئيس الجليل محمد المنصف المرزوقي لم يكن في حياتي، مجرد محطة، بل كان منعطفًا غير مسار العمر، وجعل من الغربة وطنًا، ومن النضال مدرسة، ومن الحلم المستحيل واقعًا معاشًا.

أكتب اليوم عن محمد المنصف المرزوقي، الرئيس الذي لم تُغيّره السلطة، ولم تستطع كراسي الحكم أن تبدّل جوهره. بقي المناضل كما هو، وظلّ الحقوقي قبل أن يكون السياسي، وبقي الإنسان الذي يرى في الكرامة تاجًا وفي الحرية عقيدة لا مساومة عليها.

الدكتور المنصف، في حياتي ـ لأكثر من عقد ـ لم يكن مجرد صداقة، بل كان تحقيقًا لحلم قديم كنت أظنه «الحلم المستحيل».

فلطالما تمنيت منذ نعومة اظافري لو عاد الزمن لأعيش عقدًا واحدًا من حياتي، في كنف مصطفى النحاس، ملاك الوطنية المصرية، زعيم الحرية والديمقراطية الذي أحببته عن بُعد، ومن خلال حكايات تلميذه

فؤاد ـ باشا ـ سراج ـ الدين لكن النحاس رحل وأنا طفل لا يتجاوز الرابعة.

❁ كنت أقول لنفسي:

«مستعد أن أضحي بما تبقى من عمري لأعيش عشر سنوات بصحبه النحاس باشا».

وسبحان الله، تحقق الحلم، لا مع النحاس، بل مع ملاك الوطنية العربية: المنصف المرزوقي.

❁ فلم أشعر يومًا بسعادة كتلك التي تغمرني وأنا أستمع إليه، وأتحاور معه. كان أبًا ومعلمًا وزعيمًا متواضعًا، يُخجلني صفاؤه، ويُدهشني تواضعه، ويُعلّمني أن المبادئ تظل دائمًا فوق كل اعتبار.

❁ أول لقاء جمعني به كان في قصر قرطاج عام ٢٠١٤.

هناك طلبتُ منه، أن يتولى رئاسة مجموعة من قيادات الربيع العربي في دول شتى، تحت لافتة المجلس العربي للدفاع عن الديمقراطية والربيع العربي.

كنا نحتاج إلى بيت خبرة عربي يناقش ما تبقى من ثوراتنا، يدرس تحدياتنا المشتركة، ويصوغ رؤى للتحول الديمقراطي.

كان اللقاء، لقاء نضال، مع رجل يعتلي مقعد رئيس الجمهورية، لكنه ظل يجلس في وجداننا كمناضل.

❁ اللقاء الثاني كان أكثر قربًا من الروح. في بيت بسيط بمدينة سوسة، برفقة توكل كرمان و**عماد الدائمي** ورفيقة دربي زوجتي دعاء.

❁ فتح لنا باب حديقة المنزل الصغيرة بنفسه، بلا حراس ولا مراسم. استقبلنا كأب، وأخ، وصديق،

أدهشني أنه لا يلبس إلا ثوب التواضع. بيته الريفي كان كتابًا مفتوحًا: بساطة في المظهر، عمق في الفكر، وإنسانية لا تحدها ألقاب.

❁ وطوال هذه السنوات، لم نختلف يومًا في قضية أو تقدير موقف أو حق.

ربما الخلاف الوحيد بيننا، كان في توصيف «الليبرالية العربية»: أنا ابن قيم الليبرالية المصرية بخصوصيتها التاريخية، وهو ابن مغرب عربي له سياق آخر في فهم القيم الليبرالية. لكنه كان دائمًا يداوي هذا الخلاف بروح التسامح، معتبرًا أن التعدد ثراء لا خصومة.

❁ محمد المنصف المرزوقي ظلّ حقوقيًا قبل أن يكون سياسيًا. طبيبًا يداوي الجسد، مفكرًا يداوي الوعي، مناضلًا يواجه الاستبداد، ثم رئيسًا يرفض أن يتخلّى عن قيمه.

لم يبع نفسه للسلطة، ولم يتنازل عن ضميره، فخرج كما دخل: نقي اليدين، طاهر الجبين.

❁ قليلون من يغادرون قصور الحكم بلا أوزار، وهو أحد هؤلاء النادرين. اختار أن يخسر السلطة، لكنه لم يخسر نفسه. خسر الكرسي، لكنه ربح التاريخ.

❁ كان دائمًا حاضرًا في وجداني كقدوة وكصوت للحقيقة. وجوده كان يذكّرني أن السياسة لا تكون طاهرة إلا إذا حملها رجال بهذا النقاء، ولا تكون إنسانية إلا إذا قادها ضمير.

❁ بالنسبة لي، تحقق حلمي (المستحيل) في صحبة هذا الرجل. حلم كنت أراه بعيدًا مثل النجوم،

فإذا به يتحقق في كل جلسة حوار، وفي كل كلمة صادقة، وفي كل لحظة شعرت فيها أني أعيش صحبة "ناسك الحرية" في زمن عزّ فيه الزهد بالكرسي والسلطة.

احمد الله لنا في عمره وأثره.

❁ وغدًا، أغادر حديثي عن الأب والرمز، لأفتح الصفحة على رفيقة المجلس العربي، شريكة الموقف السياسي، زهره الثورة اليمنية التي حملت

نوبل للسلام كوسام ثورة، إنها هي شقيقة الحلم التي منحتنا دوما وفي كل اللحظات الصعبة والمعتمة طاقة أمل: توكل كرمان.

أكتب عنهم اعترافا بأثرهم في حياتي، وأكتب عن نفسي لأبقى وفيًا لهم.



شخصيات في حياتي (٣)

توكل كرمان...
زهرةُ اليمن... وصوتُ الحرية

❁ لكل ثورة زهرة،

ولكل زمن أيقونة،

غير أن قليلًا ما تتجسد الزهرة والأيقونة في رمزًا واحدًا.

خرجت توكل كرمان من أسرة يمنية دستورية الاهتمام، بين ركام الاستبداد، لتقول للعالم إن الحرية لا جنس لها، وإن الشجاعة لا تُقاس بالشوارب والعضلات،

بل بنقاء الضمير، وصلابة الروح.

❁ ترتدي عباءتها اليمنية المميزة.

التي تذكرني برمزية نظارة غاندي، لكن خلف تلك الرمزية، وهجًا غير عادي:

تتحدث كأنها تحمل قلوب الملايين، وتبتسم بثقة في أحلك اللحظات

كأنها تنثر الطمأنينة وسط عاصفة.

شخصية استثنائية، تمزج بين الحضور الإنساني العميق والموقف السياسي الصلب.

رغم فارق السن لصالحي بيننا إلا أني استفدت كثيرًا من عدم اكتراث توكل بحملات الذباب الالكتروني التي تهب عليها كرياح الخماسين الموسمية

۞ أربعة عشر عامًا مضت منذ اللقاء الأول صارت خلالها توكل بالنسبة لي ولأسرتي، أختًا وصوتًا ومرأةً نادرة، تجمع بين رهافة الحس، وصدق الموقف.

في كل مرة أراها أجد فيها دهشة الطفلة، ويقين المناضلة، يقينًا لا يهتز بأن الحرية قدرٌ محتوم.

۞ في ٢٠١١ لم تكن مجرّد امرأة شابة تهتف في الميادين، وتعتقل وتعود ،

بل قصيدة تمشي على قدمين.

كل كلمة عندها سهم،

وكل دمعة عهد.

حضورها جعل الثورة لها ملامح، وعنوان، وللحرية وجها يبتسم في وجه القمع.

۞ كثيرًا ما أقول لها ولزوجها الصديق العزيز محمدالنهمي

وأكرر دومًا :

لو شكلت توكل حزبًا سياسيًا، لاستفاد من شخصيتها الدولية المرموقة، ومن صلاتها المحلية العميقة، ومن خبرتها المتنوعة.

فهي تملك ما لا يملكه كثير من الرموز: شرعية الميدان،

وشرعية التضحية،

وشرعية الاعتراف العالمي.

هي مشروع حزب قبل أن تكون مشروع ثورة.

۞ مشكلتها الوحيدة في تقديري

هي أنها لا تعرف الاستقرار في مكان واحد؛

فهي دائمة السفر، عابرة للخرائط، متنقلة بين العواصم. لكنها حين تستدعيها الشدائد، تجدها أول الحاضرين.

سيدة المواقف الصعبة، المبادِرة، القوية، الإنسانة التي لا تغيب في المحن، ولا تتأخر عن ساحات الوجع.

۞ جائزة نوبل للسلام التي نالتها عام ٢٠١١ لم تكن كأقرانها نهاية الطريق،

بل بدايته الجديدة. لقد جعلت منها تكليفًا لا تشريفًا، فحوّلت التكريم إلى مسؤولية، والضوء العالمي إلى منبر دائم للحرية.

۞ حين أسست منظمة صحفيات بلا قيود عام ٢٠٠٥، فتحت نافذةً جديدةً للنساء في الإعلام اليمني.

وحين أنشأت قناة بلقيس، لم يكن الاسم اختيارًا اعتباطيًا،

بل استدعاءً لتاريخ اليمن العريق، حيث بلقيس ملكة سبأ، وحيث الحكمة تتجدد في صورة إعلام حرّ يواجه الاستبداد.

۞ العلاقة بين توكل وبلقيس ليست مجرد استعارة.

فكما بنت الملكة عرشًا من نور، تبني توكل منابرًا من ضوء الحرية.

وكما حكمت سبأ بالحكمة، تحاول توكل أن تعيد لليمنيين مرآةً صافية لأنفسهم عبر صوتها وشاشتها ومؤسستها.

❁ مؤسستها ووقفياتها الخيرية لم تكن فرعًا ثانويًا، بل رئة أخرى لحياتها: تزرع، تُعلّم، تُداوي، وتُغيث.

إنها امتداد لضميرها الثوري، الذي لا يرى في السياسة سوى وسيلة لخدمة الإنسان.

❁ في المجلس العربي، جمعتنا مئات الساعات الطويلة من النقاش.

كنتُ اختلف معها احيانا، ونتفق في معظم الاحيان، فلا زلت أرى فيها الجسر الذي يربط بين عذوبة عماد الدائمي الصديق الحبيب، و*محمد المنصف المرزوقي* الأب والرمز والقيمة.

أضافت توكل للمجلس روحًا متوهجة، وحيويةً تجعل كل لقاء تجربة مختلفة.

❁ ما يدهشني فيها أنها رغم حضورها العالمي لا تفقد شغفها الأول. تبقى كما هي منذ لحظة انطلقت في شوارع صنعاء: ابتسامة وسط الركام، وصوت عالٍ في مواجهة الرصاص، وإيمان بأن غدًا سيكون أفضل مهما اشتد الليل.

❁ توكل كرمان ليست استثناءً لأنها امرأة شابه فقط، بل لأنها جعلت البطولة ممكنة بلا سلاح، وصنعت مدرسة للشجاعة، ومن اليمن المحاصر وطنًا يليق بتاريخه العريق.

❁ أتمنى لها أن تبقى زهرة لا تذبل، وإنسانة لا تفقد حماسها وانسانيتها. أتمنى أن يحفظها الله، وأن يمدها دائمًا بطاقة المبادرة التي لا تخبو، وأن تبقى صوتًا يوقظ الضمائر في كل مكان.

❁ وغدًا، وبعد أن كتبت عن الصديق والأب والأخت،

سأفتح الصفحات على الجد والاب الروحي، والجذر الليبرالي

المصري، على رجلٍ أعاد للوفد بهاءه، وللحركة الوطنية حضورها: فؤاد باشا سراج الدين.

أكتب عنهم ليبقى أثرهم، وأكتب عن نفسي لأبقى وفيًّا لهم.



شخصيات في حياتي (٤)

«أنا»

❁ أحسب أن أصعب كتابه عن شخصيه في حياتي هي أنا!.

فعندما بدأت كتابة سلسلة عاشوا في حياتي، وصلني سؤال متكرر من شباب لم يعيشوا تجربتي في مصر، وربما سمعوا عني، لكنهم أرادوا أن يسمعوا مني مباشرة:

من أنت؟

❁ قررت أن أجيبهم هنا،

فوسط ركام الزيف، والتشويه، وأكاذيب السوشيال، التي تطلقها ـ أحيانًا ـ ألسنة صديقة، وغالبًا نيران غير صديقة، او لجان، وذباب إلكتروني،

من حق هذا الجيل، أن يعرفوا الحقيقة كما أراها

ولا ادعي أني احتكرها.

❁ أنا أيمن عبدالعزيز نور؛

ولدت فجر الخامس من ديسمبر ١٩٦٤بمستشفي

«المترنيتيه» بباب شرقي الاسكندريه.

❁ أبي الحبيب الراحل هو عبدالعزيز نور المحامي والسياسي والنائب البرلماني لدورات متعددة من الخمسينيات وحتي السبعينيات من القرن الماضي

❁ أمي هي معتصمه محمد محمود حسنين أستاذة الأدب الفرنسي ورائدة العمل الاجتماعي والخيري بمحافظة الدقهلية. وأنا وحيد والديَّ.

❁ عشت سنواتي الأولي بين الاسكندرية والمنصورة آلتي تخرجت من جامعتها، ومارست فيها العمل الطلابي منذ سنوات التعليم الإعدادي والثانوي، حيث انتخبت رئيسا لاتحاد طلاب الجمهورية للمدارس الثانوية، وواصلت نشاطي الطلابي والصحفي في الجامعة ثم التحقت في الثمانينات بالعمل الصحفي ثم شاركت في تأسيس صحيفة الوفد، حتى أصبحت نائبًا لرئيس تحريرها.

❁ بإيجاز:-

أنا إنسان حاول أن يكتب سطور حياته بالصدق والجرأة، لا يرهبه الاعتقال الذي تعرض له عددًا من المرات منذ ١٩٨١وحتي٢٠٠٩،

وكاتب منذ أكثر من ٤٥ عامًا، يعشق الكلمة ويؤمن بأنها أداة التغيير، قبل أن تكون وصفًا للواقع.

❁ واجهت الرئيس الاسب حسني مبارك في أول انتخابات رئاسية تعددية، ثم صرت بعد أيام قليلة منها معتقلا لخمس سنوات،

الزنازين لم تقتل حلمي، بل صقلته وأعطته عمقًا أكبر.

❁ بين خطوات حياتي، عشت في البرلمان ١٥ عامًا، هي ازهي فترات حياتي، وكنت سكرتير عام الوفد بالقاهرة، ثم بعد وفاة فؤاد سراج الدين باشا، أسست حزب الغد، واصبحت زعيمًا للمعارضة بالبرلمان، وقدمت مئات الاستجوابات كتبتها بحروف من الصدق والحرص علي مصر أولا، ونلت مرات عدة لقب أفضل برلماني مصري، ثم اعتقلت من داخل

جدران البرلمان في واقعة مشهودة تاريخيًا. هزت الأوساط السياسية الدولية والبرلمانية خاصه ان هذا الاعتقال الذي أستمر فقط ثلاثة أشهر كان عقب إعلان ترشحي لانتخابات الرئاسة الأولي في تاريخ مصر

❁ كنت ثورة قبل الثورة، ودعوت لها وشاركت فيها من لحظتها الأولى

كنت صوتا للشجاعة، في زمن الاستكانة، وصوتًا للعقل، في زمن البطولات المجانية، البعض كان يتهمني بالتهور، وذات البعض يتهمني بالوسطية وبالحكمة المفرطة، وبين هذا الاتهام وذاك أضحك ولا ارد، فأنا بالفعل "الاثنين معًا"، أنا التهور بعينه، وقت أن تغلق أبواب التعقل. والحكمة بعينها عندما يعز العقل والعدل والمنطق.

غادرت مصر عام ٢٠١٣، الي لبنان حيث عشت فيها قرابة عامين وغادرتها الي تركيا

أثر تحذيرات أمنية مشددة من السلطات اللبنانية

❁ ومنذ ٢٠١٥.أنا مالك قناة الشرق، أول قناة معارضة مصرية، ورئيس حزب غد الثورة، والرئيس المنتخب لاتحاد القوى الوطنية المصرية،

ومازلت وسأظل مؤمنا بقيم ثوره يناير

وأن الحرية والكرامة هما البوصلة، وأن الليبرالية ليست مجرد شعار، بل فعل يليق بالإنسانية.

❁ كنت لسنوات، محامٍ وقانوني يعرف أن العدالة قصيدة تُكتب بالدموع والأمل، وأن السياسةً بلا أخلاق جسر مكسور، وأن الكلمة الواعية أعمق من كل منصات الصوت الصاخبة. أرفض كافه أشكال التمييز والعنف والتطرف.

❁ كل تجربة، كل جرح، كل فرح، صاغتني:

، لتشكل ملامح إنسان يسعى للحرية، يؤمن بالتسامح والقيم، ويرى في الكلمة أملًا لا يذبل، وفي المعرفة سلاحًا للحق.

❁ أؤمن بقيمة وقامة مصر الحضارية

مصر الفرعونيه والقبطية والإسلامية

مصر الدولة المدنية، الشعب الطيب المحب للتعايش والرحمة والسلام.

❁ هوايتي بسيطة، أحب الفن والجمال، واستمع بعد القرآن، لأم كلثوم وعلي الحجار.

وأحب الاشياء القديمة، وأحن دومًا إليها. كما أحن للوفاء والاعتراف بحب، لكل من مد لي يومًا يده.

ولا أكره في حياتي إلا الكراهية.

❁ هذا أنا، كما أعرف نفسي، ،

أكتب لأني أؤمن أن الكلمة الحقيقية تصل حتى في أصعب الظروف، وأن من يسأل عن الذات، يستحق أن يسمعها صافية، شفافة، صادقة.

❁ لكل من يسأل: من أنا؟...

هذه ملامح بصمتي، هذه حكايتي، هذه دعوتي لكم لتؤمنوا بالحرية، بالكرامة، بالحب، بالتسامح، وبأن الإنسان يستطيع أن يصنع الفرق مهما كانت التحديات.

شخصيات في حياتي (٥)

الشافعي بشير
المعلم الذي صاغ الضمير بالعلم والكرامة

في حياتي، وجوه لم تكن محطات عابرة، بل منعطفات كبرى أعادت ترتيب البوصلة. ومن هؤلاء أستاذي الجليل الشافعي بشير، الذي لم يكن مجرد معلم في قاعة محاضرات، بل مدرسة كاملة في الأدب والعلم، في القانون الدولي، وفي حب الوطن والشجاعة واحترام الذات والآخرين.

أكتب عنه اليوم متزامنًا مع ذكرى توقيع معاهدة كامب ديفيد، التي كان أستاذي من أبرز المفندين والناقدين لها. في محاضراته، كشف بجرأة أن هذه المعاهدة باطلة سياسيًا وقانونيًا، وكتب في مؤلفاته ما يسجّل موقفًا صريحًا ضدها.

كانت المفاجأة الصادمة للسلطة وللرئيس السادات نفسه حين وضع الشافعي بشير سؤالًا في امتحان الفرقة الأولى بكلية الحقوق يطلب من الطلاب كتابة رأي قانوني وسياسي في معاهدة كامب ديفيد. فجاءت أوراق الإجابة بيانات سياسية رائعة، ترددت فيها صوت المعلم وموقفه، فغضب السادات وأصدر قراره بإبعاده ضمن قرارات سبتمبر ١٩٨١ الشهيرة.

لم يتراجع الشافعي بشير، بل واجه الإبعاد بشجاعة. نُقل للعمل في مؤسسة حكومية كموظف عادي، لكنه لم ينكسر. وبعد اغتيال السادات

وإلغاء أغلب قرارات سبتمبر، عاد إلى الجامعة مستقلًا سيارته البيجو اللون النبيتي، حيث استقبله آلاف الطلاب في مظاهرة جامعة المنصورة عام ١٩٨٢.

❁ كان ذلك اليوم علامة فارقة في حياتي: آلاف الطلاب يهتفون لاستقبال أستاذهم المبعد، وأنا بينهم أشعر أني أستقبل وطنًا عاد من منفاه، لا مجرد أستاذ إلى مدرجه. لقد جسّد لنا أن الحرية لا تُستعار بل تُنتزع بالثبات والشجاعة.

❁ لم يكن معلمًا في القاعة فقط، بل كان رائد أسرة "إنسان" التي أسستها في جامعة المنصورة. أسرةٌ ليبرالية تضم الطلاب الذين ينتمون للفكر الليبرالي وتيارات سياسية قريبة، كانت من أفضل المدارس التي زرعت فينا الحُب بالعلم والعمل والحرية.

❁ بالنسبة لي، كان بيته في طريق الحرية بالإسكندرية ـ الذي صار يُعرف لاحقًا باسم طريق جمال عبدالناصر ـ محطةً ثابتة في زيارتي لمدينتي. بعد أن أزور قبر أمي -رحمها الله- في مقابر المنارة، كنت أعبر الطريق مشيًا إلى كلية الهندسة، لأجد الأستاذ الشافعي بشير يسكن هناك، يعيش جواره، وكان هو استاذ الحريّة والكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان.

❁ علّمني أن القانون ليس نصوصًا جامدة بل روح عدل، وأن الحرية بلا مسؤولية فوضى، وأن المسؤولية بلا حرية عبودية. دروسه لم تكن في المنهج، لكنها كانت جوهر التربية الوطنية.

❁ عاش مظلومًا؛ الدولة والأجهزة الأمنية رفضت أن يتولى عمادة الكلية أو رئاسة الجامعة رغم استحقاقه، ورغم انتخابه مرات عديدة رئيسًا لنادي أعضاء هيئة التدريس. مات عام ٢٠٠٤ دون أن ينال حقه الأدبي الذي يليق به، رحم الله الشافعي بشير رحمة واسعة.

❁ سيبقى اسمه فينا علمًا لا يُمحى، وصدى موقف لا يُنسى،

وصوت ضمير حيّ لكل من عرفه أو سمع عنه.

۞ . . .وغدًا، أغادر محراب القانون الدولي، حيث كان الشافعي بشير يعلّمنا أن الحق أقوى من الباطل، لأفتح الصفحة مع خالد جمال عبدالناصر، ابن الزعيم الذي أثبت أن النسب لا يصنع الرجال، بل تصنعهم المروءة والإنسانية والوفاء.

أكتب عنهم ليبقى أثرهم، وأكتب عن نفسي لأبقى وفيًّا لهم.



شخصيات في حياتي (٦)

خالد جمال عبدالناصر
ظلّ الزعيم... ورفيق الدموع والورود

❁ هناك شخصيات لا تعيش في دفاتر التاريخ وحدها، بل تظلّ في القلب شاهدًا على زمنٍ كامل. ومن هؤلاء صديقي العزيز خالد جمال عبدالناصر، الذي لم يكن مجرد «ابن الزعيم»، بل كان إنسانًا رقيقًا، خلوقًا، وصديقًا وفيًّا، صنع مكانته بنفسه لا باسمه.

❁ كان أول لقاء لي معه في بلغراد، حيث لجأ سرًا بعد أن ورد اسمه في قضية "ثورة مصر". رتّب اللقاء النقيب أحمد الخواجة بتنسيق مع أشرف مروان. دخلت بيته فوجدت وطنًا مصغّرًا في منفى بعيد.

❁ في ذلك اللقاء التقيت لأول مرة بالزميل حمدين صباحي، وبالكاتب الراحل سليمان الحكيم. جلسنا ساعات طويلة نتبادل الهموم والأحلام.

❁ فتحنا ديوان أمل دنقل، وقرأنا معًا قصيدة «لا تصالح». لم يكن مجرد شعر، بل كان عهدًا بالدمع. بكينا جميعًا، كأن القصيدة كانت مرآةً لضميرنا، وصرخةً لا تزال تتردد حتى الآن.

❁ بعدها بسنوات، في لندن ١٩٨٧، كنت أقضي شهر العسل. كان

خالد يأتي يوميًا إلى الفندق الذي أقيم فيه، يضع أمام باب غرفتي باقة وردٍ صامتة ثم ينصرف. لم يطرق بابًا ولم يطلب لقاءً. كان رقيقًا كالنسيم، صادقًا كالوفاء، يترك أثرًا لا يزول.

❁ لم يقترب خالد بأبهة «نجل الرئيس»، بل بحياء الأخ ونقاء الصديق. لم يكن يثقل بحضوره، بل يجعلك تفتقده حتى في غيابه.

❁ دعاني إلى غداءٍ عائلي ـ سياسي في مطعمٍ قريب من السفارة المصرية في لندن. كنتُ مع زوجتي، وهو مع زوجته، وحضر الأستاذ أحمد بهاء الدين وحرمه. كان الغداء أكثر من وجبة؛ كان مجلسًا ثقافيًا وإنسانيًا رسّخ علاقةً مهنيةً وإنسانيةً لا تُنسى.

❁ بين بلغراد ولندن، أدركتُ أنني أمام رجلٍ لم يطلب لنفسه شيئًا، ولم يستغل اسم والده، بل عاش زعيمًا لنفسه: زعيمًا بالمروءة والصدق والإنسانية.

❁ كان أستاذًا في الهندسة، لكنه كان معلّمًا في الأخلاق. علّمني أن الكرامة تُبنى باليوميات الصغيرة لا بالشعارات الكبيرة، وأن المروءة موقفٌ يتكرر حتى يصبح سيرة.

❁ رحل خالد مبكرًا، لكن بقيت الذكريات: دموع بلغراد، ورود لندن، وغداءٌ لا يُنسى قرب السفارة. ظلّ الزعيم، وصديق الروح، ورفيق الدموع والورود.

❁ . . .وغدًا، أغادر صفحة الابن الوفي الذي حمل إرث أبيه بإنسانية رقيقة، لأكتب عن محمد عبده، معلمي الأول، الذي زرع بذرة الحلم، وغرس أول شجرة في قلبي ما زالت تؤتي ثمارها حتى اليوم.

أكتب عنهم ليبقى أثرهم، وأكتب عن نفسي لأبقى وفيًّا لهم.

شخصيات في حياتي (٧)

محمد عبده.
المعلم الأول وبذرة الحلم

في حياة كل واحد منا، هناك معلم أول لا يزول من الذاكرة، ولو انقضت العقود وتبدّلت الأزمان. بالنسبة لي، كان ذلك المعلم هو الأستاذ محمد عبده، أستاذ اللغة العربية والقرآن الكريم في مدرستي الابتدائية، الذي خطّ على لوح الطفولة أبجدية الحلم الأولى، وزرع في قلبي بذور الكرامة والحرية.

ما زلت أذكر صورته: سبورة خضراء، طباشير بيضاء، ووجهه الوقور تتوّجه سيماء الطربوش الأحمر، ربما كان آخر من ظل يرتديه في مصر. لم يكن الطربوش عنده مجرد زي، بل رمزًا لجيل من المعلّمين الكبار، يجمعون بين الهيبة والرحمة، وبين العلم والتربية.

كان يأتي إلى بيتنا أيضًا، بهمة الأبوة والصبر، ليعينني على حفظ القرآن، وليعلّمني أسرار العربية. كان صوته حين يتلو الآيات يزرع فينا مهابة الكلمة، ويجعلنا ندرك أن النص ليس حروفًا جوفاء، بل معنى يسكن القلب قبل اللسان.

ولم أكن تلميذه وحدي؛ بل مرّ على يديه كثيرون، ومن بينهم زميلي

في المدرسة توفيق عكاشة، الذي تلقى مثلنا دروس القرآن واللغة العربية على يد هذا الرجل النبيل.

كان أقسى عقابه أن يحرمك من ابتسامته، وابتسامته كانت جائزةً أعظم من أي درجة. كان أبًا قبل أن يكون معلمًا، وصديقًا قبل أن يكون مربيًا.

لم يعلّمني اللغة فقط، بل علّمني أن العلم ليس للتلقين بل للإحياء، وأن القراءة حياة، وأن السؤال أحيانًا أهم من الإجابة. منه خرجت أولى خطواتي نحو الكتابة والفكر والسياسة.

تضافرت صورته مع صورة الإمام الأكبر محمد عبده، الذي قرأت لاحقًا فكره الإصلاحي. لم يكن تشابه الأسماء وحده هو الرابط، بل تشابه الرسالة: الأول غرس فيّ حب اللغة والقرآن، والثاني علّمني أن الدين لا يناقض العقل ولا يصادر الحرية.

كنت أرى في الإمام محمد عبده امتدادًا لمعلمي الأول؛ كلاهما جسّد معنى الإصلاح: إصلاح العقل بالدين، وإصلاح الدين بالعقل، وإصلاح الإنسان بالحرية. الاسم واحد، والرسالة واحدة: الحرية والكرامة.

وما لا أنساه أبدًا أن تلك الدروس الأولى زرعت في داخلي يقينًا مبكرًا، أن الإسلام يحتفي بالاختلاف، ويقدّس حرية الضمير. وكانت تلك القناعة تضيئها آية كريمة حفظتها صغيرًا:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

علمتني تلك الآية أن الله وحده يحكم بين المختلفين، لا سلطان لبشر على ضمير بشر، ولا وصاية لفقيه أو حاكم على عقل إنسان. ومن هنا بدأت رحلتي مع قيم الحرية والليبرالية، بوصفها امتدادًا للإيمان، لا قطيعة معه.

وأضاءت كلمات سيدنا علي بن أبي طالب، وقول النبي ﷺ: «**اختلاف أمتي رحمة**»، هذا اليقين. ثم وجدت صداه عند عبدالرحمٰن الكواكبي، ورفاعة الطهطاوي، وحسن العطار، وعبدالحليم محمود، فصار خط الإصلاح ممتدًا من مقعد المدرسة إلى مكتبة الفكر العربي والإسلامي.

لهذا، لم يكن انحيازي يومًا لقيم الحرية خروجًا على ديني، بل وفاءً لجوهره الأول: لا إكراه في الدين. ولم يكن إيماني بالاختلاف بدعة، بل التزامًا بأن الوحدة لا تقوم على القهر، بل على التنوع والعدل.

سيبقى أستاذي محمد عبده محفورًا في ذاكرتي، لا كأستاذ ابتدائي فحسب، بل كأبٍ روحي أول، وصاحب بذرة حلمٍ لا تزال تؤتي ثمارها حتى اليوم.

. . .وغدًا، أغادر صفحة الطفولة التي علّمتني الحروف، لأكتب عن صديقٍ عزيز.

شخصيات في حياتي (٨)

مصطفى أمين
المعلم الأول في الإنسانية والصحافة

في حياتي، رجال كانوا شمسًا لا تغيب، أساتذة لم يتركوني عند حدود الكلمة بل حملوني إلى آفاقها. ومن هؤلاء العملاق مصطفى أمين، الذي كان عندي المعلم الأول في الصحافة والإنسانية والليبرالية.

بدأت قصتي معه وأنا طالب في الثانوية، رئيسًا لاتحاد طلاب الجمهورية. كنت أحلم بالصحافة، وأتوق للقاء الكبار. تحقق الحلم أكثر من مرة مع مصطفى أمين، وكان كل لقاء معه قبلة حياة لمسيرة ممتدة.

في عام ١٩٧٩، في أول عيد رسمي للفن والثقافة، كان الرئيس الراحل أنور السادات غاضبًا من مصطفى أمين، رافضًا تكريمه. لكن الوزير الليبرالي الشاب منصور حسن لم يتمكن من تجاهله، فذهب إلى منزله في الزمالك، قريبًا من بيته هو أيضًا، ودون علم السادات، ليستشيره في أسماء المكرّمين.

وهناك، رشّحني مصطفى أمين، وأنا ما زلت طالبًا في الثانوية، لأكون ضمن المكرّمين عن دوري في الصحافة الطلابية والشبابية. تسلّمت شهادة التكريم من السادات، لكنها كانت في وجداني وسامًا أبديًا من مصطفى أمين.

وحين اعتُقلت في مارس ١٩٨٢ وأنا طالب جامعي، كتب عني في مقاله الشهير «فكرة»، مدافعًا عني وعن حقي في الحرية. كان يدافع عن قيمة الحرية نفسها، لا عن فردٍ بعينه.

مقالاته الإنسانية كانت مدرستي الأولى. كان يكتب عن بائع في الشارع، أو عامل في المصنع، أو طفل يتيم يوزّع الفرح بلا مقابل. كان يرى في الوجوه المجهولة عظمة الوطن، وفي التفاصيل الصغيرة معنى الإنسانية.

في سجني الأخير، قرأت ثلاثيته الشهيرة: «سنة أولى سجن» و«سنة ثانية سجن» و«سنة ثالثة سجن». كنت أقرأه كأنني أقرأ نفسي. الوحدة ذاتها، الجدران نفسها، القهر ذاته، لكن الأمل ذاته أيضًا.

وجدت نفسي في كلماته، في وصفه للوحدة، في حديثه عن لحظات الضعف ولحظات الصلابة. كان صوته في الكتب عزاءً ورفيقًا، يمدني بالصبر والأمل.

كان يؤمن أن الصحافة مرآة للإنسان، لا مرآة للسلطان. علّمني أن الصحافة بلا حرية كالجسد بلا روح، وأن الكلمة بلا صدق ريحٌ عابرة.

لم يكن مجرد صحفي كبير، بل كان أبًا حقيقيًا لجيل كامل. كل من قرأه شعر أنه أقرب إلى نفسه وأقرب إلى الناس. كان يكتب كأن قلبه قلم، وكأن قلمه قلب.

ولا يمكن أن يُذكر مصطفى أمين دون أن يُذكر توأم روحه علي أمين. كانا جناحين لطائر واحد، لا يستقيم أحدهما دون الآخر. توأمان جسّدا مدرسة كاملة في الصحافة والفكر.

لم يكن مصطفى أمين أستاذي وحدي، بل كان أيضًا أستاذًا لأستاذي التالي: مصطفى شردي، فارس صحافة المعارضة. علّمه فألهمه، ثم ورثتُ أنا عن شردي ما ورثه هو عن أمين: مدرسة الصحافة، والشجاعة، والوطنية.

إنني مدين لمصطفى أمين بقدرتي على أن أكتب بحرية، وأن أؤمن بالاختلاف، وأن أرى في الصحافة شرفًا لا وظيفة. رحم الله مصطفى أمين، ورحم علي أمين، ورحم جيلًا صاغ وجدان الأمة بالكلمة.

. . .وفي الحلقة القادمة، أكتب عن تلميذه مصطفى شردي، الذي رحل في الذكرى الخامسة والثلاثين لرحيله. فارس صحافة المعارضة، وأبٌ حنون، وصوتٌ صادق حمل شعلة الحرية في وجه الطغيان.

شخصيات في حياتي (٩)

المصطفيان شردي وأمين
من الوفد لقناة الشرق

في دفتر العمر، هناك أسماء لا تُكتب بالحبر وحده، بل بدمع القلب وملح التجربة. ومن بين هؤلاء رجلان لا أنفصل عنهما في ذاكرتي: مصطفى شردي فارس المعارضة، ومصطفى أمين معلم الصحافة والإنسانية.

هما «المصطفيان» اللذان شكّلا لي مدرسة ممتدة، أستحضر صورتهما كل يوم خلال ١٢ عاما في قناة الشرق، وفي موقع أخبار الغد، وقبل ذلك في جريدة الغد اليومية التي أصدرتها في مصر عام ٢٠٠٤.

بدأت حكايتي مع الأستاذ مصطفى شردي بداية متوترة.

ففي ١٩٨٤، قبل صدور العدد الأول من جريدة الوفد، طلب شردي من فؤاد باشا سراج الدين وقف جريدة

«الوفد الجديد» التي كنت أرأس تحريرها.

كان يرى أن الاسم قد يلتبس بين «الوفد» و«الوفد الجديد»، وكان محقًا في هواجسه.

بقرار من مجلس إدارة الجريدة، الذي ضم إبراهيم باشا فرج وعصام عيسوي ومدحت الهرميل وحنان البدري ومؤمن رشاد وعصام حنفي،

غيّرنا الاسم إلى

«شباب الوفد».

❁ سرعان ما أثارت الجريدة الجديدة ضجة. فكتب موسى صبري مقالات يهاجمنا،

في نفس الوقت طلب شردي مجددا من الباشا وقفها نهائيًا. لنفس السبب

❁ لجأت إلى أستاذي مصطفى أمين، الذي دعمنا ماليًا لدى مطابع أخبار اليوم، فهمس لي يا ايمن أنت صحفي موهوب : «والصحافة يا ولدي لا تقاس بالسن، او الموقع

بل بصدق الكلمة.

❁ وبعد نقاش طويل، اقترح أمين أن نندمج مع فريق شردي، لنصير جزءًا من التجربة الأكبر: صحيفة الوفد.

وهكذا دخلت إلى مدرسة شردي من باب كان يوصد، فإذا به يتحوّل إلى نافذة أمل.

❁ في البداية كانت العلاقات بيننا وبين فريق شردي، خصوصًا القادمين من جريدة الاتحاد الإماراتية مثل الراحل جمال بدوي، متوترة. لكن مع الوقت، صارت المنافسة المفتوحة مدرسة في حد ذاتها.

❁ فضلا أنه بالنسبة لجريدة شباب الوفد

لم يكن لدينا تمويل، ولا موارد. فأصدرنا أعدادنا من فندق إيفرست في ميدان رمسيس،

وكنت أسدد الديون من مصروفي العائلي ومن مساهمات مهندس عصام عيسوي.

كان حماسنا هو رأس المال، واندفاعنا هو التمويل الحقيقي.

❁ أحد الأعداد صادف امتحاناتنا الجامعية. لم نستطع كتابة المقالات أو إخراج الصفحات. تولّى عصام حنفي رسم العدد كاملًا بالكاريكاتير.

كان عددًا تاريخيًا: كل صفحة لوحة، وكل لوحة مقال. كان برهانًا أن الإبداع يولد من رحم العجز.

❁ انضممنا إلى الوفد بقيادة شردي، وبدأنا نحضر اجتماعات التحرير في قصر فؤاد باشا. كانت غرفة السفرة في الدور الأرضي تتحول إلى قاعة تحرير كبرى، يجلس فيها محمد عبدالقدوس ومجدي مهنا ومجدي سرحان ومحمد الشربيني، ومعهم الراحل سعيد عبدالخالق، فضلًا عن عباس الطرابيلي وجمال بدوي.

❁ بعد شهور من التوتر، اكتشفت أن شردي ليس خصمًا بل أبًا. كان يحترق مع كل كلمة يكتبها، ويقول لنا دائمًا: «الصحافة نار، من يقترب منها يتوهّج، لكنه قد يحترق.

❁ صحته المرهقة وقلبه المعتل أجبره على البقاء في مكتب صغير في الدور الأرضي من المقر، لكنه حوّله إلى مدرج مفتوح لتعليم الصحافة الحرة. تعلمنا هناك أن الصحافة موقف قبل أن تكون خبرًا.

❁ ولجيل قد لا يعرف الكثير عن الراحل الكبير فقد ولد مصطفي النحاس شردي في بورسعيد عام ١٩٣٤. ورث المهنة عن والده، مراسل جريدة المصري الوفدية، ثم أصبح هو مراسلًا لأخبار اليوم. في العدوان الثلاثي ١٩٥٦، صوّر مشاهد نقلها مصطفى أمين للأمم المتحدة بأمر من عبدالناصر، لتفضح بشاعة العدوان.

❁ آل شردي ثلاثة أجيال: أبوه رائد المهنة، الابن مصطفى شردي فارس المعارضة، والأحفاد الأبناء الثلاثة لمصطفي شردي: أيمن شردي (رحل مبكرًا)، توأمه إبراهيم شردي (ظلّ جريح لهذا الفقد)، ومحمد

شردي الذي عمل بالصحافة لكنه لم يرث من أبيه وجده إلا الاسم.: فمحمد شردي مختلف، لم يحمل من ميراث أبيه إلا القليل.

من كثير لم يقوي يوما علn حمله فلا تظلموا الاب بالخلط بين اسم الاب والابن مهما تشابهت الحروف

❁ في السبعينيات أسس مصطفى شردي صحيفة الاتحاد في الإمارات، فكان من رواد الصحافة الخليجية الحديثة. ثم عاد ليقود معركة الكلمة من مصر.

❁ وعندما قرر الباشا إصدار الوفد، كان مصطفى أمين هو من رشحه لرئاسة التحرير بعد أن اعتذر هو عن المنصب. أمين سلّم المشعل لتلميذه، وشردي سلّم الدفء لتلاميذه.

وهذا ما تعلمت من هذه المدرسة وأحاول أن أطبقه في قناة الشرق واي تجارب صحفية وانسانية

❁ قاد شردي صحيفه الوفد بشجاعة، وحوّلها لأول صحيفة معارضة يومية. ارتفع توزيعها، وصارت مدرسة للوطنية والحرية. وكان يقول لنا: «الجريدة ليست ورقًا يُطبع، بل وطنًا يُكتب.

❁ تحت قيادته، تعلمنا أن الصحافة صناعة لا تقل عن صناعة السيوف. كان يردد: «الصحافة مهنة الدم والعرق، لا مهنة الرفاهية.

❁ واليوم، وأنا أجلس أمام شاشة قناة الشرق، أو أكتب في موقع أخبار الغد، أستحضر صورته مع صورة أستاذه مصطفى أمين. تجاربي الإعلامية كلها مدينة لشجاعة شردي وحرفية أمين:

جريدة الغد في ٢٠٠٤، ثم الشرق وأخبار الغد منذ ١٢ عاما وإلى اليوم.

❁ كانا معًا «المصطفيان»؛ الأول فارس المعارضة، والثاني معلم

الإنسانية. بهما تعلمت، وبهما صغت تجربتي.

❁ برحيل شردي، فقدت الصحافة المصرية فارسًا صادقًا، لكنه ترك مدرسة باقية، ودروسًا تتناقلها الأجيال.

❁ . . .وفي الحلقة القادمة، أكتب عن رفاق آخرين من دفتر العمر، لنُبقي الذاكرة حيّة، والحرية يقظة، والوفاء حاضرًا.

أكتب عنهم ليبقى أثرهم، وعن نفسي لأبقى وفيًّا لهم



شخصيات في حياتي (١٠)

ديفيد هيرست
من الذي كان يحلق لمبارك؟

في عام ٢٠١٠، قبل أسابيع قليلة من ثورة يناير، التقيت الصحفي البريطاني ديفيد هيرست في فندق الكومودور ببيروت، لقاءً لم يكن صدفة عابرة، بل موعدًا لإجراء حوارا صحفيًا بيننا.

كنتُ أستعد لحوار تقليدي، فإذا به يبدأ المقابلة بسؤال غير تقليدي أبدًا: من الذي يحلق لمبارك؟ بدا لي السؤال أقرب إلى طرفة أو زلة لسان، فأعدت النظر إليه مرتبكًا، منتظرًا أن يوضح. لكنه كرره بصرامة وبنظرة نافذة، وكأنّه يفتح من السؤال بابًا آخر للحقيقة.

لم يكن يقصد الحلاقة بالمعنى المباشر، بل كان يريد أن يقول: من يضع اللمسة الأخيرة على عمر هذا الحكم؟ من ينهي المعادلة الطويلة التي استمرت ثلاثين عامًا؟ لم يكن يسأل عن بقاء مبارك، بل عن نهايته القريبة، عن اليد التي ستضع النقطة الأخيرة في سطر النظام. كان السؤال صادمًا، لأنني لم أكن أملك جوابًا، لكنه بدا كمن يستشرف ما سيحدث بعد أسابيع، كأنّه يقرأ مصر وهي تقف على أعتاب ثورة لم تعلن عن نفسها بعد.

لم يكن هيرست مراسلًا عابرًا ينقل الأخبار، بل شاهدًا على زمن

كامل. حمل قلمه منذ ستينيات القرن الماضي في ذا غارديان، ثم وزّع فكره على منابر أخرى كـ كريستيان ساينس مونيتور وديلي ستار. لكن الأهم أنه لم يكتب يومًا ليُرضي، بل كتب ليكشف. حين ألّف كتابه «البندقية وغصن الزيتون»، قدّم وثيقة فاضحة لجذور الاستعمار في فلسطين، وكسر هيبة الرواية الغربية والإسرائيلية التي أريد لها أن تكون حقيقة مطلقة.

❁ بيروت كانت مسرحه الأوسع وموطن غربته الأعمق. عايش الحرب الأهلية، ونجا من الخطف والمنع، ومع ذلك بقي وفيًا لها حتى رحيله. كتب عن لبنان «احذروا الدول الصغيرة»، ليكشف أن صِغر المساحة لا يحمي من كِبر المأساة. وحين كتب عن عرفات والأسد وصدام، كان كمن يرفع الغطاء عن قدور تغلي، بلا وجل من الدخان ولا من النيران.

❁ لكن تلك الجلسة في الكومودور عام ٢٠١٠ تبقى محفورة في ذاكرتي، لأنها لم تكن مجرد حوار صحفي، بل أشبه بدرس في استشراف التاريخ. كان هيرست يرى أن مبارك يقترب من نهايته، لا من استمراره، وأن حكاية ثلاثين عامًا على وشك أن تُطوى. لم أقل شيئًا يومها، لكنه قال كل شيء بنظرته وسؤاله. وبعد أسابيع، حين امتلأت شوارع القاهرة بالغضب، أدركت أن سؤاله لم يكن غريبًا، بل كان أقرب إلى نبوءة تختصر زمنًا بأكمله.

❁ منذ ذلك اللقاء، نمت بيننا صداقة وود، لم تقف عند حدود المهنة. كان رجلًا يعرف كيف يُصغي، وكيف يُصدمك بسؤاله، وكيف يترك فيك أثرًا لا يمحوه الزمن. وحين رحل يوم الاثنين، ٢١ سبتمبر ٢٠٢٥، عن تسعين عامًا، شعرت أن شاهدًا من شهود زمننا قد غاب، وأن صديقًا كان يشاركنا حمل الحقيقة قد أسلم قلمه للنهاية.

❁ أكتب إليك اليوم يا ديفيد كرسالة وداع: لم تكن مجرد صحفي غربي عابر، بل كنت رفيق سؤال غيّر نظرتي إلى لحظة كاملة. علّمتني أن الصحافة ليست إعادة سرد لما جرى، بل بحث عمّا سيجري. وأن السؤال

قد يكون أحيانًا أقوى من الثورة ذاتها. سلام عليك، يوم طرحت السؤال، ويوم رحلت عن الدنيا، ويوم تعود أسئلتك لتشهد على أن الكلمة الصادقة لا تموت، حتى لو مات صاحبها.

۞ رحلت يا ديفيد، لكن بقيت نبوءتك ترفرف في الذاكرة كراية خفية: أن النهاية ليست قرار الحاكم، بل قرار الشعب. وأن الثورة حين تندلع، تبدأ دائمًا بسؤال بسيط، يوجّه في لحظة صدق، ويهزّ أركان الصمت حتى ينهار.



شخصيات في حياتي (١١)

الليبرالي الخام هشام قاسم والليبرالي المغشوش يمامة

❁ ما بين ليبرالية صافية دفعت ثمنها غاليًا، وليبرالية مغشوشة صارت تُكافأ بتعيينات شكلية في مجلس الشيوخ، أجد نفسي اليوم أكتب عن الفارق بين النموذجين: هشام قاسم، الليبرالي الخام، في مواجهة ما أصفه بـ "ليبرالية يمامة المغشوشة».

❁ كان الوفد قمة الهرم الليبرالي المصري، فإذا به يتحول إلى ثقب أسود في جسد التجربة. تتويج المأساة جاء حين أصدر الرئيس قرارًا بتعيين منافسي الخائب عبدالسند يمامة عضوًا بمجلس الشيوخ، مكافأة على دوره الكومبارسي في إهانة الحزب العريق. وجاء القرار مكملًا بضم أسماء مثل بهاء أبو شقة و*خالد قنديل*

ومحمد مصطفى شردي.

❁ جلوس يمامة على مقعد سعد زغلول، ثم ارتضاؤه أن يُستدعى لمجلس الشيوخ كتعويض، كان هو الدليل الأوضح على أن الوفد لم يعد حزبًا، بل لافتة باهتة فوق أطلال.

❁ في المقابل، كلما تذكرت هذه المشاهد، استحضرت صورة

هشام قاسم. لم يقبل منصبًا، لم يطلب مكافأة، لم يهادن استبدادًا. ظلّ على مدى سنوات الليبرالي الخام، الذي لا يعرف الأقنعة ولا يعرف المساومات.

❁ عرفت هشام منذ ربع قرن وأكثر، زاملته في الحزب والسياسة والحقوق. كان نائب رئيس حزب الغد، شريكًا في تأسيسه، وأحد الأعمدة التي قامت عليها حملتي الرئاسية عام ٢٠٠٥.

❁ يومها، كان هو صاحب الفضل الأول في إقامة مؤتمر التحرير. أصرّ أن يكون المكان هو ميدان التحرير، لا أي قاعة أخرى. دخل في مواجهة صلبة مع مدير أمن القاهرة، وخرج منتصرًا. لولاه لما انعقد ذلك المؤتمر الذي كان أكبر تجمّع بشري شهده الميدان قبل ٢٥ يناير.

❁ هشام لم يكن ليبراليًا في المقال فقط، بل في الحياة كلها. زارني في السجن، وقف بجانبي، دافع عني بصلابة. لم يكن يساوم، بل كان دائمًا يقول: «إذا أردت أن تكون ليبراليًا في مصر، فكن مستعدًا للسجن كما أنت مستعد للكتابة».

❁ لم يهرب من مصر، خرج من مطار القاهرة مرفوع الرأس. خرج ليقول رأيه بلا ضغوط، لا هاربًا من محاسبة ولا طامعًا في مصلحة. وبعد شهور صار زميلًا أول مقيمًا في كلية هارفارد كينيدي.

❁ أسس صحيفة Cairo Times عام ١٩٩٧، بالإنجليزية، لتكون نافذة حرة على مصر. ثم تولى قيادة المصري اليوم، لتتحول تحت يديه إلى مؤسسة إعلامية مستقلة، بتوزيع تجاوز مئات الآلاف، وبلا وصاية من الدولة.

❁ وفي ٢٠١٠، أسس مشروعه الطموح «الجمهورية الجديدة»، الذي سبق عصره بدمج كل المنصات الإعلامية في غرفة أخبار واحدة. لم يكتمل المشروع بسبب عواصف الربيع العربي، لكنه بقي شاهدًا على رؤيته.

❁ لم يكن الإعلامي فقط، بل الحقوقي والسياسي. تزاملنا في المنظمة المصرية لحقوق الإنسان، ثم شارك معي في تأسيس حزب الغد، فكان نائب الرئيس للشؤون الخارجية، وساعد في إدارة ملف العلاقات الدولية للحزب.

❁ في يونيو ٢٠٢٣، صار رئيسًا لحركة التيار الحر، ائتلاف الأحزاب الليبرالية. لم تمر أسابيع حتى اعتُقل، وبقي في السجن حتى فبراير ٢٠٢٤، لمجرد أنه قال ما يراه حقًا.

❁ اسمه ورد في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية لعام ٢٠٢٣، كأحد أبرز الشواهد على تكميم الأفواه في مصر.

❁ ورغم سجنه وتشويهه، ظلّ عندي نموذجًا لليبرالي الصادق، الذي يرفض أن يتلوّن أو يتكسّب.

❁ وفي ٢٠٠٧، كرّمه العالم حين استقبله الرئيس الأمريكي جورج بوش في المكتب البيضاوي، بعد منحه جائزة الصندوق الوطني للديمقراطية.

❁ كما كان عضوًا في اللجنة التوجيهية للحركة العالمية من أجل الديمقراطية في واشنطن (٢٠١٩-٢٠٢٠).

❁ هو الليبرالي الذي دفع أثمانًا حقيقية: سجن، محاكمات، تشويه، لكنه لم يتراجع. في زمنٍ صار فيه بعض "الليبراليين" يتسابقون على مقاعد التعيين، ظل هو شامخًا، بلا كرسي ولا لقب.

❁ المقارنة هنا فاضحة: بين ليبرالية هشام الخام، التي لا تعرف المساومة، وليبرالية يمامة المغشوشة، التي تقبل أن تُستدعى مكافأة في مجلس الشيوخ.

❁ الأولى شرف، والثانية وصمة. الأولى تضحية، والثانية صفقة. الأولى طريق طويل مفروش بالمتاعب، والثانية قاعة مكيفة ومكافأة آخر الشهر.

❁ سلام عليك يا هشام، أيها الأخ والصديق والمقاتل. سلام على ليبراليتك الصافية التي علمتنا أن المبدأ أغلى من الكرسي، وأن الحرية لا تشترى ولا تُعيَّن.

❁ ستبقى شاهدًا على أن الليبرالية ليست خطبًا في الشيوخ، بل مواقف في السجون. وليست تصريحات في الصحف، بل حياة كاملة تُعاش بصدق، حتى لو كان ثمنها العمر كله.

أكتب عنك لأوفيك حقك، وعن نفسي لأبقى وفيًّا لليبرالية التي جمعتنا.



شخصيات في حياتي (١٢)

حسام بدراوي
بلاغة السكوت وشجاعة المواجهة

عرفت الدكتور حسام بدراوي أول مرة في عام ١٩٩٥، عندما كان مرشحًا مستقلًا في دائرة قصر النيل، بينما كنت أنا نائبًا عن دائرة باب الشعرية والموسكي بالقاهرة. كان من سوء حظه أن يواجه في تلك المعركة الانتخابية الأستاذ الراحل ياسين سراج الدين، وكان النظام بكل مكوناته وأجهزته يرغب في نجاح مرشحه، لا في نجاح بدراوي. أشهد أن المعركة لم تكن عادلة ولا نزيهة، وأن سقوط حسام لم يكن هزيمة انتخابية بقدر ما كان قرارًا فوقيًا أمنيًا سياسيًا.

أذكر أنه في غضون تلك الانتخابات أو بعدها مباشرة، التقينا في قناة أبوظبي ـ أو دبي التي بدأت بثها الأول آنذاك ـ في لقاء أجراه الزميل طارق الشامي قبل انتقاله إلى قناة الحرة لاحقًا. وبين الفواصل دار حوار خارج البث عن حجم التزوير الذي واجهه بدراوي، وكنت شاهدًا على بعضه ومؤكدًا لما قال. لكن المفاجأة أن خطأً فنيًا جعل ما دار بين الفاصل يظهر على الهواء مباشرة، لتصبح شهادتنا معًا علنًا في لحظة لم يتوقعها أحد.

بعد هذا اللقاء الشهير، كنت أبدأ مشروع تأسيس حزب جديد،

حمل في بدايته اسم "المستقبل". كان د. حسام أحد المتحمسين للفكرة في البداية، قبل أن يختار، مع آخرين مثل محمود محيي الدين و**طلعت القواس**، الانخراط في فكرة الإصلاح من الداخل، عبر الانضمام إلى لجنة السياسات بالحزب الوطني، حيث انفرقت بنا الطرق.

۞ رغم اختلاف المواقع الحزبية، ظلّ هناك تقاطع في الأفكار الليبرالية والمواقف العامة. وقد أثّرت علاقة بدراوي القوية بالصديق منير فخري عبدالنور، زميلنا في الوفد، على طبيعة علاقتي به، إذ تباعدت مواقفنا الحزبية دون أن تقطع الخيط الإنساني والفكري الذي ظل قائمًا.

۞ تعرض د. حسام لكثير من الظلم والمظالم، أولها إسقاطه المتعمد في انتخابات ١٩٩٥. وآخرها ما جرى حين تولى موقع الأمين العام للحزب الوطني بعد ثورة يناير المجيدة، ليبقى في موقعه ساعات محدودة فقط، دون أن تتاح له فرصة تقديم نفسه كما أعرفه وأثق فيه.

۞ ظُلم أيضًا حين لم يُمنح المنصب الذي كان جديرًا به: وزير التعليم. كان صاحب رؤية واضحة ومشروع إصلاحي، يؤهله أكثر من غيره لهذا الموقع. وظُلم حين حُسب على الثورة المضادة بينما كان يتحدث بلسان الإصلاح. وظُلم حين حُسب على الثورة من قِبل خصومه في النظام. بقي في المنطقة الرمادية التي لم تنصفه لا هذه الجهة ولا تلك.

۞ وحين جاوز السبعين، بدا وكأنه قرر أن يفتح أبواب الصمت التي ظل مغلقًا عليها طويلًا. لقاءاته الأخيرة، مع برامج البي بي سي المتألقة خاصه لقاءاته الأخيرة في برنامج بتوقيت مصر تقديم الإعلامية نسمه السعيد والذي ترأس تحريره الرابعة القصيرة صفاء فيصل كانت هذه اللقاءات نقله كبيره في الصورة الذهنية الظالمة عن الدكتور حسام بدراوي

وكذلك مقالاته الأكثر صراحة، حملت روحًا جديدة. ومن بين أبرز ما كتب مقاله عن بلاغة السكوت وخيانة الصمت.

❁ قرأتُ مقاله ذاك بتمعن. كان نصًا عميقًا، ثريًا، يتساءل متى يكون الصمت حكمة، ومتى ينقلب إلى خيانة. استوقفني صدوره عن رجلٍ خبر السياسة والفكر والإعلام، يعرف كيف يزن الكلمة في وطن ضاق صدره بالكلمات.

❁ لفتني قوله إن الصمت درجات وألوان، ليس بالضرورة أن يكون عجزًا، بل قد يُقرأ خيارًا حكيمًا في مواجهة جلبة بلا نهاية. نعم، الصمت أحيانًا أبلغ من الكلام. لكنني أختلف معه حين يُستدعى الصمت أمام المواقف الوطنية الكبرى. فالصمت أمام الظلم تواطؤ، وأمام الاستبداد خيانة للذات قبل أن تكون خيانة للوطن.

❁ حديثه عن صمت الوجوه كان صادمًا وصادقًا. الوجوه الحاضرة بأجسادها، الغائبة بأرواحها، تلك التي تكتفي بالابتسام في حضرة الاستبداد، وكأنها تؤدي دورًا في مسرحية بائسة.

❁ أما صمت الجموع، فقد كان وصفه الأقرب لجرحنا الجمعي. فالشعوب التي تتحول إلى كتلة صامتة لا تعني بالضرورة رضاها، بل قد تكون مختنقة بالخوف والقهر. هنا يصبح الصمت الجمعي أخطر أشكال الصمت، لأنه يقتل الأمل ويصادر الحلم.

❁ أوافقه على التمييز بين صمت الحكمة وصمت الجبن. الأول اختيار واعٍ ومسؤول، والثاني هروب واستسلام. لكن الخوف كل الخوف أن يتحولَ الصمت إلى منهج في إدارة الدولة. فإذا صمت البرلمان، وصمتت النخب، وصمتت المنابر، صار الكلام جريمة، وصار الوطن كله صوتًا واحدًا، لا يعترف بتعدد ولا يحتمل اختلافًا.

❁ في النهاية، لا يسعني إلا أن أحيي صديقي القديم الدكتور حسام بدراوي على شجاعته في طرق أبواب يعرف ضيقها. قد أختلف معه في بعض تبريرات الصمت، لكنني لا أشك في صدقه، ولا في محاولته أن يقول ما يستطيع قوله تحت سقف منخفض حتى الاختناق.

❁ يظل بدراوي شاهدًا على زمن، وصوتًا يحاول أن يلمّح حين لا يُسمح له أن يصرّح. وتظل شهادته شهادةً له، لا عليه.

أكتب عنه اليوم لا لأنصفه من ظلم الآخرين فقط، بل لأنصفه من ظلم الصمت، ولأقول إن صوته، حتى حين يتهامس، يظل أقوى من كل ضجيج زائف.



شخصيات في حياتي (١٣)

جمال خاشقجي
صداق عمرها خمسمائة عام

ذاكرتي ليست صندوق صور وكلمات فحسب، بل وطن صغير تسكنه وجوه عبرت حياتي وعبّرت عنها. وجوه لا يبهت حضورها مهما مرّ الزمن، وفي مقدمتها وجه صديقي جمال خاشقجي، الذي طال غيابه عن الدنيا، لكن حضوره لم يغادرني لحظة.

جمعتنا الصحافة أولًا في الثمانينيات، على ضفاف جريدة الحياة اللندنية. ثم تقاطعت طرقنا ثانية في مشروع تطوير جريدة المدينة، حيث كان جمال مدير تحريرها، بينما كنت أطلّ على الحلم من زاوية أخرى. منذ ذلك الحين، لم يكن بيننا مجرد زمالة مهنية، بل صداقة متينة تشابكت خيوطها كما يتوارث جيل عن جيل قطعة نسيج عتيق.

تعلّمت من جمال الإصغاء الذي يشبه الصلاة الصامتة، والبحث عن المشترك في عالم يميل إلى التفريق. كان يجمع بين الرومانسية والواقعية كما يجمع النهر بين منابعه وروافده، وكأن في داخله شاطئين لا يلتقيان إلا في لحظة الإبداع.

لذلك بدا للبعض ليبراليًا وإسلاميًا في آن، إصلاحيًا وثوريًا، رومانسيًا وواقعيًا. لكنه في العمق كان إنسانًا يرى الحياة في كل ألوانها،

لا في الأبيض والأسود وحدهما.

❁ في معركة انتخابات الرئاسة التي خضتها، كان جمال يكتب لي كما يكتب صديق لرفيقه: يشجع، يحلل، يختلف، لكنه لا يتخلى. وعندما زُجّ بي في السجن، ظلّ يكتب ويدافع ويتصل، حتى التقينا مجددًا في فضاء الحرية لنستأنف حوارًا لم ينقطع يومًا حول الممكن والمتاح وأولويات اللحظة.

❁ في ثورة يناير، كان جمال من أوائل من صدّقوا أن العالم العربي يمكن أن يولد من جديد. بذل جهده لتطمين الخائفين، محاولًا أن يكون جسرًا بين الحلم والسلطة، بين الثورة والحكم. ورغم أن رياح الخوف كانت أقوى من قدرته، لم يفقد إيمانه بأن التاريخ يُصنع لا يُتفرّج عليه.

❁ عشنا أكثر من ربع قرن من الحوار والجدل والمكاشفة. كنا نختلف في مساحة الممكن، لكننا لم نختلف على جوهر الحلم.

❁ بين بيروت وإسطنبول وواشنطن، كان جمال يحمل إليّ نصائح الأصدقاء ورسائل الطامحين إلى إصلاح بلا قطيعة. يذكّرني بأن السياسة ليست خصومة أبدية بل حوار ممتد. وكنت أراه الصحفي الذي لا يكتفي بالكتابة، بل يمارس الإصغاء كفن نبيل.

❁ في بيتي بإسطنبول عام ٢٠١٧، جلسنا طويلًا نتبادل القليل من الكلام والكثير من الصمت. أخبرني عن جراحه الخاصة، عن الطلاق القسري الذي فُرض على حياته. كنت أسمع صوته المرتجف وأرى في عينيه إنسانًا مثخنًا بالجراح لكنه لا يفقد ابتسامته التي كانت عزاءً للعالم كله.

❁ قلت له يومها: «الأيام تمضي سريعًا، لكن الله الذي يختبر صبرنا لن يتخلى عنا.» ابتسم ابتسامته الحزينة، ومنذ ذلك اللقاء طال

الفراق بيننا سبع سنوات وبضع ساعات، كأنها خمسة قرون.

❁ لم أتخيل أن أكتب عنه وهو غائب. أسمع صوته في الليل كمن يسمع صدى البحر في صدفة، أرى عينيه بين السطور، وأشعر بإصغائه الحنون في الفراغ. لم أبكِ في حياتي إلا حين رحل والداي... وحين غاب جمال.

❁ ما زلت أحتفظ برسالته لي في السجن: «حروف كلمة الظلم من حروف كلمة الظلام... فالظلام هو الذي يأتي بالظالمين... وسينتهي الليل الطويل.» لا أعرف كيف أرد عليه اليوم، لكنني أعرف أن الليل سينتهي كما كتب، وأن كلماته ستبقى كما قال.

❁ لن أودّع جمال، فهو لم يغادرني حتى أستدعيه. سيبقى حيًا في ذاكرتي، حاضرًا في قلبي، ولو افترقنا خمسمائة عام. هناك أصدقاء يصبحون وطنًا، وهناك أوطان لا تعود إلا في أصدقاء كهذا الرجل النبيل الذي كان، وما زال، وسيظل جزءًا من حياتي وحكايتي

✸أكتب عنه اليوم لا كرثاء للغائب، بل كتجديد عهد مع الحلم الذي حملناه معًا: أن الحرية وطن، وأن الأصدقاء قد يكونون أوطانًا تمشي على قدمين

شخصيات في حياتي (١٤)

عبدالخالق فاروق ..
تأشير عكس خط السير

الحكم اليوم بالسجن خمس سنوات على دكتور عبدالخالق فاروق. . . يجعل الإشاراتُ تلتبس في هذا الوطن، فتشيرُ الأسهمُ إلى "عدل" منتظر، بينما الطريقُ ينحدرُ إلى "الظلم" بعينه.

تُكتبُ كلمةُ "الحق" على اللافتة،

لكنّ القافلة تمضي إلى حيثُ يُسجنُ العُقلاء والعلماء ويكرَّمُ الجهلة.

أعرف الدكتور عبدالخالق فاروق منذ ٣٨ عاما عندما تعاونا معا في مركز الوفد للدراسات السياسية والإستراتيجية وكانت مجموعة الباحثين تضم الاستاذ أحمد النجار وعبدالفتاح الجبالي وعماد جاد وأحمد المسلماني وخالد صلاح وآخرين وكان عبدالخالق فاروق تحديدًا معنيا بقضايا الفساد الهيكلي في الاقتصاد المصري شجاعًا في مواجهته في كل أبحاثه

الحكمُ على الدكتور عبدالخالق فاروق بخمسِ سنين، دون أن يُسمع لصوتِ دفاعٍ،

ولا تُفتحُ أوراقُ قضيّةٍ أمام أصحابها،

ليس حكمًا على رجلٍ محترم بعينه،

بل هو تأشيرٌ خاطئٌ في طريقِ العدالة،

إشارةٌ حمراءُ في وجهِ من قالَ: «هذا الوطن يستحقّ أن يُحكم بالعقل لا بالفساد».

❁ كلُّ الطرقِ في مصر باتت مقلوبة،

فالذي يزرعُ فكرًا يُدان،

والذي يزرعُ خرابًا يُكافأ.

ومنذ متى صار الحُلمُ جريمة،

والحرفُ تهمة،

والصمتُ ملاذًا وحيدًا للعقلاء؟

❁ ليس الحكمُ ما يؤلم،

بل غيابُ الضمير في ساحةِ الحكم.

حين يُمنعُ الدفاعُ عن الحق،

يُصبحُ الوطنُ متّهَمًا لا المتَّهِم.

❁ يا عبدالخالق،

ليس في السجونِ ما يُطفئُ ضوءَ فكرٍ،

ولا في القضبانِ ما يُخرسُ الوعي،

فالتاريخُ لا يُكتَب بالأحكام،

بل بالضمير الذي يرفضُ أن يسيرَ في الاتجاهِ الخاطئ.

❁ وعندما تكونُ الإشارةُ الحمراءُ هي الخلاص،

ويكونُ العبورُ عكسَ الخطِّ هو النجاة،

فاعلم أن العدالةَ قد ضلّت طريقها،

وأن الوطنَ يسيرُ ـ للأسف ـ

في الاتجاهِ الخطأ.

شخصيات في حياتي (١٥)

عمرو موسى
٨٨ عامًا من الحكاية

في مثل هذا اليوم، السادس من أكتوبر عام ١٩٣٦، وُلد عمرو محمود موسى في حي السيدة زينب بالقاهرة، لتبدأ حكاية رجلٍ ستتشابك سيرته مع نصف قرن من التاريخ العربي الحديث. واليوم، وقد أتم عامه الثامن والثمانين، تبدو قصته كأغنية طويلة لم تنتهِ بعد؛ فيها المجد والعزلة، الضوء والظل، الخطابة والصمت، والحلم الذي لم يكتمل.

في كل سيرة سياسية هناك فصل ناقص لم يُكتب بعد، وحكاية تظل مفتوحة رغم اكتمال فصولها على الورق. وحكاية عمرو موسى من هذا النوع، بدأت بملامح لامعة، ثم انكسرت عند مفترق التوقيت والخذلان والحصار.

عرفته عن قرب، لا كسياسي فقط، بل كإنسان مثقف يحمل في أعماقه قدرًا من الدفء بقدر ما يحمل من الصرامة. يجيد فن الموازنة بين الأناقة والحزم، بين البلاغة والدبلوماسية، بين أن يكون وزيرًا يحفظ البروتوكول وأن يكون مصريًا يتجاوز حدوده.

أول لقاء جمعنا كان في شتاء عام ١٩٩٥، حين رافقته إلى غزة لحضور افتتاح أول برلمان فلسطيني على الأرض. كانت الرحلة قصيرة في زمنها، عميقة في رمزيتها.

❁ توقّفنا طويلًا على بوابة معبر رفح، تأخّر الدخول، وصمت الجميع، حتى قطع موسى الصمت بعبارة حاسمة: «أبلغوا قيادتكم أن أي مسؤول إسرائيلي يهبط القاهرة لن يغادرها قبل عشرين دقيقة.» ظننتها لحظة انفعال، لكنها كانت قرارًا دبلوماسيًا دقيقًا. وبعد أيام، قرأت في الصحف الإسرائيلية أن نتنياهو انتظر فعلًا عشرين دقيقة في مطار القاهرة.

❁ في تلك اللحظة، فهمت أن الرجل لا يتكلم إلا بما ينوي، ولا ينوي إلا ما يستطيع تنفيذه.

❁ كان وزيرًا للخارجية في مرحلة سياسية مضطربة، ومع منتصف التسعينيات صار اسمه يتردّد في المقاهي، وفي مقالات المثقفين، وفي همس الشارع، كبديل مدني محتمل، يملك كاريزما الدولة وخيال الجمهور.

❁ لم يكن يتحدث بلغة السلطة، بل بلغة الشارع. لم يحتمِ خلف البروتوكول، بل خرج به إلى قلب المعركة. كانت كلماته في وجه إسرائيل والهيمنة الأمريكية تثير تصفيق الناس وغضب السلطة في آن.

❁ لم يحتمله النظام طويلًا. فالرجل الذي يخطف الأضواء دون أن يسعى إليها كان خطرًا على مشروع التوريث الذي كانت تُطبخ تفاصيله بهدوء. فبدأت خطوات الإقصاء: تقليص صلاحياته، إبعاده عن الاجتماعات، ثم إرساله إلى جامعة الدول العربية في مهمة سُمّيت «ترقية»، لكنها كانت في جوهرها مقبرة سياسية أُعدّت بعناية.

❁ في الظاهر، نُصّب أمينًا عامًا للجامعة. في العمق، تم عزله من المشهد المصري. وفي الواقع، تم دفن حلمٍ بدأ يكبر في ذهن موسى ووجدان الناس معًا.

❁ لكنّ عزله لم يقتله سياسيًا، بل منحه مساحة أوسع للتأمل، ووقتًا أطول ليقرأ خرائط المستقبل. وحين اندلعت ثورة يناير ٢٠١١، عاد اسمه إلى الواجهة كأحد الوجوه المدنية الممكنة للمرحلة الجديدة.

❁ اقتربنا أكثر في تلك الفترة. تحاورنا طويلًا، وتشاورنا في محطات عديدة، وتوافقنا على كثير من المواقف الليبرالية رغم اختلاف الخلفيات.

❁ وعندما تم استبعادي من انتخابات الرئاسة عام ٢٠١٢، صوتت الهيئة العليا لحزب غد الثورة لاختيار مرشح بديل، فحصل عمرو موسى على نصف الأصوات تقريبًا. كانت تلك شهادة تقدير من جيل جديد لرجل من جيلٍ سابق، جمع بين الحلم بالحرية والإيمان بالدولة.

❁ لكن اللحظة لم تكن لحظته. فالموجة الثورية كانت تبحث عن وجه جديد، عن صوتٍ أكثر جذرية، عن نَفَس لا يذكّرها بالأنظمة القديمة. ومع ذلك، ظلّ موسى، في نظري، أكثر وطنية من كثيرين ممن تزيّوا بلباس الثورة دون أن يؤمنوا بها.

❁ في إحدى محطات التقارب، بعد لقائي بالرئيس محمد مرسي، عرضتُ عليه فكرة انضمامه لحكومة ائتلافية كنائب أول لرئيس الوزراء مسؤول عن العلاقات الخارجية. لم يتردد، لم يناور، وافق ببساطة وصدق. لكن الرياح جرت كما أرادت الأيادي الخفية، داخلية وخارجية، التي لم ترغب في عودته إلى قلب القرار.

❁ أتذكر مأدبة غداء جمعتني بالمجلس العسكري، برفقة المشير طنطاوي، والفريق سامي عنان، وسيد البدوي. سأل الأخير عن توقعات الانتخابات، فأجاب عنان: «الإعادة بين مرسي وأبو الفتوح.» وعندما ذُكر اسم موسى، قال عنان: «مستحيل.» لم تكن نبوءة سياسية بقدر ما كانت قراءة لخارطة أُعدّت مسبقًا.

❁ وكان للموقف الإقليمي دورٌ أيضًا. إذ احتفظت أبو ظبي تجاهه بجفاء واضح بسبب سخريته العلنية من مبادرة الشيخ زايد حول العراق. كان موسى وقتها لا يخشى إعلان موقفه، حتى ولو جاء على حساب علاقاته.

❁ وأشهد ـ بصدق الصديق لا المجاملة ـ أنني أحببت عمرو موسى منذ زمن، وما زلت أحبه حتى اليوم. أحببت فيه السياسي الواعي، والإنسان الرقيق، والدبلوماسي الذي يملك موهبة الإصغاء، وحسّ النكتة، وأناقة الحضور.

❁ مدين له بتشجيعه في محطات مفصلية، وبثقته التي عبّر عنها علنًا في مناسبات عديدة، حتى في حضور من لا يحبونه. جمعنا عشرات الاجتماعات، وكنا نختلف في التفاصيل، لكننا نتفق في الجوهر، ربما بحكم الخلفية الليبرالية المتقاربة، وربما بسبب إنسانية لم تُكتب بعد في أي مذكرات.

❁ قد يرى البعض أن ترشحه في ٢٠١٢ كان متأخرًا، وأن اللحظة تجاوزته. وربما معهم بعض الحق. فالتاريخ لا يمنح الفرص مرتين، والزمن السياسي أكثر قسوة من الزمن البيولوجي.

❁ واليوم، وقد تجاوز عمرو موسى الثامنة والثمانين، أراه لا كرئيس محتمل، بل كـ«عرّاب» ممكن للسياسة المصرية، وكمُنقذ محتمل لما تبقى من حزب الوفد وروحه الليبرالية التي أُزهقت.

❁ ما زال هذا الرجل، برأيي، مناسبًا لدور جامع في أي مرحلة انتقالية قادمة، يحتاج فيها الوطن إلى رجل دولة ذي خبرة واتزان، يُطمئن الجميع ولا يستفز أحدًا.

❁ عمرو موسى... حكاية لم تكتمل بعد، لكنها أيضًا لم تنتهِ. الحكايات الكبيرة لا تُختم، بل تستمر في ذاكرة الشعوب، لأن أصحابها لم يكونوا عابرين في زمنهم، بل جزءًا من ذاكرة وطنٍ لا يشيخ

شخصيات في حياتي (١٦)

رشدي عبدالباري
الملك الكامل..

في حياة كل إنسان معلم يبقى اسمه محفورًا في الذاكرة لا لمجرد أنه درّسه، بل لأنه ربّاه، وصاغ ملامح جوهره، في اللحظة التي لم يكن فيها قد اكتمل بعد.

كان رشدي عبدالباري، مدير مدرسة الملك الكامل الثانوية في المنصورة، من أولئك الرجال الذين يتركون فيك أثرًا يشبه الوصية، لا يُمحى ولا يُعاد إنتاجه.

لم تكن المدرسة مجرد مبنى إداري ينتمي للدولة، بل كانت جسرًا بين الطفولة والرجولة، بين الحياء الأول والصوت الأول، وبين الحلم المجرد والموقف العملي.

في ذلك الفضاء، بدأ أول تحدٍّ حقيقي.

كنتُ، وأنا في بدايات المرحلة الثانوية، رئيسًا لاتحاد المدرسة، ثم اتحاد الإدارة، ثم المحافظة، وصولًا إلى رئاسة اتحاد طلاب الجمهورية.

كانت الطموحات تكبر كلما حملت حقيبتي، ولم أكن أبحث عن المناصب، بل عن المدى... عن الفكرة التي تسكنني.

❁ أحد تلك التحديات التي صاغت ملامح شخصيتي، كانت رغبتنا في بناء مسجد داخل المدرسة، حيث لم يكن في المنطقة المحيطة ـ بين توريل وجديلة ـ أي مسجد قريب يمكن للتلاميذ أن يقيموا فيه الصلاة.

❁ وقف إلى جانبي في الاتحاد زملاء مخلصون: نبيل، علاء، مجدي... وآخرون.

وعلى الجانب الآخر، وقف مدير المدرسة، الأستاذ رشدي عبدالباري، اليساري الفكر، الليبرالي الهوى، لا بالانتماء الحزبي، بل بالسليقة الإنسانية، والسعة الأخلاقية.

اعترض وقتها على الفكرة، لا عداءً للدين، بل باعتبار أن المدرسة ليست مكانًا للأنشطة الطائفية ـ كما عبّر ـ بل للتعليم.

❁ لم يكن رفضه حادًا، لكنه كان حازمًا. وكان أمامي خياران: أن أشتبك... أو أن أُقنع.

فاخترت الإقناع. استعنت بصفتي رئيسًا لاتحاد طلاب الجمهورية، وخاطبت وزير التعليم وقتها د. مصطفى كمال حلمي، فجاءني الرد بالموافقة بشرط أن يتم البناء بالجهود الذاتية.

❁ بدأت رحلة لا تُشبه أعمارنا.

جمعنا التبرعات في صناديق خشبية من صنع أيدينا، ووقفنا بها أمام المساجد، وطرقنا أبواب أهل الخير، وكان من بينهم رجل كريم هو المهندس محمود عبدالعزيز، عضو مجلس الآباء، الذي تكفّل بالبناء حين ضاقت مواردنا.

❁ كان المسجد أول نصر نُشيّده بالإرادة، لا بالإمكانات.

وأذكر أن الأستاذ رشدي عبدالباري لم يُمانع بعد موافقة الوزارة، بل تابع المشروع بصدر رحب، ومهنية لا تُنسى.

وهنا، بدأت أرى فيه ما هو أبعد من «مدير المدرسة»... رأيت فيه رجلًا يُجادلك... لكنه لا يُقصيك، يختلف معك... دون أن ينزع عنك شرعية الحلم.

❁ في ذات المرحلة، كنت أتعرف على ملامح الحياة الأوسع.

في جمصة، على الرمال الناعمة، بدأت أولى مشاعر الحب، وشرارات الانجذاب الطفولي، التي لا تشبه القصص في كتب القراءة، بل تشبه الارتباك في عيون الصغار حين يتحدثون عن شيء لا يعرفونه... لكنهم يشعرونه.

❁ مرت سنوات، وتفتّحت قصة جديدة، أكثر نضجًا، مع زميلة في الاتحاد، ابنة أسرة برلمانية.

كنا نكتب الرسائل، كما تُكتب القصائد، ونمارس الحلم بوعي مرتعش.

لكن الحلم انكسر حين كتبتُ بيانًا أدان استقبال الرئيس السادات للشاه الإيراني، بعد ثورة شعبه.

تم اعتقالي لعدة أيام، وكانت تلك اللحظة فاصلة، ليس فقط سياسيًا... بل شخصيًا.

❁ الفتاة انسحبت بهدوء. لم يكن انسحابها خيانة، بل خشية.

كانت أسرتها تمر بظرف سياسي دقيق، ووجودي في حياتها، وأنا قيد الاعتقال، كان كمن يسكب الزيت على نار لم تطفأ بعد.

❁ في الزنزانة، كتبتُ:

«لم يكن القيد هو الألم... بل الفقد، حين يأتيك من أقرب قلب، خشية عليك.»

❁ بين المسجد الذي شيّدناه، والحب الذي وُئد في لحظة سياسية،

والبيان الذي جلب الاعتقال، تشكّلت بعض ملامحي الأولى.

لكنني أعود دومًا إلى وجه رشدي عبدالباري في المشهد الأول:

الرجل الذي اختلف معي، لكنه لم يمنعني.

المدير الذي خالف قناعاتي، دون أن يخنق صوتي.

المعلّم الذي لم أنتمِ أبدًا لمدرسته الفكرية، لكنني أُدين له بتعلّم أسمى دروسها:

سعة الصدر، وقبول المختلف، والاحتكام للعقل قبل العاطفة.

في عيد المعلم، لا أُهدي شكري لمن منحني الدرجات، بل لمن منحني الرؤية.

ولم يكن رشدي عبدالباري يومًا خصمًا... بل كان أوّل من منحني الحق أن أكون رأيًا... وأن أدفع ثمنه

شخصيات في حياتي (١٧)

جميلة... رفيقة النضال

كان الفجر لا يزال ناعمًا، وقت أن تعرفت عليها من خلال زيارتها الأولي لي في مقر حزب الوفد لإجراء حوار صحفي لمجله النيوزويك التي كانت انضمت للعمل في مكتبها بالقاهرة بدأت الرحلة الطويلة في دروب الحياة تتراءى أمامي بصفحاتها. في لحظة البداية، من هذا اللقاء المبكر

لتبدأ الرحلة مع جميلة إسماعيل، رفيقة الطريق، وشريكه النضال، التي كانت حاضرة بكل أثر، في كل تحدٍ واجهناه، وفي كل نجاح حققناه.

جميلة لم تكن مجرد رفيقه دربي وصديقة أو زميلة، بل كانت حاضرة بقوه التاريخ والحياة والسياسة.

ففي فترات اعتقالي المتكررة، كانت صمام الأمان في البيت وفي الحزب، والجريدة

فهي من يدير الأمور خلف الكواليس مع عدد من زملائنا في حزب الغد، تواجه التحديات بكل حزم وعزم، تحافظ على استمرار النشاط السياسي، وتعمل بصمت وإتقان لتخفيف آثار الغياب القسري على حريتي ومسيرتي.

كان حضورها في حملتي الانتخابية في أول انتخابات رئاسية

مصرية عام ٢٠٠٥ ذا أثر بالغ ووزن كبير.

كانت توازن بين التخطيط والإشراف والتوجيه، تدير التفاصيل بدقه، وتزرع الثقة في كل من حولها. لم أكن أشعر بوجودها فقط كرفيقة عمل، بل كقوة فكرية ونفسية أعادت إلى كل خطوة اتزانها، وجعلت حملاتي الانتخابية البرلمانية والرئاسية أكثر إشراقًا وتأثيرًا.

❁ وفي سنوات ودورات انتخابي المتعددة عن دائرة باب الشعرية والموسكي، كانت دائمًا خلف الكواليس، تعمل بلا كلل في إدارة الخدمات للجمهور، تتابع كل صغيرة وكبيرة، تبذل جهودًا هائلة لضمان أن يصل كل صوت وكل طلب إلى مستحقيه.

كانت تعلم أن العمل الحقيقي لا يظهر دائمًا على واجهة الصورة، لكنه يترك أثره في حياة الناس ويصنع الفرق.

❁ خلال مسيرتها في حزب الغد ثم حزب غد الثورة، أثبتت جميلة أن النضال لا يقتصر على الظهور الإعلامي أو السياسي، بل يمتد إلى تفاصيل الحياة اليومية والعمل التنظيمي.

ومع انتقالها لاحقًا إلى الحركة المدنية وحزب الدستور، استمرت في الدور ذاته، لكن في إطار أوسع، مؤثرة في بناء قواعد الفكر المدني والديمقراطي، مع حرصها على عدم موازاة جهودها السابقة بل استكمالها وتوسيعها.

❁ طوال هذه السنوات، عرفت منها معني أن الصداقة ليست عقد او كلمات تُقال، بل أفعال تُمارس. ومعها، عرفت معنى الإخلاص في العمل، وأهمية ألا يغيب التوازن بين الحزم والرحمة، بين الفكر والإحساس، بين السياسة والأخلاق.

كانت جميله حاضرة في كل تفاصيل المسيرة، في الاجتماعات، في النقاشات، في كل لحظة تحتاج فيها الإرادة القوية والضمير الحي.

اختلفنا واتفقنا في تقييم ما حدث منذ ٢٠١١ ـ خاصه في ٢٠١٣ ـ ولم ينعكس الخلاف في الرأي والموقف على الاحترام والتقدير المتبادل.

❁ جميلة تعرف قيمة نفسها، وتحترم كل صوت، وتزرع الهيبة قبل الحب في كل قلب. فحضورها لم يكن كمجرد زوجة، بل كشريكه في رسالة للعطاء، والتوازن.

رسالة أن النضال الحقيقي ينبغي أن يبدأ من البيت كما يبدأ من الميدان، وأن كل فعل صغير يمكن أن يصنع أثرًا كبيرًا.

❁ وفي حياتها الخاصة، لم تنسَ "الزوجة" جميلة علي مدار عقدين من الزمان جانبها الإنساني والعائلي، فقد كانت ـ ولا زالت ـ أمًا عظيمة لنور وشادي، تزرع فيهما القيم قبل العلم والمعرفة، وتقدّم لهما مثالًا حيًا على الصبر والحكمة والالتزام،

على الحب الذي يصنع إنسانًا قادرًا على مواجهة الحياة بكل قوتها ورقتها.

❁ وها أنا أكتب عنها اليوم، أرى في حضورها درسًا في الحياه، وفهمًا لقوة الروح التي تُشع الأمل في كل وقت حتى في أحلك الاوقات.

من خلالها عرفت أن الرفقة الحقيقية والمستمرة، هي التي تُبنى على الاحترام المتبادل،

وأن الإنسان الذي يؤمن بالحق والعدل قادر على ترك أثر لا يمحى.

❁ أختم هذه الحلقة بتمنياتي لها بكل التوفيق في حياتها العامة والخاصة، وفي كل دور قامت به ولاتزال تقوم به في الحركة المدنية وحزب الدستور، وفي رعاية أبنائها نور وشادي، مع أطيب الأمنيات لمستقبل يليق بروحها وعطاءها الذي لا يكلّ، ولمسيرة نضالية تتسع لكل إنجازاتها ووفاءها.

شخصيات في حياتي (١٨)

دُعاء.. وطني الحاضر حين غاب الوطن

۞ دُعاء لم تكن مجرد اسم في حياتي، بل كانت وطنًا صغيرًا حين غاب الوطن الكبير، رفيقةً في كل دقيقة في الغربة الطويلة، وللحظات التحدي والصمود.

معها أصبح الحاضر ممتلئًا بالدفء والوفاء، وملامسًا لكل معنى للحب والشراكة، دون أي ازدواجية بين العاطفة والواجب، بين القلب والفكر.

۞ في رحاب قناة الشرق، كان حضورها أعمق من موقعها الرسمي.

لم تكن مجرد إعلامية متميزة أو نائبًا لرئيس مجلس الإدارة، بل كانت روح الفريق، ومرجعية الحكاية، ومصدر الثقة.

كل اجتماع، كل برنامج، كل تنسيق، كان يكتمل بوجودها، متوازنًا بين الانفعال والهدوء حين أكون متسامحًا أو غاضبًا، لتظل اللحظة دائمًا تحت السيطرة الراقية.

۞ لقد تميزت دُعاء بخفة الظل والقدرة على تحويل أصعب المواقف إلى دروس ساخرة للتأمل.

سنوات الغربة بين لبنان وتركيا لم تكن سهلة، لكنها كانت مع دُعاء

لوحةً متكاملة من الصبر، والحب، والشراكة الإنسانية، وعمل متواصل يحمل أثقال السياسة والإعلام والمسؤوليات المهنية، من دون أن تفقد روحها المرحة والنابضة بالحياة.

❁ في العمل السياسي، كانت دُعاء دائمًا حاضره. في حزب غد الثورة، عملت بلا كلل، وحرصت على بناء هيكلية متينة تُسهم في رسم الطريق بعيدًا عن الأضواء الشخصية، لتظل رسالتها واضحة: خدمة المشروع الأكبر، وتحقيق الهدف الوطني والفكري والاجتماعي، بوعي وبساطه.

❁ الحياة معها مزيجًا من الوفاء والشراكة والاحترام المتبادل.

كل خطوة مهنية، كل برنامج إعلامي، كل نشاط سياسي، كان يُشبع روح التحدي دون أن يخفف من دفء المشاعر الإنسانية.

تساند الأفكار، تفهم المواقف، وتكمل المساحات المفقودة في التجربة اليومية، لتكون الوطن الحاضر حين غاب الوطن الحقيقي.

❁ الحب معها لم يكن مجرد كلمات أو شعارات، بل أفعال مستمرة، وشراكة في كل تفاصيل الحياة اليومية، وفهمًا عميقًا للثغرات والضغوط، وتحويل كل لحظة صعبة إلى فرصة لإعادة البناء والتجدد. كان الحاضر معها دائمًا أكثر إشراقًا، مهما كثرت التحديات.

❁ في قناة الشرق، كانت دُعاء رمزًا للتوازن بين القيادة والإبداع، بين العقلانية والحرية في التعبير، بين النضال المهني والإحساس الإنساني العميق.

كل أزمة، كل ضغط سياسي أو إعلامي، كان يتحوّل في وجودها إلى فرصة، وتحقيق نتائج ملموسة، وصناعة أثر دائم، وإضفاء روح الحب والشراكة في بيئة عمل احترافية.

❁ دُعاء مدرسة متكاملة للبساطة العميقة، للوفاء، والإبداع،

والحكمة، وحضورها المستمر يذكرني بأن الحب والشراكة الحقيقية تُقاس بالفعل، وليس بالكلمات.

كل لحظة صعبة في الغربة أو العمل السياسي أو الإعلامي، كانت تتضاءل أمام صبرها وثباتها ومهارتها في التوازن الذي تعلمته مني خبرتها الطويلة معي.

۞ لا اعرف كيف اشكرك الله عليه نعمه دعاء

لا أعرف كيف أصفها كما أراها دائمًا فهي في قلبي لوحة فنية متكاملة، مزيج من الجمال الانساني والوجداني، مزيج من الوفاء والشراكة، مثال حي على كيف يمكن أن يكون الحب حاضرًا في كل لحظة من الحياة، وكيف يمكن للشراكة أن تصنع وطنًا صغيرًا في قلب الغربة، وتمنح الأمل للمستقبل، رغم كل ما قد يواجهه الإنسان من تحديات.

۞ دعاء.. وطني الحاضر حين غاب الوطن.



شخصيات في حياتي (١٩)

الإعلامي السفسطائي

لم أتمالك نفسي من الضحك وأنا أستمع، فجر هذا اليوم، إلى كتابٍ مسموعٍ عن محاورة أفلاطون مع السفسطائي؛ تلك الشخصية التي أراد أفلاطون تفكيكها، لا بوصفها مجرد مذهبٍ فلسفي، بل كداءٍ اجتماعيٍّ مزمنٍ يتسلّل إلى العقول عبر بوّابات البلاغة الكاذبة.

كنت أستمع، وكل بضع دقائق، أوقف التسجيل لأغرق في ضحكٍ يشبه البكاء، مردّدًا بيني وبين نفسي: «هذا فلان... وذاك فلان!» حتى استيقظت زوجتي فزعةً من نومها، وقد ظنّت أن حرارة رأسي بلغت درجة الهذيان. وددت أن أقول لها: «أُحَدِّثُ أفلاطون»، لكني خشيت أن أبدو كمن فقد صوابه في زمنٍ فقد صوته.

في هذا الكتاب الموحِي، المغبَّر بتراب الواقع، كنت أقرأ ملامح من يعيشون بيننا:

ذلك المتكلّم البارع الذي يدّعي الحكمة، ولا يطلب الحقيقة، بل يسعى إلى الانتصار في الجدل، ولو بالكذب.

ذلك الإعلاميّ الاستعراضيّ، النرجسيّ الفكريّ، الذي يعرف كيف يتكلّم، لكنه لا يعرف كيف يفهم.

يقتبس الآيات والأحاديث كما يقتبس الممثّل جُمله، بلا فهمٍ ولا وعي.

تذكّرت حينها موقفًا منذ قرابة عقدين، حين اتصل بي اللواء رؤوف المناوي، وكان مسؤولًا عن الإعلام بوزارة الداخلية، ودعاني إلى برنامجٍ رمضانيٍّ «ثقافيٍّ للمثقفين». قبلت على مضض. جلست أمام إعلاميةٍ شهيرةٍ في القناة الثانية، وبدأ الحوار بأسئلةٍ غريبة، إلى أن قالت لي: «هل تحب أن تطّلع على الأوراق قبل التصوير؟»

أبديت دهشتي، فخطف المخرج الأوراق من يدها، وصاح: «يا مدام، دي أسئلة الأستاذ كمال الشناوي!»

ضحكت... واعتذرت عن استكمال الحلقة.

من يومها أدركت أن السفسطائيين الجدد قد احتلّوا الشاشات.

زملاء إعلاميّون، يلقون الأسئلة كما يُلقى حجرٌ في بحيرةٍ راكدة، ثم ينشغلون عن الاستماع بما سيقول الضيف، لأنهم غارقون في تحضير السؤال التالي.

إنهم لا يبحثون عن المعنى، بل عن المشهد. لا يكتبون ليفكروا، بل ليُصفّق لهم الناس.

أفلاطون سأل في محاورته الخالدة:

كيف نميّز العارف الحقيقي من المتذاكي؟

كيف نفرّق بين الباحث عن النور والمتلاعب بالظل؟

من يتكلّم خدمةً للمعرفة والوطن، ومن يتكلّم خدمةً للذات ولجحيم الشهرة؟

ووصف السفسطائي بأنه صيّادُ جمهورٍ، يستخدم الكلام كفخٍّ مخادعٍ ليصنع واقعًا زائفًا.

وحين أراد التمييز بين الوجود الحقيقي والوجود الوهمي، بدا كأنه يصف واقعنا الإعلامي والسوشياليّ، بكل صوره ووجوهه وأقنعته.

ثم جاءت تلك الجملة التي ظلّ صداها يرنّ في أذني طويلًا:

«الحقيقة لا تنتصر لأنها أقوى، بل لأن الوعي يمنحها قوتها.»

«والزيف لا ينتصر لأنه قوي، بل لأن الناس لا يرونه زيفًا.»

يا لها من كلماتٍ تُفسِّر زماننا، زمن السوشيال ميديا، حيث يُصنع الأبطال من الورق، وتُصاغ الهالات من الدخان.

زمنٌ تُقاس فيه العقول بعدد المتابعين، لا بعدد الأفكار.

أتذكّر حين قال نيتشه: «هم يُمثّلون... لا يُفكّرون.»

كأنه يصف هؤلاء الذين يتغذّون على التصفيق، لا على صفاء المعنى ونبل الهدف.

يمتلكون نيران الصوت، لكنهم بلا روح.

أخطر ما فيهم أنهم يُقنعون العقل بأنه يُفكّر، بينما هو فقط يستهلك الكلام.

إنهم النماذج التي تراها اليوم على الشاشات والمنصّات...

يتقنون فنّ القول، لكنهم يفتقرون إلى جوهره.

يتحدّثون عن الحرية والكرامة، وهم أوّل من يفرّط فيها حين يُعرَض عليهم مقعدٌ أو منبر.

ضحكت طويلًا وأنا أسمع صفحات هذا الكتاب، وشعرت وكأن أفلاطون، من زمنه البعيد، يُمسك هؤلاء من أعناقهم، لا لينهرهم، بل ليعرّيهم أمام أعيننا.

أسلوبه الحواريّ يشبه المحاكمة... محاكمةً فكريةً عادلةً، تميّز بين الصدق والزيف، بين الفكر والتصفيق، بين الحقيقة والديكور.

وحين تُغلق الكتاب، يظلّ داخلك ضوءٌ صغيرٌ يقول لك:

من يقتبس دون فهم. . . من يتفلسف دون روح. . . من يتحدّث بلا وعي. . .

ليس إلا سفسطائيًّا جديدًا في ثوبٍ حديث.

شخصيات في حياتي (٢٠)

عبدالمنعم التونسي
رجلٌ عاش ثابتًا في زمنٍ يتقلّب

في حياتي السياسية والإنسانية، هناك رجالٌ يصعب أن تُختزل سيرتهم في كلمات، لأنهم لا يمرّون مرور العابرين، بل يتركون على الذاكرة أثرًا يشبه بصمة النور على جدارٍ قديم.

من هؤلاء العزيز الصديق، النائب الكبير، الأستاذ عبدالمنعم التونسي ـ الذي جمع بين شجاعة الجيل الأول، ورصانة الموقف، ونقاء القلب.

كان نائبًا صلبًا في زمنٍ هشّ، برلمانيًّا في زمنٍ ندر فيه البرلمانيون، ورجلًا ظلّ ضميره أقوى من سلطته.

بدأ مسيرته منذ سبعينيات القرن الماضي، حين كانت الكلمة تُحسب بنبض القلب لا بعدد الأصوات، وظلّ نائبًا عن الناس لا عن الحزب، عن الوطن لا عن الدائرة، حتى برلمان الثورة عام ٢٠١٢.

جمعتني به سنوات طويلة تحت القبة، عشر سنوات متجاورة في صفوف المقاتلين، نضحك معًا على مرارة المشهد، ونتقاسم الهمّ والهمّة.

كان مقعده بجواري في البرلمان، وصوته إلى جوار قلبي في كل لحظة مواجهة، ورؤيته أقرب إلى الحكمة التي تُبنى على التجربة لا على النص.

❁ عرفته يوم قدّمنا أوراق حزب الغد، فكان في مقدمة المؤسسين، ثم صار رئيسًا للحزب في فترة اعتقالي، فحمل الاسم كما يُحمل اللواء: لا يسقط من يده، ولا يلتفت به إلى الوراء.

كان الأب الكبير الذي يُدير الخلاف بالحب، ويواجه العواصف بالابتسام، ويؤمن أن القيادة ليست سلطةً، بل مسؤولية أخلاقية.

❁ أذكر يوم حاولوا إحراق مقر الحزب.

اشتعلت النيران، وارتبك الناس، لكنه ظلّ واقفًا، يواجه اللهيب بنفس الهدوء الذي كان يواجه به أزمات البرلمان.

لم يغادر موقعه إلا بعد أن أطفأ النار بالكلمة قبل الماء، ثم قال لي مبتسمًا بعد خروجه من الاحتجاز:

«الحزب فكرة، والفكرة لا تُحرق».

❁ وحين أسسنا البرلمان الشعبي بعد تزوير انتخابات ٢٠١٠، وجاءت سخرية الرئيس المخلوع بقوله: «خليهم يتسلّوا»، كان هو أول من تقدّم لرئاسته، وأدار جلسته الأولى بشجاعةٍ وهدوءٍ لا يقدر عليهما إلا الرجال الذين تمرّنوا على الحلم والصبر معًا.

لم يكن أحدٌ غيره قادرًا على أن يجعل من سخرية السلطة شرارةَ جدٍّ، ومن الاستهانة الرسمية لحظةَ وعيٍ وكرامة.

❁ في كل مرة كان يقف فيها ليخطب، كان البرلمان يستعيد وقاره القديم.

وفي كل مرة يصمت، كان صمته أبلغ من الخطب.

لم يُجامل يومًا على حساب المبدأ، ولم يُساوم على فكرة، ولم يتلوّن في موسم.

كان رجلًا من طينةٍ نادرة، لا تغيّره المناصب ولا تُغريه المنافع.

❁ على مدى سنوات طويلة، ظلّ صوته في البرلمان أقرب إلى صوت ضمير مصر ـ حين يتكلّم عن العدالة، تشعر أنّك تستمع إلى حكيمٍ لا إلى سياسي،

وحين يتحدث عن الحرية، تشعر أنّك أمام معلمٍ لا أمام نائب.

❁ كان نائبًا في السبعينيات، وزامل جيلًا من الآباء البرلمانيين، ثم زاملنا نحن في برلمان ٢٠٠٥ وبرلمان الثورة، كأنه جسرٌ من الأجيال، لا ينقطع ولا يتهدّم.

في كل مرحلة كان نفسه، لا يتغيّر إلا شعرُ رأسه الذي اختلط فيه بياض التجربة بسواد العزم.

❁ وفي ساحات السياسة، لم يكن يومًا تابعًا، بل كان مؤثرًا،

رجلًا يُؤمن أن الحزب بيتٌ للناس، لا منصةٌ للحاكم، وأن الكلمة مسؤولية، لا وسيلة للتسلية.

❁ وفي مواقفه الإنسانية، كان أوفى الأوفياء، يتعامل مع الجميع كأبٍ كبيرٍ يوزّع الحنوّ والهيبة معًا.

كان إذا غضب، صمت، وإذا رضي، ابتسم، وإذا واجه، واجه بشجاعةٍ تُشبه الفلاح المصري حين يقف في وجه الريح.

❁ لا أنسى أنه حين تولّى رئاسة لجنة حكماء الحزب بعد الثورة، كان يقول دائمًا:

«الاختلاف لا يُفسد المروءة، والخلاف لا يُلغي الود».

ولهذا ظلّ حضوره بركةً في الاجتماعات، وذاكرةً من الحِلم، وضميرًا من الوفاء.

❁ عبدالمنعم التونسي... الرجل الذي ظلّ نائبًا عن الحق حتى خارج البرلمان،

الرجل الذي جعل من العمل العام رسالةً تتجاوز الكراسي،

ومن السياسة وجهًا نبيلًا للوطنية.

۞ اليوم، وأنا أكتب عنه، لا أُحصي سنواته في النيابة بقدر ما أُحصي مواقفه،

ولا أعدّ إنجازاته بقدر ما أعدّ خُطاه في طريق الاستقامة.

هو واحدٌ من أولئك الذين يشهد التاريخ لهم لا عليهم، ويكتب أسماءهم على جدار الاحترام بحروفٍ من ثباتٍ ونور.

۞ أطال الله في عمره، وجزاه عن مصر، وعن منفلوط، وعن حزب الغد وغد الثورة خير الجزاء.

ولعلّ الأجيال الجديدة إذا بحثت عن مثالٍ للنائب الوطني، فلا تبحث بعيدًا...

ففي سيرة عبدالمنعم التونسي تختصر مصر ما كانت، وما يجب أن تكون.

شخصيات في حياتي (٢١)

عبدالفتاح الشافعي
عمدة البرلمان وشيخ العدل

في زمنٍ خفتت فيه الأصوات التي تجمع بين المروءة والهيبة، يبقى اسم عبدالفتاح الشافعي حاضرًا كأغنيةٍ صافيةٍ من زمنٍ ليبراليٍّ جميل.

هو البرلماني الذي مثّل زفتى، لا كدائرةٍ انتخابية فحسب، بل كرمزٍ لتاريخها الممتد من أحمد الجندي إلى أبناء مدرستها الليبرالية الحديثة.

كان نائبًا عن الناس قبل أن يكون نائبًا عن حزب، وصوتًا للعقل والعدالة في زمنٍ علا فيه الصخب على الحقيقة.

عرفته تحت القبة، وزاملته في برلمانٍ كان ما يزال يعرف للكرامة مقعدًا وللحوار احترامًا.

كان عبدالفتاح الشافعي عمدة البرلمان بحق، شيخًا في وقاره، شابًا في اندفاعه، خفيف الظل في المواقف الثقيلة، قوي القلب في لحظات العصف.

وكنت أراه، حين يتحدث، يمزج بين بلاغة القاضي ودفء الفلاح، بين سخرية الحكيم وصرامة الموقف.

جمع بيننا أكثر من مقعد، وأكثر من معركة، لكن أهمّها كانت

في حملة الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٥.

في ذلك اليوم الذي شهد مؤتمر المحلة الكبرى، أرادت السلطة أن تُفشل المهرجان الانتخابي الكبير بإسقاط المنصّة التي كنا نخطب فوقها.

كانت الحشود تزأر، والأنوار ترتجف، وسقطت المنصة بالفعل، فسقطتُ أنا ومن معي، وكان إلى جواري عبدالفتاح الشافعي.

تساندنا وسط الفوضى، نهضنا من بين الخشب المنكسر والغبار المتصاعد، وتبادلنا نظرةً فيها ابتسامةٌ صغيرة ومعناها: «لن نُسقط كما سقطت المنصّة.»

صعدنا معًا مجددًا، وأكملنا الخطاب بين الهتاف والدخان، حتى تحوّل ما أرادوه فشلًا إلى ملحمة جماهيرية لن تُنسى.

لم يكن عبدالفتاح يومها نائبًا عن دائرةٍ أو حزب، بل عن فكرةٍ كاملة اسمها الرجولة حين تكون موقفًا.

۞ كان في كل معركةٍ وطنية رفيقًا وشريكًا في النجاح، لا يسعى إلى صدارةٍ ولا يهرب من مسؤولية.

عرفته كما يعرف البحرُ الموجةَ التي لا تهدأ، وكما يعرف الليلُ نجمه الذي لا يغيب.

وفي الحزب، كما في البرلمان، كان هو رجل التوازن حين تتشابك المواقف،

وشيخ الحكماء حين تحتدم الخلافات،

يختصر الحِكمة في جملةٍ واحدة، ويربط الجرح بالضحكة، ليعود الصفّ موحّدًا بعد انقسام.

۞ لم يكن عبدالفتاح الشافعي سياسيًّا فقط، بل كان مدرسةً في الأخلاق العامة.

كان يؤمن أن الليبرالية ليست نظرياتٍ مستوردة، بل امتدادٌ طبيعيٌّ لنُبل المصري حين يرفض الظلم ويصون الكرامة.

حين يتحدث عن العدالة، تشعر أنك أمام قاضٍ في محراب،

وحين يروي قصةً من زفتي، تظن أنك تسمعها من راوٍ قديمٍ يجلس على ضفة النيل.

❁ في قاعة البرلمان، كان بين مَن أطلقتُ عليهم «صفوف المقاتلين».

لا يُجامل وزيرًا، ولا يخشى هتافًا، يقف شامخًا كعمودٍ من طين الوطن اليابس، صُنع ليتحمل لا لينكسر.

وحين يتحدث، يختصر الموقف بكلماتٍ من ذهب، ويعود إلى مقعده كأن شيئًا لم يكن.

❁ لم يكن أحدٌ في البرلمان إلا ويحبه.

كان إذا دخل القاعة عمّ الضحك، وإذا غادرها ساد الصمت احترامًا.

يمزح في خفة، ويُعاتب في لطف، ويُصحّح الخطأ وكأنه يُربّت على كتف صاحبه لا يوبّخه.

❁ في مواقفه الوطنية، كان صوتًا ضد التسلّط، وضد التزييف.

رفض إغراءات السلطة، واحتفظ لنفسه بمسافةٍ آمنةٍ بين الكرامة والمصلحة،

وكان يرى في العدالة الاجتماعية امتحانًا للنائب قبل أن تكون واجبًا للحكومة.

❁ في حزب غد الثورة، كان أحد رموز لجنة الحكماء،

وعندما يُذكر اسمه في الحزب، يُذكر كابتسامةٍ طيبةٍ وسط زحامٍ من المواقف الصاخبة.

يحمل في جيبه نكتةً، وفي قلبه رأيًا، وفي صوته صدقًا لا يخطئه أحد.

❁ كان يقول لي دائمًا:

«إذا كنتَ تطلب الكلمة، فاحملها كمن يحمل رايةً لا سيفًا، فالسيوف تجرح، أما الرايات فتهدي الطريق».

تلك الجملة ظلّت ترنّ في أذني كلما وقفت على منصةٍ، وكلما اشتدّ حولي الضجيج.

❁ عبدالفتاح الشافعي، في حياته، لم يكن نائبًا عن زفتي فقط،

بل نائبًا عن روح مصر التي تُعلي من شأن المروءة قبل السياسة،

والتي تعرف أن خفة الروح لا تناقض عمق الفكر،

وأن الرجولة ليست صوتًا مرتفعًا، بل مبدأ لا ينكسر.

❁ واليوم، أكتب عنه لا لأُحيي الماضي، بل لأقول إنّ هذا الرجل لم يكن «صفحةً في التاريخ»،

بل فصلًا من كتاب الإنسانية في العمل العام،

ورمزًا لوطنٍ حين نبحث عن «النائب المثالي» فلا نجد إلا صورته.

❁ سلامٌ عليك يا عبدالفتاح الشافعي،

يا من جعلت من السياسة مساحةً للفرح، ومن الموقف لوحةً من الكبرياء.

حفظك الله، وأطال عمرك، وجعل في سيرتك دربًا يهتدي به الجيل الجديد من أبناء زفتي ومصر كلها.

شخصيات في حياتي (٢٢)

ناجي الغطريفي
الدبلوماسي المقاتل...
السفير الذي لم يبدّل موقفه

في عالم امتلأ بالوجوه المتبدّلة، تبقى بعض الشخصيات كالعلامات الثابتة على طريق الوطن.

من هؤلاء الرجل النبيل، والسفير المقاتل، ناجي الغطريفي ـ الذي عرفته في ساحاتٍ متباعدة، وجمعني به الوطن حين فرّقتنا المواقع.

كان سفيرًا للدولة في الخارج، ثم صار سفيرًا للحق داخلها، وما بدّل مواقفه يومًا، بل نقلها من لغة الدبلوماسية الهادئة إلى قاموسٍ أجرأ اسمه الحرية.

عرفته أول مرة وهو ما يزال في وزارة الخارجية، يحمل في كلامه نبرةَ السفير الذي يعرف متى يُصغي ومتى يُعلن،

ثم عرفته أكثر حين اختار أن يضع مكان الكرسي الرسمي مقعدَ النضال الحزبي، وأن يُبدّل أوراق البروتوكول بخطاب الضمير.

لم يخلع بدلته الدبلوماسية، لكنه أضاف إليها قلبًا واسعًا للحلم، وعقلًا أشدّ اتزانًا في إدارة الخلاف،

فصار نموذجًا نادرًا لـ«المقاتل المهذّب»، الذي يقاتل بالكلمة، ويُهذّب الصدام بالوعي، ويحوّل التجربة إلى درسٍ في الوطنية الراقية.

۞ تولّى مناصب عديدة في السلك الدبلوماسي، وكان سفيرًا لمصر في أكثر من عاصمة، بينها إندونيسيا وكندا وفنلندا،

ثم عاد إلى القاهرة ليكون من أوائل الدبلوماسيين الذين رأوا أن خدمة الوطن لا تتوقف عند حدود الوزارة،

فانضم إلى حزب الغد، مؤمنًا بأن العمل العام شكلٌ آخر من أشكال تمثيل مصر، ولكن أمام ضميرها هذه المرة، لا أمام أعلامها فقط.

۞ وحين اعتُقلت، تولّى رئاسة الحزب في واحدةٍ من أصعب مراحله،

وقاد صفوفه في وجه العواصف السياسية والأمنية والإعلامية، بثباتٍ يُحسد عليه وهدوءٍ يُغري بالثقة.

كان في تلك الفترة هو "صوت الغد" الذي لم يَخُن نغمة الفكرة،

وكان في غيابي الأب الحريص الذي لا يترك البيت بلا ضوءٍ مهما طال الليل.

۞ لم يكن السفير الغطريفي سياسيًّا عابرًا أو إداريًّا منضبطًا فحسب،

بل كان صاحب رؤيةٍ نادرة، تعرف متى تُهادن لتبني، ومتى تُصعّد لتحمي.

رجلٌ يُجيد لغة الحوار، لكنّه لا يُجيد لغة الانحناء.

۞ لا أنسى يوم ٥ مايو ٢٠٠٥، حين خرجنا مع قافلة الحزب إلى كفر صقر في أولى جولاتنا الانتخابية للرئاسة.

كانت الرحلة حلمًا بدأ بالنشيد، وانتهى بالدم.

حوصرنا وهاجمتنا جموعٌ مأمورة، وسقط الجرحى بالعشرات، وكان السفير ناجي في المقدمة،

ضُرب حتى نزف، لكنه رفض أن يُسعَف قبل أن يطمئن على الآخرين.

وحين رأيته مبتسمًا ودماؤه تلطّخ قميصه الأبيض، أدركت أن الوطنية لا تحتاج بدلةً لتكون شرفًا، بل تحتاج رجلًا يؤمن بها.

❁ بعد تلك الليلة، لم يكن في عيوننا مجرّد سفيرٍ سابق،

بل مقاتلٌ ناعم الحضور، صلب الجوهر،

يمتلك لياقة الحوار الدبلوماسي، وشجاعة الميدان الشعبي،

يُداوي الخلاف بالكلمة كما يُوقف العاصفة بابتسامةٍ تعرف متى تَظهر ومتى تَغيب.

❁ ظلّ بعد ذلك رفيقًا لكل معاركنا، مشاركًا في تأسيس حزب غد الثورة،

مستمرًا في دعمه للفكرة التي آمن بها حتى بعد أن التحق لاحقًا بـ حزب الدستور،

يُثبت كل مرة أن الليبرالية ليست انتماءً حزبيًا، بل رؤيةٌ أوسع من الأسوار التنظيمية.

❁ لم أرَ ناجي الغطريفي يومًا غاضبًا،

لكنه كان من القلائل الذين يُغضبهم الظلم،

ومن النادرين الذين يُترجمون الغضب إلى فعلٍ إيجابي، لا إلى خصومةٍ شخصية.

❁ كان سفيرًا حين يكون الصمتُ لغة،

ومقاتلًا حين يصير الكلام واجبًا،

وحين جمع بين الاثنتين، صنع توازنًا نادرًا بين العقل والعاطفة، بين الحزم والرحمة.

❁ في اجتماعات الحزب، كان مقعده يلمع بالحضور، لا بالصوت.

وحين يتكلم، تتوقف الهمهمات، لأن كلماته لا تأتي لإثبات الذات، بل لإحياء المعنى.

❁ لم يكن يرى في المنصب غاية، بل وسيلةً لإثبات أن الأخلاق ممكنةٌ في السياسة كما في الدبلوماسية،

وأن الكرامة لا تحتاج إلى علمٍ يرفرف فوق السفارات، بل إلى ضميرٍ يرفرف فوق القلب.

❁ ناجي الغطريفي هو ذلك النوع من الرجال الذين يتركون فيك أثرًا هادئًا،

تكتشف بعد غيابهم أنك استرشدت بخطاهم دون أن تدري.

كان يعلّمني دائمًا أن الهدوء لا يعني الضعف، وأن التسامح لا يلغي الشجاعة،

وأن أكثر الناس قوةً، هو من يستطيع أن يكون نبيلًا في لحظة الغضب.

❁ أكتب عنه اليوم لأقول إن هذا الوطن، الذي يزدحم بالضجيج، ما زال بخيرٍ ما دام فيه رجالٌ مثل ناجي الغطريفي،

يُثبتون أن السياسة لا تُفسد الأخلاق، بل قد تُنقذها إذا سكنها الشرفاء.

❁ سلامٌ عليك أيها الصديق العزيز،

أيها السفير الذي ظلّ سفيرًا لقيمه لا لمناصبه،

أيها الرجل الذي حوّل الدبلوماسية إلى مدرسةٍ في الكرامة،

والسياسة إلى واجبٍ من واجبات الضمير.

۞ ستبقى سيرتك شهادةً على أن الوطنية ليست شعارًا يُرفع، بل سلوكٌ يُعاش،

وأن الرجال الكبار لا تُقاس أحجامهم بالمناصب التي شغلوها،

بل بالمواقف التي ثبتوا عندها حين اهتزّ الجميع.



شخصيات في حياتي (٢٣)

وائل نوارة
السياسي الرقمي في زمن ورقي

في مسيرتي الطويلة، التقيت كثيرين من الموهوبين في الفكر، والقادرين على الفعل،

لكن قليلين من جمعوا بين القدرة على الحلم، والدقة في التنفيذ، والعقل الذي يُهندس الفكرة كما يُهندس البناء.

من بين هؤلاء القلائل يظلّ المهندس وائل نوّارة رقمًا صعبًا في حياتي السياسية والإنسانية معًا.

لم يكن وائل مجرّد زميلٍ أو سكرتيرٍ عامٍّ لحزب الغد،

بل كان مهندس الفكرة، ومعماريّ التنظيم، والعقل الذي أعاد صياغة السياسة بلغة العصر.

كان يؤمن أن الحزب ليس جدرانًا ومكاتب، بل منظومةُ فكرٍ وإدارةٍ وحلمٍ،

وأن التنظيم، إذا خضع للخيال، يمكن أن يصبح مشروعًا يُغيّر واقعًا بأكمله.

❁ أحببته منذ اللقاء الأول، وما زلت.

كان بيننا نوعٌ نادر من التفاهم الإنساني،

علاقةٌ تُشبه تناغم النهر مع ضفّتيه:

أنا أندفع بالحلم، وهو يُهندس الجريان،

أنا أُطلق العنان للعاطفة، وهو يُعيدها إلى مسارٍ منظمٍ دون أن يطفئها.

❁ كان وائل نوّارة عقلًا رقميًّا في زمنٍ ورقيّ،

يتحدّث عن المستقبل كما لو أنه يراه،

يُدخلنا إلى التكنولوجيا من بوّابة الفكر،

ويُعيد تعريف السياسة ببرمجةٍ من القيم والأفكار، لا من الشعارات والخطب.

كان يرى أن الليبرالية ليست نظريةً فلسفية، بل تطبيقٌ أخلاقيٌّ للتنوير في سلوكٍ يوميٍّ بسيط.

❁ علّمني أن الإبداع لا يولد من الضجيج،

بل من الصمت الذي يسبق الفكرة،

وأن العمل الحزبي ليس حشدًا، بل تناغمُ أدواتٍ تعمل لهدفٍ واحد.

ومن خلاله أدركتُ أن التنظيم، حين يُدار بالعقل الهندسيّ، يصبح فنًّا من الفنون الرفيعة.

❁ في لحظاتنا الصعبة، كان وائل دائمًا صخرة التوازن.

يُطفئ الغضب بالكلمة، ويواجه الإحباط بالمنطق،

ويُعيد ترتيب الخلاف كما يُعيد المهندس بناء جدارٍ تصدّع بفعل الزمن.

كان رجلًا من معدنٍ نادر:

هادئًا في المظهر، صلبًا في الجوهر،

إذا تحدث أصغى الجميع، وإذا كتب قرأ الجميع،

وإذا اختلفنا، خرج من بيننا الوفاقُ أكثر نضجًا واتزانًا.

۞ لم يكن وائل مفكرًا حزبيًا فحسب،

بل كان مفكرًا في الإنسانية قبل السياسة،

يرى الإنسانَ غايةَ الفكر، لا وسيلته.

وكان يؤمن أن أي فكرة لا تُنتج رحمةً وعدلًا ليست فكرةً بل خطيئة.

۞ وائل نوارة هو الذي جعلني أؤمن أن المهندسين، لا المحامين وحدهم،

يمكن أن يكونوا فلاسفة السياسة، ومهندسي الوعي،

ففيه وجدتُ ما لم أجده في غيره:

إحساسُ الفنان، ومنطقُ المخطط، وعقلُ الفيلسوف.

۞ وربما لهذا كنت أقول: إن المهندس الليبرالي وائل نوارة

وتلميذه النجيب المهندس حسام علي

هما من غيّرا روايتي القديمة التي كانت تميل للمحامين ورجال القانون،

فأثبتا لي أن الهندسة السياسية حين تُسند إلى عقولٍ مخلصةٍ ونقيةٍ،

تُبدعُ أكثر مما يتخيّل الفلاسفة، وتنجحُ أكثر مما يُخطّط المنظّرون.

۞ كان بيني وبينه، كما بيني وبين حسام، حوارٌ لا ينتهي حول الثورة والفكر والمستقبل.

اختلفنا أحيانًا في الرؤية، وفي تقدير اللحظة التاريخية،

خاصة في أحداث ٢٠١٣ وما تلاها،

لكننا لم نختلف يومًا في المبدأ،

ولا في الحبّ، ولا في الاحترام،

ولا في إيماننا أن الليبرالية ـ مهما تعثّرت السياسة ـ تظلّ بوصلتنا التي لا تخطئ الاتجاه.

❁ وائل نوّارة هو «المهندس الإنسان»،

من نوع الذين لا يرفعون أصواتهم، بل يرفعون من حولهم.

لا يُجادل ليثبت أنه على صواب،

بل يُجادل ليكتشف الحقيقة معك.

وحين تختلف معه، تخرج من النقاش أكثر قربًا، لا أكثر بُعدًا.

❁ كان يذكّرني دائمًا أن الليبرالية ليست موقفًا سياسيًا، بل تربيةٌ أخلاقية،

وأن الحرية تبدأ من الضمير، لا من النصوص،

وأن من لا يعرف كيف يُحبّ، لا يعرف كيف يكون ليبراليًا.

❁ واليوم، أكتب عنه،

كما يُكتب الشعر حين يتذكّر شاعرٌ صديقًا كان يشبه القصيدة في صفائها.

أكتب عن رجلٍ عاش السياسة بأسلوبٍ أخلاقي،

وعاش الليبرالية بأسلوبٍ إنساني،

فصار جزءًا من ذاكرتي، لا من التاريخ فقط.

سلامٌ عليك يا وائل،

يا من علّمتني أن التنظيم علم، وأن السياسة فن،

وأن الحبّ في العمل العام ليس ضعفًا بل دافعًا،

وأن الصداقة الحقيقية لا تُهزم بالاختلاف،

ولا تُقاس بطول اللقاء، بل بصدق المودّة التي لا تنقطع.

وائل نوارة...

مهندس السياسة...

والرقمٌ الصعبٌ في معادلة حياتي

لن يتكرّر.



شخصيات في حياتي (٢٤)

فتحي سرور
الرجل الذي وقّع على منحتي ومحنتي ولم أستطع يوما أن أكرهه

❁ في سجلّ حياتي السياسية والفكرية، ثمة وجوه لا تغيب وإن اختلفت معها،

وجوهٌ تختبر فيك القدرة على الجمع بين النقد والإعجاب، بين الرفض والإكبار.

وفي مقدّمة هؤلاء، يقف الدكتور أحمد فتحي سرور،

الرجل الذي اختلفت معه حتى النخاع،

ومع ذلك لم أستطع، لا يومًا ولا ساعة، أن أكرهه.

❁ خمسة عشر عامًا جمعتني به تحت قبة البرلمان،

لا كصديقٍ ولا كخصمٍ فقط، بل كتلميذٍ يختبر أستاذه،

ومعارضٍ يناقش فقيهًا يزن كل كلمة بميزان الذهب.

كنت أرى فيه رجل الدولة في أبهى صوره،

وأسمع فيه صدى الفقيه الذي لا يُشق له غبار،

وأرى في عينيه احترامًا حقيقيًا لكل من يمتلك الحجة، حتى وإن كانت الحجة ضدّه.

۞ لقاؤنا الأول لم يكن في البرلمان،

بل قبلها بسنواتٍ طويلة، في خريف عام ١٩٨٩،

حين كان وزيرًا للتعليم والتعليم العالي،

وكنت أنا شابًا أحمل حلمًا بالسفر لاستكمال دراساتي العليا.

كان توقيعه على منحتي الدراسية للدكتوراه أول إشعارٍ رسميٍّ لي بأن العدالة لا تزال ممكنة،

وأن الوزير، حين يكون عالمًا، لا يفرّق بين معارضٍ ومؤيدٍ في ميزان العلم.

حين وقّع على المنحة، قال لي وهو يبتسم بتواضعه المعروف:

«أُوقّع لك لأنك تستحق، لا لأنك توافق».

تلك العبارة بقيت ترنّ في أذني كدرسٍ مبكرٍ في معنى التمييز بين السياسة والعلم،

وفي أن الدولة لا تتوازن إلا حين يظل ميزانها العلمي منفصلًا عن نزواتها السياسية.

۞ ثم تكرّر التوقيع ذاته في لحظةٍ أخرى،

لكن هذه المرة على محنةٍ لا منحة،

بعد ستة عشر عامًا كاملة من تلك الابتسامة الأولى،

في ٢٠ يناير ٢٠٠٥،

حين استُدعي من مؤتمرٍ رسميٍّ في إيطاليا،

وعاد إلى القاهرة فجرًا ليوقّع بيده على قرار رفع الحصانة عني،
تمهيدًا لأول واقعة في التاريخ البرلماني المصري والعالمي،
يُعتقل فيها نائبٌ من داخل البرلمان، لا من خارجه.

❁ عاد الرجل فجرًا، وأيقن أن التوقيع المطلوب منه
ليس توقيعًا إداريًا عابرًا، بل توقيعٌ سياسيٌّ يحمل في طيّاته مرارة الظلم،
فكتب أسفل توقيعه بخطّه الجليل:
«وُقّع في منزلي فور عودتي من روما فجرًا».
عبارةٌ صغيرة في ظاهرها، لكنها كانت عندي أشبه ببيانٍ دستوريٍّ غير معلن،
إقرارٌ من رجل القانون أن ما جرى لم يكن دستوريًا،
واعترافٌ صامت بأن القرار جائرٌ في شكله قبل مضمونه.

❁ أدركت حينها أن هذا الفقيه الذي علّم أجيالًا معنى النصّ،
لا يستطيع أن يخون النصّ الذي درّسه،
فاحتجّ على طريقته، وترك لنا ـ وللتاريخ ـ
توقيعًا يحمل الشهادة والاعتراض معًا.
تلك الجملة التي خطّها بخطّه لم تُفسد الورقة فحسب،
بل أنقذت شيئًا من كرامة المؤسسة التي وُقّعت باسمها.

❁ ومع ذلك، لم أبدّل موقفي منه، ولم يُبدّل هو تقديره لي.
كان بيننا خلافٌ واضح، لكنه خلافٌ راقٍ بين فكرين، لا خصومةً بين شخصين.

كنت أعارضه في السياسات، وأقيم عليه الحجج من مؤلفاته،

فيلتفت نحوي مبتسمًا ويقول:

«ما ندمتُ على شيءٍ في حياتي أكثر من أني أهديتك كتبي».

ثم يُتبعها بمزاحٍ لا يخلو من الدفء:

«أنتَ تقرأ أكثر مما ينبغي، وتجادل أكثر مما يُحتمل».

❁ كنا نشتبك بالحجج القانونية كما يشتبك الشعراء بالمجاز،

نرفع سقف الحوار ولا نهدم الجسور.

كنت أُقيم عليه الدليل من فقهه،

وهو يُعلّق بعمق العالم:

«الفقه يا أيمن ليس جدارًا يُسدّ، بل بابًا يُفتح على أكثر من احتمال».

❁ وفي منزله بشارع دار الشفاء بجاردن سيتي،

كنّا نلتقي بعيدًا عن ضوضاء الجلسات،

يتحدث عن فلسفة التشريع أكثر مما يتحدث عن دهاليز السياسة،

ويقول لي بنبرة الأب الحكيم:

«العدل يا بني ليس قرارًا، بل سياقٌ من ضمير مجتمعي».

وحين كنا نغادر، كان يُرافقني إلى الباب وهو يقول:

«تذكّر أنك تجلس علي مقعد زعيم المعارضة تحت القبة فكنت ارد عليه قائلا :

وتذكر يا دكتور انك تجلس على مقعد سعد زغلول».

❁ كان رجلًا يعرف الفارق بين الموقف والتصعيد،

وبين المعارضة من أجل المبدأ والمعارضة من أجل الظهور.

وكان مؤمنًا بأن القانون، مهما بدا صارمًا،

يحتاج إلى رحمةٍ في التطبيق أكثر مما يحتاج إلى صرامةٍ في التفسير.

۞ وفي لحظة المواجهة، كان خصمًا قويًّا،

وفي لحظة الحوار، كان معلمًا كريمًا.

لم أرَ في حياتي رجلًا جمع بين الصرامة واللين، بين العلم والسياسة،

كما جمعهما أحمد فتحي سرور.

۞ كان اختلافنا مدرسةً في الديمقراطية،

وأدب خلافنا وثيقةً في الليبرالية،

واحترام كلٍّ منّا للآخر درسًا في الإنسانية.

اختلفنا في الموقع، لكنّنا اتفقنا على أن الفكرة أقدس من الموقع،

وأن مصر ـ التي نحلم بها ـ لا تحتمل الكراهية بين المختلفين،

بل تحتاج إلى أن يسمع بعضهم بعضًا حتى النهاية.

۞ حين رحل في أبريل ٢٠٢٤، شعرتُ أن ركنًا من معمار العقل القانوني في مصر قد تهدّم،

وأن أحد آخر فقهاء المدرسة المصرية قد أغمض عينيه بعد أن سلّم إلينا شعلة السؤال، لا يقين الإجابة.

رحل الرجل الذي وقّع على منحتي ومحنتي،

وترك لي درسًا واحدًا لا يُمحى:

أنَّ الفقيه الحقيقي، حين يُجبر على توقيعٍ ظالم،

يستطيع أن يجعل من الحاشية نصًّا جديدًا للضمير.

❁ رحم الله أحمد فتحي سرور،

الذي اختلفت معه بعقلي، ووددته بقلبي،

وما زلت أستحضره كلما وقفتُ أمام معضلةٍ بين القانون والإنسان،

لأقول لنفسي:

«تذكّر يا أيمن... أن النصّ بلا ضميرٍ يصبح سوطًا،

وأنّ سرور علّمك أن تُضيف إلى كل توقيعٍ سطرًا صغيرًا من وجدانك».

❁ أحمد فتحي سرور ـ الرجل الذي لم أستطع أن أكرهه، وفاءً لرجلٍ جمع بين العلم والضمير،

واختلفتُ معه دون أن أفقد الاحترام،

وخاصمته في السياسة دون أن أفقد الودّ،

وما زلت أراه الفقيهَ الذي علّمني أن الخلاف الشريف هو أسمى أشكال العدالة.

شخصيات في حياتي (٢٥)

أحمد الخواجة رئيس جمهورية المحامين وداهيه السياسية المصرية والعربية

❁ لم يكن الأستاذ أحمد الخواجة مجرد نقيبٍ للمحامين،

بل كان في حياتي مدرستي السياسية الاولي، التي دخلتها طفلًا وشابًا ورجلًا.

❁ لم يكن الخواجة بالنسبة لي نقيبًا، ولا رئيسًا لاتحاد المحامين العرب فحسب، بل كان عمي بالمحبة، كونه وزميل أبي وصديقه الأقرب، في المهنة، ورفيقه في العمر والرحلة، تلك الصداقة التي ورثتُها كما تُورث الجينات، .

❁ في بيتنا بالمنصورة، كما في بيتنا بالقاهرة،

كان الهدوء لا يُكسر إلا في مناسبتين:

حين يخوض أبي انتخابات البرلمان،

أو حين يخوض أحمد الخواجة انتخابات نقابة المحامين.

كنا نعيش الحدثين بالانفعال نفسه،

وكأن النائب والمحامي يتقاسمان دماءنا نحن الأبناء،

فإذا اشتعلت معركة أبي في البرلمان، كان صوت أمي يرتفع بالدعاء،

وإذا اشتعلت معركة الخواجة في النقابة، كان البيت يتحول إلى مقرٍّ انتخابي لا يغلق أبوابه.

۞ خاض الأستاذ الخواجة أولى معاركه نقيبًا للمحامين في ٢٥ أكتوبر ١٩٦٦،

وظلّ نقيبًا حتى ٥ يونيو ١٩٧١،

ثم عاد إلى النقابة في ١٨ نوفمبر ١٩٧٨ حتى ٢٣ يوليو ١٩٨١،

ثم في ولايته الأخيرة من عام ١٩٨٥ حتى رحيله في ٢٢ ديسمبر ١٩٩٦.

طوال تلك العقود الثلاثة، لم يكن الرجل نقيبًا باللقب،

بل كان مدرسةً تُخرّج جيلًا من المحامين الأحرار،

وجامعةً تدرّس في قاعاتها معنى الكرامة والاستقلال.

۞ في نهاية السبعينيات،

كان نقيبًا في زمنٍ يعاني فيه الوطن من الانقسام بعد كامب ديفيد،

ومصر تتعرض لمقاطعةٍ عربية قاسية.

لكن الخواجة، الذي تولى رئاسة اتحاد المحامين العرب، حوّل المقاطعة إلى جسر، والعداء إلى حوار،

كان يسافر إلى الكويت والمغرب وسوريا والعراق وليبيا،

ليجمع المحامين العرب في قاعةٍ واحدة،

ويُذكّرهم أن العروبة لا تُقاطع نفسها،

وأن العدل الذي يجمعهم أكبر من السياسة التي تفرّقهم.

❁ في مؤتمر المحامين العرب بالكويت عام ١٩٨٩،

وقف الخواجة وسط بحرٍ من التناقضات بين معسكراتٍ عربيةٍ متنازعة،

فتحدث بصفته رئيسًا لاتحاد المحامين العرب، فتصالح الجميع مع عباراته البليغة:

«القانون هو لغة السلام،

والمحامي العربي هو آخر الشهود على وحدةٍ لم تمت بعد».

كنت أجلس بين الصفوف، أنظر إليه بدهشةٍ وإعجاب،

كيف يحول الساحر الماهر التناقضات إلى جملٍ موزونةٍ كالشعر،

وكيف يحوّل الألغام إلى ممرّاتٍ آمنةٍ من الكلمات.

❁ كان يتعامل مع الزعماء العرب كما يتعامل مع القضاة في قاعاته:

يحترمهم دون أن يخشاهم،

ويخاطبهم دون أن يتملّقهم.

في إحدى المؤتمرات ببغداد، ظهر في لقاءٍ شهيرٍ مع الرئيس العراقي صدام حسين،

وكان الحوار بينهما متكافئًا في النبرة، لا في السلطة،

فالرجل الذي يقف أمام الرؤساء كان رئيسًا بدوره

رئيس جمهورية المحامين العرب.

❁ داخل مصر، عاش الرجل أزماتٍ عنيفة. قادها من يتوحمون على مقعده ومكانته ومن يخشون منافسته على مقاعد يتأهبون لان يرثوها

في ١٩ يناير ١٩٨٩، تعرّضت النقابة لمحاولة سحب الثقة منه ومن مجلسها،

وتحوّلت الجمعية العمومية إلى حصارٍ للنقابة،

هتف خصومه ضده، لكن الجماهير وقفت معه،

وحين خرج إلى شرفة النقابة في شارع رمسيس،

هتف الآلاف: «نقيبنا يا خواجة... المحامين معاك.»

عاد في اليوم التالي منتخَبًا من جديد،

تأكيدًا على أن المكانة لا تُمنح من السلطة، بل تُنتزع من القلوب.

❁ في مارس ١٩٩٤، كانت أزمة اقتحام مكتب المحامي عبدالحارث مدني،

حين اقتحمت قوات أمن الدولة مقرّ مكتبه،

وكانت النقابة على فوهة بركان.

وقف الخواجة ثابتًا، مطالبًا بمحاسبة من انتهك حرمة المهنة،

وأصدر بيانًا تاريخيًا قال فيه:

«لن تُرهبوا المحامين بالقوة،

فالقانون أقوى من رصاصكم».

تلك الكلمات تردّد صداها في أروقة العدالة،

وسُجّلت باسم نقابةٍ لم تعرف في عهده الانكسار.

❁ لم يكن نضاله داخليًا فقط،

فقد كان أحد أبرز معارضي مذبحة القضاء عام ٣١ أغسطس ١٩٦٩،

حين تم حلّ مجلس القضاء الأعلى ومجلس إدارة نادي القضاة.

دافع عن استقلال القضاة، وعن حق المحامين في أن يكونوا شركاء لا تابعين.

ومن مواقفه الفكرية المبكرة أنه كان من أوائل الداعين لإنشاء المحكمة الدستورية العليا،

إيمانًا منه بأن القانون بلا حارسٍ دستوري هو نصٌّ بلا ضمير.

۞ وفي عهد الرئيس السادات،

أثبت دهاءه السياسي في أكثر من موقف.

في إحدى المناسبات، حين أراد السادات أن يظهر أمام الكاميرات محاطًا بالنقباء،

أدرك الخواجة الرسالة فجلس على الأرض بدلًا من الكرسي،

ليُفسد الصورة التي أرادها النظام،

ويُبقي كرامته بلا خدش،

فخرجت اللقطة وكأنها مشهد رمزي لمصر التي تنحني لتنهض، لا لتستسلم.

۞ لم تكن معاركه السياسية تُنقص من حنانه الإنساني،

بل كانت تزيده تواضعًا.

أذكر أن السيدة وفاء الخواجة، قرينته الكريمة،

كانت ترعاني في بدايات إقامتي بالقاهرة،

لا تبخل عليّ بنصيحةٍ أو رعايةٍ أموميةٍ دافئة،

وكانت تستقبلني كما تستقبل الابن العائد من السفر.

وفي مصيف المعمورة، كنت أجدها تُشاركنا الضحك والذكريات،

تُعيد إليّ دفء العائلة التي لم تفارقني حتى في غربتي داخل العاصمة.

❁ وكان بيت الخواجة على نيل العجوزة صالونًا مفتوحًا للثقافة والسياسة.

هناك التقيتُ بشخصياتٍ كبيرة مثل الدكتور رفعت المحبوب،

وفي تلك الجلسات، كان الحوار يدور بين القانون والسياسة،

وبين الليبرالية والعدل الاجتماعي،

كأنك تحضر جلسة برلمانٍ مصغّرٍ داخل بيتٍ مفعمٍ بالحبّ والوعي.

❁ وحين كتب التاريخ فصل دستور ١٩٧١،

كان للأستاذ أحمد الخواجة موقعٌ في لجنة الدستور،

لكنه استُبعد مع القاضي الكبير حافظ بدوي بقرارٍ من الرئيس السادات،

وتولّى والدي، عبدالعزيز نور، مهمة المقرر في اللجنة،

بترشيحٍ وتزكيةٍ من الخواجة نفسه،

الذي أصرّ أن يخلفه في الموقع رجلٌ يثق بعلمه وأمانته،

فكان ذلك الموقف بالنسبة لي برهانًا على معدن هذا الرجل،

الذي لا يُنافس على الكراسي، بل يُزكّي من يستحقها.

❁ لم أنسَ مواقفه معي في لحظات الخطر.

في كل مرة اعتقلت فيها أو خضعت لتحقيقات أمن الدولة،

كان الخواجة أول الحاضرين،

يدخل معي إلى مكتب التحقيق في نيابة أمن الدولة العليا في الجبل الأحمر،

يقف إلى جواري، يُفاجئهم بالأسئلة القانونية الدقيقة،

وفي إحدى المرات، عندما لفّق وزير الداخلية زكي بدر قضيةً ضدي،

وكان ضابط التحريات حازم حمادي قد ادعى أن اجتماعًا عُقد في منزلي،

وفيه شارك عمر عبدالرحمٰن و*حافظ سلامة*،

فتح الخواجة جواز سفري وأثبت أنني كنتُ في ذلك اليوم في مؤتمر المحامين العرب بالكويت،

واستخرج تأشيرتي الدخول والخروج بنفسه،

ليُسقط القضية الملفقة كما يُسقط المحامي حجّة الباطل بالدليل.

۞ في تلك اللحظة، لم يكن فقط المحامي الأعظم،

بل كان الأب الذي يذود عن ابنه،

والنقيب الذي يدافع عن كل من يمسّه الظلم.

۞ وحين أتذكّر علاقته بوالدي،

أرى كيف كانت الصداقة بينهما صورةً نادرة من الوفاء:

أصدقاء في الحياة، وزملاء في البرلمان،

ومتكاملان في الموقف؛ أحدهما يُشعل الكلمة، والآخر يُطفئ الفتنة.

كان أبي يقول لي: «يا بني، النُبل لا يُتعلّم في كتب القانون،

بل في مجلس أحمد الخواجة.»

۞ ولذلك، عندما هاجمه البعض،

كنت أشعر أنني أدافع عن قِيمتي الشخصية، لا عن رجلٍ خارج نفسي.

وحين قال لي أحدهم يومًا متهكمًا: «أنت أيمن الخواجة»،

ابتسمتُ وقلت في نفسي:

«نعم، وشرفٌ لي أن أُنسَب إلى هذا الاسم».

❁ رحل الأستاذ أحمد الخواجة في ٢٢ ديسمبر ١٩٩٦،

بعد أن قضى ثلاثين عامًا من النضال النقابي والوطني،

عارض خلالهم مذبحة القضاء،

وصمد أمام ثلاثة رؤساء للجمهورية،

ودافع عن حرية المحامي كما يدافع الفقيه عن النصّ المقدّس.

❁ رحل، لكن صدى صوته ما زال في قاعات النقابة:

«المحاماة ليست مهنة، بل رسالة...

والنقيب ليس منصبًا، بل امتحان ضمير».

❁ رحم الله هذا الرجل الذي أحببته بصدق،

وأدين له بالكثير من معرفتي الأولى بمعنى الاستقلال،

ومن شعوري المبكر بأن المهنة ليست طريقًا إلى المنصب،

بل طريقًا إلى الشرف.

❁ تحية إلى روحه،

وإلى رفيقة عمره وفاء الخواجة التي كانت أمًّا ثانية لي،

وإلى ابنتيه ليلى الخواجة و*دينا الخواجة* اللتين ظلّتا تجسدان تربية بيتٍ من الطهر والفكر والإنسانية.

❁ وسلامٌ على ذلك الجيل العظيم:

جيل فؤاد سراج الدين و*أحمد الخواجة* و*عبدالعزيز نور*،

الذين علّمونا أن الوطنية ليست شعارًا يُرفع،

بل سلوكٌ يُمارس،

وأن الكرامة لا تُمنَح، بل تُورَّث.

شخصيات في حياتي (٢٦)

أجنحة قافلة الشرق

❁ أكتب اليوم، لأفتح صفحةً جديدةً من الحب والوفاء، تُضيء ظلال اثني عشر عامًا من النضال، والحلم، وحب الوطن.

حديثي ليس عن مؤسسةٍ إعلاميةٍ وحسب، بل عن عائلةٍ كبيرةٍ جمعتنا تحت سقفٍ من الحلم والإصرار والمعاناة.

عن قافلةٍ وُلدت من رحم الغربة، ومضت منذ ميلادها عام ٢٠١٤ كالسائرين على جمرٍ من الأمل، تُربّت على أكتاف الوطن كلّما اشتدّت محنته، وتداوي الجرح بصدق الكلمة وحرارة الإيمان.

❁ أبدأ حديثي من حيث بدأت الحكاية...

من الرجل الذي حمل الفكرة، وزرع أول بذرة: الدكتور باسم خفاجي، مؤسس الشرق في انطلاقتها الأولى.

من رؤيته انطلقت الشرارة، ومن جرأته خرج الصوت الذي صار اليوم يصل للملايين في مصر والمشرق والمغرب العربي وحول العالم.

❁ وبعده، أفتح صفحة الصديق العزيز أحمد عبده، الذي أكتب له، في يوم مولده، وهو الآن في العاصمة الهولندية التي أشتاق لزيارتها شوقًا للقائه ولقراءة ملامحه الطيبة في وجه أسرته التي هي بعضٌ من عائلتي.

أحمد عبده ـ مدير قناة الشرق الذي جمع بين الحزم والحنان، بين الرجولة والمسؤولية. قائدٌ هادئ في زمن الضجيج، لا يرفع صوته، لكن صمته يوجّه، وإشارته تكفي لتعود السفينة إلى مسارها إن انحرفت.

في أيام الغربة الثقيلة، كان أحمد مرفأ الأمان الذي نرسو إليه حين تتقاذفنا أمواج السياسة المتقلّبة وهموم المنفى.

لكَ يا احمد، في يوم مولدك، دعاءٌ صادقٌ يشبه طيبتك، وامتنانٌ لما قدّمت من حبٍّ وإخلاص لهذه العائلة.

۞ ومع أحمد، يجيء رفيق دربه مسعد البربري، رئيس تحرير قناة الشرق، وبيت الذكاء والحنكة.

مسعد غرفة أخبار تمشي على قدمين، يلتقط الحدث قبل أن يُذاع، ويفهم الفكرة، قبل أن تُقال.

عرفته في البداية، زميلًا عابرًا، فتسلّل إلى القلب ليصبح صديقًا نادرًا، صادقًا.

أكتب له اليوم مهنئًا بوصول حفيدته الأولى إلى الدنيا (لين) لتمنح بيته، فرحًا جديدًا يشبه حضوره الهادئ، وثقته، وابتسامته في عزّ العاصفة.

۞ أما الدكتور ماجد عبد الله، فهو الذاكرة الأولى لبداية الحلم. التقينا في مصر، وكان أول مديرٍ لقناة الشرق في انطلاقتها الاولي، فجمع بين حكمة الشيوخ وقلب الطفل ـ الغضوب أحيانًا، الودود والصادق دائمًا.

في كل زاوية من الشرق ظلّ له بصمةً محفورةً وذكرى لا تُمحى.

۞ ويطلّ علينا الدكتور الشيخ عصام تليمة، صوتُ التجديد في الفكرة، وسليلُ النديم، ومجدّد الخطاب الرشيد. خفيف الظلّ سريع البديهة ثقيل الوزن العلمي، ويذكّرنا دوما بإسلامنا الجميل.

۞ وإلى الشيخ الدكتور سلامة عبدالقوي ـ رمزُ الاعتدال، والتقريب،

وصوتُ الفهم الديني والسياسي الراقي علي شاشة الشرق. وخارج الشاشة تجده يتحدث قليلًا، لكن كلما تكلم أعاد إلى الحوار معناه، وإلى الخطاب طهره ونضجه ووعيه.

جسرٌ هادئ بين المختلفين، نموذجٌ لعالم يتّسع عقله للجميع.

❁ وأذكر ـ بكل امتنان ـ ابني الحبيب وزميلي العزيز في حزب غد الثوره، وموقع أخبار الغد نادر فتوح، رئيس قافلة الإعداد في قناة الشرق ورئيس تحرير موقع أخبار الغد.

قلبٌ نابضٌ بالالتزام ينسج النصوص خلف الكواليس ويربط التفاصيل بخيوطٍ من الضوء والمعنى.

❁ أمّا المخرج المبدع محمود لطفي، مدير البرامج الأسبق، فقد جعل من الوثائقيات في الشرق ذاكرةً بصريةً نابضة ومتجددة.

❁ وفي جناح الفن، أيضًا يأتي الرائع

محمد شومان، الممثل الكوميدي القدير وصاحب القلب الأطيب، الذي حوّل الضحكة إلى مقاومة،

و بالتأكيد يتصدر جناح الفن النجم السينمائيهشام عبدالحميد،

الفنان الليبرالي المثقف، و**هشام عبدالله**، الوجه الشجاع على الشاشة.

ويكمل المشهد عز الدين دويدار، المخرج والمفكر والناقد السينمائي، الذي جمع بين رؤية الفن وبوصلة الموقف.

❁ وأتوقف طويلًا أمام أحد أنبل الوجوه في هذه القافلة المخرج إبراهيم الغمري، مدير التشغيل وضمير الكادر الفني خلف الكواليس، هو كتلةُ أخلاقٍ تمشي على قدمين هما:

الإخلاص في العمل،

والرحمة في القلب.

إلى جانبه فريقه اللامع: المهندس مدحت، والمخرج ضياء الملوحي، والمخرج حسان الملوحي، والمخرج خالد حشمت، وأنس المالك مايسترو الإضاءة، وطارق تمراز فنان الصوت، والمهندس وعبدالغني قره حمود متعدد المواهب التقنية...

أولئك الجنود الذين يصنعون الصورة ويضيئون الكلمة ويمنحون الشاشة روحها ونكهتها.

۞ ولا تكتمل الصورة دون نجوم الشاشة الكبار: الاعلامي القدير عماد البحيري، والصحفي المخضرم الدكتور**أحمد عطوان**، والصحفي والحقوقي الليبرالي المخضرم زميل مدرسه الوفد **أحمد سميح**، والاعلامي القديم من الرعيل الاول بالشرق**أحمد العربي**، والمهندس والحقوقي**هيثم أبو خليل**، وابن البلد الجدع**وليد الهواري**

والاعلامي الاقتصادي المتمكن **محمد محيي الدين**، والمذيع الذي يملك أدواته **طارق أبو شريفة**...

وصوت السودان الإعلامي ناجي الكرشابي مقدم برنامج الشارع السوداني ومعه مناضل مراسلنا في الخرطوم وعلم الدين مراسلنا في غزه وقطب مراسلنا في دمشق والعديد من الوجوه المصرية والعربية التي تحمل ملامح الوطن وأصواته.

۞ وفي جناح نجمات الشرق، تحضر دعاء حسن، و**فيروز حليم**، و***هدير علي**، و***هبة مصطفى**، نجماتٍ بالكلمة والحضور. ولهم بصمات رائعة علي شاشة الشرق ومعهن رموز كبيرة مثلقطب العربي، صاحب البرنامج الشهير بين الصحافة والسياسة، الذي ظلّ جسرًا بين المهنة والوطن.

❁ كما أحيي محمد مجدي، المحلل السياسي وزميلي في حزب غد الثورة، الذي يقدّم متطوعا، برنامجه الأسبوعي من أمريكا، صوتًا للعقل والحرية في زمن الصخب.

ويأتي المبدع هشام إسماعيل ـ مدير المركز الثقافي المصري في الشرق ـ رمزًا للوفاء والتفاني في العمل.

❁ وخلف العدسات، يواصل المبدعون عطاؤهم: كريم الشاذلي، رئيس قسم المونتاج و**مصطفى المصري**، المدير التنفيذي لقسم السوشيال ميديا و**عبدالرازق مغاته**، وهم من يحوّلون ما بعد البث إلى حياة نابضة.

وفي الميدان الهندسي يأتي صمام الأمان الهندسي، رئيس هذا القسم المهندس العزيز: هاني البنا،

وعلي صعيد اخر تأتي إداره الذكاء الاصطناعي برئاسة الاعلامي والمذيع المهندس المهذب الخلوق **عمر الشال** الذي وضع الشرق على راس قائمه القنوات التلفزيونية التي استخدمت الذكاء الاصطناعي وطورت ادواته فجعل الشرق رائده في هذا المجال

???? أصدقاؤنا وزملائنا الأتراك الذين انخرطوا في مشروع الشرق وفي قبيلته كانوا وما زالوا بعضا منا ونحن بعضا منهم:

إسراء تالوا،

وحيد سيرتي،

والحبيب محمد توفيق،

و إذهان البيرق،

وفي مكاتبي سكرتير ومترجمي الشخصي وابني

فهمي السباعي،

❁ وفي اداره الخدمات الفنية المساعدة تاتي داريا تمير، إبراهيم سوسان، أحمد السيد، وعبدالحميد عيون السود، ومصطفى العماري. . .

وجوهٌ تصنع الحياة خلف الكواليس بمحبةٍ صافية.

❁ ولا أنسى صديقي جمال حزيمة، مدير قسم الديكور وصاحب العين التي ترى الجمال في التفاصيل، و**خالد السوداني**، رقيق السلوك الحنون.

❁ ولمن رحلوا عن الدنيا وبقي أثرهم، أقول:

لن ننساكم، لم ولن ننسى الشاعر المبدع الدكتور الراحل صلاح عبد الله،

❁ ولن ننسى ايضا بصمات ولمسات رموز عملت في الشرق وحالت ظروفها دون الاستمرار

وفي مقدمتهم الصحفي اليساري المحترم الاستاذ جمال الجمال،

والشاعر المبدع أحمد حمدي،

والصحفي والاعلامي سامي كمال الدين، والصحفي القدير عماد ناصف

، والمذيع المهذب يزن البوس ورزان امين ودائما أبو دان والرائع قيثارة الشرق ياسين الذي عاد لوطنه العراق.

❁ ومن النجوم الذين أثروا الشرق وشاشتها:

في مقدمتهم الاعلامي الكبير والصديق محمد ناصر، والاعلامي القدير معتز مطر، والكاتب الصحفي الكبير الاستاذ محمد القدوسي، والكاتب الصحفي والصديق المبدع الاستاذ سليم عزوز.

❁ ولان الشرق لكل الشرق (حتى ولو كانت مصريه لحما وهما ودما)

لذا. . . . لابد ان اقدم باسمها، ونيابة عنها، المحبة والتقدير لكل العاملين من أشقائنا العرب

من السودان وتونس والجزائر والمغرب وسوريا والعراق ولبنان، والذين شاركونا هذا الحلم منذ بدايته،

و أرفع لهم جميعا التحية والمحبة.

۞ أعذروني، إن غاب اسمٌ أحببته أو تفصيلٌ عشته، فالأسماء أكثر من المساحة، والقلوب أوسع من الكلمات.

وددت لو كتبت لكل واحدٍ منكم مقالًا مستقلًا، لكن ضيق الوقت واتساع القلب جمعكم في هذه اللوحة التي أعدّها ـ بكل صدق ـ لوحة الحبّ لهذه السلسلة غاب الكثير عنها خوفًا عليهم وتقديرًا وظروفهم.

فهذا المقال الذي أنشره تحت عنوان «شخصيات في حياتي» والذي هو فصل من فصول كتابي الذي سيصدر في ديسمبر القادم ٢٠٢٥

تحت عنوان «أوراق من مذكراتي»،

۞ كما سنحتفل في منتصف الشهر القادم بتدشين المركز الثقافي المصري التابع لجمعيه شرق الثقافة والحضارة وافتتاح عددا من مشروعاته ومعارضه كما سنحتفل بهذه المناسبة في بعض رموز الشرق لنقول لهم شكرًا لكل من مشى في هذا الطريق معنا، لكل من صدّق الحلم حين سخروا منه، ولكل من حمل المشعل حين أُطفئت الأنوار.

يا رجال الشرق ونسائها، يا عائلة الشرق الممتدة لكم وصيتي لكم حافظوا على بيتكم، حافظوا على طاقاتكم، حافظوا على انفسكم، فأنتم قيمه مدخره لأوطانكم، أنتم قصيدتي التي لم أفرغ من كتابتها، ووطني الذي لا يُنفى مني.

بكم نواجه الغربة، وبكم نصبر على الابتلاء، وبكم يظلّ الأمل حيًّا، كضوءٍ لا ينطفئ في نهاية النفق.

❁ وإن كانت هذه السطور من سلسله شخصيات في حياتي، فليست هي نهاية الحكاية، بل بدايتها الجديدة.

فـ الشرق ـ هذه القافلة التي تمضي منذ اثني عشر عامًا ـ ما زالت تحمل على أكتافها أثقال الأحلام، وتوزّع على قلوبنا خبز الأمل.

❁ هذه السطور ليست وداعًا، بل وعدٌ بأن نكتب ما تبقّى من الحكاية معًا، بالعمل، بالوفاء، بالعقل والحكمة وبالحبّ الذي جمعنا، وسيبقى يجمعنا،

ما دام فينا عقل ونفسٌ يكتب، وما دامت الشرق قافلةً تمضي في زمن العتمة.

سلسلة مقالات
أنا وسبتمبر

ورقة من مذكّراتي (١)

أنا وسبتمبر
٤٤ عامًا... اعتقال

❁ أكتب هذه السطور في الساعة السابعة صباحًا، من الأول من سبتمبر ٢٠٢٥.

❁ هي نفس الساعة السابعة، لكن قبل ما يقارب ٤٠٠ ألف ساعة، أي ما يعادل ١٦ ألفًا وثمانين يومًا، كنت في مكان آخر تمامًا... خلف بابٍ حديدي يُغلق لأول مرة عليّ.

❁ كان ذلك في سبتمبر ١٩٨١؛ يوم اعتقالي الأول، وأنا لم أزل شابًا في مقتبل العمر.

❁ في تلك اللحظة، لم يكن السجن مجرد جدار وأقفال؛ كان إعلانًا مبكرًا بأن سبتمبر سيصير قدري، وكتابي، وامتحاني المتجدد.

❁ كنتُ رئيسًا لـ اتحاد طلاب المدارس الثانوية ودور المعلمين والمعلمات، شابًا لم يعرف بعدُ سوى حماس الكلمات، وحلم التغيير.

❁ لم تكن جريمتي سوى أنني قلت: إن للشباب حقًا في الصوت، وللطلاب دورًا في الوطن، وللحقيقة مكانًا بين الجموع.

❁ جاءت سيارات الأمن في السابعة صباحًا؛ لم يكن ضوء الشمس

قد اكتمل، لكن ظلال الخوف كانت أطول من كل الأشجار.

❁ شعرتُ أن القاهرة بأكملها تستيقظ على دويّ الأبواب الحديدية أكثر مما تستيقظ على ضوء الفجر.

❁ لم يكن السجن موتًا؛ كان ولادة أخرى. لم أخرج كما دخلت: دخلت طفلًا يحمل أحلامًا بسيطة، وخرجت رجلًا يحمل جرحًا ووعدًا ووصية.

❁ هناك تعلمت أن الصمت خيانة، وأن الكلمة، حتى لو وُلدت يتيمة، قادرة أن تُشعل ليلًا طويلًا.

❁ كنتُ أسمع صوت أمي عند الأسوار، وهي تهمس في دعائها: «اثبت... فالوطن يستحق». كان صوتها أقوى من صرير الأقفال.

❁ رأيت وجوهًا من كل الأطياف: إسلاميين، يساريين، مثقفين، صحفيين... أدركت أن الحرية لا تعرف حزبًا ولا مذهبًا.

❁ لم يكن السجن عقوبة شخصية، بل كان رسالة لنظامٍ يخاف الكلمة أكثر مما يخاف الرصاص.

❁ في زنزانة باردة، كتبت على الجدار: «لا تجعلوا السجن مقبرة، بل اجعلوه مدرسة». كان الحائط صامتًا، لكن قلبي كان يردّد الجملة كتراتيل.

❁ كل ساعة بعدها صارت امتدادًا لتلك الساعة؛ كل سبتمبر صار صدى لذلك اليوم الأول.

❁ تعلمت أن السجن لا يُقاس بعدد القضبان، بل بعدد الدروس التي يحملها.

❁ تعلمت أن الحرية شهيق، إن انقطع، ماتت الروح قبل الجسد.

❁ لم تكن تجربة شخصية فحسب، بل كانت جزءًا من مصر نفسها،

من قصة وطن يرفض أن يُخنق صوته.

❁ حين خرجت، كان في عيني يقين جديد: أنني لن أعود كما كنت، ولن أصمت كما صمت كثيرون.

❁ حملتُ وصية الزمن: لا تخف من الزنزانة، بل خف أن يُطفأ صوتك.

❁ وحملت يقينًا أن سبتمبر ليس لعنة فقط؛ إنه هدية مغلفة بالصبر، يعيد تشكيل الروح، ويصقل الحلم.

❁ في تلك التجربة الأولى، وُلدتُ من جديد: لم تلدني أمي، بل ولدتني التجربة والخذلان والصدمة، ومعها ولدت إرادة لا تعرف التراجع.

❁ اليوم، بعد مرور ٤٤ عامًا، أكتب هذه الورقة وأنا أعلم أن كل ما تلاها كان امتدادًا لها: انتخابات، تزوير، اعتقالات جديدة، منفى بعيد... كلها فصول من كتاب واحد عنوانه الحرية.

❁ أقولها بصدق: السجن المبكر لم يُنه حياتي، بل منحها معنى أكبر.

❁ لم يكسرني سبتمبر، بل علّمني أن أنحني للعاصفة كي لا أنكسر، وأن أظل واقفًا حتى لو أثقلتني القيود.

❁ وأقولها بطمأنينة: كلما عاد سبتمبر، عدت إلى تلك الزنزانة الأولى، أضع يدي على جدارها البارد، وأسمع الوطن يقول: «لا تتراجع».

❁ إن كان السجن جرحًا، فقد صار أيضًا مرآةً كشفت لي أجمل ما في الإنسان: القدرة على الصمود، والإيمان أن الغد يولد من رحم الألم.

❁ ربما أرادوا أن يقتلوا الأمل في داخلي، لكنهم زرعوا بذرة لم تُطفأ، شعلة لم تنطفئ.

❁ لذلك أكتب في الساعة السابعة من سبتمبر ٢٠٢٥، بنفس اليد التي اعتُقلت بها في السابعة من سبتمبر ١٩٨١، لأقول: ما زلت حيًّا... وما زالت الأغاني ممكنة.

❁ هذه هي الورقة الأولى من سباعية سبتمبر الذي لا ينتهي

وما زالت هناك أوراق أخرى تحكي عن انتخاباتٍ غُيّبت، وأوراقٍ لم تُقدَّم، وزنازين لم تُغلق بعد، ومنفى بلا جدران، ولعنةٍ كانت هدية، ووعدٍ لم يكتمل بعد.

❁ هذه بداية الحكاية...مع سبتمبر...

أما بقيتها فسوف تأتي في سباعية

الحلقات القادمة. من أول سبتمبر

حتى السابع منه

ورقة من مذكّراتي (٢)

٢٠ عامًا على أول انتخابات رئاسية...
تفصيل دستور على مقاس الوريث

❁ لكل أمة لحظة ولادة سياسية، ولحظة تجديد دمائها بالديمقراطية، إلا أن انتخابات مصر عام ٢٠٠٥ لم تكن ولادة طبيعية، بل كانت عملية قيصرية خشنة أُجريت على جسد الوطن بيد سلطة لا تريد أن تُنجب وطنًا حرًا، بل تريد أن تُنجب ابنها وحده.

❁ إن التزوير في أي انتخابات لا يبدأ عند الصندوق، بل ينتهي عنده؛ أما بدايته الحقيقية فدائمًا عند لحظة كتابة النصوص الدستورية والقانونية التي تُرسم كأقفاص محكمة على رقاب الناخبين، وهو ما عشته وشهدته بأم عيني.

❁ لا أنسى غلاف مجلة الأهرام الاقتصادي حين كتب مبارك بعبارات مقتضبة: «التفكير في تعديل الدستور خيانة». كانت كلمات جازمة قاطعة، لكنها لم تكن سوى سحابة دخان، إذ لم تمر أسابيع قليلة حتى خرج الرجل نفسه ليعلن تعديل المادة ٧٦، في تناقض فجّ بين ما يقول وما يفعل.

❁ كان التعديل في ظاهره نقلة من الاستفتاء إلى الانتخابات، لكنه في جوهره لم يكن أكثر من التفافٍ جديدٍ على أحلام المصريين، وتحصينٍ

لمستقبلٍ خُطّ لابنه جمال مبارك، تحت وطأة ضغوطٍ عائلية وداخلية من قلب السلطة نفسها.

❁ لم أكن قارئًا من بعيد، ولا متفرجًا خلف شاشة، بل كنت حاضرًا داخل قاعة البرلمان، نائبًا وزعيمًا للمعارضة، أسمع وأرى تلك المهزلة، وأصرخ في وجهها.

❁ في القاعة، لم يكن النقاش حول دستور أمة، بل كان حول بدلة تُفصّل بعناية على جسد واحد.

لم يكن الحديث عن الشعب، بل عن الرئيس ووريثه، وعن مقعد يريدون له أن يبقى حكرًا على العائلة.

❁ يومها، حاولتُ أن أقول إن الدستور لا يُفصّل كما تُفصّل الثياب، وأن الأمة ليست جسدًا صغيرًا يلبس ما يخاط له، لكن صوتي ضاع بين تصفيق المصفقين، وصخب الموالين الذين تفرغوا لتأدية واجب الطاعة.

❁ كانت أسوأ عملية تفصيل دستوري شهدتها مصر ـ حتى تاريخه ـ فالمادة٧٦ كتبت على مقاس مبارك الأب، لكنها كانت مرآةً مفتوحة على وجه الابن الذي ينتظر دوره، في مشروع توريث غير معلن رسميا، لكنه حاضر فعليا ومغلف بشعارًا ديمقراطيا. وهو الانتخابات التعددية.

❁ في إحدى الجلسات المخصصة لمناقشة المادة ٧٦، وقفت متعجبًا من غفلة مشروعي النظام، سألت سؤالًا بدا بسيطًا لكنه أحدث دويًا :

«ماذا لو بعد إغلاق باب الترشح، وقبل إجراء الانتخابات، توفي أحد المرشحين؟

هل تُستكمل الانتخابات بين من تبقى ؟»

❁ كان سؤالي بمثابة الصاعقة؛ إذ بادر المرحوم فتحي سرور برفع الجلسة فورًا، ودعا قيادات النظام للاجتماع في مكتبه. تواصلوا مباشرة مع مبارك، ثم عادوا بتعديل للنص المقدم منهم، يسمح بفتح باب الترشح مجددًا في حالة وفاة أي مرشح أثناء العملية الانتخابية.

❁ لم يكن حرصهم على العدالة أو تكافؤ الفرص، بل خشية أن يتوفى مبارك نفسه خلال العملية الانتخابية، فيغيب عن القائمة، ولا يجد النظام وسيلة لإدخال مرشح آخر يمثل السلطة.

❁ لم يكن التعديل للمادة ٧٦

خطوة نحو الحرية، بل كان خطوة إلى الخلف، مسمارًا جديدًا في نعش الديمقراطية الوليدة، قيدًا على عنق مصر، جعل الانتخابات القادمة مجرد مسرحية بديكور دستوري مزيف.

❁ هكذا بدأت حكاية أول انتخابات رئاسية في تاريخ مصر، لا من الصندوق، بل من قاعة البرلمان حيث صيغ النص على مقاس الرئيس. منذ تلك اللحظة، كان الطريق مرسومًا: مشهد محسوم ونتيجة معروفة، حتى قبل أن يفتح الصندوق.

❁ في ذلك اليوم، شعرت أن مصر كلها لم تدخل تجربة الديمقراطية، بل دخلت نفقًا مظلمًا باسمها، وصارت الديمقراطية كلمة خاوية، ودستورها نصًا مسمومًا.

❁ ومع ذلك، اخترنا أن نخوض التجربة، رغم علمنا أنها مغشوشة، لأن الحق لا يكتمل إلا إذا وُجد من يشهد على باطل السلطة، ويضع أمام التاريخ دليلًا حيًّا على الغش والتزوير.

❁ لم أكن أواجه فقط مبارك الأب، بل كنت أواجه نصًا دستوريًا مشوّهًا، كتبه الاستبداد بمداد التوريث، وجعل منه بوابةً زائفة إلى انتخاباتٍ شكلية.

❁ في كل لحظة من تلك الجلسات، كنت أعلم أننا نكتب مستقبلًا سيئًا للأمة، وأننا لا ندخل زمن الديمقراطية بل نخرج منها، ومع ذلك رفعت صوتي في وجه التيار، لأن السكوت خيانة، ولأن المعارضة شهادة.

❁ وها هو التاريخ يشهد: رغم كل التفصيل والتمويه، خرجت الحقيقة من بين الركام، وأثبتت التجربة أنني حللت ثانيًا بين عشرة مرشحين في أول انتخابات رئاسية تعددية في تاريخ مصر.

❁ لم يكن ذلك تفصيلًا في النتيجة، بل كان تفصيلًا في الواقع؛ إذ صار حزب وليد، عمره شهور، زعامة للمعارضة، واحتل موقعًا لم يستطع النظام أن يخفيه مهما زيف الأرقام.

❁ لأول مرة رأى الشعب مشهدًا مختلفًا، سمع صوتًا غير الصوت الواحد، وأدرك أن هناك بديلًا حتى وإن حُوصر وقُمع.

❁ لم تكن المعركة معركة صناديق، بل معركة وعي؛ وعي بأن التزوير يبدأ في النصوص، وبأن الحرية لا تُمنح، بل تُنتزع من بين أسطر القوانين المفصّلة على مقاس السلطة.

❁ هذه الورقة الثانية ليست مجرد فصل في تاريخ تعديلٍ دستوري، بل هي شهادة على أن الديمقراطية في مصر وُلدت مشوهة، تحت مقصّ الخياط السياسي الذي لا يرى في الشعب سوى جسدٍ صغيرٍ لبدلةٍ أكبر من مقاسه.

❁ واليوم، بعد عشرين عامًا، أعود لأكتب لا لأستعيد مرارة الماضي، بل لأضع بين أيدي الأجيال الجديدة درسًا بليغًا: أن من يبدأ بتفصيل الدستور على مقاسه، لن يترك الانتخابات إلا على مقاسه أيضًا.

❁ هذه الورقة الثانية إذن هي مرآة لبداية زائفة، وشهادة أن الحرية لا تبدأ من النصوص المزيفة، بل من الشجاعة في فضحها والوقوف في وجهها.

هذه الورقة من مذكراتي

ليست سوى محطة في سباعية سبتمبر الذي لا ينتهي.

و غدًا، في الورقة الثالثة، سأروي قصة: أوراق ترشيح مبارك التي لم تُقدَّم، للان. وكيف سُلب مني رمز الهلال، وكيف انقلب ترتيب المرشحين، لتكتمل صورة التزوير منذ النص وحتى الصندوق.

ورقة من مذكّراتي (٣)

٢٠ عامًا على أول انتخابات رئاسية مبارك فاز وهو لم يترشح للرئاسة

أكتب هذه الورقة الثالثة من سباعية سبتمبر الذي لا ينتهي، وفي قلبي حكاية تشبه الأسطورة: حكاية أوراق ترشيح مبارك التي لم تُقدَّم يومًا، ورمزٍ سُلب من يدي، وترتيبٍ انقلب رأسًا على عقب. قصة أول انتخابات رئاسية في تاريخ مصر، لم تبدأ من صندوق الاقتراع، بل من لحظة فتح باب لجنة الانتخابات صباح ٢٩ يوليو ٢٠٠٥.

قبل هذا اليوم بأيام، حيكتْ خديعة صغيرة لكنها مشروعة. سرّبت عبر الهواتف ـ التي كنت أعلم أنها مراقَبة ـ أنني سأكون آخر المتقدمين، في آخر دقيقة من آخر يوم، حتى يظن الجميع أن اسمي سيكون في ذيل البطاقة، بينما كنت قد عقدت العزم أن أكون أول من يطرق الباب.

أردت أن أتركهم في غفلة حتى اللحظة الأخيرة، وأن أفتح أنا أول صفحة في دفتر الانتخابات. كانوا ينتظرونني آخر الداخلين، لكنني كنت بالفعل أول الواقفين أمام الباب المغلق.

في فجر التاسع والعشرين من يوليو، اصطحبتُ زملائي من حزب الغد ـ وائل نوار وأيمن بركات ـ وذهبنا إلى المقر في مصر الجديدة. وقفنا أمام الباب قبل السابعة صباحًا، فيما كانت دهشة الحراس لا تُخفى.

❁ بدأ الضباط يهرولون في اتصالات محمومة لإبلاغ قياداتهم بالمفاجأة: أيمن نور ينتظر أمام باب اللجنة قبل فتحها بساعات. كانت ملامح الارتباك واضحة، كأنهم فوجئوا أن هناك من يسبق الرئيس.

❁ حرر أيمن بركات محضرًا رسميًا برقم ١٦ أحوال مصر الجديدة لإثبات وجودنا منذ السابعة صباحًا. كنتُ واقفًا كمن يحرس الحلم، لا أتحرك، ولا أرفع عيني عن الباب الحديدي.

❁ عند الثامنة، حضر المستشار ممدوح مرعي، رئيس اللجنة، يحمل مفتاح المقر. دخلت خلفه كظله، ومعه موظفو اللجنة، وفي يدي ملف الترشيح، كأنني أحمل وصية جيل كامل.

❁ جلس مرعي على مكتبه، وقال لي: والدك كان صديقًا لي، تعرفت عليه أثناء عملي في محكمة طلخا. فقلت له: أحب أن أسمع منك هذا تفصيلًا، لكن بعد تقديم أوراقي وإثبات حقي.

❁ فتح مرعي سجل الترشيحات. التفت إليّ وقال بابتسامة باهتة: «اجلس قليلًا، أو نحتسي قهوة.» أجبته بحزم: «بعد أن أُسلّم أوراقي، وأحصل على حقي موثقًا.»

❁ أثبت اسمي في السطر الأول من الصفحة الأولى من السجل، وفقًا للمادة ١٤ من قانون الانتخابات الرئاسية رقم ١٧٤ لسنة ٢٠٠٥. كتب بخطه: الرقم .(1)

❁ سألني عن الرمز الذي أختاره، فقلت بلا تردد: الهلال. دوّنه بجوار اسمي، كما نصت المادة ٣٢ من قرار اللجنة.

❁ وقّع مرعي بخطه، وختم الإيصال بخاتم النسر. لحظتها شعرت أنني لا أحمل إيصالًا، بل أحمل شهادة ميلاد لأول انتخابات رئاسية تعددية.

❁ خرجت إلى الصحفيين والإعلاميين المتجمعين أمام المقر. أعلنت

أنني أول المرشحين، برقم (١)، ورمز الهلال. لم تمض دقائق حتى بثت وكالة أنباء الشرق الأوسط برقية عاجلة برقم ٨٦ تؤكد ذلك.

❁ كان انتصارًا رمزيًا، لكنه كان كافيًا ليصيب النظام بالذعر. ففي مساء اليوم نفسه، بثت الوكالة برقية أخرى، مغايرة تمامًا للأولى، برقم ١٨٦، قلبت الحقيقة وقالت: الرئيس مبارك هو المرشح الأول، ورمزه الهلال!

❁ هرعت عائدًا إلى اللجنة، وأريتهم الإيصال بخط وتوقيع رئيسها. ابتسم مرعي ابتسامة العارف وقال: «هذا كلام صحف... معك ما يثبت حقك، والله معك.»

❁ بعد أيام، نشرت اللجنة القائمة النهائية في الصحف. رأيت اسمي رقم (٢)، ورمزي هو النخلة، بينما أصبح مبارك الأول، ورمزه الهلال. لم يحضر، لم يقدّم، بنفسه أو عبر وكيله محمد الدكروري، لكنه صار الأول. وكأن الغياب حضور، والحضور غياب.

❁ تقدمت بطعن رسمي، أرفقت به الإيصال الأصلي بخط مرعي. في البداية، همس بعض أعضاء اللجنة أن الطعن وجيه، وأن الحق سيعود لأصحابه. لكن القرار كان مكتوبًا سلفًا.

❁ رُفض الطعن، وجاءني مرعي يعتذر بلسانٍ بارد: «كنتُ معك، لكن اللجنة ليست أنا وحدي. القرار بيد الأغلبية.»

❁ سألت الجميع: متى وأين قدم مبارك أوراقه؟ لم يره أحد، لم يلتقِ به أحد، ولا بوكيله. ومع ذلك، صار اسمه الأول في القائمة، والرمز الذي اخترته صار في يده.

❁ لم تكن المسألة صراعًا على رقم أو رمز، بل كانت اختبارًا لمعنى القانون نفسه. فإذا كان القانون يُزوَّر في أول إجراء، فما قيمة كل ما يليه؟

❁ كان الهلال مجرد رمز انتخابي، لكنه صار شاهدًا على أن السلطة لا تحتمل حتى قنديلًا صغيرًا يضيء في يد معارض.

❁ لم تكن هذه الواقعة مجرد تفصيلة؛ كانت الفضيحة الأولى العلنية التي أثبتت أن الانتخابات مفصلة حتى قبل أن تبدأ.

❁ كنت أعلم أنني سأخسر الرمز والرقم، لكنني تمسكت بما هو أثمن: أن يرى الناس مشهدًا صادقًا، ولو للحظة. أن يعرفوا أن النظام سرق حتى ترتيب الأسماء.

❁ لم يكن الهلال وحده ما سُلب. سُلبت هيبة النصوص، وسُلبت أول لحظة أمل أن تكون البداية صادقة.

❁ ومع ذلك، بقيت الحقيقة التي لم يستطع أحد محوها: أنني حللت ثانيًا بين عشرة مرشحين، وأن حزب الغد، الذي لم يتجاوز عمره شهورًا، صار زعامة معارضة في وجه دولة كاملة.

❁ دخلت لجنة الانتخابات يومها أحمل حلمًا، وخرجت منها أحمل درسًا: أن من يزوّر البداية لا يمكن أن ينصف النهاية.

❁ واليوم، بعد عشرين عامًا، أكتب لأقول: إن أوراق ترشيح مبارك لم تُقدَّم للآن، وإن ما حدث يومها أكبر من تزوير رمز أو ترتيب. كان تزويرًا للذاكرة، واعتداءً على معنى الحقيقة.

❁ كانت الحيلة التي بدأت بالهاتف، وانتهت بالرمز المسلوب، مرآة كاملة للعبة: سلطة تتصور أنها قادرة على تزوير حتى الساعة التي يُفتح فيها الباب.

➢ هذه الورقة الثالثة تُمهّد لما بعدها. ففي الورقة الرابعة، سأترك القاعة والرموز، وأركب قطار الأمل، لأروي كيف التقيت بالناس في الشوارع والميادين، وكيف ارتبك النظام من مشهد الحشود. هناك سأكتب عن الدعاية الانتخابية، ومؤتمرات المحافظات، وعن المنصة التي

هاجموها في المحلة، وعن الميدان الذي شهد الحلم في التحرير، لتكتمل فصول حكاية أول انتخابات رئاسية في تاريخ مصر.



ورقة من مذكّراتي (٤)

٢٠ عامًا على أول انتخابات رئاسية
قطار الأمل... واغتيال أبي..
وسقوط النظام قبل المنصات

❁ من فضلكم شاهدو الفيديوهات المرفقة أولا فهي تلخيص لما ورد مفصلًا في هذه السطور بالورقة الرابعة من سباعية سبتمبر الذي لا ينتهي، فالذاكرة ما زالت تسكنها الأصوات والهتافات، والوجوه التي كانت تفتح أبوابها وقلوبها كلما توقّف بنا قطار الأمل. أكتبها وعيني على وجوهٍ صافية خرجت من بين الحقول والمصانع، وعلى وجه أبي الذي اغتاله خبر كاذب على شريط تلفزيوني، دون أن يطلقوا رصاصة، ودون أن يرفّ لهم جفن.

❁ في سبتمبر ٢٠٠٥ لم تكن الحملة الانتخابية مجرد جولات انتخابية، بل كانت سفرًا طويلًا على قطار من الحلم. قطار يتحرك من محطة إلى أخرى، لا يحملني وحدي، بل يحمل كل من ركب معي حلم التغيير.

❁ لم يكن معي مال الدولة ولا إعلامها، ولم تكن خلفي جيوش الموظفين، بل كانت أمامي الجماهير البسيطة: شباب يركضون بجوار

السيارة، نساء يلوحن من الشرفات، عمال يوقفون آلاتهم ليهتفوا، وطلاب يكتبون اسمي على الجدران كأنهم يكتبون وعدًا جديدًا لمصر.

❁ كان عمري أربعين عامًا وبضع شهور. خلعت ربطة العنق، وتركت البدلة الرسمية، واخترت أن أظهر بينهم في هيئة أقرب للشباب. كانت رسالة تقول إنني ابن هذا الجيل. لكن مبارك، الذي أوشك على الثمانين، حاول أن يقلّد التجربة نفسها. بدا مشهدًا مرتبكًا، فرجل من الماضي لا يمكن أن تطليه الألوان بلون المستقبل.

❁ خلال ١٨ يومًا فقط زرت قرابة عشرين محافظة، ومررت على مئات القرى والمراكز. لم تعرف عيناي النوم. كنت أتنقل بين الناس ليلًا ونهارًا، فيما حملات مبارك وبقية المرشحين التسعة الآخرين لم تملك تلك اللياقة البدنية والسياسية التي امتازت بها حملتي بفضل الله، وبتوفيق رفاقي.

❁ أذكر منهم ناجي الغطريفي، السفير ومساعد وزير الخارجية الأسبق، ووائل نواره، سكرتير عام الحزب، وهشام قاسم، الصحفي والناشر، وإيهاب الخولي، وجميله اسماعيل والدكتورة منى مكرم عبيد، وأيمن بركات، وآخرين كُثر.

❁ في الإسكندرية كان لي سندٌ في المهندس سيد بسيوني ونجلاء فوزي وشاهيناز النجار، وفي البحيرة كان بريق الأسماء: أحمد ميلاد وبلال حبيب، والتيتي وفي أسوان والنوبة: النائب محمد العمدة، والأستاذ أحمد كاجوج، وهاني يوسف، وعبدالصبور عبدالصبور ومئات الوجوه المنيرة في كوم امبو وبأنه ونصر النوبه.

❁ ومن إذاعة الغد الإعلامية الكبيرة الراحلة ملك إسماعيل ومحمدقطب ومحمدعبدالحي وأحمدبدوي ومن جريدة الغد هيثم الغيتاوي وعلي الفيل وحسام حسام الدين شحاته

❁ ولا أنسى مؤتمر باب الشعرية والذي شرفه بالحضور النائب الشجاع الراحل طلعت السادات وعلى ذكر باب الشعرية كان هناك فريال وانشراح والسحرتي والحاجة ناهد وغيرهم الكثيرين

وهناك أيضًا المهندس المحترم مازن مصطفى واسرته، وكذلك وليدرياض ومحمودموسى

❁ في أسيوط ومنفلوط كان النائب عبدالمنعم التونسي، وفي بورسعيد ارتفعت أصوات الشباب: حسام علي، محمد إيهاب، وفي السويس لم يغِب أبطالها: النائب طلعت خليل، والدكتورة عزة داوود، والشيخ حافظ سلامة الذي رافقني إلى الأزهر الشريف، إلى جوار مفتي الديار المصرية الدكتور نصر فريد واصل.

❁ كانت المؤتمرات مفعمة بالروح، لكن الشوارع نفسها صارت منصة أوسع. الأسواق، الحقول، محطات القطار... كلها كانت مسارح للحرية. كنت أشعر أن صوت الناس أقوى من مكبرات الصوت.

❁ النظام كان يراقب، ووجه مبارك لم يعد يخفي قلقه. أدرك أن المنافسة خرجت من شاشات التلفزيون إلى الشوارع، وأن اللعبة لم تعد أرقامًا على ورق.

❁ الأمن حاول أن يوقف قطار الأمل. لاحقنا، أغلق القاعات، قطع الكهرباء عن مكبرات الصوت. لكن الناس كانوا هم الميكروفون الحقيقي. كل كلمة مني كانت تولد عشرات الهتافات منهم.

❁ في المحلة، كنت على المنصة وإلى جواري عبدالفتاح الشافعي وأحمد غنيم. آلاف العمال أمامنا، حين حاولوا إسقاط المنصة فوقنا. لكن المنصة لم تسقط. بل ارتفعت معها الأصوات. كان سقوطًا مدويًا للنظام، نقلته شاشات العالم، وعلّق عليه محمد حسنين هيكل.

❁ في نبروه، مسقط روحي، كان المشهد أعظم من الكلمات. في

الإسكندرية مسقط رأسي، في دمنهور وكوم أمبو ومنفلوط والمنيا وبورسعيد والسويس وباب الشعرية والموسكي ـ دائرتي ـ كل مؤتمر كان شهادة جديدة أن مصر ليست ساكنة، بل تتحرك.

❁ في التحرير، الذي نجح هشام قاسم في انتزاع موافقة لإقامته، رأيت مصر كلها في ميدان واحد. لم يكن الميدان يملؤه الحديد ولا الجنود، بل الأمل. هناك قلت: «سنعود يومًا لهذا الميدان لنحتفل بالحرية.» وبعد خمس سنوات عدت إليه فعلًا، في ثورة يناير، لأقف على ذات المنصة ونحن نحتفل بسقوط الرئيس نفسه. كانت نبوءة وتحولت إلى حقيقة.

❁ الدعاية الرسمية وصفتنا بالمغامرين. لكن المغامرة الحقيقية كانت أن نصمت، أن نترك مصر لعقود أخرى من الركود والتوريث.

❁ ولضيق الوقت، استأجرنا قطارًا أسميته قطار الأمل والتغيير. في كل محطة كان القطار يتوقف عندها، كنا نعقد مؤتمرات خاطفة يحضرها الآلاف. كان القطار يترك خلفه أثرًا لا يُمحى: أيادٍ تصافحني، دموع تسيل على وجهي، طفل يرفع لافتة أكبر من قامته.

❁ لم تكن الحملة أرقامًا في دفاتر، بل دمًا يجري في عروق وطن. لم يكن المؤيدون مجرد ناخبين، بل شهودًا على لحظة تحول.

❁ في عيون النساء رأيت القوة، في هتافات الشباب رأيت الجرأة، وفي وجوه الفقراء رأيت الحلم بأن العدالة ليست كلمة في الكتب، بل حق يُنتزع على الأرض.

❁ السلطة فزعت من كل صورة التقطتها عدسة صحفي، من كل مقال في صحيفة عربية أو أجنبية، من كل هتاف خرج عن النصوص المقررة.

❁ حاولوا تشويه صورتي: في المحافظات ذات الكثافة السكانية القبطية فقالوا إني متطرف إسلامي، وفي المحافظات سلفية الهوي قالوا إنني من أصول مسيحية.!

قالوا في عموم البلاد إنني مبعوث أمريكا، وإنني أحمل جنسيتها، رغم أنني لم أزرها يومًا .!

❁ لكن الكذبة التي قتلت كانت ما بثه وزير إعلام الأسرة الحاكمة، لا سامحه الله أنس الفقي على شاشة القناة الأولى: خبر كاذب عن القبض علي في قضية رشوة !. وحين قرأ والدي هذا الخبر، سقط قلبه قبل جسده، ودخل المستشفى. لم تمض أيام حتى رحل. لقد اغتالوه بالكذب، لا بالرصاص.

أتصلت يوم اذاعه الخبر بالوزير أنس الفقى فكان وقحا لأقصى درجة عندما قال انه يعلم أن الخبر كاذب. وقال سنحذفه لاحقًا من شريط الاخبار لكنه لم يفعل.

❁ عرفت يومها أن الإعلام حين يفقد ضميره يصبح قاتلًا، وأن الكلمة قد تقتل كما يقتل الرصاص.

❁ ❁ هذا الانس هو أيضًا من حصل على قيمة إعلان عن حملتي بصوت اسامه منير وغناء محمد منير وألحان هاني شنوده ورفض اذاعه الإعلان أو رد قيمته !

❁ ومع ذلك، ظل قلبي مملوءًا بإيمان الناس. تعلمت أن المنصات ليست خشبًا يُقام، بل قلوب تُفتح. وأن الانتخابات ليست سباق أسماء، بل مواجهة بين الخوف والأمل.

❁ كانت ١٨ يومًا فقط هي مدة الدعاية الرسمية، لكنها كانت بعمر سنوات. كتبت فصلًا جديدًا في كتاب مصر.

❁ لم تكن المؤتمرات خطبًا ألقيها، بل رسائل يكتبها الناس في عيونهم. لم أكن أخاطبهم بقدر ما كانوا يخاطبونني: اثبت. . . نحن معك.

❁ تلك الحملة لم تكن مجرد خطوة انتخابية؛ كانت صحوة وطنية. كانت إعلانًا أن مصر ليست رهينة الأرقام الرسمية، بل تملك روحًا لا تُزوَّر.

❁ واليوم، بعد عشرين عامًا، ما زلت أسمع هتاف المحلة، وأرى ميدان التحرير، وأشعر بارتباك السلطة، كأن اللحظة لم تمر، بل لا تزال حاضرة.

❁ هذه الورقة الرابعة ليست عن المؤتمرات فقط، بل عن الأمل حين يتجسد قطارًا يمضي، وعن الأب الحنون الذي اغتاله الإعلام بلا دم ولا ضمير.

❁ وفي الخاتمة: في الورقة الخامسة، سأترك صخب المؤتمرات، وأدخل إلى صمت الزنازين، حيث تحوّلت أصوات الناس في الخارج إلى جدران وسلاسل في الداخل. هناك تبدأ الحكاية من جديد، مع زنازين ما بعد الصندوق، في سباعية سبتمبر الذي لا ينتهي.



ورقة من مذكّراتي (٥)

٢٠ عامًا على أول انتخابات رئاسية
لم أهزم مبارك... ولم يهزمني
رئيس لجنة الانتخابات أقسم بالطلاق
أنه لن يعطيني ٥٠٪ في الإسكندرية

❋ أكتب هذه الورقة الخامسة بعد عشرين عامًا كاملة، وما زالت الذاكرة مثقلةً برائحة الأوراق الممهورة بخاتم النسر، وبدهشةٍ أصابتني حين أدركت أن الحقيقة قد تُسجن كما يُسجن صاحبها، وأن الأرقام حين تُغيَّر تتحول إلى قيود لا تُرى.

❋ كنت في طريقي إلى مقر اللجنة العليا للانتخابات، أبحث عن سر تأخر إعلان النتائج، حين التقيت بالصحفي القدير، والزميل العزيز ثروت شلبي. حيّاني بابتسامة عابرة، ثم دسّ في جيبي لفافة أوراق دون أن ينطق بكلمة، كمن يسلم وصيةً في جنازة.

❋ لم ألتفت في البداية، حتى مددت يدي إلى جيبي، فإذا بي أمسك بلفافةٍ أثقل من حجمي. فتحتها وأنا في الطريق إلى اللجنة، فإذا هي نتائج الإسكندرية، وصلته عبر فاكس من المستشار الشريف هشام البسطويسي، تحمل أرقام اللجان الفرعية لجنةً لجنة، مختومةً بخاتم النسر.

❋ هناك، على صفحات رسمية، وجدت نفسي الأول بنسبة ٦٣٪ وبضع كسور. كانت لحظةً كفيلة بأن تخلخل أركان يقيني كله: فها هي الأوراق الرسمية تنطق بما لا يجرؤ التلفزيون على قوله.

❋ وصلت إلى مقر اللجنة العليا، حيث استقبلني المستشار حاتم بجاتو وأدخلني غرفة رئيس اللجنة المستشار ممدوح مرعي. كان الرجل متوترًا، أزرار سترته تنطق بما في صدره من ارتباك. سألته عن موعد إعلان النتائج، فقال: «بعض المحافظات لم تصل بعد.» سألته مباشرة عن الإسكندرية، فقال: «حققت نتائج كبيرة... تجاوزت ٣٦٪ بقليل.»

❋ أخرجت الأوراق من جيبي، وضعتها أمامه، وقلت بهدوء مشوب بالذهول: «الرقم انقلب، النتيجة الحقيقية ٦٣٪، لا ٣٦%»

❋ عندها خرج مرعي عن وقاره، وصاح بحدة غريبة: «عليّ الطلاق بالثلاثة ما هتاخد أكتر من ٥٠٪ في العاصمة الثانية.»

❋ أدهشني رد فعله، حتى خرجت عن هدوئي، فقلت ساخرًا ومريرًا: «هذه ليست انتخابات... كأننا نبيع طماطم في سوق الخضار!» ارتفعت الأصوات في الغرفة، فدخل حاتم بجاتو يحاول تهدئة العاصفة.

❋ قال مرعي بعدها بصوتٍ منهك: «إحنا مش عارفين نبلّغه النتيجة. كل ما أبلّغ حد، يقول لي: ماليش دعوة... بلّغه إنت.»

❋ سألته مباشرة: «هل هناك إعادة؟» قال: «لا طبعًا.» قلت: «هل سقط مبارك؟» رد ساخرًا: «لا طبعًا.» قلت: «إذن لماذا لم تُعلنها؟

«أجاب: «٢٣٪ رقم مزعج في الانتخابات القادمة... فتقبّل النتيجة، ولا تطعن عليها.»

❋ كنت قد تقدمت بالفعل بعدة طعون، أضفت إليها طعني على نتيجة الإسكندرية..

❋ بعد أيام قليلة، جاء مبارك إلى البرلمان ليقسم اليمين، وبجواره العقيد معمر القذافي. كنت حاضرًا الجلسة بصفتي نائبا. رأيت الحرس الجمهوري بملابس مدنية يحيطون بي من كل جانب، كأنني المتهم لا الشاهد.

❋ حين دخل مبارك والقذافي، وقف الجميع وصفقوا. لم أقف، ولم أصفق. انتبه القذافي لوجودي، ولوّح لي بتحية أربكتني. خشيت إن رددتها أن تُفهم انها للرئيس الجالس إلي جواره، فيُقال: «أيمن نور حيّا مبارك!» جلست متجمّد الملامح، أقاوم ارتجاف قلبي، كتمثال لا يبتسم ولا يقطّب.

❋ لم تمر سوى أيام، حتى عدت للمرة الخامسة إلى سجون طرة، لكن هذه المرة لأقضي أطول فترة اعتقال في حياتي: خمس سنوات كاملة.

❋ كان دخولي السجن هذه المرة مختلفًا. لم يكن عقابًا على كلمة، بل كان اعتقالًا للحقيقة نفسها. الحقيقة التي حملتها أوراق الإسكندرية، والتي فزعت منها اللجنة، فحوّلتها من شهادة نزاهة إلى تهمة ضدي.

❋ في ديسمبر ٢٠٠٦، وأنا في سجني، فوجئت باستدعاء إلى محكمة الجلاء. كنت أظنها جلسة عادية، فإذا بي أمام قضية تتهمني بـ«الاستيلاء على أوراق حكومية أميرية»! كانت الأوراق المقصودة هي نفسها أوراق نتائج الإسكندرية التي وصلتني من ثروت شلبي.

❋ طلبت من القاضي أن يُثبت أصل هذه الأوراق في المحضر. كان قصدي أن تظل الحقيقة مكتوبة لا تُمحى. أدرك القاضي هدفي، فأصدر حكمًا بالبراءة فورًا، من دون مداولة، حتى لا يُثبت الأصل في المحضر.

❋ خرجت من القاعة بريئًا في القانون، لكن الحقيقة بقيت حبيسةً في الأدراج. منذ ذلك اليوم، والسؤال يطاردني: هل هزمت مبارك لولا التزوير؟ لا أستطيع أن أجزم. وهل هزمني هو؟ لا أستطيع أن أقولها أيضًا.

❋ الحقيقة أنني، منذ ٧ سبتمبر ٢٠٠٥ وحتى ٥ سبتمبر ٢٠٢٥، لا أعرف النتيجة الحقيقية. بين ٦٣٪ و٣٦٪ ضاعت الحقيقة، كما يضيع الصوت في ضجيج القاعات.

❋ ما أعرفه فقط أنني حللت ثانيًا بين عشرة مرشحين، وأن حزب الغد، الذي لم يتجاوز عمره شهورًا، صار زعامة معارضة تخشاها الدولة.

❋ ما جرى لم يكن معركة بيني وبين رجل يجلس على الكرسي، بل معركة بين شعبٍ وصندوقٍ لم ينطق بما وُضع فيه.

❋ واليوم، بعد عشرين عامًا، أكتب هذه الورقة الخامسة لا لأعلن نصرًا ولا هزيمة، بل لأعلن أن الحقيقة ما زالت معتقلة، وأن صوت الناس لم يُفرج عنه بعد.

❋ وفي الورقة السادسة، سأغادر ضجيج الأرقام وأدخل صمت الزنازين، حيث تُطفأ الأضواء، وتُغلق الأبواب، ويبقى الإنسان مع صوته الداخلي. هناك سأكتب عن زنازين ما بعد الصندوق، حيث تبدأ فصول أخرى من سبتمبر الذي لا ينتهي.

ورقة من مذكّراتي (٦)

٢٠ عامًا على أول انتخابات رئاسية حين صار الوصيف سجينًا، والشاهد قتيلًا، والحقيقة أسيرة

⊙ أكتب هذه الورقة كما يكتب شاعر على جدار مهدّم، أو كما يصرخ طائر مذبوح قبل أن يسقط صامتًا.

إنها ليست فقط حكاية وصيف انتخابات تحوّل إلى سجين، بل هي سيرة بلد كامل حاول أن يخرج من جلباب الفرعون، فحاصرته الغرفة السوداء، وأغلقوا عليه الأبواب، وأطفأوا الأنوار، وتركوه مع ظله وذاكرته.

⊙ أكتب هذه الورقة عن زمنٍ نافستُ فيه أنصاف الآلهة،

وأنا أعرف أنهم لا يوزّعون مقاعد في الجنّة، بل يشعلون النار في أجساد خصومهم.

ومع ذلك، كانت النار التي أضرموها حولي تضيء الطريق، وتفضح الظلام.

⊙ أكتب عن رجل بسيط اسمه أيمن إسماعيل، لا يعرف القراءة والكتابة، قُتل لأن الحقيقة خرجت من بين شفتيه، فأرادوا أن يُسكتوها للأبد. وأكتب عن قاضٍ، وعن نظام، وعن عائلة كانت تفور غضبًا كلما

ذُكر اسمي، حتى سجنتني خمس سنوات بقرارٍ لم يكتبه القاضي بل وقعه بعد ان كتبه الرئيس.

⊙ لم تكن معركة ٧ سبتمبر ٢٠٠٥ معركةً عادية بين مرشح ورئيس، بل كانت معركةً بين الثورة قبل الثورة، وبين مشروع التوريث الذي أعدّوه في الغرف المظلمة.

⊙ كنت أعرف أنني أضع رأسي على يدي اليمنى، وحريتي على يدي اليسرى. أعرف أني لا أدخل انتخابات، بل أدخل امتحانًا وجوديًا، ثمنه الحرية أو السجن. أو الحياة كلها.

⊙ لم يكن خصمي مبارك وحده، بل كانت الغرفة السوداء، التي تتصدرها وتقودها السيدة سوزان مبارك، التي كانت تُدير مشهدًا عينها فيه على نجلها الأصغر (الوريث)

جمال مبارك. وكان همّها الحقيقي أن يمنعوني من أن أكون الرقم الصعب أمام جمال، إذا غاب الأب.

⊙ وقد قالها وزير خارجية مبارك نفسه، أحمد أبو الغيط، في مذكراته: «اعتقال أيمن نور كان لمنع منافسة جمال.» !شهادة خرجت من قلب النظام، كدمعة من عينٍ حجبتها سنين.

⊙ كانت الطعنة الأقسى حين اكتشفت أن بعض رموز المعارضة، بدل أن تكون سندًا، اتهمتني أنني جزء من صفقة. تلك التهمة الساذجة المتكررة.

وعندما انكشف زيف ظنهم، لم يملكوا شجاعة الاعتذار، بل صمتوا، ظنًا أنهم يشترون بهذا الصمت فتاتًا من موائد السلطة. في الانتخابات التشريعية اللاحقة

⊙ لكن الحقيقة كانت أقوى: المعركة جرت فعلًا، وصداها ظل يتردد في كل شارع وميدان. كنتُ في مواجهة مبارك الأب، لكن عيني

كانت ايضًا، على الابن، وعلى المستقبل الذي خططوا له ليكون بلا بدائل.

⊙ أخرجوا نعمان جمعة من الجب إلى الحلبة ليكون وصيفًا صوريًا، أنفق الملايين على وعدٍ أن يحل ثانيًا، لكنه خرج ثالثًا مهزومًا، بل ممزقًا.

⊙ أما أنا، فكان مساري وقدري هو السجون والتشويه، المحاكمات، والإشاعات.

لم يتركوا سلاحًا محرّمًا إلا استخدموه، من حملات التشويه الأخلاقي، إلى قضايا ملفقة، إلى ابتزاز إعلامي وسياسي.

⊙ المحاكمة الزائفة كانت أقذر الأسلحة.

تهمة «تزوير توكيلات حزب الغد» وُلدت ميتة، لكنها صُممت لتشغلني عن الحملة. جلسات صباحية في المحاكم، تحولت إلى مؤتمرات انتخابية جماهيرية، ثم مؤتمرات مسائية في المحافظات.

⊙ كانوا يظنون أن القفص سيكسرني، فإذا بالناس يروننني رمزًا لا متهمًا، ويرفعونني على أكتافهم من بوابة المحكمة إلى منصات الأمل.

⊙ في جلسة، بغرفة المداولة، قال لي القاضي عادل عبدالسلام جمعة، رئيس الدائرة: «ارفع عنا الحرج... مكالمة واحدة، وتعهد بسيط، ونغلق الملف.»

كان العرض واضحًا: حرّيتك مقابل صمتك.

⊙ جاءني العرض نفسه من محمود وجدي، رئيس مصلحة السجون، الذي زارني في زنزانتي. وجاءني في رسائل من كمال الشاذلي وصفوت الشريف وفتحي سرور. كانوا يريدونني زعيمًا للمعارضة على الورق، لكن خارج المعادلة الحقيقية.

⊙ لكنني اخترت الأصعب: أن أبقى حرًا في داخلي، حتى ولو

كنت أسيرًا في زنزانة. أن أخسر مقعدًا، ولا أخسر المعنى.

⊙ وهنا يظهر اسم أيمن إسماعيل الرفاعي. رجل لا يعرف القراءة ولا الكتابة، دفعوه ليعترف أنه زوّر التوكيلات بخطه، وبأوامري.

⊙ تحت تهديد اختطاف بنات شقيقته، قال ما أرادوا. لكن النيابة استكتبته، فاكتشفوا أنه أمّي لا يجيد الكتابة أصلًا.

⊙ في المحكمة أعلن الحقيقة: أنه لم يعرفني يومًا، وأن الضابط عادل ياسين عذبه ليوقّع على محضر مزيف. عندها ارتبك القاضي عادل عبدالسلام جمعة، وأوقف الجلسة. أرسل أيمن إلى سجن الاستئناف ليستمعوا إليه لاحقًا.

⊙ لكنهم لم يستمعوا إليه. في اليوم التالي جاء الخبر: أيمن إسماعيل «مشنوقًا» في زنزانته.

⊙ اللواء الطبيب طارق منير كتب أن الوفاة ليست شنقًا بل خنقًا. الزرقة في ظهره، والكسر في غضروف حنجرته. لكن العقيد الطبيب أيمن خليل كتب التقرير كما أرادوا، بعد مكالمة من اللواء عمر الفرماوي.

⊙ هكذا أُسكت الشاهد الوحيد، ودفنت الحقيقة معه.

⊙ لم يكن مبارك وحده من غضب. كانت العائلة كلها تفور. وقد قالت هيلاري كلينتون في مذكراتها: «مبارك كان يفور غضبًا كلما سمع اسم أيمن نور.»

⊙ الغضب لم يكن سياسيًا، بل كان شهوة انتقام. رغبة في القتل لا في الجدال، في الدفن لا في الحوار.

⊙ من وصيف انتخابات رئاسية، أصبحت سجينًا بعد ايام

(خمس سنوات) في طرة. لم يكن الحكم صادرًا من القاضي، بل من الرئيس.

⊙ لكن كما «حين تُكسر الزهرة، يفوح عطرها أكثر.» في الزنزانة، لم يمت الأمل، بل اشتد عبيره.

⊙ كنت أكتب على جدران الزنزانة بذاكرتي، كمن يكتب على الهواء. أقول لنفسي: إنهم حبسوا جسدك، لكنهم لم يحبسوا حُلمك.

⊙ واليوم، بعد عشرين عامًا، أستطيع أن أقول: لم أهزم مبارك، لكنه أيضًا لم يهزمني.

⊙ لم يهزمني لأنني خرجت من السجن حيًّا، والفكرة ما زالت حية.

ولم أهزمه لأنه مات ومازال ظله في يده السلطة،

لكن السلطة لم تمحُ أثر الحلم.

⊙ منافسة أنصاف الآلهة قد تقودك إلى الزنزانة، لكن الزنازين لا تقتل الفكرة.

⊙ ⊙ وفي الورقة السابعة، والأخيرة، سأكتب عن الثلاثية التي وسمت عشرين عامًا من حياتي:

السجن،

ثم الثورة،

ثم المنفى.

ثلاثية العذاب والرجاء، التجربة والمرارة، الصبر واليقين، ليظل سبتمبر شاهدًا أن الطريق إلى الحرية قد يطول، لكنه لا ينتهي

ورقة من مذكراتي (٧)

٢٠ عامًا على أول انتخابات رئاسية ثلاثية السجن، الثورة، والمنفى

⊙ أكتب هذه الورقة السابعة والأخيرة كمن يضع النقطة في نهاية جملة طويلة، جملة استغرقت مني عشرين عامًا من العمر، وعشرين عامًا من النزيف والانتظار. لا أكتب خاتمة بقدر ما أكتب مفتتحًا جديدًا، لأن سبتمبر لم يكن يومًا مجرد فصل، بل كان كتابًا مفتوحًا لا يُغلق.

⊙ عشرون عامًا مرّت، حملتني بين جدران السجون، ووسط هدير الميادين، وبرد المنافي. ثلاثية كاملة: السجن... الثورة... المنفى. ثلاثية علّمتني أن الحرية ليست هدية من حاكم، بل حق ينتزع، وأن الديمقراطية ليست قرارًا فوقيًّا، بل معركة تُخاض.

⊙ في السجن، تعلمت أن القيد لا يحبس الفكرة، وأن الجدران التي يظنها المستبد سجنًا للآخرين، إنما تتحول إلى مرآة يرى فيها نفسه عاريًا من شرعية.

⊙ في الثورة، رأيت بأم عيني كيف يهتز العرش حين تهتز القلوب في ميدان التحرير. كيف يهتف الناس بأجسادهم قبل حناجرهم أن زمن الخوف انتهى، وأن الفرعون لم يعد نصف إله، بل إنسان يسقط مع أول هتاف صادق.

⊙ في المنفى، تعلمت أن الغربة ليست مكانًا بعيدًا، بل مسافة داخلية بينك وبين وطنك. وأن الجسد يمكن أن يُنفى، لكن الصوت لا يُنفى، وأن الكلمة تستطيع أن تعبر البحار، وأن تعيش في ذاكرة الناس أطول مما تعيش في جسد قائلها.

⊙ كنا نظن أن أول انتخابات رئاسية في مصر ستكون ميلادًا جديدًا، فإذا بها تتحول إلى سرادق عزاء للديمقراطية. دفنوا فيها الحلم، كما دفنوا الشاهد أيمن إسماعيل حين قرر أن يقول الحقيقة.

⊙ لم يكن اعتقالي عقوبة على جريمة، بل كان اعتقالًا للحقيقة نفسها. الحقيقة التي لم يحتملوها. كنت وصيف الانتخابات، فحوّلوني إلى سجين، ليقولوا للشعب: لا بديل عن مبارك الأب إلا مبارك الابن.

⊙ لكن ما لم يدركوه أن السجن، بدل أن يقتل الفكرة، جعلها أعمق. كما قال نزار قباني: حين تُكسر الزهرة، يفوح عطرها أكثر.

⊙ وفي الثورة، عاد العطر يفوح. عدت إلى الميدان الذي تنبأت به في حملتي عام ٢٠٠٥، وقلت إننا سنعود إلى ميدان الحرية لنحتفل بالحرية. وعدت فعلًا، في يناير ٢٠١١، لأشهد السقوط الذي تأخر، لكن لم يُلغَ.

⊙ لم تكن الثورة يومًا واحدًا، بل كانت استكمالًا لمسار بدأ منذ ٢٠٠٤ مع حركة كفاية، وقرار حزب الغد بخوض الانتخابات الرئاسية. كانت الثورة جنينًا حملناه منذ تلك اللحظة، وولد بعد ست سنوات.

⊙ من يتهمنا اليوم أننا فرطنا في الحرية، لا يعرف الثمن الذي دفعناه. نحن لم نفرط، نحن تمسكنا بما لا يعرفون التمسك به، ورفضنا المقايضة على ما لا يُباع.

⊙ نحن الذين كنا رمز الشجاعة حين لجأ الجميع إلى «الحكمة» التي كانت أقرب إلى الخوف أو المواربة. ونحن الذين كنا رمز الحكمة الحقيقية

بعد الثورة، حين تحوّل الكثيرون إلى مزايدين بلا ثمن، يقامرون بمصير وطن.

⊙ في السجن، جاءني العرض تلو العرض: حرّيتك مقابل صمتك. كنت أرفض، لأن الحرية إذا لم تكن كاملة فهي ليست حرية.

⊙ في الثورة، جاءني الأمل الذي كافأني على الصبر. رأيت أن التضحية لم تذهب سدى، وأن الدماء التي سالت لم تُهدر، وأن الخوف يمكن أن يسقط في ليلة واحدة إذا اجتمع الناس على كلمة.

⊙ في المنفى، دفعت ثمنًا آخر. أن تكون بعيدًا عن ترابك، أن تشتاق لرائحة شارعك، أن تُحرم من دفن أبيك وأمك، أن تظل غريبًا عن مكانك، لكنك قريب من قضيتك.

⊙ هذه الثلاثية لم تكن خيارًا، بل قَدَرًا. لكنها علمتني أن الإنسان الذي ينجو من السجن، ويشارك في الثورة، ويصمد في المنفى، لا يعود كما كان، بل يعود أكثر صلابةً وأكثر إيمانًا.

⊙ عشرون عامًا، لم تهزم الحلم. عشرون عامًا، لم تُسكت الصوت. عشرون عامًا، جعلتني أؤمن أن الشعوب قد تتعثر، لكنها لا تموت.

⊙ لا أستطيع أن أقول إنني هزمت مبارك، ولا أن أقول إنه هزمني. لكنني أستطيع أن أقول: لقد هزمنا جميعًا فكرة أن الاستبداد أبدي.

⊙ سبتمبر كان شاهدًا على كل ذلك: من زنزانة طرة، إلى منصات التحرير، إلى برد المنافي. سبتمبر الذي لم ينتهِ، لأنه لم يكن مجرد شهر، بل كان امتحانًا متجددًا للروح.

⊙ كتبت هذه السباعية لأقول: لم تكن معركتنا مجرد انتخابات، بل كانت ثورة قبل الثورة. لم تكن هزيمتنا مجرد سجن، بل كانت شهادة ميلاد لفكرة. لم يكن منفانا مجرد اغتراب، بل كان جسرًا لصوتٍ أبعد من حدود الأرض.

⊙ هذه السباعية ليست حكاية فرد، بل شهادة وطن. شهادة أن الحرية قد تُسجن، لكن لا تُقتل. أن الثورة قد تُسرق، لكنها لا تُمحى. أن المنفى قد يطول، لكنه لا يُنسيك الطريق.

⊙ وحين يقرأ الناس هذه الأوراق بعد عشرين عامًا، لعلهم يدركون أن سبتمبر لم ينتهِ، وأنه ما زال يطرق أبوابنا كل عام، يسألنا: هل أنتم مستعدون لتجربة أخرى؟ هل أنتم مستعدون لحلم جديد؟

⊙ وختامًا، أقول كما قال نزار قباني: «إنني مؤمن أن في داخل كل إنسان ثائرًا نائمًا، قد يفيق يومًا، فيغيّر وجه التاريخ.»

⊙ هذه هي الورقة السابعة، الورقة الأخيرة، لكنها أيضًا الورقة الأولى في كتاب آخر لم يُكتب بعد... كتاب الحرية القادم، الذي لن يُختم حتى تنتهي حكاية الاستبداد من أرضنا إلى الأبد.

سلسلة مقالات
أوراق من سجني

أوراق من سجني (١)

ميلاد الكلمة في العتمة

البدايات دائمًا تشبه النهايات، لكن تلك البداية التي حملتني إلى السجن، لم تكن تشبه أي بدايةٍ عرفتها من قبل. كنت قد خرجت من معركةٍ انتخابية صاخبة، كنتُ فيها ثانيا في وطنٍ لا يحتمل إلا رجلًا واحدا.

وبعد أيامٍ قليلة، من حولي وصيفا حللت سجينا..

دخلت صمتي الطويل في زنزانةٍ ضيّقة، أضيق من صدر البلاد، وأرحب من ضمير النظام.

كنت في على مشارف الأربعين، حين أُغلِق الباب خلفي، وانطفأت الأضواء، وبقي في الغرفة ضوءٌ وحيد يخرج من داخلي.

في سجون طرة العتيقة، تنتهي الأصوات وتبدأ الهمسات، الإنسان لا يُقاس بموقعه في الخارج، بل بمساحته المسموح بها في الداخل.

في كل اعتقال دخلته، الليالي الأولى، لم يكن النوم يزورني، ولا النسيان.

كنت أسمع صرير الأبواب كأنها تنهيدة حديدٍ متعبة، وأرى الجدران تُصغي إليّ حين أهمس لنفسي.

كنت أحاول أن أكتب، لا لأصف ما يحدث، بل لأشرحه لنفسي

بنفسي. كنت أبحث عن معنى للهزيمة التي تشبه النصر،

وللانتصار الذي جاء معه قيدٍ.

شيئًا فشيئًا، بدأت أكتشف أن الكتابة ليست وسيلة لقضاء الوقت، بل وسيلة للبقاء.

كانت الحروف تنقذني من الغرق في الصمت، وتعيدني إلى نفسي حين أكاد أفقدها.

كنت أكتب على أي شيء: على الجدران، على ظهر الأوراق القديمة، على أغلفة الطعام وعلب السجائر.

كنت أكتب كمن يزرع الورد في تربةٍ من الإسمنت.

كل جملة كنت أُنجزها كانت نَفَسًا جديدًا في رئتيّ. كنت أستعيد عبرها قدرتي على الحلم، وعلى الغضب، وعلى الغفران. كانت الكتابة تُطهّرني من العتمة، وتُعيد ترتيب فوضاي. في كل سطرٍ كنت أضع قطعةً من روحي، وأقول لنفسي: «لن يقدروا أن يسجنوا الحلم ما دام قادرًا على الكتابة.»

أدركت هناك أن السجن ليس جدرانًا تُقيّدك، بل لحظة صدقٍ تُصدمك. ففي الصمت الطويل تبدأ الحكايات بالظهور، وتتعلم أن الحُرّية

لا تحتاج إلى بابٍ مفتوح، بل إلى وطن مفتوح. تعلمت أن الإنسان الذي لم يجرّب القيد، لا يعرف طعم وقيمه الحرية في وطن يستحق أن يكون حرًا.

ومع مرور الأيام، صار الألم أليَفًا،

والليل صديقًا،

والكلمة وطنًا بديلًا.

في السجن، تتعلم أن الأوطان ليست خرائط، بل لحظات صدقٍ مع

نفسك. وأن الحرية ليست في الجسد، بل في القدرة على الحلم رغم السجن.

خرجت بعد أربع سنواتٍ ونيف من الغياب، لكن شيئًا مني بقي هناك،

ككتابٍ نُسي على الرف،

أو شمعةٍ ما زالت تحترق في العتمة.

لم أخرج كما دخلت.

المفارقة اني خرجت أبطأ في الغضب،

أعمق في الفهم،

أقرب إلى الإنسان الذي كنت أبحث عنه منذ البداية.

حين أعود إلى تلك الأيام، لا أراها جرحًا،

بل ميلادًا.

فهناك، في قلب العتمة،

وُلدت الكلمة التي أنقذتني

، وولدتُ أنا من جديد. وما زلتُ أؤمن أن السجن لا يقتل الأحرار،

بل يختبر صدقهم،

وأن الكلمة ـ إن كُتبت في الظلمة ـ

تضيء لك عمرًا بأكمله.

أوراق من سجني (٢)

الكتابة بين القضبان

❁ ما كنتُ أظنّ يومًا أنّ القلم يمكن أن يُصبح تهمة، ولا أن الورقة قد تُعامل كخطرٍ أمنيّ. لكن في السجن، كل ما يربطك بالحياة يصبح موضع ريبة، وكل ما يمنحك الأمل يُدرَج في قائمة الممنوعات.

❁ في الأيام الأولى كنت أكتب كمن يتنفّس، أهرب من جدرانٍ تضيق بي إلى كلماتٍ تحتويني. لم تكن الكتابة ترفًا ولا تسلية، بل كانت شكلًا من أشكال البقاء، وشهادة على أن الروح لا تُكسر مهما ضاق الجسد.

❁ بعد ثلاثة أشهر من اعتقالي، زارني اللواء محمود وجدي، وكان وقتها رئيسًا لمصلحة السجون، وصديقًا قديمًا منذ أن كان يتولى رئاسة مباحث العاصمة، حين كنت نائبًا عن وسط القاهرة. جمعتنا سنوات من التفاهم والمواقف الإنسانية في باب الشعرية والموسكي وغيرها من أقسام الشرطة التي كانت تموج بالمشكلات.

❁ تصوّرتُ أنّ زيارته تلك عادية، حتى لاحظت أنّ إلى جواره ضابط أمن دولة يُدعى محمد سامي. بعد دقائق من المجاملة، تبدّل وجه اللواء وجدي وقال لي بوضوح: «أنا جاي برسالة من الوزير حبيب العادلي... الرئيس غاضب لأنك تكتب من السجن، وأسرته كذلك.

صدرت التعليمات بمنع خروج أي ورقة أو مقال لك من هنا».

❁ أدركت حينها أن المعركة الحقيقية قد بدأت، وأن الاعتقال الذي ظننته مؤقتًا أصبح اعتقالًا مكتمل الأركان. قال لي: «توقّف عن الكتابة لتخرج وتعود لحزبك وبرلمانك». فقلت له: «سأخرج من هذا السجن... ولن يبقى مبارك على مقعده».

كانت تلك اللحظة فاصلة، بين منطق السلطة ومنطق الضمير، بين الخوف والكرامة، بين صمتٍ يُبقيك حيًّا وصوتٍ قد يقتلك لكنه يُبقيك إنسانًا.

❁ بعد أيام، صدرت الأوامر بترحيل كل السياسيين من سجن المزرعة، وفُصلت عنهم في ملحقٍ فرعي ضيقٍ ومغلق، إحكامًا للحصار عليّ ومنعًا لتسريب أي ورقة. أُغلقت الأبواب حرفيًا على كلماتي، لكني كنت أعلم أن الجدران لا تملك أن تغلق الطريق إلى الخيال.

❁ مُنعت مقالاتي تمامًا حتى رفعت دعوى أمام مجلس الدولة، فحكم المستشار أحمد الشاذلي ـ وهو قاضٍ شريف يذكره التاريخ ـ بحقي في الكتابة من داخل السجن. لم يكن الحكم فقط انتصارًا لي، بل لكل من آمن أن الحرية لا تُجزّأ. نصّ الحكم على أن تُقدّم لي إدارة السجن شهريًا عددًا محددًا من الأوراق والأقلام وأفرخ الكربون للنسخ، لكنهم كانوا يعدّونها يوميًا كأنهم يحرسون كنزًا.

❁ فإذا اختفت ورقة واحدة، أُغلِق السجن بكامله حتى تُستعاد. كنت أكتب وأضع الكربون فوق الورقة، وأستبدل الأوراق الفاصلة بأوراق «الزبدة» الرقيقة التي كانوا يغفلونها في العدّ. هكذا، عبر تلك الأوراق الهشة، خرجت مقالاتي من بين القضبان، كما يخرج طائر من فجوةٍ في الحديد.

❁ لسنواتٍ كانت معركة الكتابة هي التحدي الأكبر: بين رغبةٍ في

البقاء وصوتٍ يصرخ أن يكتب. لو لم أجد وسيلةً لكسر هذا الحصار، لمتُ من القهر، لا من السجن. فالكتابة في الأسر ليست مهنة، بل مقاومة. ليست ترفًا، بل ضرورة، تشبه الهواء لمن ضاق به الهواء.

❁ اليوم، وأنا أستعيد تلك السنوات، أدرك أن السجن لم يكن جدرانًا فقط، بل مختبرًا للروح. ففي ظله تمايز الناس: من صمت خوفًا، ومن كتب شجاعةً. وأنا اخترت الكتابة، لا لأنها تُنقذني من النسيان، بل لأنها تُعيد لي حقي في أن أكون نفسي.

❁ الكتابة بين القضبان لم تكن ترفًا أدبيًا، بل كانت مقاومةً هادئة ضد التغييب، وإعلانًا مستمرًا أن الكلمة أقوى من القيد. وربما كانت تلك الأوراق القليلة التي خرجت خلسةً من السجن، أكثر صدقًا وتأثيرًا من مئات المقالات التي تُكتب في الهواء الطلق.

❁ نعم، خرجت بعد ذلك من السجن، لكن الكتابة التي وُلدت هناك لم تخرج مني أبدًا. لأنني أدركت أن القلم ـ مهما صودر ـ سيجد دائمًا طريقه إلى الضوء، كما تجد شجرةٌ صغيرة طريقها بين شقوق الإسمنت نحو الشمس.



أوراق من سجني (٣)

الحرية في عيون السجناء

❋ في السجن، الحرية لا تُقاس بالمسافة بين الجدران، بل بالمسافة بين الروح واليأس. هناك، رأيت رجالًا بلا أجنحةٍ يُحلّقون بخيالهم، وآخرين بلا سلاسلٍ يُسجنون داخل رؤوسهم. تعلّمت أن الحرية تبدأ من الداخل، وأن أكثر الناس حريةً هم أولئك الذين عرفوا معنى القيد ثم تمرّدوا عليه بالابتسامة.

❋ الحرية داخل السجن كانت كطيفٍ عابرٍ يمرّ من كُوّةٍ صغيرةٍ في الباب الحديدي، تُضيء لحظة، ثم تختفي. كنا نراها في التفاصيل الصغيرة: في رائحة المطر حين يتسرّب من سقف الزنزانة، في وردةٍ مجفّفة خبّأها أحدنا في مصحفٍ مهترئ، في صوتٍ يهمس بالآذان من بعيد فيُعيد إلينا الإحساس بأننا ما زلنا أحياء.

❋ ذات مساء، سمعت أحد السجناء يقرأ شعرًا بصوتٍ خافتٍ كأنه يناجي قلبه. كان يكرّر بيتًا لشاعرٍ لا أعرفه:

«ما ضاقَ قيدٌ ضيّقَ الفَكرَ،

ولا سجنَ الحُرّ إلا جَهلُهُ».

ومن يومها أدركت أن الحرية ليست إذن خروج، بل إذن وعي. وأن الكلمة التي تُكتب بصدقٍ أوسع من نافذةٍ تُطلّ على السماء.

❋ بين كل زنزانةٍ وأخرى، كانت هناك حريةٌ مختلفة. أحدهم كان يكتب على الجدران مواعيد الغروب ومواقيت الفجر، كأنه يدوّن تقويمًا خاصًا لروحه. آخر كان يصنع من خيوط البطانية علمًا صغيرًا يخفيه تحت وسادته. وثالثٌ كان يغنّي للوطن بصوتٍ مبحوحٍ في الليل، يوقظ الحنين في قلوبنا، ويوقظ الحُراس أحيانًا.

❋ كنت أراقبهم جميعًا وأتعلّم: أن الحرية ليست قرارًا سياسيًا، بل حالة وجدانية. وأننا حين نُسجن، نُختبر لا في قدرتنا على الصبر، بل في قدرتنا على أن نحلم. فالحرية التي لا تعيش في القلب، لا يعيش لها وطن.

❋ كتبت يومًا على جدار الزنزانة: «لن ينهزم من امتلك فكرة».

جاء الحارس في الصباح، قرأها، ثم محاها. ابتسمت. كنت أعلم أنه محا الجدار، لا الفكرة. لأن بعض الكلمات تُكتب لتُمحى في الظاهر، لكنها تترك أثرها في الحجارة، وفي الذاكرة، وفي الوجدان.

❋ في تلك العزلة الطويلة، رأيت وجوهًا كثيرة للحرية:

وجه الأم في الزيارة، يحمل في عينيه الوطن كله.

وجه الشمس حين تدخل خلسةً من ثقبٍ صغيرٍ في السقف، فتُذكّرنا أن الله لم يغادرنا.

ووجه الورقة البيضاء حين تُعطى لي ـ بحذرٍ ورقابة ـ لكنها تتحوّل في يدي إلى سماءٍ من كلمات.

❋ وعندما خرجت، اكتشفت أن الخارج لا يختلف كثيرًا عن الداخل، إلا في اتساع الجدران. هناك سجونٌ كثيرة بلا قضبان، وأقفاصٌ تُزيَّن بأسماء براقة: وظيفة، حزب، خوف، صمت، ولاء... كلها وجوهٌ جديدةٌ للقيد القديم.

❋ بقيت الكلمة وحدها هي مفتاحي. لا أمتلك سلاحًا ولا منصبًا، لكني أمتلك القلم، وهذا يكفي. فالقلم، حين يكون صادقًا، يُسقط جدارًا. والكلمة، حين تُقال في وقتها، تُحرّر وطنًا بأكمله من الخوف.

❋ هكذا كانت الحرية في عيون السجناء: حُلمًا لا يُقاس بالمساحة، بل بالإصرار على أن نحيا رغم كل شيء. في ذلك المكان الضيّق، تعلّمتُ أن الحرية ليست أن تخرج من السجن... بل أن يخرج السجن منك، وألّا تدع أحدًا يبنيه في داخلك مرّةً أخرى.



أوراق من سجني (٤)

رسائل تصل دون أن ترسل

في ظلال الزنزانة، تتبدّل وظيفة الكلمات. لا تُكتب لتُقرأ، بل لتُنقذ. كانت الرسائل تُولد في قلبي قبل أن تخرج من القلم، كأنها نَفَسٌ خفيّ يمدّني بالحياة حين تضيق الدنيا. لم تكن موجّهةً لشخصٍ بعينه، بل للحياة ذاتها، للحلم، للغد الذي لم يأتِ بعد.

كنت أكتبها في الظلام، أحمِلها في الذاكرة، وأُخفيها بين سطور الصمت الطويل، كمن يخبّئ قلبه بين طيّات ورقة. لم تكن الرسالة فعلَ تواصلٍ فقط، بل فعلَ مقاومةٍ ضد الفناء.

في أيام الشدّة والحصار، كنت أكتب رسائلَ قصيرة، مقتضبة، كأنها أنفاس. وفي لحظات الرغد النادرة، حين يُسمح لي بإخراج الأوراق، كنت أستعيد نفسي بالكتابة الطويلة، التي تمتد حتى تُرهق الحبر. أطولها كانت رسالةً إلى الصديق والزميل إبراهيم عيسى، بلغت ستًّا وسبعين صفحة كاملة، حتى قال عنها في أحد برامجه إنها أطول رسالة وصلته في حياته.

كتبت رسائلَ أخرى كثيرة: لشباب حزب الغد الذين حملوا الحلم في غيابي، وللزملاء في جريدة الغد التي حملت اسمي وصوتي. كتبت إلى لجنة الإسكندرية، وإلى أهل النوبة، وإلى كل من ظنّ أنني غبت. كنت أكتب لأن الكتابة وحدها كانت وسيلتي للحضور.

في عام ٢٠٠٥، حين اشتدّ الحصار ومنعت الرسائل الخاصة تمامًا، لجأت إلى حيلة قانونية وإنسانية في آنٍ واحد: بدأت أكتب رسائلَ على هيئة بلاغاتٍ إلى النائب العام. كانت تبدو بلاغات قانونية، لكنها في حقيقتها رسائلُ للتاريخ، توثّق الانتهاكات، وتسجّل ما لا يُقال.

بلغ عدد هذه البلاغات ٢٠٠٠ بلاغٍ كامل، وكنت أعلم أن المحامين سيتمكّنون من استخراج نسخٍ منها من النيابة، لأنها صارت أوراقًا رسمية.

هكذا وجدتُ طريقًا آخر للكتابة، للنجاة، وللحقيقة.

وكنت أكتب أيضًا لمن هم أقرب إليّ: لابني نور، ولابني شادي، ولزوجتي آنذاك جميلة إسماعيل. كنت أخاطبهم لا كأبٍ يرسل حنينه، بل كإنسانٍ يريد أن يترك لهم أثرًا يقول: «كنت هنا، وما زلت أقاوم بالحب».

ذات عام، كتبت رسالةً إلى بشار الأسد حين ألقى القبض على مجموعة إعلان دمشق، لأقول له إن قمع الرأي لا يصنع أمنًا، وإن الحرية ليست ترفًا في زمنٍ يختنق فيه الناس.

وكتبت رسالةً أخرى إلى المرشّح الرئاسي الأميركي آنذاك باراك أوباما، قبل أن يصبح رئيسًا. لم أطلب فيها نصرةً ولا موقفًا شخصيًا، بل كتبت عن أحوال الحريات في العالم العربي، وعن المعتقلين، وعن مروان البرغوثي ورفاقه في السجون الإسرائيلية.

كانت الرسالة دعوةً إلى ضميرٍ عالميّ أن يسمع صوت المقموعين.

وحين نُشرت تلك الرسالة على الصفحة الرسمية لأوباما في فيسبوك، وتناقلتها الصحافة الأميركية والعالمية ـ من واشنطن بوست إلى غيرها ـ لم أشعر بنشوة انتصارٍ سياسيّ، بل بشيءٍ أقرب إلى الطمأنينة.

شعرت أن كلماتي التي كُتبت في زنزانةٍ صغيرة، وجدت طريقها إلى العالم، وأن جدران السجن يمكن أن تُفتح بورقة.

في رمضان من ذلك العام، جلست أكتب حوارًا تخيّليًا بيني وبين من تمنّيت أن أفطر معهم. كنت أستحضرهم واحدًا واحدًا: الأصدقاء الغائبين، الأحبة الذين فقدتهم، والوجوه التي كانت تملأ حياتي دفئًا.

لم تكن مائدةً حقيقية، بل مائدة من الحنين، كانت الرسالة التي أكتبها إلى الغياب نفسه.

تعلمت هناك أن الرسالة ليست دائمًا مرسَلة، ولا ضروريًّا أن تصل. بعضها يُكتب لتنجو به من نفسك، وبعضها لتذكّر من يجيء بعدك أن أحدًا لم يصمت عن الحق، حتى لو لم يُسمع صوته.

كنت أعود إلى رسائلي القديمة كلما ضاق المكان. أقرأها كما يقرأ المنفيّ ماضيه في الصور القديمة. بعضها كان ممزّقًا، وبعضها كان مطويًّا بعنايةٍ كأنّي أخاف عليه من الريح. كنت أقرأها لأتذكّر أني ما زلت حيًّا، وأن الكتابة فعلُ إحياءٍ لا يُطفأ.

الرسائل التي لم تصل، كانت في حقيقتها قد وصلت. وصلت إلى التاريخ، إلى الضمير الإنساني، إلى من لم يعرفني لكنه صدّق أن الكلمة يمكن أن تخرج من جدارٍ مغلقٍ إلى ضوءٍ بعيد.

لم تكن تلك الأوراق مجرد مراسلات، بل كانت فصولًا من سيرة وطنٍ يُكتب من خلف القضبان. كنت أُهرّب الحقيقة في الحروف كما يُهرَّب الخبز للمحرومين، وأؤمن أن كل سطرٍ منها سيجد طريقه، ولو بعد حين.

اليوم، حين أنظر إلى تلك الرسائل التي لم تصل، أراها وقد صارت رسائل إلى التاريخ، وإلى المستقبل. بعضها خرج خلسةً عبر يدٍ أمينة، وبعضها خرج في لحظةٍ سماوية لا أعرف كيف. لكنها جميعًا خرجت ـ كما خرجت أنا ـ بغير إذنٍ من الحراس.

انتهت الزنزانة، لكن الرسائل لم تنتهِ. فما زلتُ أكتبها في الليل،

وفي الغياب، إلى من لا يعرف أنه المقصود، إلى العالم الذي لا يسمع إلا حين تصرخ الكلمة من أقصى الصمت.

هذه رسائلي التي لم تصل، لكنها وصلت بمعناها. كانت بريدًا من السجن إلى الحياة، ومن الحلم إلى الضمير. رسائل لم تُقرأ كلها، لكنها جميعًا كُتبت بمدادٍ من حريةٍ لم تُكسر، ومن قلبٍ لم يعرف اليأس يومًا.



أوراق من سجني (٥)

أسماء غرفتها وراء الجدران

✸ خلف كل جدارٍ صامتٍ في السجن، هناك حكايةٌ تتنفس. كنت أظنّ أن الجدران تُغلق على الجسد، لكني اكتشفت أنها تفتح أبوابًا كثيرة على النفس، على الذاكرة، وعلى ما نظنّ أننا نسيناه. في الزنزانة، لا أحد يعيش في الخارج؛ الجميع يعيش في داخله، في أفكاره التي تصير وطنًا حين يُصادَر الوطن.

✸ ما وراء الجدران لم يكن فراغًا رماديًا، بل عالمًا من الملامح المتناقضة، يجمع بين الوزراء والسجناء، بين من حملوا نياشين الدولة ومن حملوا جراحها. هناك، تذوب الرتب وتتكشف الطبائع. فالحديد لا يعرف الألقاب، والجدران لا تسأل عن الانتماء، بل عن الصبر.

✸ رأيتُ في تلك الزنازين وجوهًا لن أنساها أبدًا. كان بيننا الوزير توفيق عبده إسماعيل، وزير السياحة وشؤون البرلمان، وأحد الضباط الأحرار، وصديق والدي وهو من ميت فارس بمحافظة الدقهلية، بلديات صديقي وزميلي ايام الجامعة طارق عبدالعزيز

وهو حاليا رئيس الهيئة البرلمانية لحزب الوفد

✸ وكان توفيق بك - أيضًا ـ زميلي في البرلمان ورئيس لجنة الخطة

والموازنة. كان رجلًا كبير القيمة والخبرة والوطنية، ظلموه في نهاية حياته في قضية نواب القروض.

✸ وكان معي أيضًا النائب خالد حامد محمود، نائب البحيرة ووزير الحكم المحلي السابق، رجلٌ صلب الشكيمة إلى حدٍّ كان يُوجع نفسه به. لسنواتٍ رفض الزيارة من أسرته كي لا ترى زوجته وبناته جدران السجن. كنت أشفق عليه من ذلك الكبرياء القاسي، وأحترمه أكثر لأنه ظلّ واقفًا في وجه الانكسار.

✸ ومرّ عليّ كذلك ماهر الجندي، النائب العام السابق ومحافظ الجيزة والغربية، الذي جمع بين الضعف واثاره الجدل، فكان على النقيض من كل هؤلاء في كل شيء، لكنه ظلّ إنسانًا منكسر الطموح والرغبة في الحفاظ علي صورته. رحم الله روحه.

✸ وفي فترةٍ أخرى، شاركني السجن محمد الوكيل رئيس قطاع الاخبار في التلفزيون المصري وكذلك وزير المالية الأسبق محيي الدين الغريب، وهو رجلٌ دمث الخلق، هادئ الصوت، نقيّ السريرة. أُقحم اسمه في قضية الأسواق الحرة بسبب خلافه مع مجموعة الدكتور عاطف عبيد، فدفع ثمنا في زمنٍ لا يحتمل الصادقين.

✸ مرّ عليّ في السجون أيضًا معتقلون سياسيون من كل الاتجاهات. كان أبرزهم معتقلو جماعة الإخوان. قبل دخولي البرلمان وبعده، زاملتُ في السجن الدكتور محمد مرسي، ثم المهندس خيرت الشاطر، وزوج ابنته الراحل المهندس أيمن عبدالغني، والنائب محمد عماد صابر، والدكتور عصام العريان رحمه الله، والمهندس علي عبدالفتاح، والمهندس مدحت الحداد، وغيرهم كثير ممن صاروا اليوم بين القضبان أو في القبور او المنافي.

✸ ومن الجماعة الإسلامية وتنظيم الجهاد مر علي عشرات المعتقلين، أذكر منهم الدكتور عمرو عبدالمنعم، الكاتب والباحث حاليا

والذي كان يعمل معي في مطلع التسعينات من القرن الماضي صحفيًا في مكتب جريدة المدينة. وكنت قد أرسلته يومًا لمتابعة أخبار وزارة التموين، ولم يعد. ثم التقينا بعد خمسة عشر عامًا في سجن مزرعة طرة، في أول يومٍ لي هناك، وكأن الزمن أراد أن يعتذر عن غيابه الطويل.

✸ ورغم كل تلك الوجوه المحفورة في ذاكرتي، وقلبي، إلا أن بعض الأسماء الصغيرة المجهولة كانت أعمق أثرًا من الكبار. حين صدر لي حكمٌ قضائيّ بألا أُحبس انفراديًا، نقلتني السلطات تنفيذًا له إلى ما يُسمّى «مستشفى السجن»، وهي زنزانة واسعة لا تحمل من اسمها إلا الاسم.

✸ تنفيذًا للحكم، كانت السلطات تُرسل إليّ شركاء زنزانةٍ بعنايةٍ غريبة. بدا لي أن الهدف ليس تطبيق الحكم بل معاقبتي به، لعلّي أندم على طلبي. لكن الله كان معي، يُرسل لي في كل اختبارٍ درسًا.

✸ أرسلوا لي ذات يوم شابين منقولين من سجن بورسعيد، وبعد أيام اكتشفت أنهما مصابان بمرض الإيدز. أبلغت النيابة فورًا، فتم نقلهما خلال ساعة. ثم أرسلوا إليّ رجلًا تجاوز التسعين من عمره، لا يتجاوز وزنه الأربعين كيلوجرامًا، اسمه المتداول بين السجناء عم زيزو، وكان محكومًا عليه ظلمًا في قضية بشير المحجوب، شقيق الدكتور رفعت المحجوب.

✸ كان «عم زيزو» ترزيًا بسيطًا اختبأ عنده للحظات في محلِّه القديم وسط البلد المحجوب وقت القبض عليه، فقبضوا علي زيزو ظنًّا أنه شريكه. وهو من لا يعرف شيئًا عن الدنيا إلا الإبرة والخيط!

✸ في إحدى الليالي سألني: «صحيح يا دكتور، أنت اللي دخلت الانتخابات ضد عبدالناصر؟»

قلت له مبتسمًا: «عبدالناصر مات يا عم زيزو.» فبكى وقال بعنادٍ

طفوليٍّ : «عبدالناصر ما ماتش.»

✹ كان يطلب مني كل يوم شيئًا واحدًا من الكانتين: كيس شيبسي. كنت أضحك، وأطلب من العسكري أن يأتي له بكيسٍ على نفقتي كل صباح. ويوم وفاته، ناداني وقال بصوتٍ خافت:

«لك في ذمتي ٢٢ جنيهًا.» ثم أخرج من كيس المخدة أرباع جنيهاتٍ فضية كان يجمعها من أكياس الشيبسي التي كانت تضعها كجوائز.

وقال: «كنت بجمع ثمن التاكسي اللي هرجع بيه البيت، بس دلوقتي هرجع على نفقة السجن، لأني هموت النهاردة.»

✹ ومات بين يديّ كما يموت طفلٌ نام على حضن الحنان. ظللت أقرأ عليه سورة يس عشر ساعات، حتى جاؤوا في الصباح لنقله. لم أودّع أحدًا كما ودّعت عم زيزو، لأنه علّمني أن البساطة هي نوعٌ من البطولة قد لا تطلبه.

✹ وفي خضم هذه التناقضات، لم تخلُ الأيام من ضوءٍ إنسانيٍّ طريف. كان بين من التقيت بهم في السجون الطيّار الكفيف صلاح جمعة، أحد أكثر من قابلت ظرفًا وذكاءً. كان يحوّل المأساة إلى طرفةٍ ببراعةٍ نادرة، وكنت أقول له دائمًا: «لو كانت الحريّة تُقاس بخفّة الظل، لكنت أول من يُفرج عنه.»

✹ تلك الأسماء، رغم تباينها، كانت كألوان الطيف الإنسانيّ: من الوزير إلى المراهق، من القاضي إلى السارق، من المؤمن إلى الحائر. جمعتنا جدرانٌ واحدة، وأحلامٌ متباينة، وذاكرةٌ واحدة من الصبر.

✹ هناك، ما وراء الجدران، أدركت أن السجن لا يُفرّق بين من جاء بملفٍّ سياسيٍّ أو جنائيٍّ أو قَدَريّ. الكلّ يجلس في صفٍّ واحد أمام امتحانٍ واحد اسمه «الإنسان».

✹ ومع مرور الوقت، لم تعد الجدران عدوًّا، بل مرايا. رأيت فيها

نفسي، ووطني، وأحلامي التي لم تمت رغم الحديد. كنت أكتب على حوائطها الصغيرة أسماء من مرّوا، وأقول لنفسي: هؤلاء هم الوجوه الحقيقية لمصر التي لا تموت.

✸ وما وراء الجدران، لم يكن سجنًا فقط، بل سيرة وطنٍ مصغّرة: وطنٌ سُجن أبناؤه لأنهم أحبّوه أكثر مما يجب، ولأنهم صدّقوا أن الحريّة لا تُستعطف، بل تُنتزع بالقلم، وبالوجدان، وبالإيمان أن الكلمة تملك جناحين ولو قُطعت الأيدي.

✸ لذلك، حين خرجت من السجن، لم أخرج وحدي. خرج معي كل من عبر حياتي خلف القضبان، من الوزراء والعمّال، من الساسة والجنائيين، من عم زيزو إلى صلاح جمعة. خرجوا معي في الذاكرة، في الحلم، وفي اللغة. لأنهم جميعًا كانوا ـ بطريقةٍ ما ـ جزءًا من حريّتي التي لم يستطع الحديد أن يسجنها.



أوراق من سجني (٦)

ما زلتُ سجينًا
الاسم الذي أكشفه للمرة الأولى...
أشرف فرج

إلى صديقي النبيل. . . الذي أثبت أن الشرف لا يُعلَّق على الكتف، بل يُزرع في القلب.

إلى الضابط الإنسان، الذي كان ضميره أقوى من منصبه، وإنسانيته أوسع من أسوار السجن.

إلى من ظلّ نزيهًا في زمنٍ عزّ فيه النُزاه، وشريفًا في زمنٍ عزّ فيه الشرف:

أشرف فرج.

❍ لا يخرج الإنسان من السجن حين تُفتح له الأبواب، بل حين يُشفى من وجعه.

وأنا ـ رغم مرور ستة عشر عامًا على آخر اعتقال ـ لم أُشفَ بعد.

خرجتُ من بين الجدران الحديدية، لكنّ بعض الجدران بقيت داخلي، تعيش تحت الجلد، في الذاكرة، في العادات، في الألوان، في طريقة النظر إلى العالم.

ما زلتُ أحمل السجن في داخلي كندبةٍ صامتة لا تزول.

❍ أبدأ صباحي من سريرٍ لا يتجاوز عرضه سبعين سنتيمترًا.

هو السرير الذي نام عليه جسدي في زنزانةٍ باردةٍ من قبل. رفضتُ أن أستبدله بسريرٍ فخمٍ أو فندقٍ ناعم، لأن هذا السرير الضيّق صار جزءًا من تكويني، من طريقتي في الحياة.

هو فراشي ومكتبي وغرفة معيشتي في آنٍ واحد.

فوقه قرأتُ وكتبتُ وأكلتُ وضحكتُ وبكيتُ وصلّيتُ ومرضتُ وشُفيتُ.

إنه قطعة تراثية من الزنزانة، لكنّي أحملها معي لأنّها، بطريقةٍ غامضة، صارت قطعةً من الحرية أيضًا.

❍ حتى ألوان حياتي لم تتبدّل. أُفضّل الأزرق في كل شيء، ربما لأنني عشتُ فيه سنواتٍ طويلة.

ربما تغيّرت الأقمشة، لكن اللون بقي.

الأزرق صار شاهدًا عليّ، لونًا للذاكرة لا للثياب.

كلّ من يعرفني يظنّ أني أختاره ذوقًا، ولا يعلم أني أختاره وفاءً.

❍ حين أمرض، أبحث ـ بلا وعيٍ ـ عن الطبيب ذاته الذي راقب حالتي في السجن.

كان أكثر من طبيب، كان شاهدًا على حالتي الأولى حين مرض الجسد وتمرّد القلب.

من بين عشرات الأطباء، عربٍ وأتراكٍ وأوروبيين، لا أثق إلا به،

ربما لأننا اقتسمنا لحظةً حقيقية، ولأنّ الصدق في زمن القهر يصبح نادرًا كالعافية.

❍ وربما تبقى أغرب صداقاتي وأصدقها تلك التي جمعتني بضابطٍ مسؤول عن السجن،

ذاك الذي اختلفتُ معه في الموقع، لكن اتّحدنا في الإنسانية.

كان يرى فيّ إنسانًا لا معتقلًا، وكنت أرى فيه ضميرًا لا رتبة.

كان واحدًا من أشرف الناس الذين عرفتهم في حياتي، واسمه يختصر سيرته: أشرف فرج.

كان الشرفُ يمشي على قدمين، والفرجُ للفقراء والمظلومين.

في السجون كانوا يلقبونه ـ بسخريةٍ محبّة ـ كوسة من ليس له كوسة.

لم يكن صاحب جاهٍ ولا نفوذ، بل صاحب ضميرٍ لا ينام.

❍ كان مكلفًا ـ بحكم موقعه ـ بمنع دخول أي طعامٍ مدنيّ من خارج السجن إليّ،

وكان ينفذ التعليمات بحزمٍ واحترامٍ كامل.

لكنه، في المقابل، كان يطلب من زوجته الفاضلة أن تُعدّ لي طعامًا من بيتها،

من خير ما تطهوه لأسرتها، ويأتي به إليّ بيديه،

عارفًا حجم المخاطرة، ومدركًا ما قد يُعرضه ذلك للمساءلة،

لكنه كان يفعلها كأنما يُطعم ضميره قبل أن يُطعم سجينًا.

❍ أتذكّره وهو يرفض مشاركتي فنجان نسكافيه كنتُ أعدّه في زنزانتي.

كان يقول بابتسامةٍ جادّة:

«أنت خارج بيتك يا دكتور، وأولى بكل ملعقةٍ قد تحتاجها في وقتٍ ما... أما أنا، فأعود إلى بيتي.»

ذلك الموقف ظلّ محفورًا في ذاكرتي كتعريفٍ بسيطٍ للشرف:

أن تُعطي دون أن تنتظر، وأن تحمي إنسانيتك في مواجهة منظومةٍ تستهلكها.

❍ لو كان بقي في جهازه، لربما صار اليوم لواءً أو أكثر،

لكنه اختار أن يكون كبيرًا في عيني نفسه لا في دفتر الرتب.

ترك وطنه ومهنته وقَبِل بالغربة وشظف العيش، لا هروبًا، بل حفاظًا على نقائه،

وعلى تلك المساحة النادرة من النبل التي لم تطلها الترقية ولا الخوف.

كان الله في عون كل شريفٍ في زمنٍ عزّ فيه الشرف.

❍ نعم... أعيش الآن خارج الزنزانة، لكنني ما زلت أستيقظ كل فجرٍ على صوتٍ داخلي يقول: «عدّ الأيام.»

ما زلت أتناول قهوتي في نفس الفنجان المعدنيّ الذي كنت أملكه هناك.

أحتفظ به لا عن فقرٍ ولا عن حنينٍ مرضيّ، بل لأنه تذكيرٌ يوميّ بأن البساطة كانت مدرّسة الحرية الأولى.

❍ أحيانًا أضحك حين أتذكّر أنني ما زلت أشعر بالغربة أمام الهاتف المحمول.

ظهر الفيسبوك وأنا خلف القضبان، وحين خرجت كان العالم قد تغيّر.

صار الناس يكتبون بكبسة زرّ، ويتراشقون بالآراء كما كنا نتراشق بالنكات عبر الجدران.

كلّما فتحت هاتفي أشعر كمن عاد إلى وطنٍ لم يعشه من قبل.

التكنولوجيا بالنسبة لي ليست تطوّرًا فقط، بل اختبارٌ للزمن الضائع.

❍ وفي لحظاتٍ كثيرة، أسترجع الوجوه التي عبرت سجني الطويل:

من الوزراء إلى السجناء المجهولين، من توفيق عبده إسماعيل إلى عم زيزو،

من صلاح جمعة إلى خالد حامد محمود،

من محمد مرسي إلى خيرت الشاطر،

من محيي الدين الغريب إلى أولئك الذين لا أسماء لهم إلا في الذاكرة.

كلّ واحدٍ منهم ترك أثرًا في داخلي، كأنهم فصول كتابٍ كُتب عليّ أن أعيشه لا أن أقرأه.

❍ ومع كلّ هذه الوجوه، تعلمتُ أن السجن كان جامعةً للإنسان،

يُدرّس فيها الألم بعمقٍ أكثر من أي فلسفة،

ويُمنَح فيها الصبر شهادةً لا تُعلَّق على الحائط بل على القلب.

ومن تلك الجامعة خرجتُ بشهادةٍ واحدة:

أنّ الإنسان الذي لا يعرف ضعفه، لا يعرف نفسه.

❍ كل ما أكتبه اليوم هو جزءٌ من تلك الحكاية المستمرة.

أكتب لأُبقي ذاكرتي يقظة،

لأذكّر نفسي أن الحرية لا تُقاس بمكانٍ تسكنه، بل بمساحة الوعي التي تملكها.

أكتب لأُعيد التوازن بين ما كنته هناك، وما صرتُه هنا.

أكتب لأقول إن من خرج من السجن لا يعني أنه خرج من التجربة، فالتجربة تسكنه وتُعيد تعريفه كل يوم.

❍ بعض أصدقائي يندهشون حين يعلمون أن سريري ما زال كما كان،

وأن لوني ما زال كما كان،

وأنني ما زلت أُدقّق في مواعيد الصباح كأنّ الحارس ما زال يعدّ خطواتي.

لكنني أبتسم، وأقول لهم:

«من عاش في قفصٍ، يتعلم كيف يطير، لكنه لا ينسى شكل القفص.»

❍ لم تعد الجدران حولي، لكنها بقيت في ذاكرتي لتذكّرني أن النور لا قيمة له بلا ظلمةٍ سابقة.

بقيت سجلات الألم، لا لتقيّدني، بل لتمنعني من القسوة.

لأن من عرف القيد، لا يمكن أن يظلم أحدًا بعده.

❍ ربما لذلك ما زلتُ سجينًا،

سجين التجربة لا الزنزانة،

سجين القلق النبيل الذي يُرافق كل من عاش الوعي وسط العتمة.

سجين الذاكرة التي لا تنام، والضمير الذي لا يُساوم، والحلم الذي لا يتعب.

❍ وما زلت، كلما أمسكت القلم، أشعر أنني في مواجهةٍ مع ذلك الحارس القديم الذي كان يفتّشني بحثًا عن الورقة،

ولا يعلم أن الحبر يسكن في دمي لا في جيبي.

أبتسم وأكتب، لأقول له:

ها أنا أكتب بعد كل هذه السنين...

وما زلتُ سجينًا،

لكنّ سجني الآن اسمه الحرية،

حرية أن أروي، وأن أتذكّر،

وأن أظلّ شاهدًا على زمنٍ ظنّ أن الحديد أقوى من الحبر.

➢ يا صديقي الذي لم أراه منذ ١٥ عاما

مازلت سجينا

ليتك كنت أنت السجان

فبعض الأسماء لا تُكتب في التاريخ، بل في الضمير... وأنت واحدٍ منهم.



سلسلة مقالات
أوراق ليبرالية وبرلمانية

أوراق ليبرالية (١)

...نقد العقل أم اغتياله؟
لماذا في مواجهة أخرس

هذه الأوراق هي محاولة لبعثِ حوارٍ مؤجل، ومشروعٍ فكريٍّ بدأته منذ مطلع التسعينات حين أصدرتُ كتابي الصغير «الليبرالية هي الحل». كان ذلك في زمنٍ كان مجردُ النطق بكلمة ليبرالية يُعدُّ مغامرةً فكريةً وربما تهمةً سياسية، لما عانتهُ هذه الكلمة من تشويهٍ وخلطٍ والتباسٍ متعمّد، خلطٍ بين الليبرالية المصرية التي وُلدت من رحم الوطنية والعقلانية والحرية، وبين أنماطٍ أخرى من التفكير الليبرالي في العالم، قد لا تتّفق كلها مع جذورنا ولا مع ملامح تجربتنا التاريخية.

هذه السلسلة من أوراق ليبرالية ليست عودةً إلى الوراء، بل امتدادٌ لنهرٍ فكريٍّ بدأ قبل عقود. هي محاولة لإضاءة ما أُطفئ عمدًا في وعينا، وإعادة قراءة مشروعٍ يؤمن بأن الحريةَ ليست شعارًا سياسيًا فحسب، بل هي أسلوبُ تفكيرٍ، ومنهجُ حياةٍ، ومعيارُ صدقٍ في كل ما يُكتب ويُقال. ومن هنا تأتي هذه الورقة الأولى بعنوان: نقد العقل أم اغتياله؟

ليست معركةُ العقل في عالمنا العربي مع خصمٍ محدّد، بل مع ظلالٍ متراكمةٍ من الخوف، والوراثة، والتقليد. تلك الظلال التي سكنت وجداننا حتى صار الشكُّ تهمة، والسؤالُ جريمة، والاختلافُ خروجًا عن

النص. في كل زمنٍ يُغتالُ فيه العقل، يُدفنُ معه حلمُ الإنسان بالحرية، لأن الحريةَ لا تُولدُ إلا من رحمِ الفكر، ولا يُكتبُ لها البقاءُ إلا في أرضٍ يُروّيها الوعي.

○ حين كتب برهان غليون كتابه الشهير «اغتيال العقل»، لم يكن يطلقُ رصاصةً على الماضي، بل كان يحاولُ أن يُسعفَ الحاضرَ بضمادةٍ من الوعي. لم يكن هدفهُ أن يشيّع جنازةَ العقل العربي، بل أن يصرخَ في وجهِ من تواطؤوا على إسكاته. فالاغتيالُ هنا ليس جريمةَ فردٍ، بل مؤامرةُ ثقافةٍ كاملةٍ ضدّ أداةِ حريتها الأولى: الفكر.

○ في هذا العملِ الفكريّ الفذّ، لا يتحدّث غليون عن «العقل» كمفهومٍ فلسفيٍّ مجرد، بل ككائنٍ اجتماعيٍّ مريض، سُقيَ منذ قرونٍ بخليطٍ من التقاليد والخوف والفقهِ المتصلّب والسياسةِ التي ارتدت عباءة الدين. أراد أن يقول إننا لم نُغتل برصاصةٍ، بل بفكرةٍ... وإن قاتلنا ليس الآخر، بل ذواتنا حين سلّمنا عقولنا طوعًا لمحراب السلطة، ولسوط الفقيه، ولصنم الجماعة.

○ الاغتيالُ في تعريفه ليس فعلًا ماديًا، بل منظومةُ تعطيلٍ متوارثة، تبدأ من المدرسة، ولا تنتهي عند المنبر. هي سلسلةُ أصفادٍ من المفاهيم الجاهزة، تجرّنا من التفكير إلى التكرار، ومن السؤال إلى التسليم، ومن النقد إلى التصفيق. وهكذا تتحوّلُ الذاكرةُ الجماعية إلى مقبرةٍ للأسئلة، ويغدو العقلُ العربيّ متحفًا للنصوص لا مختبرًا للأفكار.

○ لم يكن غليون يهاجم التراث، بل الجمودَ الذي حوّل التراثَ إلى وثنٍ لا يُمسّ. كان يطالبُ بعقلٍ جديدٍ لا يخاصمُ الإيمان، بل يستعيدُه من أيدي المتاجرين به. عقلٍ يرى أن الدينَ جوهرُ الحريةِ لا سلاحُ الوصاية، وأن التراثَ حيٌّ فقط حين نُحسن قراءتَه، لا حين نحرسُ رُكامه.

○ في رؤيته، يصبحُ «اغتيالُ العقل» مرادفًا لـ«اغتيالِ الإنسان». فالعقلُ هو عنوانُ كرامتنا الوجودية، ومفتاحُ خلاصنا من الاستبداد السياسي

والفكري معًا. وما لم نستعد حريةَ التفكير، فلن نتحرّر من عبوديةِ الشعار، ولا من طغيانِ مَن يظنّ نفسه ظلَّ الله في الأرض.

❍ هنا، يلتقي فكرُ غليون مع سؤالنا الأبدي: هل مشكلتنا في «العقل» ذاته أم في «نظام تشغيلِه»؟ هل هو بحاجةٍ إلى إصلاحٍ أم إلى بعثٍ جديد؟ وهل يكفي أن نقرأ «اغتيالَ العقل» كتحذيرٍ من الماضي، أم كإعلانِ ثورةٍ فكريةٍ ضد حاضرٍ يقتلُ الأسئلة كلَّ يوم؟

❍ لا يمكن فهم مشروع غليون دون أن نقرأه في سياق ما بعد الهزيمة. فالهزائمُ العسكريةُ والسياسيةُ التي منينا بها لم تكن إلا أعراضًا لمرضٍ أعمق، اسمه الاستبداد. لقد اغتيلَ العقلُ يومَ صمتَ المفكرون خوفًا، ويومَ صار الحاكمُ «وصيًّا على الفهم»، ويومَ خُلِطَ بين نقدِ السلطة ونقدِ الوطن.

❍ في المقابل، يرى الفكرُ الليبرالي أن أولى خطواتِ النهضة هي إعادة الاعتبار للعقل الحرّ بوصفه الضمانةَ الوحيدةَ ضد كل طغيانٍ باسم الدين أو القومية أو الأمن. فالليبرالية ليست مذهبًا اقتصاديًا فحسب، بل أخلاقُ عقلٍ يرفض أن يُقاد بالعصا، ويجرؤ على قول «لماذا؟» في وجهِ من يقولون «اسكت!».

❍ برهان غليون لا يدعونا إلى القطيعة مع تراثنا، بل إلى مصالحةٍ نقديةٍ معه، تقوم على الفهم والتحليل لا على التقديس الأعمى. فالنقدُ عندهُ شكلٌ من أشكال الحبّ الواعي، حبٌّ يرفضُ أن يرى الحبيبَ أسيرًا لضعفه. ولذلك، لم يكن «اغتيال العقل» كتابَ تشاؤم، بل بيانَ إنقاذٍ لأمةٍ تُحبّ الماضي أكثر مما تحبّ المستقبل.

❍ إن أخطر ما في اغتيال العقل ليس موتُ الفكرة، بل موتُ الشك. لأن الأمم لا تنهض بالإجماع، بل بالاختلاف. ولا تتقدّمُ باليقين الأعمى، بل بالبحثِ الذي لا يتوقف. فالذي لا يَشكّ، لا يُفكّر. والذي لا يُفكّر، لا يَعيش، بل يُدار.

❍ اليوم، ونحن نرى تكرارَ الاغتيالات ذاتها بأدواتٍ جديدة ـ من إعلام يُغذّي الغيبوبة إلى تعليم يقتل الفضول ـ يبدو كتاب غليون أشبه بمرآةٍ للمستقبل لا للماضي. وكأن الرجل كان يرى، بعين المثقف، ما سيحدث حين تتحالفُ السلطةُ مع الخوف، فيُساقُ العقلُ إلى المقصلة باسم «الثوابت».

❍ لذلك، فإن السؤال الحقيقي ليس: هل اغتيلَ العقل العربي؟ بل: هل بقي فينا من يجرؤ على التفكير في إنقاذه؟

❍ لأن الفكرَ الحرّ هو آخرُ خطوط الدفاع عن كرامة الإنسان، فإذا صمتَ العقلُ تكلّمَ الطغيان، وإذا اغتيلَ السؤالُ دُفنَ الوطن.

مرفقا أرشيف لمجسمات لشخصيات مصريه ليبرالية ضمن أعمال المركز الثقافي المصري في اسطنبول التابع لجمعيه الشرق للإعلام والثقافة

ورقة ليبرالية (٢)

أنا والدستور والعائلة والحاضنة الفكرية

أتذكّر تلك الصدفة التي نَسَجت بين جيلين دستورين في حياتي: والدي كان مقررًا للدستور عام ١٩٧١، وأنا ـ بعد مسيرة من النضال والبحث ـ انتُخبت وكيلًا للجمعية التأسيسية لصياغة دستور ٢٠١٢ بواسطة برلمان الثورة. هذه الحُدَثَة ليست مجرد تلاقٍ عائلي، بل تلاقٍ بين زمنين دستوريين بينهما روحُ حريةٍ واحدة؛ بين من أراد أن يُسَطّر دستورًا، وبين من قاتل ليصوغ دستورًا. الدستور الحرية

في هذا المسار، لم أَرِث مواقفً جامدة من عائلتي بل تورّثت عهدًا بمهمة؛ العائلة ـ بمعناها الواسع ـ هي الحاضنة الفكرية، وهي التي ترسّخ الدستور كمنهج حياة. مدرسة الوفد لم تكن مجرد فضاءً عائليًا بل منظومة قيم، رمت أن تربط بين الحرية والدستور كندّين لا يفترقان.

لم تكن دراستي في القانون العام فحسب خزانًا نظريًا، بل تجربة عقلية تربّيت عليها، نحو أن أستطيع الجمع بين العقل الفقهي والنبض النضالي. هذان البُعدان ـ النظرية والتطبيق ـ تشابكا في وعيي، فكان الدستور في ذهني ليس مجرد نص بل مشروع حياة، وشهادة قومية يُحاسَب بها كلّ من يتولى السلطة.

في تاريخ مصر، منذ ثورة ١٩١٩، ارتبط لسان الشعب بشعارين لا يفترقان: «الاستقلال» و«الدستور». لم تكن هذه علاقة سطحية؛ إنها قراءة شعبية استراتيجية ترى أن الاستقلال بلا دستور يظل ناقصًا، والدستور بلا استقلال يظل بلا جسد. كما قال سعد زغلول: «إذا لم يكن الدستور ضمانًا للحرية فهو خديعة»، تُذكّرنا أن الدستور هو العهد الذي يحدّد العلاقة بين الحُكم والمكفول.

من هذا المنظور، تعاملت دومًا مع التجربة المقارنة بين النظام الإنجليزي والتجربة الفرنسية في تطور الفكر الدستوري. التجربة الإنجليزية، التي تراكمت عبر الماجنا كارتا وBill of Rights، تُعلّمنا أن المسار الدستوري يمكن أن يكون تطورًا عضويًا. أما التجربة الفرنسية فقد حرّرت الفضاء الدستوري من القيد الملكي دفعة واحدة، وأفرزت مبادئ السيادة الشعبية وفصل السلطات بقوة الثورة.

لكن المهمّ ليس التماهي الآلي مع هذا أو ذاك، بل أن نستخلص من هاتين التجربتين روحًا دستورية تناسب خصوصيات بلادنا: دستور يحمي الحرية، يُؤمن مشاركة المواطن، ويمنح الدولة مرونة التغيّر دون التخلّي عن الحقوق الأساسية.

التجربة المصرية في الدساتير لم تكن خطًا مستقيمًا؛ بل سلسلة تجارب ـ دستور ١٩٢٣ ثم ١٩٣٠ ثم العودة ١٩٣٥ ـ ثم تحولات بعد ثورة ١٩٥٢ ب دستور ١٩٥٦، ثم المحاولات الاتحادية عام ١٩٥٨ وتعديل ١٩٦٤، ثم دستور ١٩٧١، ثم مسيرة ٢٠١٢ و٢٠١٤. في كل محطة، يتبدّى أن الدستور صراع بين إرادة التحديث وإرادة التعطيل.

دستور ١٩٢٣ جاء لتجسّد مطالب الثورة ١٩١٩، لكنه عانى من ضآلة القوة أمام تحكّم الملك والمحيط الاستعماري. تجربة هذا الدستور علمتنا أن الدستور المُعلن وحده لا يضمن الحقوق إن لم يكن في كنف مجتمع سياسي واعٍ يدافع عنه.

- بعد ذلك، دستور ١٩٥٦ كان محاولة لربط الدستور بالجذور الوطنية الجديدة. لكنه واجه التحدي: كيف يُوزِن بين مشروع الثورة وبين مكامن الحريات؟ التجربة أظهرت أن أي دستورٍ يولد بسيطرة مركزية مطلقة مهدد بأن يبتلع حريته من الداخل.

- حين وُضِع دستور ١٩٧١، كان السياق بحثًا عن استقرار مؤسّسي. كان يعلم والدُي دوره في هذا المشروع، بكل ما فيه من أملٍ ومخاطر. هذا النص أتاح إطارًا قانونيًا مؤسّسيًا يُمطّر حياة سياسية أكثر وضوحًا بعد فترات متقلّبة. لكنه أيضًا علّمنا أن النص الجيد لا يكتفي بمقعده الفخري، بل يحتاج روحًا دستورية تفعّله.

- وعندما اجتمعتُ في التأسيسية ٢٠١٢، كان صوت الثورة قد طالب ـ بأعلى ما في الصدور ـ بدستور يحمل قيمة الحرية والمواطنة والعدالة. انتخابي وكيلًا لم يكن مجرد شرف، بل أمانة أمام ملايينٍ ربطوا بين الثورة والدستور كجسور إلى التحرّر.

- في داخل التأسيسية، عشنا المداولات الليلية والمداولات الصارمة. كثير من مواد الدستور بدت كمعارك لغوية، ولكن خلف كل كلمة كانت مفاضلة بين طموح وقيد، بين ضمان ومرونة. التحدّي الحقيقي كان في أن تُترجَم الرؤية الليبرالية إلى نصّ عملي، لا تظل محفورة في هوامش التفويض.

- في ذلك المضمار، استعنت بفكر النحاس الذي لم يملّ من الدفاع عن الديمقراطية والدستور كميدانٍ مستمر. وعندما تذكّرت مكرم عبيد ـ المحامي النابض، الفذ المتحدث بحقوق الأمة ـ شعرت أن مهمّتنا ليست صياغة نصّ يُقرّه الحُكم، بل صوغ دعوةٍ لأمة تُمارس دستورها بوعي.

- في داخلي، الدستور لم يكن مشروعًا قانونيًّا فحسب بل مشروعًا إنسانيًا. أخطاؤه ممكنة، وتصحيحه واجب مستمر. هو عقد يربط الأفراد بالدولة، لا أداة تقييد تُفرَض. إن تغييره يجب أن يكون مدفوعًا بحياة

الشعوب وليس بتقلبات القوة السياسية.

- من نظرة ليبرالية عميقة، أقرّ بأن الحرية هي الأصل، وأن الدولة موجودة لتأمين حرّية الفرد وحماية حقوقه، لا لاستلابها باسم النظام أو القرار. والدستور، في هذا السياق، هو صيغة توازن مستمرة بين الحرية والنظام، بين التعدّدية والانضباط.

- أستحضر هنا أن التجربة الإنجليزية لم تأتِ بدستور مكتوب شاملٍ دفعة واحدة، بل تراكمت التقاليد. هذا يعلمنا أن الدستور يمكن أن يُبنى بأشكال متعددة، وأن استدامته لا تأتي من جمود نصّ بل من ديمومة روح دستورية في المجتمع.

- وفي المقابل، التجربة الفرنسية علمتنا أن التغيير العميق قد يولّد مبادئ لا يُستعاد إليها بسهولة، وهذا يتطلب درجة من الحذر حتى لا نفقد البناء الديمقراطي في خضم الثورة.

- أؤكّد أن دستور مصر يجب أن يكون نصًّا متقدّمًا من حيث الحقوق والحريات، ولكن لا يكفي أن يتقدّم نصّه إذا لم يتقدّم مجتمعنا معه في الوعي والمسؤولية. من يعيش في مجتمع يحترم القانون أكثر من استخدامه، يُصبح الدستور نهارًا يضيء الطريق.

- خلال صياغة دستور ٢٠١٢، كُنّا ندافع عن استقلال القضاء، وحرية التعبير، وحقّ المشاركة السياسية، وضمان الحماية من التعسّف، ونظام رقابة فعّال على السلطة التنفيذية. هذه ليست كلماتٍ فخمة، بل حدود الأمان الذي يطمئن المواطن أن حرّيته محمية لا مُكتَسَرة.

- أتذكر ساعات التعب والمنازلة التي لا تُرى: من المساومات التي طلبت التنازِل لأجل إقرار مادة، إلى المفاوضات التي دارت خلف الكواليس. لكنّي كنت دائمًا أُصرّ على أن لا تُضحى الكرامة في سبيل السرعة، ولا تُذلّ الحقوق لأجل التوافق السهل.

❍ في ذاك الزمان، كنت أشعر أنني لا أكتب دستورًا فحسب، بل أضع حجر زاوية لمستقبل وطن. بين السلامة القانونية والتطلّع الليبرالي عشت تلك اللحظة: أن النصّ القوي يجب أن ينبع من روح وطنية لا من صياغة مكتبية باردة.

❍ واليوم، وأنا أكتب هذه الورقة، أرى أن معركة الدستور لم تنتهِ. ربما تُغيَّر المواد ويُعدَّلون النصوص، لكن روح الدستور تظل في وعي الأمة. مهمّتنا أن نستمر في حمايته، وأن نكون حراسًا لكتابه الحيّ، لا نتظاهر بالتشبّث به ككتابٍ مقدّس بلا حياة.

❍ أختم بنداءٍ ليبرالي إنساني: دعوا الدستور لا يُوظَّف في صراع حزبي ضيق، ولا يُستَغل كأداة طمسٍ للحقوق. اجعلوه مرآةً لعزتكم وضميركم، واحتفظوا به سندًا لكم في مواجهة المنزلقات السياسية. إنه ليس إنجازًا يُكتفى به، بل عهدٌ بين أجيالٍ متعاقبة.

❍ بهذه الورقة أوقِف قلمي، كأنني أقدّم توقيعًا على عهدٍ في قلبي: أن أظلّ، بكل ما أملك من جهد وفكر، مُنتظرًا اليوم الذي يُحتفل فيه دستور مصر ليس بكونه نصًّا معتمدًا، بل كقِيَمٍ حية تُمارَس في كل بيت، وفي كل قرار، وعلى كل لسان.

أوراق ليبرالية (٣)

الليبرالية كما أفهمها:
بين الإيمان والحرّية والحضارة المصرية

هذه الأوراق ليست بحثًا في الفلسفة ولا درسًا في الفكر، بل رحلةٌ في إنسانيّة العقل. محاولة لإعادة تعريف وفهم الليبرالية المصرية، لا بوصفها نظرية أو حزبًا أو لافتة، بل روحًا أخلاقيةً تبحث عن الحقيقة والجمال، وتؤمن أن الكلمة الحرة مسؤوليّة، وأن المثقف هو ضمير مجتمعه حين يغفو، وصوته حين يختنق الهواء بالكتمان.

۞ اندهش ممن يستغرب، انشغالي بمشروع المركز الثقافي المصري في اسطنبول ولا يفهم الرسالة كرساله جوهرية وليست ثانوية

فحين تضطرب البوصلة، يقف المثقف على الحافة بين الخوف والرجاء، لا ينبغي أن يكتفي بالمراقبة من بعيد، أو يلوذ فقط بالنقد او بالصمت، بل يختار أن يكتب ان يفعل وأن يُوجِع بالصدق في اجاده العمل.

فالثقافة التي لا تمسّ الوطن، ولا تدعم ثقته في قدرة وقدرته، ليست ثقافة، والوعي الذي لا يغيّر شيئًا في الواقع ليس وعيًا بل لغوا.

❁ لم يعرف المثقف المصري في تاريخه خصومةً بين الحاضر والماضي، بين الإيمان والحرية، ولا بين العقل والضمير. وُلد كثيرٌ من أبرز مفكرينا ومثقفينا، في رحاب الأزهر، وقرأوا كتب التراث كما قرأوا كتب الفلسفة، دون أن يشعروا بتناقضٍ بين الاثنين.

❁ فالليبرالية المصرية كانت دائمًا جسرًا من الأخلاق والإنسانية، تسير في الاتجاه ذاته الذي سارت فيه رسالة الأديان، نحو التسامح، والصدق، والعدل، واحترام الإنسان وتقدير كرامته فوق كل القيم الأخرى.

❁ ليست الليبرالية صراعًا مع الدين، كما يتوهم البعض، بل استكمالٌ لجوهر قيمه، في بعده الإنساني. فكلّ القيم التي بشّرت بها الديانات الكبرى ـ من الرحمة إلى الحرية إلى قبول الآخر ـ هي قلب الفكرة الليبرالية.

يؤمن الدين بالمسؤولية الفردية، وبأن الإنسان حرّ ما دام صادقًا مع نفسه، مسؤولًا أمام ضميره ومجتمعه. وتقدم الليبرالية خارطة تنفيذية للكثير من الإشكاليات المعاصرة، المرتبطة لزوما بهذا التوجه الكلي

❁ أزمة المثقف الحقيقة، لا تكمن في نقص المعرفة، بل في غياب الرسالة الكلية والانشغال بالتفاصيل.

فحين تتحوّل الكلمة إلى زينة، ويفقد الفكر ضميره، تنكمش الثقافة الحقيقة في قاعات مغلقة، وشعارات مفرغه، ويغدو المثقف شاهدًا لا فاعلًا.

بينما المثقف الحقيقي هو من يربط فكره بعمله، ويحمل وعيه كجسرٍ للآخرين، لا كمنبرٍ لنفسه. كما يفعل بعض نجوم الوان مان شو على شاشات التلفزيون ومنصات التواصل في تقاطع أكثر منه تواصل.

❁ المثقفون الذين صنعوا ضوء هذا الوطن لم يكونوا يومًا منفصلين

عن الناس. عاشوا آلامهم، وكتبوا من وجدانهم، وآمنوا أن الحرية ليست رفاهيةً فكرية، بل شرطُ كرامة الإنسان.

الليبرالية في وجدانهم لم تكن شعارًا سياسيًا، بل سلوكًا أخلاقيًا قوامه الصدق، والعدل، والرحمة، والجرأة على قول الحقيقة دون خصومةٍ مع أحد.

ودون معايره للناس بضعفهم او معايدة عليهم.

۞ حين بدأنا في تأسيس المركز الثقافي المصري في إسطنبول، لم نرد له أن يكون جدرانًا أو قاعاتٍ فقط للعرض،

بل مساحةً لليقظة؛ مكانًا يلتقي فيه الفكر بالذوق، والفن بالعقل، والهوية بالحلم. أردناه بيتًا للثقافة المصرية الحرة التي تؤمن بأن الإبداع لا يعيش إلا في مناخٍ من التسامح والاحترام المتبادل.

۞ الليبرالية التي نؤمن بها لا تعادي الإيمان، بل تُسير خلفه في بعده الإنساني. فهي قيم الحقّ والعدل والصدق والحرية، قيمٌ تصنع مجتمعًا يُكرّم الإنسان لأنه إنسان، لا لأنه يشبهنا أو يوافقنا.

أقول للمثقفين في مجال الإعلام وهم قلة القلة

المثقف الحقيقي يكتب ويتحدث ليقرّب المسافات بين المختلفين، لا ليُشيّد الأسوار بينهم، ويؤمن أن الحوار ليس ضعفًا، بل ذروة القوة.

ونحن في مجتمعاتنا أهل حوار.

۞ كل كلمةٍ حرةٍ تخرج من قلبٍ نزيهٍ هي فعلُ إيمانٍ بوجهٍ آخر. فالإيمان والحرية لا يتناقضان إلا حين يُفرّغهما البعض من جوهرهما. والليبرالية، حين تلتزم بالصدق والشفافية والعدل، لا تسير خارج طريق الأديان، بل في موازاته، نحو الغاية نفسها: إنسانٌ أكرم، ومجتمعٌ أعدل، ووطنٌ أصدق.

❁ الليبرالية ليست دينا ولا إيمانًا جديدًا، ولا حتى ايدلوجية تتصادم مع غيرها، بل ضميرٌ يذكّرنا بما نسيناه.

المثقف الليبرالي لا يرفع سيفًا، ولا يطلق شعارًا، بل يزرع كلمةً تشبه البذرة في أرضٍ عطشى. يؤمن أن الشمس ـ وإن غابت ـ لا تموت، وأن الحرية، كالإيمان، تحتاج فقط إلى من يصدقها... ليولد النور من جديد.

أوراق ليبرالية (٤)

ثلج ساخن.. ليبراليتهم المغشوشة

هل هناك ليبرالية حقيقية وأخرى مغشوشة؟ وهل العيب في الفكرة ذاتها، أم في من يرفعون رايتها بأيدٍ مرتجفة وقلوبٍ خاوية من معناها؟ أسئلةٌ تبدو بسيطة، لكنها تحمل كلَ وجع اللحظة، وتفضح ما تراكم من التباسٍ وتزييفٍ لقيمٍ نادت بها مصر قبل أن تعرفها أوروبا على حقيقتها. أعترف أنني حين أطرح هذه الأسئلة، فإنني لا أبحث عن جوابٍ مجهول، بل أختبر ضميري الذي يعرف مسبقًا أن الأزمة ليست في الليبرالية، بل في أولئك الذين يتخفّون وراءها، كما يتخفّى الديكتاتور في ثوب الديمقراطي، والمستبد في عباءة الحرية.

أزمة التيار الليبرالي المصري ليست وليدة اليوم، بل هي ممتدة في بعمق التاريخ السياسي، منذ أن تحوّل بعض المنتسبين إليه إلى عابري سبيلٍ في محطة «الترانزيت السياسي»، دخلوا من باب الليبرالية الرحب ليخرجوا من نوافذ الشمولية، مستغلين اتساع إطارها الأخلاقي والفكري ليبنوا لأنفسهم مواقف مؤقتة، قبل أن يخلعوا عنها رداءها حين تحين لحظة البيع. كما حدث مع الطليعة الوفدية قبل عام ١٩٥٢، تلك الحركة التي كانت يسارية الهوى والعقل، لكنها لبست معطف الوفد حين كان هو قمة الهرم الليبرالي المصري. وحين اشتد العود، تركت الوفد واتجهت إلى يسارٍ أكثر حِدّة، غير مدركة أن الخروج من بيت الليبرالية لا يعني الانتقال إلى

الحرية، بل إلى نفقٍ آخر من الأدلجة والوصاية.

ثم أعاد التاريخ نفسه في التسعينيات، حين انهار جدار برلين وتحلّل الاتحادالسوفييتي، فوجدت قوى شمولية وشخصيات كثيرة نفسها في العراء، تبحث عن مأوى فكري مؤقتٍ جديد، فاستظلّت بظل الليبرالية، لا حبًا فيها، بل هروبًا من ماضيها اليساري. غير أنها لم تدخلها بالقيم التي خرجت بها منها،

بل عادت وهي أسيرة الشمولية القديمة، محمّلة بقيمٍ تُنافق الحرية ولا تؤمن بها، تُصفّق للحكم العسكري وتُزيّنه بعباراتٍ منمّقة عن «الاستقرار» و«أولوية الدولة». فأي ليبراليةٍ تلك التي تدافع عن سلطةٍ تُكمم الأفواه، باسم الوطن؟

وأي وطنٍ يُبنى فوق جثث الحرية وخرائب الضمير؟

أحمد لطفي السيد، رائد الليبرالية المصرية قال:

«الحرية ليست ترفًا، بل هي الغذاء الضروري للحياة»،

لكنّ ليبراليي الترانزيت جعلوها كمالياتٍ موسمية تُستعار حين تنفع، وتُنسى حين تُضرّ بالمصالح.

هم الذين يتحدثون عن الدولة المدنية وهم يبايعون الجنرال، ويهتفون باسم الديمقراطية وهم يُبررون القمع، ويُدينون الإقصاء وهم يمارسونه بشراهةٍ تحت شعار

«من ليس معنا فهو ضدنا».

إنها معادلة ثلج ساخن، التي يتقنها أدعياء الليبرالية كما يتقن المنافق تلاوة القيم بلسانٍ لا يعرف معناها.

لقد كانت ثورة يناير لحظة الحقيقة. جمعت الليبرالي والإسلامي واليساري في خندقٍ واحدٍ ضد الاستبداد، ثم فرّقت بينهم لحظة النصر

الزائف، حين بدت الحقيقة عارية: لم يكن الجميع أبناء الحرية نفسها. فمنهم من أرادها وسيلة، ومنهم من آمن بها غاية.

وما بين ١١ فبراير و٣ يوليو، اتسعت الهوة بين ليبراليةٍ تؤمن بالإنسان، وأخرى مغشوشةٍ تضع يدها في يد منتهي حقوق الإنسان بدعوى مواجهة الخطر الأكبر.

لكن ماذا بقي من الحرية حين يصبح الخوف منها مبررًا للاستبداد؟

وماذا بقي من الليبرالية حين تُدار بالأجهزة وتُحكم بمنطق المخبر؟

تلك اللحظة المريبة، حين ذابت وجوه النظام القديم في تحالفٍ أُطلق عليه ـ زورًا ـ «تحالف القوى الليبرالية والمدنية»، كانت إعلان وفاةٍ مؤقتٍ للفكرة التي ولدت على يد حسن العطار والإمام محمد عبده وطه حسين وسلامة موسى وعلي عبدالرازق

أولئك الذين فهموا أن الحرية لا تستقيم مع الجهل، أن يفرض حكمًا بعينه، وأن الفكر لا يزدهر في سجون الرأي.

طه حسين قال: «الحرية لا تستقيم مع الجهل»، والعقل المصري لن يُثمر ما دام خائفًا»، وقال علي عبدالرازق: «السياسة شأنٌ مدني يقرره الناس لمصالحهم لا نصّ فيه من السماء». فأين ذهب هؤلاء من عقول من يتحدثون اليوم باسم الليبرالية؟ كيف ترفع شعار الحرية وأنت تكمم فم خصمك؟

وكيف تنادي بالمواطنة وأنت تبرر التمييز وتُقسم الدماء بين أحمر وأزرق؟ الحرية ليست اختيارًا انتقائيًا، بل مسؤولية أخلاقية لا تتجزأ.

الليبرالية الحقيقية لا تقبل بالتجزئة، ولا بالانتقاء، ولا بالمقايضة على حساب المبادئ. فهي التي ترفض الظلم ولو نزل على عدو، وتُدين القمع ولو وقع على خصم. هي التي ترى في كل إنسانٍ قيمةً قائمة بذاتها، لا في نسبه ولا في مذهبه ولا في انتمائه السياسي. أما الليبرالية المغشوشة

فهي كالسلاح الفاسد، تصيب صاحبها قبل خصمه، تُستخدم بعض أدوات الاستبداد لتُدير معارك الديمقراطية، وتُنفق طاقتها في «معارضة المعارضة» بدل أن تواجه النظام. هي ليبراليةٌ تبيع المبادئ في أسواق الخوف، وتشتري الصمت بأثمانٍ من دماء الأبرياء.

وأعجب، بل أكاد أستشيط، من أولئك الذين يرفعون اللافتة الليبرالية ولا يتعاطفون مع شعبٍ محتلٍّ أو أرضٍ تُغتصَب. الذين لا يرون في مأساة غزة أو السودان أو سوريا سوى مشهدٍ سياسيٍّ يُدار عن بُعد، دون أن يرتجف ضميرهم أمام طفلٍ تحت الأنقاض أو وطنٍ يُباد. هل الليبرالية ضد الإنسان إذا كان فقيرًا أو مُستعمَرًا؟ هل الحرية حكرٌ على الشعوب التي تملك حسابًا مصرفيًا في الغرب؟ إن من لا يتألم لمأساة الآخر لا يملك قلبًا ليبراليًا، بل حسابًا مصرفيًا فقط.

بعض من يسمّون أنفسهم ليبراليين يفضّلون أن تكون الحرية حكرًا على النخبة، وأن يُدار الشعب بالوصاية الابوية، كأننا لم نتعلم شيئًا من دروس التاريخ.

فالليبرالية المصرية الحقيقية كانت ابنة هذا الشعب وليست أبا له، ولا وصيًّا عليه، خرجت من الأزهر والمدرسة والمقهى والميدان، ولم تتصادم يومًا مع الإيمان أو الأخلاق، بل سارت في اتجاه رسالتها الكبرى: من التسامح إلى القبول بالآخر، ومن الشفافية إلى العدالة، ومن الإيمان بكرامة الإنسان إلى تقديس حريته.

أما الذين يجعلون منها رداءً سياسيًا مؤقتًا، يلبسونه في لحظةٍ ويخلعونه في أخرى، فهم كمن يستأجر بيتًا لا يسكنه. التاريخ لا يمنح «إيجارات طويلة» لأصحاب النوايا المؤقتة. إن الليبرالية ليست محطة انتظار، بل طريقٌ طويل لا يُقطع إلا بالصدق، ولا يُختصر إلا بالثمن الأخلاقي الباهظ الذي يدفعه الأحرار وهم يدافعون عن قيمهم حتى النهاية.

إن المسافة بين الليبرالية الحقيقية وتلك المغشوشة هي المسافة

نفسها بين حازم الببلاوي عام ١٩٩٣ ـ حين كتب كتيب هام عن « الديمقراطية الليبرالية» ـ وحازم الببلاوي الذي ظهر عام ٢٠١٣ رئيسًا لحكومةٍ أطلقت الرصاص على صدر الفكرة التي كتبها بيده.

الأول كان يكتبُ نصًا في فضيلة الحرية، والثاني كان يكتب تاريخًا في نفيها!

هكذا تتجلى المأساة:

أن يتحول الكاتب إلى نقيض كتابه، والمفكر إلى عدوّ فكرته. والمذيع في حياته نقيضا عاريا عما يظهر به علي شاشته!

أستعيد كل يوم سيرة استاذي الذي لم أراه مصطفى النحاس، ملاك الوطنية المصرية، الذي درستُ تاريخه طويلًا حتى أدركت حكمته في رفضه للحكومات الائتلافية مع من يرفعون الشعارات الليبرالية ولا يؤمنون بها.

كنت أظنه موقفًا متشدّدًا، حتى عرفت أنه كان موقفًا من الجوهر لا من الأشخاص، من الفكرة لا من السياسة. فالنحاس كان يعرف أن الليبرالية لا تُقاس بما يُقال في خطاباتها، بل بما يُفعَل في المِحنة، وأن من يتنازل عن الحرية تكتيكًا يخسرها استراتيجيًا.

الليبرالية الحقيقية ليست شعارًا على لافتة، بل ميثاق شرفٍ فكريٌّ وأخلاقيٌّ وإنسانيٌّ، فحسب فهي تدور وجودا وعدما مع العقل والحق ولو كان مُرًّا،

وتُعارض ـ او تساند ـ ولو كان الثمن غاليًا،

وتبقى على صدق العهد والكلمة

ولو سقط من حولها الجميع.

وتظل الليبرالية المصرية ـ كما فهمها الأوائل وكما نحلم بها

اليوم ـ قيمًا لا تُشترى ولا تُباع، لا تُؤجَّر ولا تُستعار، هي التقاء الإيمان والعقل، بالأخلاق والسياسة،

هي الوعد القديم الذي قطعه المصريون لأنفسهم يوم قالوا: «لا حرية بلا كرامة، ولا كرامة بلا عدالة، ولا عدالة بلا إنسان».

أوراق ليبرالية (٥)

الليبرالية والسلطة بين الحلم والخذلان

لم تكن الليبرالية في مصر نزوة فكرية أو موضة ثقافية عابرة؛ كانت، وما زالت، محاولة شجاعة لتوحيد العقل بالضمير، والحرية بالمسؤولية. انطلقت من حلم وطني أصيل، يربط بين الإصلاح السياسي والعدل الاجتماعي، بين الدولة المدنية الحديثة والإيمان العميق بقيمة الإنسان. غير أن هذا الحلم، كلما اقترب من التحقق، اعترضته لعنة السلطة، فأُغرِق في بحرٍ من الخذلان والترويض.

بين الحلم الأول الذي حملته طلائع التنوير من سعد زغلول إلى لطفي السيد وطه حسين، وبين واقعٍ محبطٍ تُمارس فيه السياسة بوصفها إدارة للخوف لا للحرية، تبدو الليبرالية المصرية كطائرٍ فقد توازنه بين جناحيه: الحرية التي يخشاها الحاكم، والعقلانية التي يجهلها الشارع.

كلما اقتربت الليبرالية من الحكم، تفقد براءتها. وكلما ابتعدت عن الناس، تفقد معناها. فالتحدي الحقيقي أمام الفكر الليبرالي لم يكن يومًا في صدامه مع السلطة وحدها، بل في قدرته على أن يبقى ضميرًا حيًا للمجتمع، لا تابعًا للسلطان ولا ناطقًا باسم الممولين.

مأساة الليبرالية العربية، والمصرية بخاصة، أنها عاشت طويلًا تحت مظلة الخوف، حتى تحوّل بعض مناصريها إلى موظفين في مؤسسات

الاستبداد، يبرّرون الكبت باسم الدولة، ويغلفون القهر بشعارات الأمن القومي. وهكذا تحولت الفكرة، التي وُلدت لتكون جسرًا إلى الحرية، إلى درعٍ يبرّر القيود.

ليست الليبرالية خصمًا للدين، بل امتدادًا لأخلاقياته العادلة، وإيمانها بالحرية نابع من إيمانها بالكرامة التي منحها الله للإنسان. ولذلك فإنها لا ترفض الإيمان، بل ترفض استغلاله. ولا تناهض القيم، بل تدافع عن حق كل إنسان في أن يختار قيمه بوعيٍ وحرية.

الليبرالية ليست حزبًا ولا شعارًا، بل مشروع إصلاح متجدد. مشروع يُعيد بناء الدولة على أساس التوازن بين السلطة والرقابة، وبين الحرية والنظام، وبين الاقتصاد والعقلانية الاجتماعية. مشروع يعيد المواطن إلى مركز المعادلة السياسية، بدل أن يظلّ مجرد تابعٍ أو متفرّج.

في زمن الخداع الكبير، حيث تُباع الأفكار في المزادات، تحتاج مصر إلى الليبرالية أكثر من أي وقت مضى. تحتاجها كمنظورٍ واقعي للإصلاح، وكحلٍّ سياسيٍ أقرب إلى منطق العقل المصري وظروفه الموضوعية. فالإصلاح لا يولد من رحم الأيديولوجيا المغلقة، بل من فكرٍ مرنٍ يؤمن بالمشاركة، والمساءلة، والتوازن بين الحرية والعدالة.

الليبرالية هي الحل، لا لأنها معصومة، بل لأنها الأنسب لعقلٍ يكره الغلوّ ويبحث عن الوسطية، ولواقعٍ أنهكه الصراع بين الاستبداد والفوضى. هي الطريق الذي يُصلح دون أنْ يهدم، ويُغيّر دون أن يحرق، ويعيد بناء الدولة على أساسٍ من الشفافية، والعدالة، واحترام الإنسان.

مستقبل مصر لن يُصنع بالشعارات، بل بالعقول التي تؤمن أن الحرية ليست ترفًا، وأن الوطن لا يُدار بالخوف، وأن الإصلاح الحقيقي يبدأ من الفرد قبل النظام، ومن الوعي قبل القرار. تلك هي روح الليبرالية التي نحلم بها: وعيٌ يحمي، لا وعيٌ يُخدّر.

قد تكون هذه الورقة خاتمة لسلسلة أوراق ليبرالية، لكنها ليست خاتمة الحلم. فالأفكار لا تموت، بل تنتظر من يؤمن بها. وإن خذلتها السلطة أو باعها بعض أبنائها، ستظل الليبرالية المصرية النواة الأصدق لمشروع نهضةٍ ممكنة، قوامها الإنسان، وغايتها الكرامة، ووسيلتها الحرية المسؤولة.

وها أنا أختتم هذه الأوراق بما بدأتُ به يوم كتبتُ أولها في مطلع التسعينات:

الليبرالية هي الحل ـ لا بوصفها شعارًا سياسيًا، بل لأنها الطريق الأقرب إلى الإصلاح، والأقدر على مصالحة مصر مع نفسها، ومع عقلها، ومع مستقبلها الذي يستحق أن يكون حرًا



أوراق ليبرالية (٦)

هبوط الإنسان المصري على سلم الوعي وصعود التخلف والإصلاح الـــمؤجّل

ما زلتُ أؤمن أن الليبرالية ليست مذهبًا سياسيًا، بل طريق خلاصٍ للإنسان المقهور. فهي تبدأ من الوعي وتنتهي بالكرامة، وتعيد تعريف العلاقة بين المواطن والدولة، بين الحرية والمسؤولية، بين الفكر والواقع. هذه الورقة ليست درسًا في الفلسفة، بل محاولة لفهم العطب الذي جعل المصري ـ لعقود ـ يسكن قفصًا مفتوح الباب، يهاب الخروج لأنه لم يتعلّم كيف يطير.

لا تبدأ الحكاية من الاقتصاد، ولا تنتهي عند السياسة. تبدأ من الإنسان ذاته، من ذاك الكائن الذي تعلّم الخضوع أكثر مما تعلّم السؤال، وأتقن النجاة بالصمت أكثر مما تمرّس في التعبير. إنّ مأزق مصر ليس نقصًا في الموارد، بل في الإرادة. ليس في فقر الخزائن، بل في فقر الوعي، وفي قهرٍ مزمنٍ تسرّب إلى النفوس حتى صار جزءًا من الملامح.

الإنسان المقهور ليس شخصية رمزية في كتاب علم نفس اجتماعي، بل هو مواطن واقعي يعيش بيننا، يبتسم خوفًا، ويصمت دهشة، ويكذب ليحيا. يتنازل عن حقه في الحلم لأنه أُقنع أن الحلم رفاهية، وأن العدل خرافة، وأن الحرية مؤامرة. وهكذا يصبح الاستبداد ليس سلطةً

فقط، بل ثقافةً كاملة تتكاثر بالوراثة، وتُغرس في المدارس والبيوت والإعلام.

حين تتحوّل السلطة من أداة للحكم إلى أداة للهيمنة، تنكسر الإرادة العامة. وعندما يخاف المواطن من الدولة أكثر مما تخاف الدولة من المواطن، يصبح الخوف دستورًا غير مكتوب. عندها يوجّه الإنسان قهره لا إلى الجلاد، بل إلى نفسه، إلى جاره، إلى زوجه، إلى العامل الذي يسبّ الحياة لأنه لا يستطيع سبّ الحاكم. تلك هي العدوانية الأفقية التي تلد مجتمعًا يتصارع في القاع بدل أن يصعد إلى النور.

لا يمكن أن نتحدّث عن إصلاحٍ حقيقي ما لم نُعد بناء الإنسان الحرّ الواعي. فكلّ إصلاحٍ اقتصادي لا يقوم على إصلاحٍ ثقافيّ وفكريّ وإنسانيّ، هو ترميم لجدارٍ يتهاوى. الليبرالية، في جوهرها، ليست شعارًا غربيًا ولا نظرية سياسية باردة، بل هي دعوة لتحرير الإنسان من الخوف، من التبعية، من تقديس السلطة، من تحويل المواطن إلى رقمٍ في سجلّ أو تابعٍ في طابور.

الإصلاح الذي تحتاجه مصر ليس برنامجًا إداريًا ولا مشروعًا حكوميًا عابرًا، بل ثورة وعي. إصلاح يبدأ من التعليم لا من القرارات، من احترام الفرد لا من تزيين الشعارات، من إعادة الاعتبار للعقل لا من ترديد الأوامر. فحين يتحرّر العقل من القيد، يتحرّر الاقتصاد من العجز، وتتحرّر السياسة من الوهم، ويولد الإنسان الجديد الذي يعرف أن الكرامة ليست منحة، بل حقٌّ لا يُوهب ولا يُسلب.

ليس التخلف قدرًا، بل نتيجة. وليس الإصلاح حلمًا، بل مسار. إنّ الطريق إلى المستقبل يبدأ من مرآة الذات، حين يجرؤ كل مصريّ على أن يسأل نفسه: ما الذي يمنعني من أن أكون حرًا؟ وما الذي يجعلني أقبل الهوان وكأنه سلام؟ تلك الأسئلة هي مفاتيح الخلاص. فحين يتحرّر الوعي، يسقط القهر، ويُبعث الوطن من جديد، كما يُبعث القلب بعد موتٍ طويل.

أوراق ليبرالية (٧)

أنا والحب (١)

ما كنتُ يومًا أبحث عن تعريفٍ للحب،

لأنّ التعريف يقزّمه، ويضعه في قفصٍ من كلماتٍ لا تسعه. كنتُ أفتّش عنه كمن يفتّش عن ظلّه في ضوءٍ ساطع، وكمن يريد أن يلمس الريح ليطمئنّ أنّها موجودة.

الحبّ ليس وردةً تُقطف، ولا وعدًا يُقال، ولا قبلةً تُؤجّل، بل هو نَفَسٌ مشترك بين قلبين تعلّما كيف يعيش أحدهما من دون أن يخنق الآخر. ليس ذوبانًا، بل امتدادٌ ناعمٌ بين ذاتين احتفظتا بحدودهما، واحترمتا اختلافهما كما يحترم الليل وعده للفجر بالرحيل.

ما أجمل أن يكون في الحبّ صمتٌ يشبه الفهم، أن ينتهي الحديث لأنّ الكلمات استُهلكت في الطريق إلى الطمأنينة. ذلك الصمت الذي لا يوجع، بل يحتضنك كيدٍ تعرف متى تمسك ومتى تترك.

الحبّ في جوهره امتحانٌ للحرية: أن تحبّ دون أن تملك، وأن تُعطي دون أن تُذلّ، وأن ترى في الآخر نفسك من غير أن تضيع فيها. لا تذوب لتختفي، بل لتُضيء.

حين قالت: «ليس الحب وعدًا بالبقاء، بل نيّة ألّا تؤذي قلبًا ائتمنك يومًا على نفسه»، أحسستُ أنّها اختصرت الحكمة كلّها. فالمحبّ

الشريف لا يقيس نفسه بمدى بقائه، بل بنقاء أثره بعد الرحيل.

لذلك أقول: الحبّ لا يموت حين يغيب الجسد، بل حين يتلوّث الأثر. فابقوا أنقياء كما بدأتم، ولا تجعلوا الودّ يشيخ في قلوبكم.

الحبّ في جوهره أقرب ما يكون إلى فكرة الحرية المسؤولة؛ تلك التي لا تُهدم بالأنانية، ولا تُبنى على التملّك. الحرية ـ كالحب ـ لا تُمنح لمن يريد أن يستعبد بها أحدًا، بل لمن يُدرك أنّ كل روحٍ أمانة، وكل قلبٍ مساحة مقدّسة لا يجوز اقتحامها باسم الودّ أو الشغف.

في الحبّ كما في السياسة، يخطئ من يظنّ أنّ السيطرة دليل القوّة، أو أنّ التبعية دليل الوفاء. الحبّ لا يعرف المستبدّ ولا المقهور، بل يعرف التوازن بين عطاءٍ طوعيٍّ وكرامةٍ مصونة. كل علاقةٍ لا تحفظ حرية الطرفين تتحوّل إلى سجنٍ جميل الجدران، قاتلٍ للمعنى، مهما امتلأ بالوعود.

من هنا يصبح الحبّ ـ في أسمى تجلياته ـ تدريبًا يوميًّا على الليبرالية بمعناها الإنساني، لا الحزبي. أن تُحبّ يعني أن تؤمن بحقّ الآخر في أن يكون نفسه، أن يختلف، أن يبتعد، أن يعود، دون أن تشعر أنّك فقدتَه، لأنّك لم تملكْه أصلًا.

وتمامًا كما نؤمن أنّ الوطن لا يُبنى بالولاء الأعمى، بل بالاختلاف الشريف، كذلك الحبّ لا يُزهر بالذوبان، بل بالاحترام. لا وطن بلا حرية، ولا حبّ بلا كرامة.

لذلك أكتب هذه الورقة لا لأُعرّف الحبّ، بل لأعتذر له عن كلّ من جعله شعارًا للأنانية أو ذريعةً للسيطرة. فالحبّ ـ كما الحرية ـ لا يعيش إلا في قلبٍ نبيلٍ يعرف متى يُمسك، ومتى يُطلق سراح الطير.

ما أجمل أن يُغلق الحبّ دائرته على همسةٍ لا تُقال... أن يبقى في القلب كقصيدةٍ لم تكتمل، وكوعدٍ لا يريد أن يُكسر.

أحيانًا، يكون أجمل ما في الحبّ أنّه لم يحدث كما تمنّينا، لأنّ النقصان هو الذي يُبقي الوجدان يقظًا، والحنين حيًّا. فالكمالُ موتٌ مبكّر، والعشقُ ـ حين يكتمل ـ ينتهي إلى سكونٍ لا يشبه الحياة.

أحببتكِ كما يحبّ النهر ضفّتَه البعيدة، يراها كل يوم ولا يصل. تركتُ لكِ في روحي مقعدًا لا يجلس عليه أحد، لأنّ بعض الغياب أجمل من كلّ الحضور.

لهذا أؤمن أن الحبّ الحقيقي ليس أن نكون معًا، بل أن نكون أحرارًا في أن نختار ألا نؤذي. وأن نُبقي الأثر طيّبًا، كما تبقي النار دفئها في الرماد، لا لهيبها في اللهب.

ما أبهى أن نُحبّ كما تُصلّي الطيور عند الفجر: بصمتٍ، وارتجافٍ، وصدقٍ لا يُرى...

ذلك هو الحبّ الذي لا يموت،

بل يتحوّل ـ مع كل فجرٍ جديد ـ

إلى معنى آخر من معاني الحرية.



أوراق ليبرالية (٨)

أنا والحب (٢)
نعم، أُحبّ... لأنّي لا أكره

سألني صديقٌ ذات مساء:

- لماذا تُحبّ فلانًا رغم كل ما فعله بك؟

ابتسمتُ، ولم أُجب فورًا، لأنّ الجواب على هذا السؤال لا يُقال بعبارة، بل يُكتَب بعمرٍ كامل من التجربة.

نعم، أُحبّ... لأنّي لا أكره.

فالكراهيةُ ـ كما تعلّمتُ ـ سجنٌ آخر لا يقلّ قسوةً عن سجن الحديد،

وأنا الذي خرجتُ من الجدران الظاهرة، لا أريد أن أبقى أسيرَ الجدران الخفية في صدري.

الحبّ ـ في جوهره ـ ليس مكافأةً ولا استحقاقًا،

بل شجاعةُ أن تظلّ إنسانًا حين يُراد لك أن تكون نسخةً من قسوة الآخرين.

أن تحبّ يعني أن تُبقي قلبك طريًّا في عالمٍ خشن،

أن ترفض منطق «العين بالعين»، وأن تؤمن أنّ البصيرة أجمل من

البصر.

لا أحبّ فلانًا لأنّه لم يُخطئ، بل لأنّي لا أريد أن أُخطئ مثله.

ولا أسامحه ضعفًا، بل قوّةً تجعلني أكبر من جُرحٍ أراد أن يصغّرني.

إنّ الذين يظنّون أنّ التسامح ضعفٌ، لا يعرفون أنّ الكبرياء الحقّ هو أن تُطفئ النار التي تلتهمك، لا أن تزيدها وقودًا.

منذ زمنٍ بعيدٍ أدركت أنّ الحبّ ليس نقيض الكراهية فحسب، بل علاجها الوحيد.

فالقلب الذي يكره لا يسكنه الله، ولا يسمع صوته.

والمجتمع الذي يُربّي أبناءه على الكراهية لن يعرف يومًا طعم العدالة أو السلام.

لهذا أومن أنّ حبّ الإنسان للإنسان، وحبّ الوطن لأبنائه، وحبّ الحاكم لشعبه ـ إن وُجد ـ

هي درجاتٌ من الإيمان بالحرية نفسها،

حرية ألا نؤذي، وألا نُقصي، وألا ننتقم.

في الليبرالية، كما في الحبّ، المبدأ واحد:

أن يكون الآخر مختلفًا،

ولا يزال جديرًا بالاحترام، وبالرحمة، وبالحقّ في أن يكون.

ليست الحرية أن أُشبهك، بل أن أختلف عنك دون أن تكرهني.

وليست المحبّة أن تذوب فيّ، بل أن ترى في اختلافنا جمالًا لا تهديدًا.

لذلك حين أقول: «نعم، أُحبّ»،

فأنا لا أُعلن عاطفةً، بل أُعلن موقفًا فكريًّا ـ

موقفًا من الحياة، من الناس، من الوطن، من الله.

الحبّ في قاموسي ليس نزهةً بين قلبين،

بل ثورةٌ ضد القسوة، وضد فكرة أنّ القلوب تُغلق كالأبواب.

أُحبّ لأنّي أؤمن أنّ الكراهية بداية كلّ استبداد،

وأنّ أول طاغيةٍ يسكننا هو الحقد.

من أحبّ الناسَ لا يظلمهم، ومن أحبّ الحرية لا يقهرها،

ومن أحبّ الحياة لا يقتلها باسم الدين أو الوطن أو العشق.

لستُ قدّيسًا، لكنّي تعلّمت أن أحبّ حتى الذين آلموني،

كما يُربّت الطبيب على الجرح قبل أن يُضمّده،

لأنّ الشفاء لا يبدأ إلا من اللمس،

ولا تنطفئ النار إلا حين تُقابلها بالماء.

أُحبّ لأنّ الله لم يخلق قلبي ليكون مقبرةً للأحقاد،

بل جسرًا يعبر عليه النور نحو الغفران.

وأُحبّ لأنّ في الحبّ حياةً أطول من أعمارنا،

ونورًا أبقى من كلّ ليلٍ سياسي أو إنساني.

لذلك أكتب هذه الورقة امتدادًا لما بدأته في أنا والحب،

فإن كانت تلك الورقة حديثًا عن الحبّ كقيمةٍ إنسانية،

فهذه حديثٌ عن الحبّ كفلسفةٍ في الحرية.

وما بين الإنسان والحرية،

تبقى الكراهيةُ هي الجدار الأخير الذي يجب أن نسقطه،

قبل أن نُعلن أنفسنا أحرارًا بحقّ.

نعم، أُحبّ... لأنّي لا أكره.

لأنّني لا أريد أن أكون شبيهًا بمن أوجعني.

ولأنّني أدرك، في لحظة صفاءٍ نادرة،

أنّ الحبّ ـ وحده ـ هو الطريقة الوحيدة

لكي ننتصر دون أن نُهزم.



أوراق ليبرالية (٩)

أنا والحب (٣)
أحبّ... إذن أنا حيّ

هل نحبّ لأننا أحياء؟ أم نحيا لأننا نحبّ؟

سؤال يلد نفسه كلّما اقتربتُ من المرآة، أو من فكرةٍ تُذكّرني أنّ ما يبقينا في هذا العالم ليس الرئة ولا العقل، بل ذلك الخيط الخفيّ الذي يربطنا بما نُحبّ.

الحبّ ليس رفاهية العاطفة، بل مقاومةٌ صامتة للموت، تمرّدٌ ناعمٌ على القسوة، إعلانٌ صغيرٌ بأنّ في القلب بقية ضوءٍ لم تُطفئها العصور.

هو النبض الذي يُذكّرني أنني ما زلتُ إنسانًا، رغم ما رأيتُ من لامبالاة، ورغم هذا العالم الذي يزداد تيبّسًا كأنّه فقد الإحساس.

كلّ ما نفعله في الحياة هو بحثٌ عن شكلٍ من أشكال الحبّ:

حبّ الحقيقة، حبّ الوطن، حبّ الحريّة، حبّ الله...

والذين يتوهّمون أنّ الحبّ ضعفٌ لم يفهموا بعد أنّه طاقةُ الخلق الأولى، وأنّ الكون لم يبدأ بأمرٍ ولا بصرخة، بل بنبضة حبٍّ قال الله فيها: «كن».

أحبّ لأنّ الحبّ هو الإيمان الوحيد الذي لا يحتاج إلى وسيط.

هو الدِّين الذي لا يُكفّر أحدًا،

والثورة التي لا تُريق دمًا،

والحكم الذي لا يُعاقب أحدًا على اختلافه.

في الحبّ كما في الليبرالية، الحقيقة واحدة:

أن تُقدّس حرّية الآخر كما تُقدّس قلبك.

أن تحبّ المختلف لا لأنّه يُشبهك، بل لأنّه يُكملك.

أن تدرك أنّ التنوع ليس خطرًا على الوجود، بل شرطًا له.

فكلّ حبٍّ يُصادر حرية المحبوب، هو استعمارٌ للعاطفة،

وكلّ حريةٍ لا تعرف الحبّ، هي فراغٌ بارد لا يُنبت حياة.

في زحمة هذا العالم الذي يزرع الكراهية في المدارس،

ويعلّم الأطفال كيف يخافون لا كيف يحبّون،

أكتب هذه الورقة لأقول: إنّ الحبّ آخر ما تبقّى من الإنسان فينا.

من لا يُحبّ لا يعرف الله،

ومن لا يعرف الله لا يعرف نفسه،

ومن لا يعرف نفسه لا يعرف الطريق.

أحبّ... لأنّ الحبّ يجعلني أرى الأشياء بعيونٍ أرحب،

ويمنحني شجاعة أن أُسامح نفسي والآخرين،

وأن أبدأ كلّ يومٍ كما لو أنّ العالم خُلق للتوّ.

الحبّ لا يُنقذنا من الألم، لكنه يُعطيه معنى.

لا يُطفئ وجعنا، لكنه يُعيدنا إلى إنسانيتنا.

حين يُصبح الحبّ فلسفة حياة، لا عاطفة طارئة،
يتحوّل الإنسان إلى وطنٍ صغيرٍ يسكنه السلام.
وحين نفهم أنّ الحرية لا تُفهم إلا عبر القلب،
ندرك أن كل إصلاحٍ يبدأ من الداخل لا من القانون.

أحبّ... إذن أنا حيّ.
ولأنّي حيّ، لا أكره، ولا أظلم، ولا أستبدّ.
أحبّ لأنّ في الحبّ خلاصًا من كلّ أشكال الموت ـ
موت الضمير، وموت الشجاعة، وموت الأمل.

سيبقى الحبّ، رغم كلّ ما في العالم من وجعٍ وزيف،
هو آخر ما يُقاوم فينا السقوط،
وأول ما يُذكّرنا أنّ الله حين نفخ فينا من روحه،
كان يمنحنا القدرة على أن نُحبّ...
لكي نكون أحياء بحقّ.

أوراق ليبرالية (١٠)

وصايا ليبرالية على أية حال

عام ١٩٦٨، كان الكاتب الأمريكي كينت كيث ما يزال شابًا يافعًا حين كتب عشر وصايا لم تكن موجهة إلى الناس بقدر ما كانت اعترافًا لنفسه.

أطلق عليها اسم «الوصايا المتناقضة»، لكنها في الحقيقة كانت أصدق ما قيل عن الإخلاص في زمنٍ يعبدالمصلحة، وعن الإيمان بالقيمة في عالمٍ لا يرى إلا الثمن.

كتبها كيث في لحظةٍ من صدقٍ نادر، وكأنه يهمس في أذن كل من يمشي عكس التيار:

افعل الخير حتى لو لم يذكروه،

اصدق حتى لو كذّبوك،

ابنِ حتى لو هدموا ما بنيت،

وآمن بالإنسان ـ على أية حال.

بعد أكثر من ثلاثة عقود، جمعها في كتابه الشهير «على أية حال»،

كتاب لم يكن مجرد صفحات، بل مرآة يرى فيها القارئ صراعه مع نفسه والعالم.

انتشر الكتاب كالنور، تُرجم إلى لغات الأرض،

وصارت وصاياه تُعلّق في المكاتب والبيوت والقلوب،

تذكّر كل من ينسى أن الخير لا يُقاس بنتيجته، بل بنيّته.

✵ هذه الوصايا العشر ـ التي بدت متناقضة ـ كانت في جوهرها وحدةٌ منسجمة،

وصايا تُعلّمنا أن الفضيلة لا تُمارس لأنها مربحة،

ولا تُقاوم لأنها مضمونة،

بل تُفعل لأنّها صحيحة... على أية حال.

✵ فالناس ـ كما قال كيث ـ غير منطقيين ويهتمون بأنفسهم أولًا،

لكن أحببهم على أية حال.

حين تفعل الخير، قد يُساء الظن بك،

لكن افعل الخير على أية حال.

إذا نجحت، سيظهر لك أصدقاء مزيفون وأعداء حقيقيون،

لكن انجح على أية حال.

الخير الذي تصنعه اليوم، قد يُنسى غدًا،

لكن اصنع الخير على أية حال.

✵ كل وصية من هذه الوصايا تشبه شمعة في عتمة العالم،

لا تضيء لأنها واثقة أن أحدًا سيشكرها،

بل لأنها لا تعرف أن تعيش في الظلام.

وهنا يكمن جوهر الليبرالية التي نؤمن بها:

أن تفعل ما تراه حقًا، لا لأن أحدًا ينتظره منك،

بل لأن الحق هو ما يُبقيك إنسانًا.

✡ من يؤمن بالحرية لا ينتظر تصفيق الجماهير،

ومن يزرع الخير لا يطلب امتنان الحصاد،

ومن يكتب كلمة صدق لا ينتظر من يُصدّقها،

لأن الإيمان الحقيقي ـ كما الحرية ـ لا يُمارس مقابل شيء،

بل على أية حال.

✡ لعلّ هذه الوصايا، في زمننا العربي المزدحم بالخيبة والتشويه،

هي تذكيرٌ لنا جميعًا أن الإصلاح لا يكون حين يتغير الناس،

بل حين نرفض أن نتغيّر مثلهم.

أن نتمسك بالصدق وسط الزيف،

وبالرحمة وسط القسوة،

وبالكرامة وسط الانحناء،

مهما سخروا، أو هاجموا، أو نسوا.

✡ في النهاية،

لسنا نفعل ما نفعل لأجلهم فقط،

بل لأننا نؤمن...

بالخير رغم الشر،

وبالحق رغم الظلم،

وبأن ما يُبنى على النية، لا ينهار مهما اشتدّ الريح...

نؤمن، ونفعل،

على أية حال.

أوراق ليبرالية (١١)

العقل العربي بين الأصالة والحرية

كل أمةٍ تصل لحظةَ مواجهةٍ مع ذاتها، حين تكتشف أن المرايا التي تنظر فيها لم تعد تعكس وجهها الحقيقي، وأن ما ظنته هوية لم يكن إلا قناعًا صنعه الخوف من التغيير. تلك اللحظة هي ولادة جديدة للعقل، حين يبدأ في السؤال لا ليهدم، بل ليعيد تعريف معنى البقاء في عالمٍ لا ينتظر أحدًا.

العقل العربي لم يُخلق أسيرًا للقديم، ولا تابعًا للغريب، بل وُلد حرًّا ليوازن بين الأصالة والحرية، بين الجذور التي تشده إلى الأرض، والأجنحة التي تدعوه إلى التحليق. لا ينهض العقل حين يقدّس الجمود، ولا حين يذوب في الآخر، بل حين يصنع نوره الخاص في عتمة الصراع بين التقليد والتقليد المضاد.

ليست مشكلتنا في تراثنا، بل في خوفنا من قراءته بعيونٍ جديدة. وليست أزمتنا في الحداثة، بل في استيرادها كما هي، بلا روحٍ ولا تأمل. العقل الذي يخاف النقد لا يعيش، والعقل الذي يرفض التساؤل لا يفهم نفسه. بين ماضٍ مكلّل باليقين وحاضرٍ غارقٍ في الشك، ضاعت الثقافة العربية بين من يعبدالماضي ومن يهاجر إلى الغرب بلا هوية.

الليبرالية لا تقف ضد الإيمان، بل تضعه في مكانه الطبيعي:

داخل الضمير لا فوق العقل. لا تهاجم التراث، بل تفتح نوافذه للهواء. تؤمن أن الحرية لا تُناقض الإيمان، بل تُنقّيه من خوفه، وأن التفكير لا يُهدد الهوية، بل يُنقذها من التكلّس. الليبرالية ليست مذهبًا، بل شجاعةٌ فكريةٌ تُعيد الإنسان إلى مكانه الأول: في قلب المعنى لا في هوامشه.

- العقل النقدي هو نواة النهضة. لا يثور على التراث، بل يُضيئه، ولا يُهاجم الحداثة، بل يُحاورها. هو عقلٌ يربط بين ما كان وما يمكن أن يكون، بين صوت الماضي واحتياجات المستقبل، بين الحكمة والحرية. هو الجسر الذي يجب أن نعبره إن أردنا النجاة من ثنائية الجمود والضياع.

- الفكر العربي يختنق حين يخلط التديّن بالتسلّط، وحين تصبح القداسة غطاءً للسلطة، ويُحاكم السؤال كأنه كفر، ويُكافأ الصمت كأنه تقوى. لا إصلاح بلا حرية، ولا حرية بلا نقد، ولا نقد بلا شجاعة أن نختلف، ونفكّر، ونتحمّل ثمن الاختيار.

- الليبرالي لا يبحث عن إجماع، بل عن وعي. لا يتبع القطيع، بل يقود نفسه. يؤمن أن الإصلاح يبدأ من الداخل، من قدرة الإنسان على أن يرى، ويحب، ويختار دون إذنٍ من أحد. هو الذي يكتب بضميره، لا بظل السلطة، ويؤمن أن الحقيقة لا تحتاج إلى إذنٍ كي تُقال.

- في زمنٍ يتبدّل فيه كل شيء إلا الخوف، تبقى الليبرالية هي شجاعة البقاء مختلفًا، أن تفكر لا لأنك تملك الجواب، بل لأنك ترفض الصمت. أن تكون نفسك في عالمٍ يريدك نسخة، وأن تحب وطنك دون أن تبرّر له أخطاءه.

- الإصلاح الحقيقي يبدأ حين نرى أن العقل لا يصطدم بالدين ولا بالحرية،

وأن الإيمان بالإنسان هو أول طريق النهضة. كل ما نحتاجه هو أن

نصدق أن التفكير بذاته عبادة، وأن الشك ليس عيبًا، وأن الكلمة الحرة ليست جريمة، بل بذرة حياة.

من «نقد العقل» إلى «الإيمان والحرية»، ومن «الحب والإنسان» إلى «الأصالة والحرية»، تتكامل أوراق هذه السلسلة كدوائر من ضوءٍ واحد. لا تبحث عن يقينٍ جامد، بل عن وعيٍ حيٍّ يتحرّك ويختبر ويُعيد اكتشاف ذاته. فالليبرالية ليست فكرًا ضدّ الدين، بل وعيًا ضدّ الخوف، وإيمانًا بأنّ الإنسان متى اختار أن يكون حرًّا، صار أجمل ما في هذا الكون...

على أية حال.

أوراق برلمانية (١٢)

برلمان ...٢٠٢٦
ذروة الانهيار

منذ أن عرفت مصر فكرة «النيابة عن الأمة»، والبرلمان كان مرآةً للمجتمع، تعكسُ نقاءه حين يصفو، وتعري أمراضه حين يتلوث. لم يكن مجرد قاعةٍ يجلس فيها المشرّعون، بل كان في لحظات كثيرة، ساحةً للضمير العام، ومختبرًا لتوازن السلطة والمجتمع. لكنّ هذه التجربة الطويلة، الممتدة منذ أكثر من قرن ونصف، وصلت اليوم إلى مفترقٍ جديد. . . مفترق لا يشبه أي ما مضى، إذ يقف برلمان ٢٠٢٦ على أطلال تجربةٍ عريقة، لا ليمثل ذروتها، بل ليجسّد انهيارها.

من البدايات إلى الصراع على التمثيل

بدأت ملامح الحياة البرلمانية المصرية مبكرًا في القرن التاسع عشر، حين أنشأ محمد علي "مجلس المشورة" عام ١٨٢٤، في محاولةٍ لصياغة شكلٍ استشاريٍّ للحكم، تكررت محاولاته وتطورت لاحقًا مع مجلس شورى النواب الذي تأسس عام ١٨٦٦ في عهد الخديوي إسماعيل، ليُعدّ أول تجربة نيابية حقيقية في الشرق الأوسط.

ثم جاءت ثورة ١٩١٩ لتفتح الباب الواسع أمام أول حياةٍ دستورية حقيقية في مصر الحديثة، تجسدت في دستور ١٩٢٣، الذي أنشأ مجلس

النواب والشيوخ، وأعطى للبرلمان سلطة التشريع والرقابة والمساءلة. كان ذلك البرلمان الأول في ١٩٢٤ هو الأكثر إشراقًا في الذاكرة الوطنية، إذ حمل صوت الحركة الوطنية التي قادها سعد زغلول وحزب الوفد، وأثبت أن الشعب قادر على أن يُنتج مؤسساتٍ من رحم نضاله، لا من رحم السلطة.

لكنّ هذا الضوء لم يدم طويلًا، إذ حلّ الملك فؤاد البرلمان في العام نفسه بعد أزمة اغتيال السير لي ستاك، ودخلت مصر دوامة من الحلول المتكررة والدساتير المتبدّلة، إلى أن استقرت ـ نسبيًا ـ على دستور ١٩٣٠ الذي قلّص صلاحيات المجلس، فكان برلمان ١٩٣١ نموذجًا للمجالس الضعيفة التي تفتقر للتمثيل الحقيقي.

برلمان اليوم الأول والأخير

في مارس ١٩٢٥ انعقد برلمان لم يعمّر سوى بضع ساعات، بعدما انتُخب برئاسة سعد زغلول، ثم حُلّ في اليوم ذاته بمرسوم ملكي، فدخل التاريخ كأقصر برلمان عمرًا في العالم. لم تكن المشكلة في ضآلة مدته، بل في رمزية ما جرى: السلطة التي لا تحتمل رقابة، والمجتمع الذي ما زال يُختبر في وعيه بحقوقه.

من ثورة يوليو إلى احتكار الصوت الواحد

بعد ثورة ١٩٥٢، أُلغيت الأحزاب وحُلّ البرلمان، ليُستبدل بمجلس الأمة عام ١٩٥٧ في ظلّ نظامٍ جديدٍ أعلن أنه «يمثل الشعب دون وسطاء»، فصادر الفكرة التعددية من جذورها. لم يكن هناك حزب حاكم آنذاك، بل "الاتحاد القومي" ثم "الاتحاد الاشتراكي العربي" في عهد جمال عبدالناصر ـ وهو كيانٌ تنظيمي واحد يضم الجميع قسرًا، لا عن قناعة، بل عن خوفٍ أو تبعيةٍ للسلطة.

ورغم الشعارات الثورية الكبرى، لم يكن البرلمان في تلك المرحلة

إلا صدى لصوتٍ واحدٍ يعلو من القصر الجمهوري. لم يعرف المصريون آنذاك المعارضة المؤسسية، بل عرفوا الإجماع الإجباري، فكانت الحياة النيابية أقرب إلى المشهد المسرحي منها إلى التمثيل السياسي.

من السادات إلى مبارك... برلمانات النظام الواحد

مع بداية حكم أنور السادات، وظهور "الحزب الوطني الديمقراطي" في أواخر السبعينيات، تغيّر الشكل ولم يتغيّر الجوهر. اتُّخذت بعض الإجراءات الشكلية لتعدد الأحزاب، لكنها كانت تعددية محكومة بسقفٍ واحد، وبلعبةٍ واحدة، ونتائجٍ معدّة سلفًا.

في عهد مبارك، تعمّق هذا النمط حتى بلغ ذروته في انتخابات عام ٢٠١٠، حين حصد الحزب الوطني أكثر من ٩٥٪ من مقاعد البرلمان، في انتخابات وُصفت بأنها الأكثر تزويرًا في التاريخ الحديث. كان البرلمان آنذاك أداةً في يد النظام، لا سلطةً تشريعية مستقلة، لكن المفارقة أن معظم نوابه ـ رغم فوزهم بالتزوير ـ كانوا منخرطين في العمل العام أو التنظيمات الحزبية، ولهم خبرة سياسية أو مؤسسية؛ أي إن التزوير كان لمصلحة متنافسين داخل اللعبة، لا لمصلحة الغرباء عنها.

ثورة يناير... والبرلمان الذي لم يكتمل

بعد ثورة ٢٠١١، استعاد المصريون أملهم في برلمانٍ يمثلهم حقًا. جاءت انتخابات ٢٠١٢ في أجواءٍ من الحماس، وشاركت فيها كل القوى السياسية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، فكان البرلمان الأكثر حيوية وتنوعًا منذ نصف قرن. لكنه لم يعش طويلًا؛ إذ حُلّ بقرارٍ قضائي بعد شهور قليلة، وعادت البلاد إلى المربع الأول: السلطة تبتلع السياسة، والمجتمع يتراجع أمام الدولة.

من برلمان الصوت الواحد إلى برلمان الصفقات

في السنوات التالية، دخلت مصر عصر البرلمانات الصامتة، التي

تُدار من خلف الستار، ويُكتب جدول أعمالها خارج قاعاتها. لم تعد الانتخابات منافسة بين برامج أو أحزاب، بل تفاهمات بين مكاتب وأجهزة. وبدل أن تكون القوائم الانتخابية ساحةً لتعدد الرؤى، تحولت إلى قوائم مغلقة تُكتب بالأسماء كما تُكتب كشوف التعيين.

أما البرلمان المنتظر في ٢٠٢٦، فهو أخطر ما عرفته التجربة البرلمانية المصرية، لأنه لا يعاني من ضعف التمثيل أو شبهة التزوير فحسب، بل من غياب الفكرة نفسها. ليس برلمانًا ناقصًا في شرعيته، بل فاقدًا لمعناه.

○ برلمان ٢٠٢٦... حين يُشترى المقعد كما تُشترى الشهادة

لأول مرة في تاريخ الحياة النيابية المصرية ـ منذ مجلس شورى النواب في ١٨٦٦ وحتى اليوم ـ تتحول عضوية البرلمان إلى سلعةٍ تُباع وتُشترى على الملأ. لم يعد المقعد النيابي نتيجة منافسة، ولا حتى نتيجة تزويرٍ لحساب منافسٍ سياسي؛ بل أصبح مكافأةً تُمنح لمن لم يشارك أصلًا، أو تُشترى لمن لا صلة له بالحياة العامة.

في هذا البرلمان، يُمنح المقعد كجائزة نهاية خدمة، أو عربون ولاء، أو تذكارٍ لشخصٍ غائبٍ تُكرّم أسرته لمجرد قربها من دوائر النفوذ. هكذا صار البرلمان يضمّ "أمهات مثاليات" و"أرامل مكلومات" و«رجال أعمال مترفين»، لا باعتبارهم ممثلين عن الشعب، بل رموزًا لعلاقاتٍ ومصالحَ تمتدّ إلى خلف الستار.

حتى البرلمانات المزورة القديمة كانت ـ برغم ظلمها ـ تضم رجالًا ونساءً خاضوا السياسة، وامتلكوا ثقافةً حزبية أو تجربةً عامة. أما اليوم، فنحن أمام مجلسٍ لا علاقة له بفكرة النيابة، ولا بالرقابة، ولا بالتشريع؛ مجلسٍ بلا جذورٍ سياسية، ولا عقول تشريعية، ولا حتى ذاكرة وطنية.

الفرق بين برلمانٍ غير عادل وبرلمانٍ غير موجود

من الإنصاف أن نفرق بين ثلاثة أنواع من البرلمانات في تاريخنا النيابي:

برلمانات غير عادلة التمثيل، لكنها حافظت على قدرٍ من الجدية، كبرلمانات ما بين ١٩٢٣ و١٩٣٦.

وبرلمانات غير نزيهة في الاختيار، كبرلمانات مبارك، التي زُورت لكنها ضمت نوابًا محترفين يعرفون قواعد اللعبة السياسية.

ثم هذا النوع الثالث، الذي لا ينتمي لأيٍّ من سابقيه: برلمانات منعدمة الصلة بالتمثيل، لا تُفرزها صناديق، بل تكتبها دفاتر الصفقات، ولا يُختار فيها الأكفأ، بل الأغنى أو الأقرب.

إنه برلمان بلا شرعية سياسية، وبلا ضمير وطني، وبلا هوية. برلمان يعكس سقوط فكرة الدولة الحديثة نفسها، حين يصبح التشريع وظيفة شكلية في مسرحٍ تديره المصالح لا الإرادة الشعبية.

مصر تدخل ٢٠٢٦ بالبرلمان الأسوأ في تاريخها

لم تعرف مصر ـ عبر تاريخها النيابي الممتد ١٦٠ عامًا ـ برلمانًا كهذا.

حتى برلمانات الاحتلال البريطاني، وحتى برلمانات ما قبل الدستور، كانت تحوي نُخبًا فكرية، وشخصيات وطنية، وممثّلين للطبقات. أما اليوم، فالقوائم تُعدّ بالأوامر، والمقاعد تُشترى بالنفوذ، والصمت هو اللغة الرسمية تحت القبة.

ولذلك فإن برلمان ٢٠٢٦ لا يُوصف بأنه «الأسوأ في التمثيل»، بل «الأسوأ في المعنى»، لأنه لا يُمثل أحدًا، ولا يعبر عن شيء، سوى

سقوط الفكرة النيابية في وحل المال السياسي، وانحدار الوعي العام إلى درجةٍ لم يبلغها في تاريخه كله.

من مجلس شورى النواب في ١٨٦٦، إلى مجلس النواب في ٢٠٢٦، سارت الحياة البرلمانية المصرية رحلةً طويلة من التطلع إلى الحرية إلى الاستسلام للمصالح. وبين الحلم الأول والخيبة الأخيرة، يتجلى السؤال المؤلم:

هل يمكن لأمةٍ أن تنهض إذا صمت برلمانها، وإذا اشترى المالُ صوتها، وإذا فقدت التشريعات ضميرها؟

إن أخطر ما في برلمان ٢٠٢٦ أنه لا يزوّر إرادة الشعب فحسب، بل يُلغيها تمامًا.

هو ليس مرآةً مكسورة للوطن... بل جدارٌ يُخفي خلفه الوطن كله.

صور من حياتي

حكاية صورة:
المخبر الذي قتلتُه...
ونقلتُه إلى المستشفى فاختفى



يسألني البعض، بصدقٍ أو بدهاءٍ أو بعجزٍ عن الفهم:

هل أنتَ متسامحٌ حقًّا؟

أم تتظاهر بالتسامح لأنك فقدتَ القدرة على الغضب؟

يسألني بعض الأحبّة، بحرصٍ وودٍّ وخوفٍ ورهبة:

لو جاء إليك فلان وطلب أن تسامحه، هل يمكن أن تسامحه؟ وتتجاوز عمّا فعله؟





ويسألني آخرون من المخلصين الغيورين:

لماذا لا تردّ على من يهاجمونك بشتائم لا تليق بالشارع، فكيف تليق بالسياسة؟

ولماذا تصافح من خانك، وتبتسم وتذكر بلطفٍ من أساء إليك؟

كلّما سمعت هذه الأسئلة المتكرّرة،

أردّ قائلاً: لا أعرف!

أبتسم في داخلي، وأتذكّر صورةً قديمة، لم يسبق لي روايتها.

أحتفظ بها كجُرحٍ مؤرَّخ، لا كذكرى عابرة.

الصورة التي أعرضها اليوم لأوّل مرة، أروي تفاصيلها التي يشهد عليها أحياء،

لعلّها تُجيب عن تلك الأسئلة التي تحاصرني.

تلك الحكاية التي يعرفها القليلون ـ وربما لن يصدّقها غيرهم ـ بدأت في الخامس من ديسمبر البارد عام ٢٠١٠.

بدأت الحكاية بقرارٍ أمنيٍّ مؤسف، صدر منذ خروجي من الاعتقال عام ٢٠٠٩،

إذ كنتُ أُراقَب كما يُراقَب المجرم، وأعيش كما يعيش المطلوب في وطنه،

محاصرًا بالعيون والتنصّت والمراقبة الشخصية الوثيقة.

القرار كان أن يُراقَب أيمن نور أينما ذهب،

كأنه يحمل قنبلةً في جيبه، لا فكرةً في رأسه.

ومع ذلك، لم أكره من يراقبني، بل كنتُ أبتسم لهم أحيانًا،

وأَسخر منهم في أحيانٍ أخرى.

الإسكندرية، مسقط رأسي، والبلد الأقرب إلى قلبي،

التي كنتُ أقضي فيها عادةً نهاية الأسبوع،

كانت من أكثر المحافظات التزامًا بتطبيق تعليمات المراقبة،

حيث كان مقرّرًا لسيارتين أن تتابعاني لحظةً بلحظة، بأربعة ضبّاط.

وفجأةً، قرّروا إضافة مخبرٍ يمتطي درّاجةً بخارية، ليكون خامسهم.

في ذلك اليوم، قرّرت أن آخذهم في رحلة مشيٍ طويلة،

في شارع سوريا القريب من منزلي على شاطئ ستانلي بالإسكندرية،

وسرتُ في الاتجاه المعاكس لحركة السيارات.

كنتُ يومها أبحث عن «تورتة» عيد ميلادي، لا عن مواجهةٍ مع أحد أو إيذاء أحد.

لم أُرِد أن تُلتقط لي صورةٌ وأنا أحمل «تورتة» في بلدٍ لا يحتمل أن يراك فرِحًا.

لكن المخبر الجديد في المهمة انشغل بي أكثر مما انشغل بالطريق،

فاصطدمت دراجته بسيارةٍ مسرعة، وطار في الهواء.

رأيته يسقط أمامي، جسدًا بلا صوت، كأنّ الريح انتزعت منه الحياة.

في تلك اللحظة، لم أرَ «مخبرًا»... رأيتُ إنسانًا.

حملته مع المارّة إلى المستشفى،

والدماء تكتب فوق يديّ سطرًا جديدًا في كتاب الوجع.

قضيتُ تلك الليلة بين الممرات البيضاء،

أُمسك بالرجاء كما يُمسك الغريق بخشبة.

لم يكن لي خصمٌ سوى الموت،

ولا هدفٌ إلا أن يبقى على قيد الحياة.

في اليوم التالي، عدتُ مع زملائي في الحزب ـ مؤمن رشاد، نجلاء فوزي، إبراهيم، وآخرين -

نحمل باقة زهورٍ وبقايا أمل.

استقبلتنا أمّه في الغرفة، كانت تُنادي فيها على ابنها بصوتٍ مكسورٍ كالزجاج.

أما هو، فقد أُخرج من الغرفة، لا ليُشفى، بل ليُخفى.

جرّوه على نقالةٍ كأنهم يُهرّبون ذنوبَ أحد، لا يريدون أن يرونيه.

بحثتُ عنه في الردهات الطويلة، حتى أخبروني بصمتٍ أنه صار في «المشرحة».

تركتُ الورود في يد أمه... وخرجتُ.

منذ ذلك اليوم، لم أشعر بشماتة.

فقد رأيتُ وجه «الخصم» حين سقط، كوجه إنسان.

رأيتُ دماءه تسيل على الأسفلت،

فلم أعد أرى العدو في ثوب المخبر، بل في غياب العدالة.

تعلّمتُ من حكاية هذه الصورة أن التسامح ليس ضعفًا،

بل وعيًا عميقًا بأننا جميعًا ضحايا الخوف والقهر والظلم،

وأن الكراهية لا تقتل خصومنا، بل تقتلنا نحن أوّلًا.

من يسألني: هل أنتَ متسامح؟

أقول له: لا أعرف...

لكنّي حملتُ من كان يُراقبني إلى المستشفى، لا إلى الجحيم.

وسلّمتُ لوالدته وردًا، لا سبًّا.

ربما هذا هو الفارق بين من يقتل بقرار، ومن يُنقذ بغريزة إنسان.

كلّما أتذكّر هذا المخبر،

الذي لم أعد أحمل اسمه في ذاكرتي، لكن صورته لم تفارقني،

أستعيدها أمام نفسي وأعتذر له، ولأمّه،

لأنني كنتُ سببًا في أن يفقد حياته، وتفقد هي ابنها وسندها.

الزمن مرّ، والبلد تغيّر،

لكنني ما زلت أؤمن أن الحرية لا تُبنى بالانتقام،
ولا تُصان إلا بالرحمة.
فالمخبر الذي مات، لم يكن خصمي،
كان مرآتي... التي أرى فيها كيف يمكن للنظام أن يُسقط أبناءه،
وكيف يمكن للإنسان أن يبقى إنسانًا، حتى وهو مُطاردٌ من وطنه.
ربما لذلك، لم أعد أُجيب على من يهاجمونني،
لأن الردّ الوحيد الذي يليق بالتسافل، هو الصمت النبيل.
ولأن الحكاية، والصورة التي بدأت بـ«مخبرٍ» مات،
علّمتني أن الموت لا يقتل الإنسان،
بل يقتل فينا القدرة على الكراهية.





السفير السعودي في مصر أحمد قطان في لقاءٍ بمنزلي بالزمالك، عام ٢٠١٣



الوفد الشعبي المصري الذي زار أوغندا عام ٢٠١١ للتفاوض حول حلّ أزمة النيل، وتظهر في الصورة: د. السيد البدوي، د. محمد غنيم، عبد الحميد جمال عبد الناصر، علاء عبد المنعم، حسين إبراهيم، جورج إسحق، باسم كامل، وعدد من القيادات الحزبية المصرية.



في حفل تخرّج ابني «نور» من الجامعة الأمريكية بالقاهرة.



حفل تكريمي في البرلمان المصري عام ١٩٩٦،
وتظهر في الصورة: الأستاذ إبراهيم نافع، والدكتور فتحي سرور



أثناء تدشين الحملة المصرية ضد التوريث، أكتوبر ٢٠١٠،
في مقر حزب الغد بوسط القاهرة



أثناء مناقشة أطروحة الدكتوراه في معهد الاستشراق بموسكو،
يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٩٥



أثناء خروجي من لجنة الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٥،
وكنت أوّل من تقدّم بأوراق الترشّح



احتفال جماهيري في مدينة نبروه،
عقب فوزي في الانتخابات البرلمانية، يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٩٥



أثناء إعداد تقرير تلفزيوني من العاصمة الفرنسية باريس، عام ٢٠١٨



زيارة لقبر الشهيد خالد سعيد في نوفمبر ٢٠١٠، (مقابر المنارة ـ الإسكندرية).



في مواجهة التوريث حملة مصر كبيرة عليك ٢٠١٠



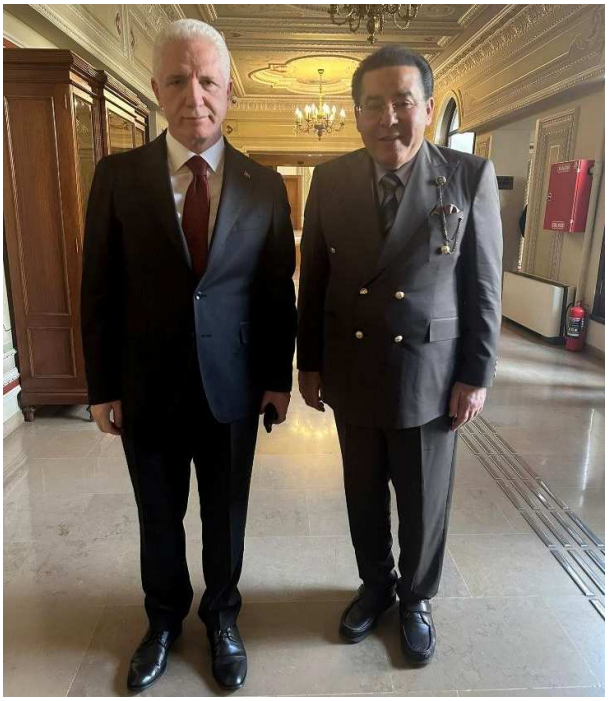
في مواجهة التوريث حملة مصر كبيرة عليك ٢٠١٠



أثناء استجوابي تحت قبة البرلمان عن الفقر، عام ٢٠٠٤



لقاء مع السيد وليد جنبلاط، أحد أذكى السياسيين العرب،
وصاحب الخبرة السياسية الطويلة



لقائي مع والي إسطنبول، السيد داوود جول، عام ٢٠٢٥



المؤتمر الأول لحزب الغد، بقاعة المؤتمرات، ٥ نوفمبر ٢٠٠٤



لقاء مع الدكتور جودت يلماز، نائب الرئيس التركي



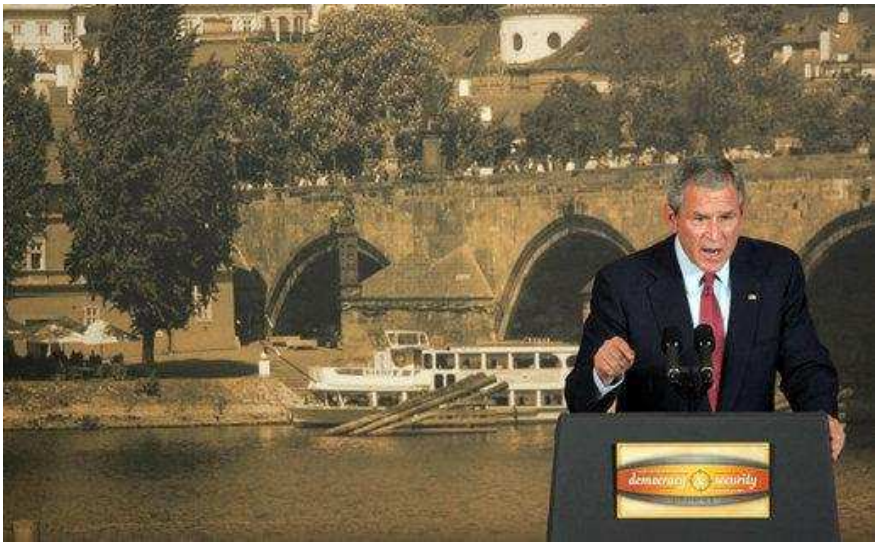
زيارة إلى مدينة الأقصر، عام ٢٠١٢



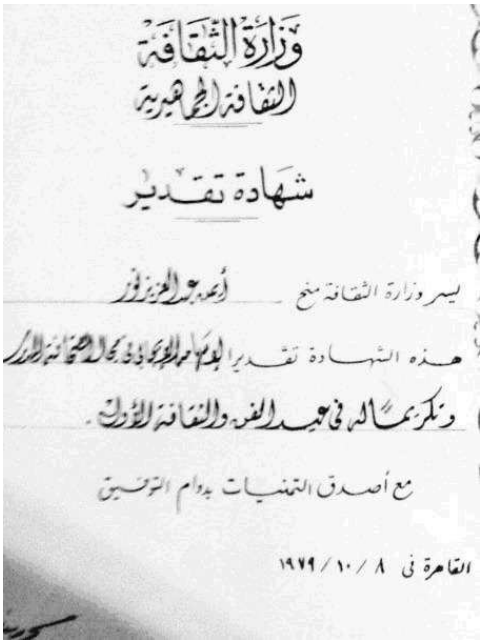
عقب الانتخابات الرئاسية الأولى في تاريخ مصر، عام ٢٠٠٥



لقاء مع السيد عمرو موسى، بمقر حزب غد الثورة، عام ٢٠١٢



الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن أثناء حديثه عني في مؤتمر الديمقراطية بالعاصمة التشيكية براغ، عام ٢٠٠٨



وزارة الثقافة
الثقافة الجماهيرية

شهادة تقدير

يسر وزارة الثقافة منح أحمد عبد العزيز نور

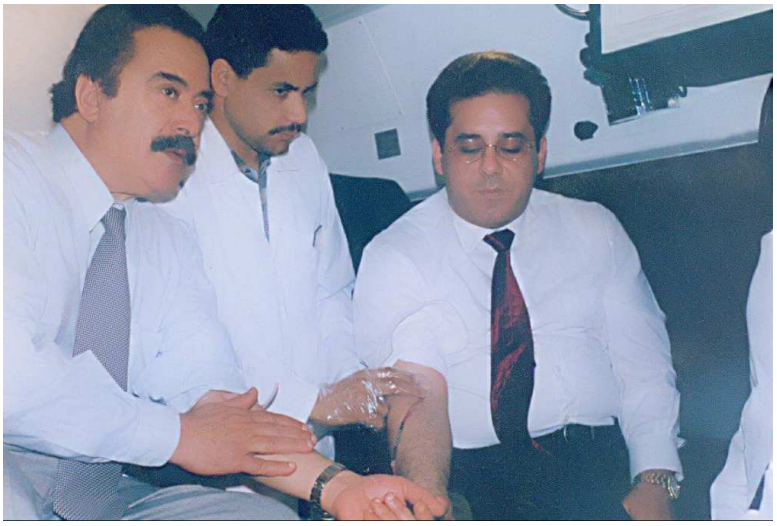
هذه الشهادة تقديرا لجهوده الخلاقة في مجال الصحافة الدرر

وتكريما له في عيد الفن والثقافة الأول

مع أصدق التمنيات بدوام التوفيق

القاهرة في ٨ / ١٠ / ١٩٧٩

شهادة تقدير في العيد الأول للفن والثقافة في مجال الصحافة، بحضور الرئيس محمد أنور السادات، ٨ أكتوبر ١٩٧٩



بعد خلاف كبير مع نقيب الممثلين الأستاذ يوسف شعبان داخل البرلمان، زارني في دائرتي الانتخابية بباب الشعرية، وشاركني التبرّع بالدم لأهالي الدائرة، عام ٢٠٠٣



مع الرئيس التونسي الأسبق د. المنصف المرزوقي، والسيدة توكل كرمان (الحائزة على جائزة نوبل للسلام)، والدكتور أحمد طعمة (رئيس الحكومة السورية المؤقتة)، أثناء زيارتنا لمعسكرات اللاجئين السوريين على الحدود التركية، عام ٢٠١٦



مع صديقي الراحل جمال خاشقجي، حين كتب على حسابه: «أنا وأيمن نور أصدقاء منذ ٥٠٠ سنة»، رحمه الله. الصورة في إسطنبول، بمطعم «نُصرت»



مع نور وشادي أيمن نور، في أحد حقول عباد الشمس بمنطقة تشاطلجا، إسطنبول، عام ٢٠٢٣



بين أمي وأبي في منزلنا، عام ١٩٧٢



أنا وأمي في منزلنا، عام ١٩٧٤



أقبّل رأس فردوسي المفقود، أمي الحبيبة، يوم عقد قراني عام ١٩٨٧



لحظة عصيبة عندما انتزعت ابني «نور» من قبضة الأمن أثناء محاولة القبض عليه من مظاهرة أمام مقر حزب الغد بميدان طلعت حرب، ويظهر في الصورة الأستاذ خالد علي (المحامي)



في إحدى المعارك البرلمانية، وتظهر في الصورة: الأستاذ عبد المنعم التونسي، الراحل طلعت السادات، الراحل الكبير عادل عيد، ومنير فخري عبد النور، وفؤاد بدراوي



في مظاهرة جماهيرية عقب خروجي من الاعتقال الأخير،
امتدت من ميدان باب الخلق إلى ميدان الجيش وسط القاهرة



أثناء حضور مباراة باستاد القاهرة، مارس ٢٠١٠



عام ٢٠٠٧، أثناء نقلي من سجن مزرعة طرة



نظرة إلى المستقبل من قطار التغيير، الذي استأجرناه ضمن حملتي الانتخابية الرئاسية عام ٢٠٠٥ لزيارة محافظات الصعيد



في مؤتمر سياسي لحزب غد الثورة ببورسعيد



المؤتمر الانتخابي الحاشد في ميدان المحطة بالإسكندرية، سبتمبر ٢٠٠٥



لقاء مع الرئيس اللبناني إميل لحود



لقاء مع الرئيس التركي السابق عبد الله غُل



لقاء مع الرئيس الأوغندي، عام ٢٠١١



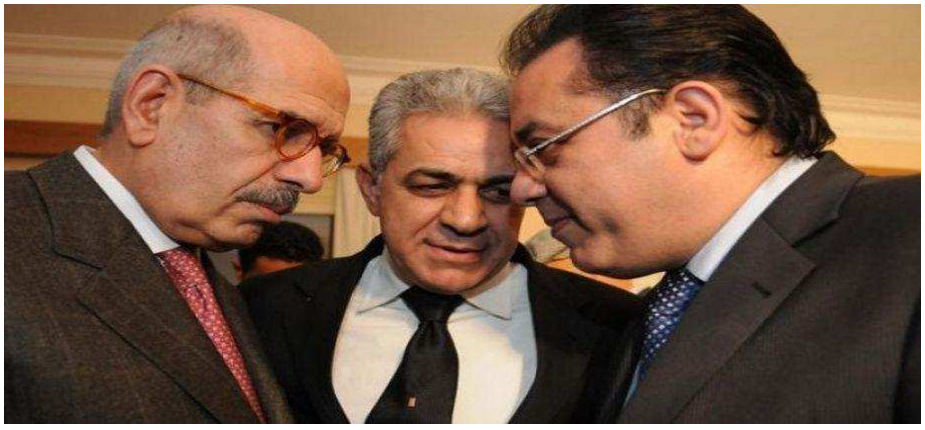
لقاء مع غبطة البطريرك الماروني اللبناني بشارة بطرس الراعي، عام ٢٠١١



لقاء مع رئيس البرلمان الأوروبي في مكتبه ببروكسل، عام ٢٠٠٩



لقاء مع رئيس البرلمان اللبناني بمكتبه السيد نبيه بري



لقاء ودي مع الصديق حمدين صباحي والدكتور محمد البرادعي، عام ٢٠١١



أمام البرلمان التركي، مع الدكتور ياسين أقطاي، مستشار رئيس الجمهورية التركي



زيارة البرلمان الأوروبي، وتظهر في الصورة: إدوارد ماكميلين سكوت، رئيس البرلمان



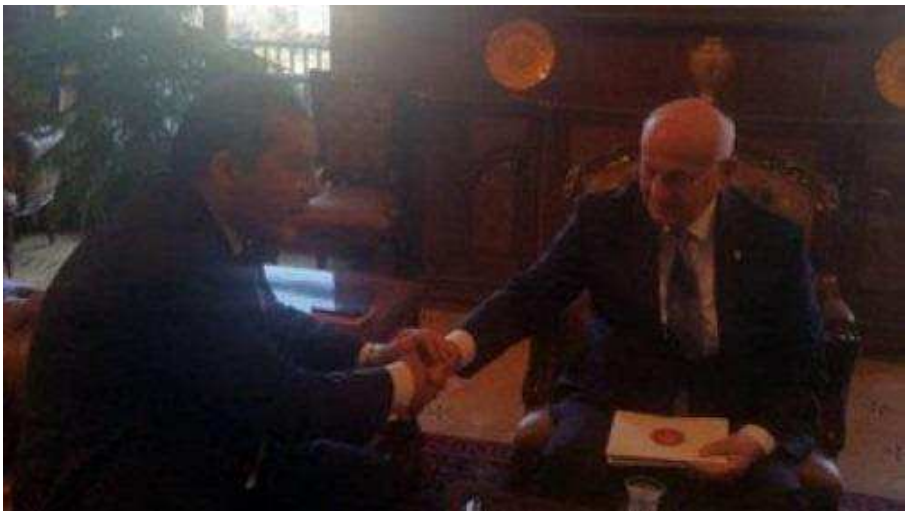
لقاء مع البابا شنودة، عام ٢٠٠٠



لقاء مع الرئيس التونسي الأسبق، والسيدة توكل كرمان، عام ٢٠١٥



في منزلي بالزمالك، خلال زيارة الدكتور حسن الترابي لي



لقاء مع رئيس البرلمان التركي، عام ٢٠١٥



لقاء مع وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس، عام ٢٠٠٤



حوار جانبي مع الدكتور كمال الجنزوري، عام ٢٠٠٤



لقاء مع رئيس الوزراء اللبناني فؤاد السنيورة، عام ٢٠١١



في قصر قرطاج مع الرئيس التونسي المنصف المرزوقي، عام ٢٠١٤



صورة جمعتني بالراحل ياسين سراج الدين،
ووزير الأوقاف الأستاذ المحجوب، عام ١٩٩٥



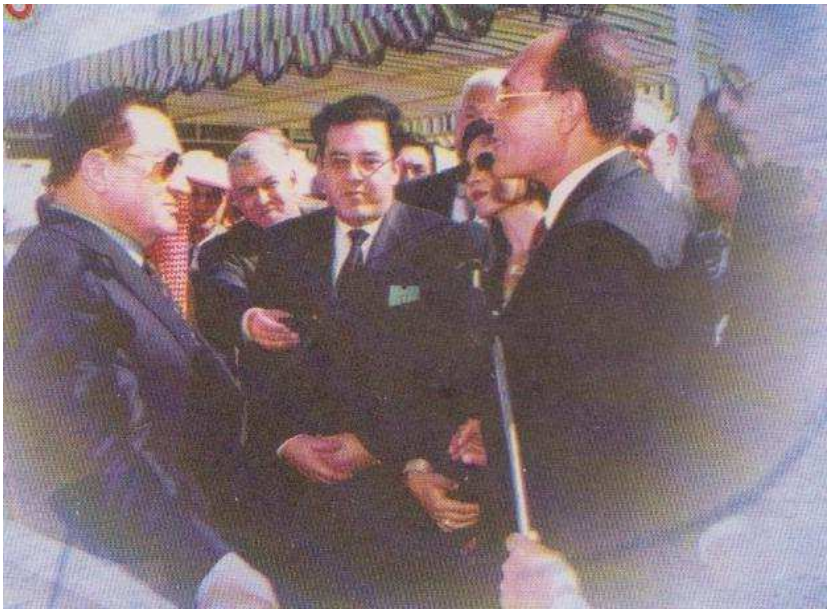
لقاء مع الكاتب الكبير محمود السعدني



لقاء مع وزير الخارجية الأمريكي جون كيري،
وإلى يساري وزير الخارجية المصري محمد العرابي



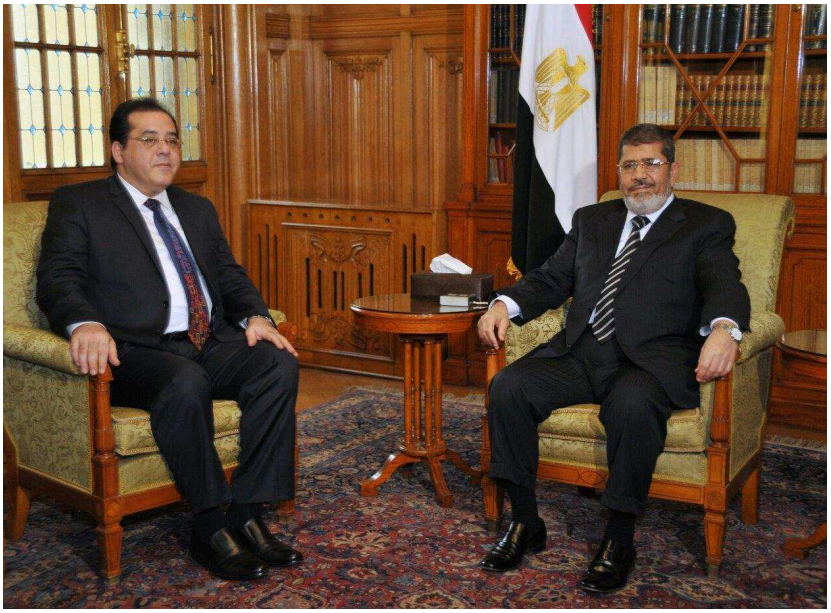
مع الملك محمد منير قبل الحفل الذي أقمناه في ميدان باب الشعرية، عام ٢٠٠٠



لقاء مع الرئيس محمد حسني مبارك في توشكى، عام ٢٠٠٠



لقاء مع مفتي الديار التركية، عام ٢٠١٧



لقائي مع الدكتور محمد مرسي في مقر الاتحادية، حين ناقشنا تشكيل حكومة ائتلافية في الأسابيع الأخيرة قبل ٣٠ يونيو ٢٠١٣



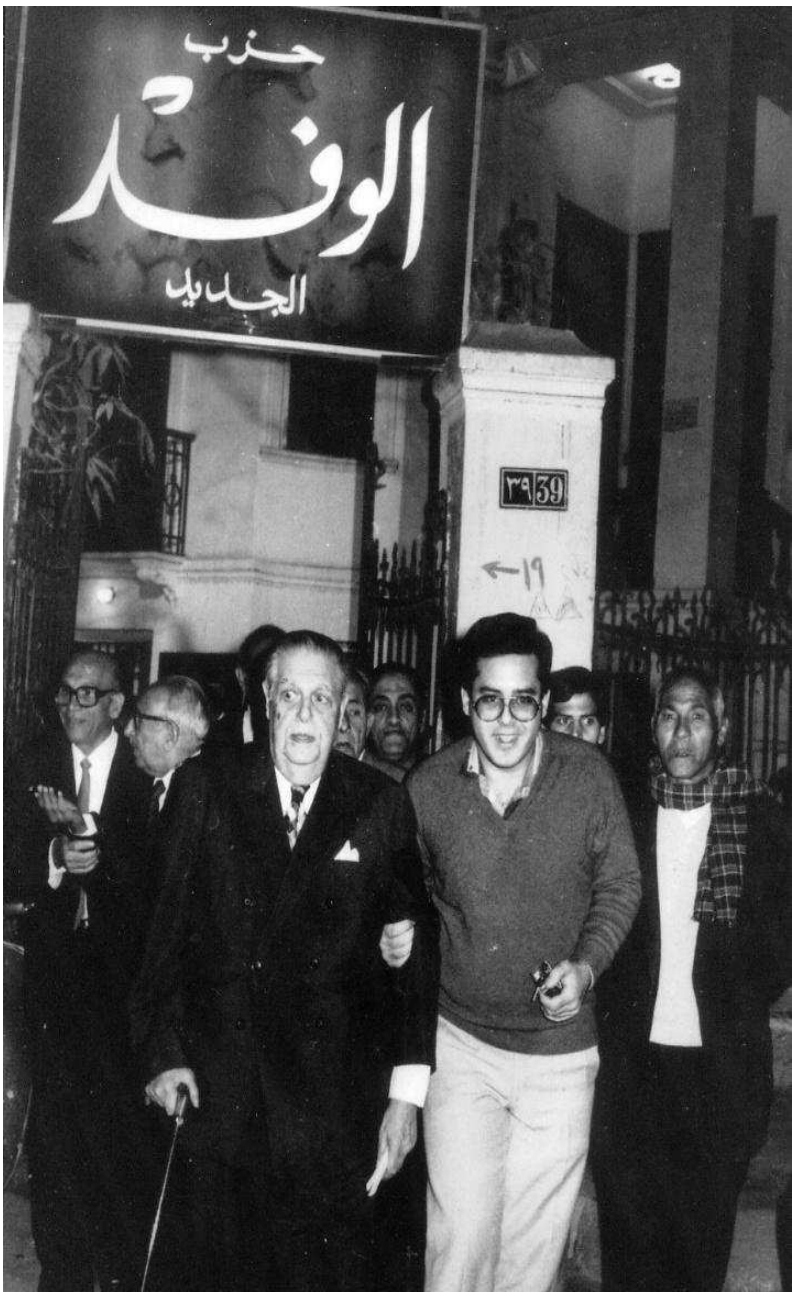
لقاء مع مفتي لبنان، عام ٢٠١٥



من أكثر الصور تأثيرًا في نفسي ـ عسكري أمن مركزي كان يحاصر مظاهرة تضامن بالشموع معي، لكنه تفاعل مع الوقفة، وحمل شمعة وصورة



لقاء مع الرئيس اللبناني الأسبق إميل لحود



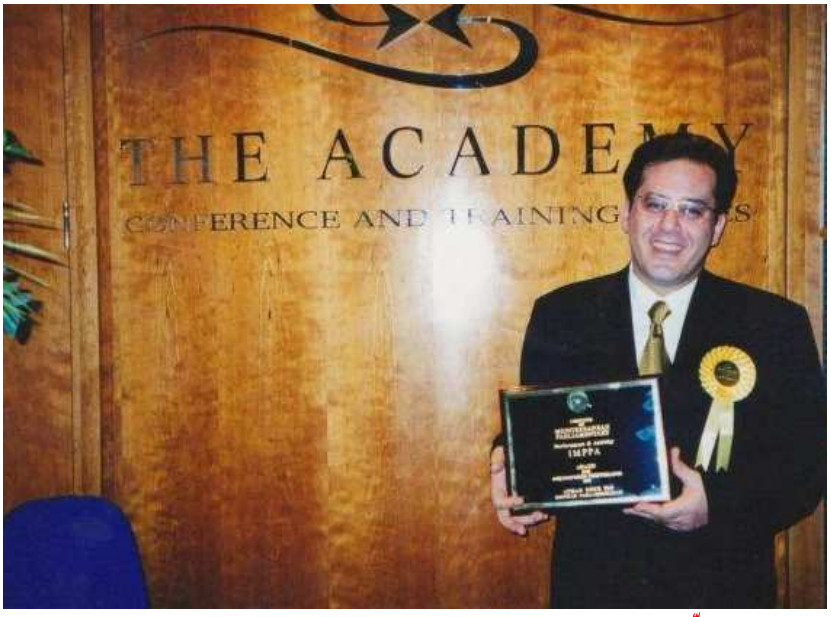
مع فؤاد باشا سراج الدين، أمام مقر حزب الوفد



صورة من صالون منزلي بالزمالك



مع الفنان علي الحجار في حفل غنائي بمركز نور الثقافي بباب الشعرية



صورة أثناء تسلّمي جائزة أفضل برلماني في دول البحر المتوسط، عام ٢٠٠٠



صورة دعائية ضمن التحضيرات للانتخابات الرئاسية، عام ٢٠١٢



صورة شخصية محببة إلى قلبي



صورة من مؤتمر انتخابي عام ٢٠٠٥



مع الفنان عادل إمام في إفطار الوحدة الوطنية



أثناء استجوابي في البرلمان عن رغيف العيش



صورة دعائية أثناء الحملة الانتخابية، عام ٢٠٠٥



صورة من المؤتمر الختامي للحملة الانتخابية بميدان التحرير، عام ٢٠٠٥، وتظهر فيها: إيهاب الخولي، والدكتور صلاح حسب الله



صورة من ندوة



صورة مع والدي في منزلنا، عام ١٩٧٤



صورة مع والدي يوم عقد قراني، عام ١٩٨٧



صورة من داخل متحف الحضارة الفرعونية بإسطنبول، سبتمبر ٢٠٢٥

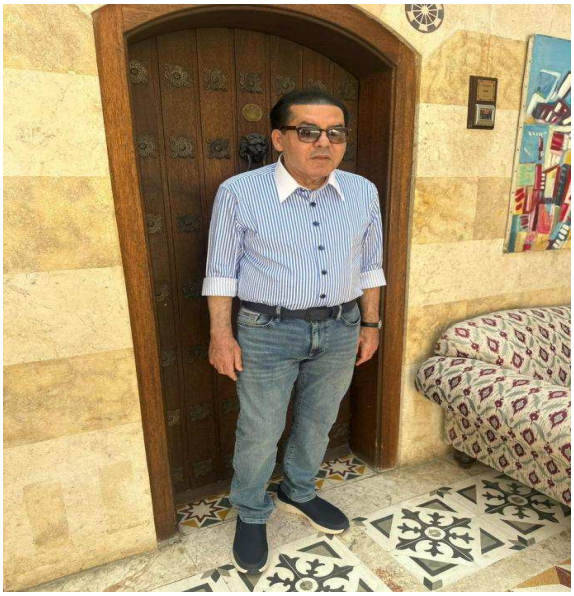


صورة من داخل استوديو قناة الشرق، سبتمبر ٢٠٢٥



صورة من معرض الكاميرات بمقر جمعية قناة الشرق للإعلام والثقافة،
إسطنبول ـ سبتمبر ٢٠٢٥





صور من العاصمة اللبنانية بيروت، سبتمبر ٢٠٢٥





صور من العاصمة اللبنانية بيروت، سبتمبر ٢٠٢٥



صور من العاصمة اللبنانية بيروت، سبتمبر ٢٠٢٥



لقاء مع وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس، عام ٢٠٠٤



صورة من لقاء جماهيري حاشد أثناء الحملة الانتخابية الرئاسية عام ٢٠٠٥



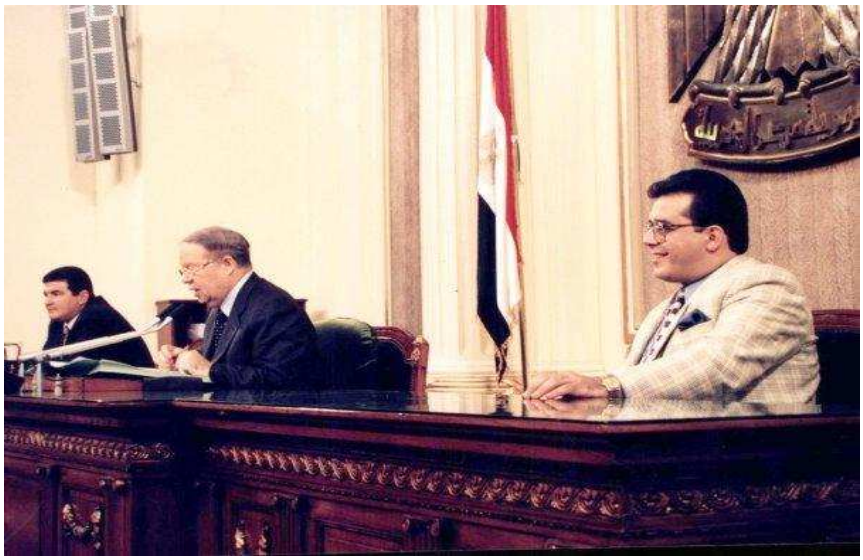
لقاء مع الكاتب الكبير أنيس منصور



لقاء مع الرئيس اللبناني ميشال عون، عام ٢٠١١



لقاء مع رئيس الوزراء الماليزي أنور إبراهيم



أثناء افتتاح دورة برلمانية بمجلس الشعب إلى جانب الدكتور فتحي سرور



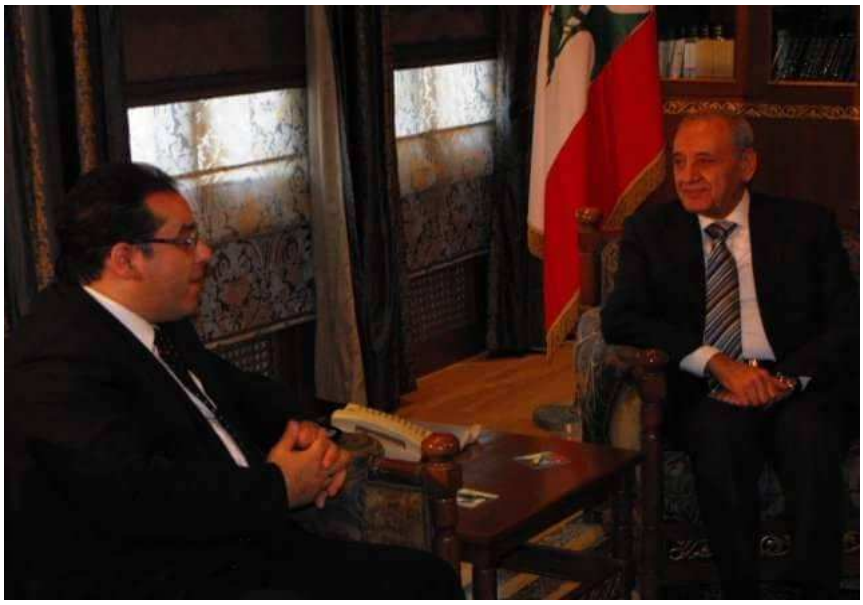
لقاء مع السيد روجيه أده رئيس حزب السلام اللبناني



لقاء مع وزير الداخلية اللبناني زياد بارود عام ٢٠١١



لقاء بقيادات حزب الوطنيين الأحرار اللبناني ٢٠١١



لقاء مع الرئيس اللبناني نبيه بري



لقاء مع بعض قيادات تيار المستقبل اللبناني



لقاء مع الرئيس اللبناني أمين الجميل



لقاء مع الرئيس دورى شمعون ود. كميل شمعون حزب الوطنيين الأحرار اللبناني



لقاء مع السيد أحمد الحريري أمين عام تيار المستقبل اللبناني بمنزلي بالزمالك



صورة شخصية



لقاء بمقر حزب غد الثورة الليبرالي المصري وقيادات البوندستاج «البرلمان الألماني»



لقاء بمقر حزب غد الثورة الليبرالي المصري وقيادات البوندستاج «البرلمان الألماني»



ندوه مسجد الحصري والى جواري السيدة ياسمين الخيام



ندوه مسجد الحصري وإلى جواري السيدة ياسمين الخيام



ندوة بنادي الرواد بمدينة العاشر من رمضان



مناظره بين مرشحي الرئاسة ٢٠١٢



مع الصديق حمدين صباحي في مناظرة بين مرشحي الرئاسة ٢٠١٢



وقفة تضامنية أثناء اعتقالي أمام مكتب النائب العام



محاضره في كلية الإعلام جامعة القاهرة



محاضره بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة



وفد الدبلوماسية الشعبية ولقاء مع الرئيس الأوغندي



وفد الدبلوماسية الشعبية ولقاء مع الرئيس الأوغندي



صورة شخصية



محاضرة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة



محاضرة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة



لقاء مع كبار أعيان دشنا بصعيد مصر



لقاء مع كبار أعيان دشنا بصعيد مصر



مع الأستاذ حسين الوكيل أحد رموز دشنا وزميلي
في اتحاد طلاب جامعة المنصورة



لقاء مع الشيخ محمد أبو العزايم أحد رموز الطرق الصوفية



لقاء بمطرانية شبرا



لقاء بمطرانية شبرا



لقاء بمطرانية شبرا



أثناء التصويت في انتخابات الهيئة العليا لحزب غد الثورة



مؤتمر كشف حساب لمبارك عن خمس سنوات ٧ سبتمبر ٢٠١٠



مؤتمر كشف حساب لمبارك عن خمس سنوات ٧ سبتمبر ٢٠١٠



لقاء مع الدكتور سعد الدين إبراهيم



لقاءات جماهيرية



التصويت في انتخابات الهيئة العليا لحزب الغد



ندوة بمقر حزب الغد



مؤتمر صحفي للجمعية الوطنية للتغيير ويظهر في الصورة الاستاذ حمدي قنديل والدكتور حسن نافعة والدكتور محمد البلتاجي والمستشار الخضيري



مؤتمر صحفي للجمعية الوطنية للتغيير



مؤتمر صحفي للجمعية الوطنية للتغيير



مؤتمر صحفي للجمعية الوطنية للتغيير ويظهر في الصورة الدكتور محمد البلتاجي والدكتور حمدي حسن



ندوة بالحزب الدستوري



إحدى الجولات الميدانية في شوارع القاهرة



مع الزملاء أبو العلا ماضي وحمدين صباحي في مركز نور الثقافي بباب الشعرية



لقاء حزبي في المحلة الكبرى



لقاء حزبي في المحلة الكبرى ويظهر في الصورة الشهيد اللواء طيار أكمل تمام سكرتير مساعد الحزب والنائب عبد الفتاح الشافعي رئيس مجلس الحكماء بالحزب والمهندس وائل نوارة سكرتير عام للحزب والسفير ناجي الغطريفي نائب الرئيس



لقاءات جماهيرية حاشدة لشباب مصر



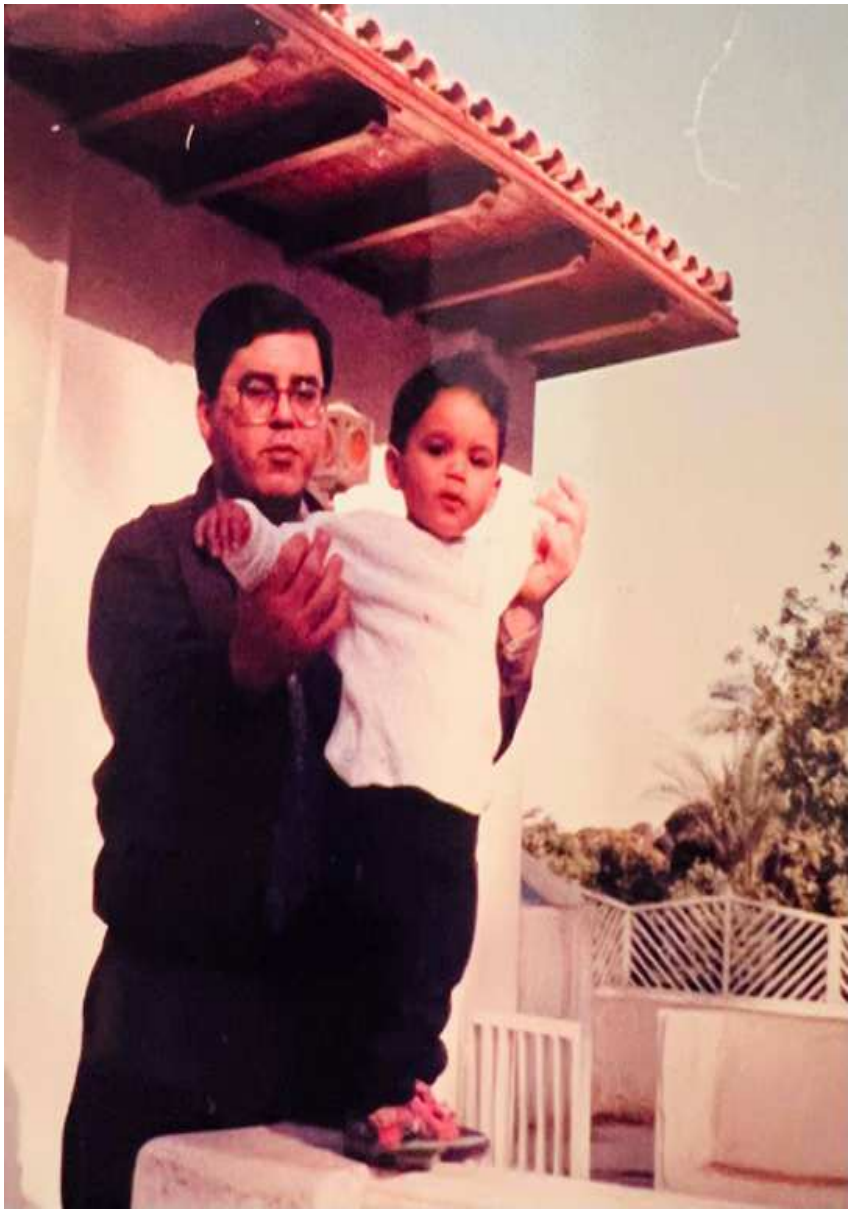
جولات ميدانية في شوارع القاهرة ويظهر في الصورة الاستاذ إيهاب الحولي نائب رئيس حزب غد الثورة الليبرالي المصري



نجوم ونجمات المسرح القومي يطلبون صعودي لخشبة المسرح



مع الفنان الكبير محمد نوح في إحدى الحفلات بمركز نور الثقافي بباب الشعرية



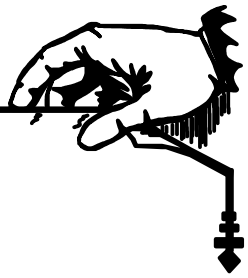
مع أبني نور أيمن نور



مع زوجتي دعاء حسن



مع والدة أبنائي جميلة إسماعيل وأبنائي نور وشادي أيمن نور ٢٠٠٥



خاتمة الكتاب

كتبتُ إليكِ يا بلدي

من حافة الغربة،

في ختام العمر،

كمن يطوي رسائله في زجاجةٍ

ويُلقيها في بحرٍ لا يعرف إلى أين تذهب،

ولا متى تعود.

كتبتُ إليكِ لا وداعًا،

ولا رجوعًا،

بل بين وداعٍ مؤجَّلٍ

وعودةٍ لا أعرف ملامحها،

كتبتُ إليكِ لأن الكتابة

آخر ما تبقّى من الوطن.

كتبتُ إليكِ لأن الحنين لا يُشفى،

ولأن المسافة ليست سوى امتحانٍ للحب،

فإما أن يُرهقنا،

وإما أن يثبت أنه أقوى من البعد والوقت.

كتبتُ إليكِ لا تصالحًا،

ولا اعتذارًا،

بل مقاومةً

تحتمي بالورق من قسوة العالم،

وتحتمي منكِ أحيانًا. . . بكِ أنتِ.

بعض هذه الأوراق سقط عمدًا،

وبعضها تأخّر نشره لحكمةٍ لا تُقال،

لأن في بعض الصمت صدقًا،

وفي بعض التأجيل رحمة.

ليست كل الحروف خائنة إذا تأخرت،

ولا كل السكوت ضعفًا إن كان في موضع الحياء.

كتبتُ إليكِ يا مصر،

كما يكتب العاشقُ رسالةً

إلى من هجَرَته،

يضعها تحت الوسادة،

ويعلم أنها لن تصل،

لكنه يكتبها لأن الكتابة وحدها

تمنحه عذرًا للبقاء

على قيد الحلم، والحب، والحياة.

كتبتُ إليكِ لأنني أدركتُ أن المنفى
ليس حدودًا ولا مطارات،
بل حالةُ يقظةٍ طويلةٍ في قلبٍ لا ينام.
المنفى أن أراكِ في المنام،
وأخاف أن أستيقظ في غيابكِ.
يا مصر...
ما بيني وبينكِ
وجعٌ جميل،
كلما نزفَ أكثر
ازداد صفاءً،
وكلما حاولوا طمسه
عاد يتلألأ
كضوءٍ صغيرٍ
في آخر النفق.
نعم، أحببتكِ
رغم القسوة،
كما يحبّ الطفلُ
أمَّه التي تضربه
ثم تبكي عليه
في الخفاء.
أكتبُ إليكِ هذه الخاتمة

كمن يكتب بيده المرتجفة،
ليخفي وراء الحروف
قلبًا يرتجف حبًّا وخوفًا عليكِ.
ما أصعب أن أكتب عن وطنٍ
هو الجرح والدواء
في آنٍ واحد،
هو السجن والملجأ،
هو المذنب والضحية
في لحظةٍ واحدة.
ربما تكون هذه الخاتمة وداعًا،
وربما بدايةً لصفحةٍ جديدةٍ
من أوراقٍ لم تُكتب بعد،
أوراقٍ تنتظر لحظة الصدق،
حين يسكت الضجيج،
ويصبح للكلمة
مكانٌ آمنٌ في الهواء.
بعض ما لم يُكتب
كان وجعًا،
وبعض ما كُتب
كان نجاةً من وجعٍ أكبر.
وما بين المكتوم والمكتوب

تسكن حكاياتي كلها،
تسكن تلك المسافة
بيني وبينكِ،
حيث لا نلتقي ولا نفترق،
لكننا نُحبّ رغم المسافات.
يا مصر...
أنتِ الوجع الذي لا يُشفى،
والحبُّ الذي لا يُطفأ،
والوطن الذي لا يُختصر
في نشيدٍ ولا عَلَم،
بل في نبضةِ قلبٍ
لا تنسى طريقه إليكِ.
كتبتُ إليكِ
لأن الغربة لم تُطفئ انتمائي،
بل روّضته ليصير أكثر صدقًا،
وأهدأ لهجةً،
وأعمق جرحًا.
فما أقسى
أن نعيش بعيدين،
وما أجمل أن نبقى قريبين
رغم كل هذا البعد.

ما زلتِ يا مصر أنتِ الحلمَ
الذي يستحق الحياة،
حتى لو تعثّر الحالمون.
ما زلتِ الأمَّ التي لا تغيب،
وإن غاب عنها أبناؤها
قسرًا أو وجعًا.
ما زلتِ القصيدةَ
التي لا تكتمل،
والأغنيةَ التي لا تنتهي،
والسؤالَ الذي لا يحتاج جوابًا.
هذه السطور يا مصر
لكِ، وعنكِ، ومن أجلكِ، وحدكِ...
يا وطني الجميل
الذي لم أفارقه إلا جسدًا،
ويا حبّي الأول،
والأبقى،
والأصدق.
كتبتُ عني،
لكنني كنت أكتب إليكِ،
لا شكرًا ولا عتابًا،
بل عهدًا...

أن أظل أكتب إليكِ كما أنتِ:

وجعًا يُنبت الأمل،

وأملًا لا يموت

مهما اشتدّ الوجع.

إذا متُّ في المنفى

وكانت هذه السطور

آخر ما أكتب،

فلتكن سلامًا إليكِ،

وقبلةً على جبينكِ البعيد،

وعهدًا أنني، ما حييتُ،

سأظل أراكِ

كما أراكِ الآن...

امرأةً من نارٍ ونور،

تضحك كي لا نبكي،

وتبكي كي لا ننهزم.

د. أيمن نور

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
سلسلة مقالات أوراق من مذكراتي	٩
أوراق من مذكراتي (١): اعتذار واجب لسعد زغلول	١١
أوراق من مذكراتي (٢): خواطر سجن ما قبل الغربة	١٤
أوراق من مذكراتي (٣): بيتنا القديم!!	١٩
أوراق من مذكراتي (٤): ٤٠٠٠ يوم غربة	٢٤
أوراق من مذكراتي (٥): عمري الآن ألف عام	٣١
أوراق من مذكراتي (٦): لعنة ٥ و٧ سبتمبر (تكملة)	٣٥
أوراق من مذكراتي (٧): عرفت في حياتي عمالقة وأقزاما	٣٧
أوراق من مذكراتي (٨): وصيتي وقبر أمي	٤٠
أوراق من مذكراتي (٩): حوار الذات	٤٤
أوراق من مذكراتي (١٠): ٦ سنوات من الغياب حكاية صداقة عمرها ٥٠٠ عام	٤٩
أوراق من مذكراتي (١١): خريف الطبيعة وخريف الـ٦٠	٥٥
أوراق من مذكراتي (١٢): أنا شافعي المذهب والهوى بقلم ودموع تلميذك أيمن نور	٥٨
أوراق من مذكراتي (١٣): لم يكن بإمكاني القبول	٦٣
أوراق من مذكراتي (١٤): دعاء	٦٥

الموضوع	الصفحة

أوراق من مذكراتي (١٥): (من وحي الـ٦٠) ٧٥
أوراق من مذكراتي (١٦): أنا.. ونفسي.. مدينة ٧٨
أوراق من مذكراتي (١٧): أشخاص في الغربة «أيمن عبدالغني» ٨٢
أوراق من مذكراتي (١٨): إفطار العُزّاب ٨٥
أوراق من مذكراتي (١٩): مسلسل «النص» بين المكوث وحيدا والعبور . ٨٩
أوراق من مذكراتي (٢٠): حكاية أيمن نوح ٩٣
أوراق من مذكراتي (٢١): ١٦ مارس في ذكرى كمال جنبلاط «لا تظلموا الدروز ولا تخونوهم» ٩٦
أوراق من مذكراتي (٢٢): دموع لا تجف... وذكريات لا تُنسى «أمي التي ولدت يوم مولدي» «وأبي الذي ألقى بي في اليم» ٩٩
أوراق من مذكراتي (٢٣): ... ٢١ مارس ... صلّوا للأمهات الراحلات ١٠٤
أوراق من مذكراتي (٢٤): أسرار يوم الرحيل ١٠٩
أوراق من مذكراتي (٢٥): الصراع على رئاسة مصر (١) «منصور حسن.. المدني الذي أرعب الجنرال!» ١١٤
أوراق من مذكراتي (٢٦): الصراع على رئاسة مصر (٢) «لقاء أبو غزالة في سيارة ببرقوق» ١١٧
أوراق من مذكراتي (٢٧): الصراع على رئاسة مصر (٣) «عمرو موسى..حكاية لم تكتمل» ١٢١
أوراق من مذكراتي (٢٨): الصراع على رئاسة مصر (٤) «لغز عمر سليمان» ١٢٦
أوراق من مذكراتي (٢٩): الصراع على رئاسة مصر (٥) «طنطاوي ظل مبارك الباهت» ١٣٠
أوراق من مذكراتي (٣٠): الصراع على الرئاسة (٦) «الجنرال سامي عنان ممنوع الاقتراب والتصوير» ١٣٦
أوراق من مذكراتي (٣١): الصراع على رئاسة مصر (٧) «الجنزوري: صراع الفرعون والكاهن» ١٤١

الموضوع	الصفحة

أوراق من مذكراتي (٣٢): ٦ إبريل الأمل من رحم اليأس ١٤٧
أوراق من مذكراتي (٣٣): الصراع داخل قصر الاتحادية (٨) الغرفة السوداء واللحظة «صفر» ١٥٠
أوراق من مذكراتي (٣٤): الصراع على الكرسي المحرم (٩) أحمد شفيق: عاد ولم يعد حكاية وفاة الفريق الرقيق شفيق ١٥٦
أوراق من مذكراتي (٣٥): زيزو الذي مات في حضني.. والقاضية المسيحية وخروف المحكمة! ١٦٢
أوراق من مذكراتي (٣٦): لماذا أكتب الآن مذكراتي؟ «سأقول كل شيء عن كل شيء ١٦٥
أوراق من مذكراتي (٣٧): ممتاز نصار، اسم أهمله التاريخ ١٦٨
أوراق من مذكراتي (٣٨): أسوأ ما في الغربة ١٧١
أوراق من مذكراتي (٣٩): «يوم أن أعلنوا وفاتي... والعزاء بعد العصر!؟ أعيدوا الرفاه... ..... ١٧٤
أوراق من مذكراتي (٤٠): ١٩ إبريل.. عندما كتب الشعب دستوره ١٨٠
أوراق من مذكراتي (٤١): يوسف شاهين.. بادلني مصروفي... بحزب . ١٨٤
أوراق من مذكراتي (٤٢): آية كريمة جعلتني ليبراليًا يؤمن بحق الاختلاف وقبول الآخر ١٨٧
أوراق من مذكراتي (٤٣): يوم استقالتي من رئاسة إتحاد القوى الوطنية ليلة ٢٢ يناير ٢٠٢٤م ١٩٢
أوراق من مذكراتي (٤٤): حكاية رحلتي إلى غزة ورسالتي للمرشح أوباما ١٩٦
أوراق من مذكراتي (٤٥): يوم أن دخل مبارك زنزانتي الحكم والسجن.. فصولٌ تتكرّر ٢٠١
أوراق من مذكراتي (٤٦): أيمن نُحر في الزنزانة ولم ينتحر ٢٠٦
أوراق من مذكراتي (٤٧): أول حب وأول مواجهة وأول تحدٍ وأول اعتقال ٢١١
أوراق من مذكراتي (٤٨): الحب هو: ... دعاء ٢١٥
أوراق من مذكراتي (٤٩): القاضي الذي فعل ما لم يفعله أبي ٢١٩

الموضوع	الصفحة

أوراق من مذكراتي (٥٠): طفولة.. لم اعيشها ٢٢٣
أوراق من مذكراتي (٥١): لماذا أحب محمد صبحي ولا أحب عادل إمام؟ حكاية الانتخابات الرئاسية الثانية التي خضتها ولم أخضها! ... ٢٢٨
أوراق من مذكراتي (٥٢): «بيثم» الذي تنبأ لي بالعيش مظلومًا والموت مظلومًا ٢٣٤
أوراق من مذكراتي (٥٣): أربعة حروف ومصادفة غيّرت حياتي ٢٣٧
أوراق من مذكراتي (٥٤): تصفير ديوني المؤجلة أحمد منصور مجدي خليل ٢٤٠
أوراق من مذكراتي (٥٥): الكلب.. وإبراهيم عيسى.. وحريّتي ٢٥٢
أوراق من مذكراتي (٥٦): حين يعترف الجلاد في بكين.. ويصمت في مصر وفلسطين ٢٥٨
أوراق من مذكراتي (٥٧): حين يُصاب الحاكم بداء الأبدية... ويتحوّل الكرسي إلى إدمان ٢٦٣
أوراق من مذكراتي (٥٨): القرين والآخر... ..... ٢٦٧
أوراق من مذكراتي (٥٩): عمري الآن قرابة ألف عام... ولا زلت أُولد عندما يطفئوني ٢٧١
أوراق من مذكراتي (٦٠): رسالة حبٍ لـ بلال الحبيب وعوض... والطنطاوي... وقرطام... ونبيل شرف الدين ٢٧٦
أوراق من مذكراتي (٦١): رسالة *للكاب والعمامة* إطفاء الحرائق بالحرية ٢٨٠
أوراق من مذكراتي (٦٢): أسطورة هيكل ٢٨٤
أوراق من مذكراتي (٦٣): ١٠٠ شخصية تاريخية ومعاصرة في المركز الثقافي المصري بإسطنبول لماذا نستحضر الهوية في زمن تغييب الانتماء والقوة الناعمة؟ ٢٨٧
أوراق من مذكراتي (٦٤): الصمت خيانة.... ..... ٢٩١
أوراق من مذكراتي (٦٥): في ذكري محمد نوح... حين يصبح الجلباب وطنًا ٢٩٥

الموضوع | الصفحة

أوراق من مذكراتي (٦٦): الباشا رجلٌ علّمني أن النبل حياةٌ تُعاش قبل أن تُروى ٢٩٨
أوراق من مذكراتي (٦٧): القهوة... والديمقراطية والشارع المصري .. ٣٠٧
أوراق من مذكراتي (٦٨): أحمد بهاء الدين في ٢٠٢٥ دينٌ في عنقي إلى يوم الدين ٣١١
أوراق من مذكراتي (٦٩): سهام الشائعات والأكاذيب الإصرار ـ واللاعنف ـ طريق التغيير ٣١٥
أوراق من مذكراتي (٧٠): ومسابقة الشهر؟ الردح ومحاكم التفتيش ٣٢٢
أوراق من مذكراتي (٧١): حين يفقد الأدب تسقط الأخلاق فتنهار الحياة ٣٢٩
أوراق من مذكراتي (٧٢): زواجي من أم كلثوم ٣٣٢
أوراق من مذكراتي (٧٣): ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: من زنزانةٍ ضيِّقةٍ إلى أفقٍ لا يضيق ٣٣٨
أوراق من مذكراتي (٧٤): والجزيرة.. ورسالة إلى أديب والجلاد وحسين ٣٤٢
سلسلة مقالات شخصيات في حياتي ٣٤٧
مقدمة ٣٤٩
شخصيات في حياتي (١): عماد الدائمي الصديق العذب، رفيق الدرب . ٣٥٢
شخصيات في حياتي (٢): المنصف المرزوقي... حين تحقق الحلم المستحيل ٣٥٤
شخصيات في حياتي (٣): توكل كرمان... زهرةُ اليمن... وصوتُ الحرية ٣٥٨
شخصيات في حياتي (٤): «أنا» ٣٦٣
شخصيات في حياتي (٥): الشافعي بشير المعلم الذي صاغ الضمير بالعلم والكرامة ٣٦٧
شخصيات في حياتي (٦): خالد جمال عبدالناصر ظلّ الزعيم... ورفيق الدموع والورود ٣٧٠
شخصيات في حياتي (٧): محمد عبده. المعلم الأول وبذرة الحلم ٣٧٢
شخصيات في حياتي (٨): مصطفى أمين المعلم الأول في الإنسانية والصحافة .. ٣٧٥

الموضوع	الصفحة

شخصيات في حياتي (٩): المصطفيان شردي وأمين من الوفد لقناة الشرق ٣٧٨
شخصيات في حياتي (١٠): ديفيد هيرست من الذي كان يحلق لمبارك؟ ٣٨٣
شخصيات في حياتي (١١): الليبرالي الخام هشام قاسم والليبرالي المغشوش يمامة ٣٨٦
شخصيات في حياتي (١٢): حسام بدراوي بلاغة السكوت وشجاعة المواجهة ٣٩٠
شخصيات في حياتي (١٣): جمال خاشقجي صداق عمرها خمسمائة عام ٣٩٤
شخصيات في حياتي (١٤): عبدالخالق فاروق.. تأشير عكس خط السير ٣٩٧
شخصيات في حياتي (١٥): عمرو موسى ٨٨ عامًا من الحكاية ٤٠٠
شخصيات في حياتي (١٦): رشدي عبدالباري الملك الكامل.. ..... ٤٠٤
شخصيات في حياتي (١٧): جميلة... رفيقة النضال ٤٠٨
شخصيات في حياتي (١٨): دُعاء.. وطني الحاضر حين غاب الوطن ... ٤١١
شخصيات في حياتي (١٩): الإعلامي السفسطائي ٤١٤
شخصيات في حياتي (٢٠): عبدالمنعم التونسي رجلٌ عاش ثابتًا في زمنٍ يتقلّب ٤١٨
شخصيات في حياتي (٢١): عبدالفتاح الشافعي عمدة البرلمان وشيخ العدل ٤٢٢
شخصيات في حياتي (٢٢): ناجي الغطريفي الدبلوماسي المقاتل... السفير الذي لم يبدّل موقفه ٤٢٦
شخصيات في حياتي (٢٣): وائل نوارة السياسي الرقمي في زمن ورقي . ٤٣١
شخصيات في حياتي (٢٤): فتحي سرور الرجل الذي وقّع على منحتي ومحنتي ولم أستطع يوما أن أكرهه ٤٣٦
شخصيات في حياتي (٢٥): أحمد الخواجة رئيس جمهورية المحامين وداهيه السياسية المصرية والعربية ٤٤٢
شخصيات في حياتي (٢٦): أجنحة قافلة الشرق ٤٥١

الموضوع | الصفحة

سلسلة مقالات أنا وسبتمبر ٤٥٩
ورقة من مذكّراتي (١): أنا وسبتمبر ٤٤ عامًا... اعتقال ٤٦١
ورقة من مذكّراتي (٢): ٢٠ عامًا على أول انتخابات رئاسية... تفصيل دستور على مقاس الوريث ٤٦٥
ورقة من مذكّراتي (٣): ٢٠ عامًا على أول انتخابات رئاسية مبارك فاز وهو لم يترشح للرئاسة ٤٧٠
ورقة من مذكّراتي (٤): ٢٠ عامًا على أول انتخابات رئاسية قطار الأمل... واغتيال أبي.. وسقوط النظام قبل المنصات ٤٧٥
ورقة من مذكّراتي (٥): ٢٠ عامًا على أول انتخابات رئاسية لم أهزم مبارك... ولم يهزمني رئيس لجنة الانتخابات أقسم بالطلاق أنه لن يعطيني ٥٠٪ في الإسكندرية ٤٨١
ورقة من مذكّراتي (٦): ٢٠ عامًا على أول انتخابات رئاسية حين صار الوصيف سجينًا، والشاهد قتيلًا، والحقيقة أسيرة ٤٨٥
ورقة من مذكراتي (٧): ٢٠ عامًا على أول انتخابات رئاسية ثلاثية السجن، الثورة، والمنفى ٤٩٠
سلسلة مقالات أوراق من سجني ٤٩٥
أوراق من سجني (١): ميلاد الكلمة في العتمة ٤٩٧
أوراق من سجني (٢): الكتابة بين القضبان ٥٠٠
أوراق من سجني (٣): الحرية في عيون السجناء ٥٠٣
أوراق من سجني (٤): رسائل تصل دون أن ترسل ٥٠٦
أوراق من سجني (٥): أسماء غرفتها وراء الجدران ٥١٠
أوراق من سجني (٦): ما زلتُ سجينًا الاسم الذي أكشفه للمرة الأولى... أشرف فرج ٥١٥
سلسلة مقالات أوراق ليبرالية وبرلمانية ٥٢٣
أوراق ليبرالية (١): ...نقد العقل أم اغتياله؟ لماذا في مواجهة أخرس . ٥٢٤
ورقة ليبرالية (٢): أنا والدستور والعائلة والحاضنة الفكرية ٥٢٨
أوراق ليبرالية (٣): الليبرالية كما أفهمها : بين الإيمان والحرّية والحضارة المصرية ٥٣٣

الموضوع	الصفحة
أوراق ليبرالية (٤): ثلج ساخن.. ليبراليتهم المغشوشة	٥٣٧
أوراق ليبرالية (٥): الليبرالية والسلطة بين الحلم والخذلان	٥٤٣
أوراق ليبرالية (٦): هبوط الإنسان المصري على سلم الوعي وصعود التخلف والإصلاح المؤجّل	٥٤٦
أوراق ليبرالية (٧): أنا والحب (١)	٥٤٨
أوراق ليبرالية (٨): أنا والحب (٢) نعم، أُحبّ... لأنّي لا أكره	٥٥١
أوراق ليبرالية (٩): أنا والحب (٣) أحبّ... إذن أنا حيّ	٥٥٥
أوراق ليبرالية (١٠): وصايا ليبرالية على أية حال	٥٥٨
أوراق ليبرالية (١١): العقل العربي بين الأصالة والحرية	٥٦٢
أوراق برلمانية (١٢): برلمان ٢٠٢٦... ذروة الانهيار	٥٦٥
صور من حياتي	٥٧١
خاتمة الكتاب	٦٥٥
الفهرس	٦٦٣



د. أيمن نور
كاتبٌ، ونائبٌ، وسياسيٌّ، ومفكرٌ ليبراليٌّ مصريّ.

حلّ ثانيًا بين عشرة مرشحين في أول انتخابات رئاسية حرّة في تاريخ مصر.
حمل القلم كما حمل الحلم، فصار أحد أبرز أصوات الحرية في العالم العربي.

خاض معارك الكلمة، والسجن، والمنفى، ولم يخسر نفسه . إذ ظلّ مؤمنًا بالحكمه والاعتدال و بأن الكلمة أعدل من السيف، وأن الوطن فكرة لا تُنفى.

يكتب «أوراقه كمن يكتب عمرًا على ضوء شمعة، بين حبٍّ ووجع، بين مصر التي أحبّها والمنفى الذي لم يبعد صوته. ترجمت مؤلفاته ، وبرامجه إلى لغات عدّة، وبقي صوته شاهدًا على زمنٍ يُعيد السؤال الأبدي: كيف نكون أحرارًا؟ »

ولد بالاسكندرية في 5 ديسمبر 1964
أقام في لبنان2013/2014
يقيم في إسطنبول وباريس منذ2015

و يمتلك قناة الشرق، أول فضائية عربية معارضة، وأسّس المركز الثقافي المصري في تركيا وجمعية الشرق للإعلام والثقافة.

تُباع كتبه في معظم الدول العربية ، ويُقرأ صوته في قلوب عشّاق الحرية أينما كانوا.

الناشر

دار العودة
بيروت - لبنان
00961 71 548 418